المقالات النفيسة في



إلى الأماكن الشريفة

اختيار وإعداد
د. محمد بن موسى الشريف

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

دار الأندلس الخضراء

المملكة العربية السعودية - جدة
الإدارة: ص.ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس ٦٨١٠٥٧٨

المكتبات • حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز السلامة التجاري
هاتف - فاكس ٦٨٢٥٢٠٩

• حي الثغر - شارع باخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨

• فرع الرياض: حي السويدي الغربي - بجوار أسواق اليمامة
هاتف: ٤٣٣٣٧٣١ - فاكس ٤٣٣٣٦٥٧

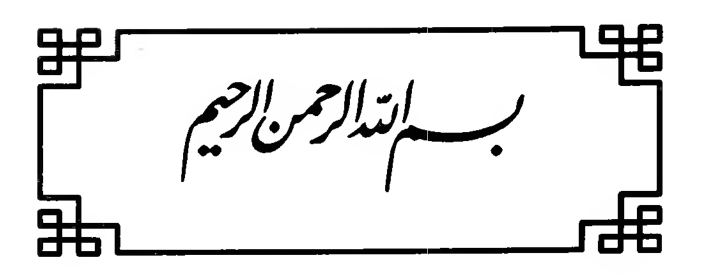
http: //www. al-andalus-kh.com
E-MAIL : info @ al-andalus-kh. com

المقالات النفيسة في

الحج

إلى الأماكن الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله الذي فرض الحج إلى البيت الحرام، وشوّق القلوب إلى تلك المنازل والديار الفِخام، وأجاب دعوة شيخ الأنبياء إبراهيم، فقدم الناس إلى الساحات المقدسة راغبين، والبقاع المطهرة ممتثلين طائعين، يهتف بهم داعي الشوق والحنين: هلمُّوا إلى مطاف النبيِّين، ومتنزل الملائكة المقربين، ومهوى أفئدة الصالحين.

والصلاة والسلام على مَن طهر تلك المنازل المقدسة من شوائب الوثنية، وعاد بالشرائع إلى ما كانت عليه أيام الرسالة الإبراهيمية، وأكمل بسنَّته الشريفة هذه الشعيرة الحنيفية، فاقتفى حجتَه كلُّ راغب في الحسنات، وممني النفس بالوصول إلى تلك المزارات العظام الرائعات، فيسكب هنالك العبرات، ويرجو إقالة العثرات، ومغفرة السيئات، ورفعة الدرجات، والتجاوز عما سلف وكان من التقصير في جنب الملك الرحيم الرحمان.

وبعد الصلاة على الحبيب الشفيع أسألك اللهمَّ أن ترضى عن أصحابه الغُرِّ الميامين، الذين أضأتَ بهم وبأتباعهم الظلمات، وفتحتَ بهم القلوب والأبصار، وجعلتهم رحمة للعالمين، ومناراً للمسترشدين، أما بعد:

فإن الحج فريضة عظيمة، وشعيرة فخيمة، وزمانٌ للغفران، ومكان لدحر الشيطان، يمحو الله لعباده صحائف السيئات، فإذا بها صارت حسنات، كرماً من الله وجوداً وإحساناً، وتلطفاً منه جلَّ جلاله وبراً وغفراناً، فما أحرانا أن نتعرض لهذا الكرم العظيم، ونرد البيت الحرام حيناً بعد حين، عسى أن نكتب في السعداء الفائزين.

هذا وقد اجتمعت كلمة علماء المسلمين وصالحيهم على أن للحج حكماً وأسراراً وفوائد لكن قصرت أيدي أكثرهم عن تسطيرها، وبيان دقيقها وجليلها، إلا فئة أطلق الله تعالى ألسنتها فترجمت بها عن أجمل المعاني والحكم والأسرار، وسطرتها مقالات في كتب وصحف ومجلات، وبعض هذه المقالات كان لها قصب السبق في بيان الحكم والمعاني في أسلوب جزل رصين، وأفكار جديدة لم تخطر ببال كثير من الأولين والآخرين، وكم ترك الأول للآخر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولما كان كثير من تلك المقالات مدفوناً في بطون تلك الكتب والمجلات، أردت أن ألتفت إليها بالاختيار، وأخرجها مجموعة مرتبة في كتاب يكون عوناً للأئمة والخطباء، والمحاضرين والمدرسين، وللمتحدثين عن حكم الحج ومعانيه في وسائل الإعلام المختلفة، الذين قد تتلاقح أفكارهم مع ما جاء في هذه المقالات من أفكار ومعانٍ جديدات، فيكون لحديثهم الأثر الإيماني المطلوب في السامعين والسامعات.

هذا، وإني قد كررت مراراً القول بوجوب الالتفات إلى التراث، وإخراج ما فيه من درر وكنوز قد تخفى مظانّها على أكثر أبناء العصر بل أكثر طلبة العلم، فالهمم قد قصرت عن التنقيب في المطولات، والحماسة قد فترت عن البحث في تراث القدماء والمعاصرين على السواء، الذين كتبوا كتابات رائعة في هذا الباب وغيره من الأبواب جدير بنا أن نبرزها ونعتني بها.

هذا وقد كان منهجي في الجمع على الوجه التالي:

١ - استخرجت المقالات من كتب ومجلات قديمة وجديثة.

٢ - تخيرت مما أخرجت بعض المقالات التي سُطِّر فيها معانٍ جديدة، أو معانٍ قيلت قبل ذلك لكنها وردت في قالب من الألفاظ فاخر ساحر مؤثر، ووجه جديد مشوق.

٣ - صرفت النظر عن الأسماء، إذ تعلقت بجودة المقال لا بشهرة كاتبه.

٤ ـ حذفت المكرر من المقالات، فحكم الحج وأسراره ومعانيه تراث متداول أكثره منذ القدم.

٥ ـ هذبت من المقالات ما كان محتاجاً إلى تهذيب لطول فيه أو تكرار أو لغير ذلك من أسباب التهذيب، ووضعت علامة: (. . .) على ما حذفت منها.

٦ ـ حذفت الأحاديث والآثار الضعيفة إلا أني أبقيت عدداً منها مع بيان حالها.

٧ ـ خرَّجت الآيات الشريفة، وترجمت لمن وقفت على ترجمته ممن لحق بسربه من أصحاب المقالات، وشرحت الغريب الذي قد لا يُتبين معناه.

٨ ـ قسمت المقالات المختارة بحسب المواضيع التي عالجتها، فقسم للحكم، وآخر للآثار المترتبة على الحج، وثالث لآداب الحج، وهكذا. . حتى تكتمل الفائدة.

هذا، وأعتذر لكل من لم يرَ مقالة جليلة في هذا الكتاب قد قرأها قبل ذلك ورأى أنها مهمة، وذلك أني لم أدَّعِ الحصر، وليس ذاك من قدرتي وطوقي، وحسبي ما أوردت، وقد فاتني ما لم يقدر لي الوقوع عليه، والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل، ويحقق به ما وضع لأجله من الفوائد، وأن يعود عليَّ بأحسن العوائد، في هذه الدار والدار الآخرة، إنه جواد كريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة وأحسن التسليم على سيد المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

محمد بن موسى الشريف

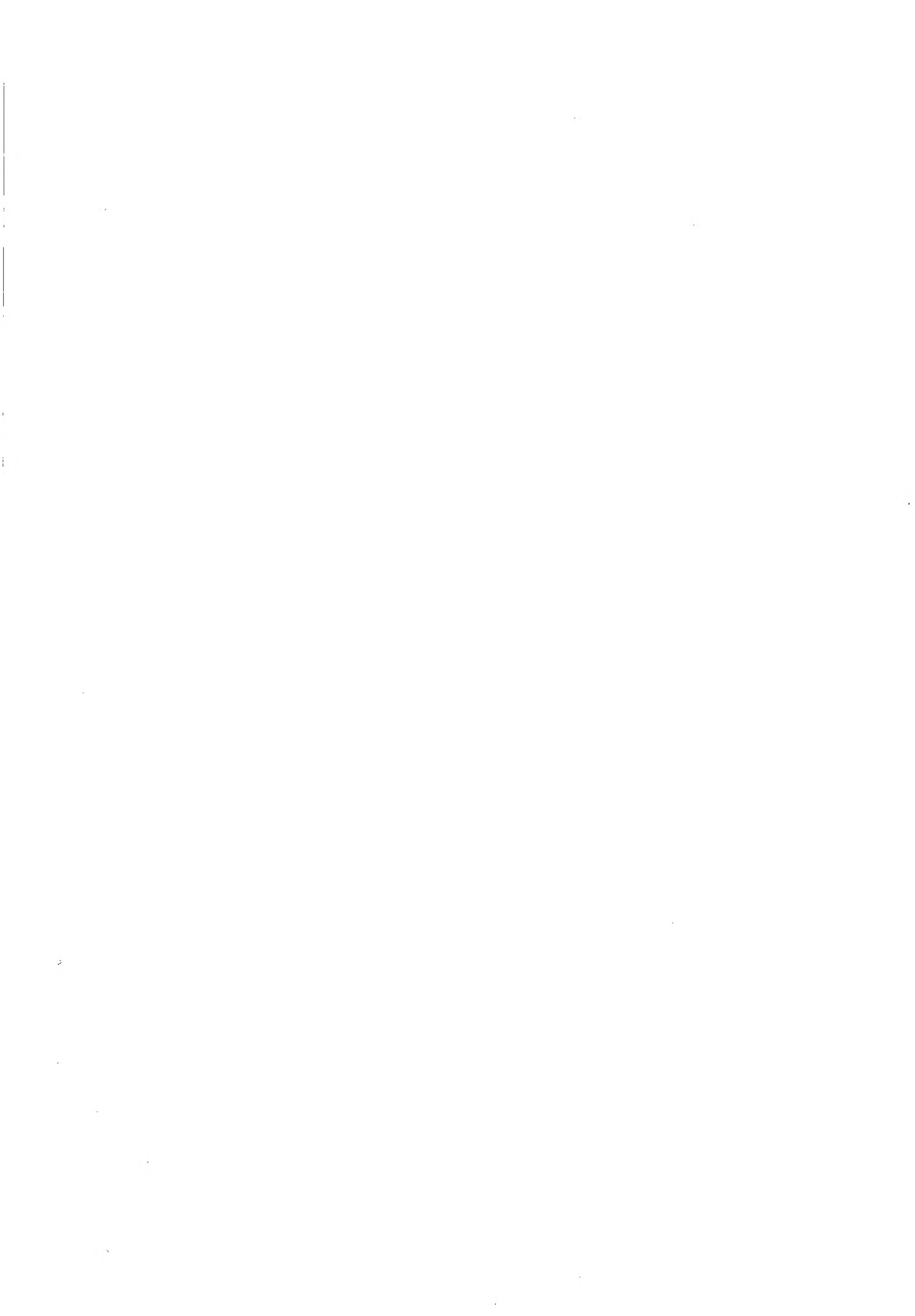
ص. ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

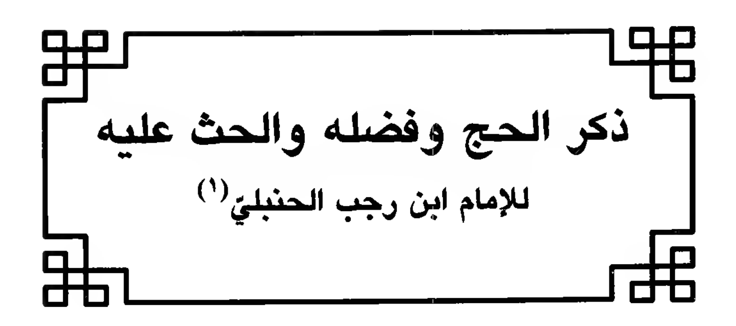
MOHAMMAD_MOUSA@EMAIL.COM





١ ـ فضل الحج ومنزلته





ذكر الحج وفضله والحث عليه

للإمام ابن رجب الحنبليّ[١]

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور هذه الأعمال الثلاثة ترجع في الحقيقة إلى عملين: أحدهما الإيمان بالله ورسوله، وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - كما فسَّر النبي ﷺ الإيمان بذلك في سؤال جبريل له وفي غيره من الأحاديث - وقد ذكر الله، تعالى، الإيمان بهذه الأصول في مواضع كثيرة من كتابه كأول البقرة ووسطها وآخرها، والعمل الثاني: الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد جمع الله بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ الآية[٢]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا

---

(١) عبدالرحمٰن بن أحمد بن رجب البغداديّ ثم الدمشقيّ الحنبليّ، الشهير بابن رجب. الشيخ الإمام العلامة، الزاهد القدوة البركة، الحافظ العمدة الثقة. قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير سنة ٧٤٤، وسمع الحديث بدمشق وبمكة وبمصر. وكانت مجالس تذكيره ووعظه نافعة مؤثرة، واجتمعت الفرق على حبه. له مصنفات مفيدة. كان منعزلاً عن الناس. توفي - رحمه الله تعالى - سنة ٧٩٥. انظر «شذرات الذهب»: ٦/٣٣٩ - ٣٤٠.

(٢) سورة الصف: الآيتان ١٠ - ١١.

﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾[1].

وإنما كان الحج والعمرة جهاداً لأنه يجهد المال والنفس والبدن كما قال أبو الشعثاء: نظرت في أعمال البرِّ فإذا الصلاة تجهد البدن دون المال، والصيام كذلك، والحج يجهدهما فرأيته أفضل...

وقد اختلف العلماء في تفضيل الحج تطوعاً أو الصدقة، فمنهم من رجح الحج كما قاله طاوس وأبو الشعثاء وقاله الحسن أيضاً، ومنهم من رجح الصدقة وهو قول النَّخعيّ، ومنهم من قال: إن كان ثَمَّ رَحِمٌ محتاجة أو زمن مجاعة فالصدقة أفضل وإلا فالحج وهو نص أحمد، وروي عن الحسن معناه: وإن صلة الرحم والتنفيس عن المكروب أفضل من التطوع بالحج...

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» فمغفرة الذنوب بالحج ودخول الجنة به مرتب على كون الحج مبروراً، وإنما يكون مبروراً باجتماع أمرين فيه: أحدهما الإتيان فيه بأعمال البر، والبر يطلق بمعنيين: أحدهما بمعنى الإحسان إلى الناس، كما يقال: البر والصلة، وضده العقوق، وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن البرِّ فقال: حسن الخلق، وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: إن البر شيء هين: وجه طليق وكلام لين، وهذا يحتاج إليه في الحج كثيراً، أعني معاملة الناس بالإحسان بالقول والفعل، قال بعضهم: إنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وسئل سعيد بن جبير: أي الحاج أفضل؟ قال: من أطعم الطعام وكفَّ لسانه. قال الثوريّ: سمعت أنه من بر الحج.

وقال أبو جعفر الباقر: ما يعبأ بمن يؤم هذا البيت إذا لم يأت بثلاثة: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يكفُّ به غضبه، وحسن الصحابة لمن

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٥.

يصحبه من المسلمين، فهذه الثلاثة يحتاج إليها في الأسفار خصوصاً في سفر الحج، فمن كملها فقد كمل حجه وبر . . .

وفي الجملة فخير الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس، كما وصف الله المتقين بذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[1] والحاج يحتاج إلى مخالطة الناس، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.

قال ربيعة: المروءة في السفر بذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله عز وجلَّ.

وجاء رجلان إلى ابن عون يودِّعانه ويسألانه أن يوصيهما، فقال لهما: عليكما بكظم الغيظ وبذل الزاد، فرأى أحدهما في المنام أن ابن عون أهدى إليهما حلتين.

والإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة، لا سيما إن احتاج العابد إلى خدمة إخوانه.

وكان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتناماً لأجر ذلك، منهم عامر بن عبد قيس وعمرو بن عتبة بن فرقد مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان، وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره، فيشترط عليهم أن يخدمهم، فكان إذا رأى رجلاً يريد أن يغسل ثوبه قال له: هذا من شرطي، فيغسله، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه قال: هذا من شرطي فيغسله، فلما مات نظروا في يده فإذا فيها مكتوب: من أهل الجنة، فنظروا إليها فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم.

وترافق بهيم العجليّ ـ وكان من العابدين البكائين ـ ورجل تاجر موسر في الحج، فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٣٤.

صدره ثم قطرت على الأرض، وقال: ذكرت بهذه الرحلة الرحلة إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب، فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغص عليه سفره معه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء الرجل الذي رافق بينهما إليه ليسلم عليهما فبدأ بالتاجر فسلَّم عليه وسأله عن حاله مع بهيم، فقال له: والله ما ظننت أن في هذا الخلق مثله، كان والله يتفضل عليَّ في النفقة وهو معسر وأنا موسر، ويتفضل عليَّ في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب، ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر، فسأله عما كان يكرهه من كثرة بكائه فقال: والله ألفت ذلك البكاء وأُشرب حبه قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذَّى بنا الرفقة، ، ثم ألفوا ذلك فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا، ويقول بعضهم لبعض: ما الذي جعلهما أولى بالبكاء منا والمصير واحد فجعلوا والله يبكون ونبكي، ثم خرج من عنده فدخل على بهيم فسلَّم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب، كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة، متحمل لهفوات الرفيق، فجزاك الله عني خيراً.

وكان ابن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم، وكان إذا أراد الحج من بلده مَرْو جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ويطعمهم أطيب الطعام ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف ثم يرجع بهم إلى بلده فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً ثم جمعهم عليه ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم، فردَّ إلى كل واحد نفقته.

المعنى الثاني مما يراد بالبر فعل الطاعات كلها وضده الإثم، وقد فسَّر الله تعالى البر بذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الآية[1] فتضمنت الآية أن أنواع البر ستة أنواع من استكملها فقد استكمل البر أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٧.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وثالثها: إقام الصلاة، ورابعها: إيتاء الزكاء، وخامسها: الوفاء بالعهد، وسادسها: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس، وكلها يحتاج الحاج إليها، فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبروراً بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن أركان الإسلام بعضها مرتبطة ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتى بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهود في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله إيتاءه، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر، فهذه خصال البر، ومن أهمها للحاج إقام الصلاة، فمن حج من غير إقام الصلاة لا سيما إن كان حجه تطوعاً كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله وهو ألوف كثيرة، وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها ويوتر عليها، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً، وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله يومىء إيماء، ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه حتى يشغل عنه بسماع صوت الحادي فلا يُتفطن له، وكان المغيرة بن الحكيم الصنعانيّ يحجُّ من اليمن ماشياً، وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده ثم يلحق بالركب متى لحق، فربما لم يلحقهم إلا في آخر النهار: سلام الله على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك الأشباح، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

فنحن ما نأمر إلا بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت إحداهما بالأرض، فإنه لا يرخص لأحد أن يصلي صلاة الليل في النهار ولا صلاة النهار في الليل، ولا أن يصلي على ظهر راحلته المكتوبة إلا من خاف الانقطاع عن رفقته أو نحو ذلك مما يخاف على نفسه، فأما المريض ومن كان في ماء وطين، ففي صلاته على الراحلة اختلاف مشهور للعلماء، وفيه روايتان عن الإمام أحمد، وأن يكون

بالطهارة الشرعية بالوضوء بالماء مع القدرة عليه والتيمم عند العجز حساً أو شرعاً، ومتى علم الله من عبد حرصه على إقام الصلاة على وجهها أعانه، قال بعض العلماء: كنت في طريق الحج، وكان الأمير يقف للناس كل يوم لصلاة الفجر فينزل فنصلي ثم نركب، فلما كان ذات يوم قرب طلوع الشمس ولم يقفوا للناس فناديتهم! فلم يلتفتوا إلى ذلك، فتوضأت على المحمل ثم نزلت للصلاة على الأرض ووطنت نفسي على المشي إلى وقت نزولهم للضحى، وكانوا لا ينزلون إلى قريب الظهر مع علمي بمشقة ذلك علي، وأني لا قدرة لي عليه، فلما صليت وقضيت صلاتي نظرت إلى رفقتي فإذا هم وقوف وقد كانوا لو سئلوا ذلك لم يفعلوه، فسألتهم عن سبب وقوفهم فقالوا: لما نزلت تعرقلت مقاود الجمال بعضها في بعض، فنحن في تخليصها إلى الآن، قال: فجئت وركبت وحمدت الله عز وجل وعلمت أنه ما قدم أحد حق الله على هوى نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة، ولا عكس أحد ذلك فقدم حظ نفسه على حق ربه إلا ورأى الشقاوة في الدنيا والآخرة، واستشهد بقول القائل:

والله ما جئتكم زائرا ... إلا وجدت الأرض تُطوى لي
ولا ثنيت العزم عن بابكم ... إلا تعثرت بأذيالي

ومن أعظم أنواع بر الحج كثرة ذكر الله ـ تعالى ـ فيه، وقد أمر الله ـ تعالى ـ بكثرة ذكره في إقامة مناسك الحج مرة بعد أخرى... وخصوصاً كثرة الذكر في حال الإحرام بالتلبية والتكبير، وفي الترمذيّ وغيره عن النبي ﷺ قال: أفضل الحج العج والثج، وفي حديث جبير بن مطعم المرفوع: عجوا التكبير عجاً وثجوا الإبل ثجاً، فالعج رفع الصوت بالتكبير والتلبية، والثج: إراقة دماء الهدايا والنسك والهدي من أفضل الأعمال. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الآية[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2] وأهدى النبي ﷺ

(١) سورة الحج: آية ٣٦.
(٢) سورة الحج: آية ٣٢.

في حجة الوداع مائة بدنة، وكان يبعث بالهدي إلى منى فتنحر عنه وهو مقيم بالمدينة.

الأمر الثاني مما يكمل بر الحج اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والمعاصي، قال الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[1]... فما تزوَّد حاج ولا غيره أفضل من زاد التقوى، ولا دعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى...

قال بعض السلف لمن ودعه: اتَّقِ الله، فمن اتقى الله فلا وحشة عليه.

وقال آخر لمن ودعه للحج: أوصيك بما وصى به النبي ﷺ معاذاً حين ودَّعه: «اتَّقِ الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» وهذه وصية جامعة لخصال البر كلها، ولأبي الدرداء رضي الله عنه:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

ومن أعظم ما يجب على الحاج اتقاؤه من الحرام، وأن يطيب نفقته في الحج وأن لا يجعلها من كسب حرام...

مات رجل في طريق مكة فحفروا له فدفنوه ونسوا الفأس في لحده، فكشفوا عنه التراب ليأخذوا الفأس فإذا رأسه وعنقه قد جمعا في حلقة الفأس، فردوا عليه التراب ورجعوا إلى أهله فسألوهم عنه فقالوا: صحب رجلاً فأخذ ماله فكان منه يحج ويغزو:

إذا حججت بمال أصله سحت فما حججت ولكن حجت العير

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

لا يـقـبـل الله إلا كـل طـيـبـة ما كـل مـن حـجَّ بـيـت الله مـبـرور

ومما يجب اجتنابه على الحاج وبه يتم بِرُّ حجه أن لا يقصد بحجه رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا فخراً ولا خيلاء، ولا يقصد به إلا وجه الله ورضوانه، ويتواضع في حجه ويستكين ويخشع لربه...

قال رجل لابن عمر: ما أكثر الحاج، فقال ابن عمر: وما أقلهم، ثم رأى رجلاً على بعير على رحل رث خطامه حبل فقال: لعل هذا، وقال شريح: الحاج قليل والركبان كثير، ما أكثر من يعمل الخير ولكن ما أقل الذين يريدون وجهه:

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى كـثـيـر وأمـا الـواصـلـون قـلـيـل

كان بعض المتقدمين يحج ماشياً على قدميه كل عام، فكان ليلة نائماً على فراشه فطلبت منه أمه شربة ماء فصعب على نفسه القيام من فراشه لسقي أمه الماء، فتذكر حجه ماشياً كل عام وأنه لا يشق عليه فحاسب نفسه فرأى أنه لا يهونه عليه إلا رؤية الناس له ومدحهم إياه، فعلم أنه كان مدخولاً.

قال بعض التابعين: رب محرم يقول: لبيك اللهمَّ لبيك فيقول الله: لا لبيك ولا سعديك، هذا مردود عليك. قيل له: لم؟ قال: لعله اشترى ناقة بخمسمائة درهم ورحلاً بمائتي درهم ومفرشاً بكذا وكذا، ثم ركب ناقته ورَجَّل رأسه ونظر في عطفيه فذلك الذي يردّ عليه، ومن هنا استحب للحاج أن يكون شعثاً أغبر.

وفي حديث المباهاة يوم عرفة أن الله تعالى يقول لملائكته: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غُبراً ضاحين، اشهدوا أني قد غفرت لهم.

قال عمر يوماً وهو بطريق مكة: تشعثون وتغبرون وتتفلون وتَضحون لا تريدون بذلك شيئاً من عرض الدنيا، ما نعلم سفراً خيراً من هذا، يعني الحج.

وعنه قال: إنما الحاج الشعث التفل.

وقال ابن عمر لرجل رآه قد استظل في إحرامه: اضح لمن أحرمت له أي ابرز للضحى، وهو حر الشمس:

أتاك الوافدون إليك شعثاً ... يسوقون المقلدة الصوافِ

فكم من قاصد للرب رغباً ... ورهباً بين منتعل وحافِ

سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمناً يترددون إليه، ويرجعون عنه ولا يرون أنهم قضوا منه وطراً، لما أضاف الله تعالى ذلك البيت إلى نفسه ونسبه إليه بقوله عز وجل لخليله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآيِفِينَ﴾[1] تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم، فكلما ذكر لهم ذلك البيت الحرام حنوا، وكلما تذكروا بعدهم عنه أتوا...

رأى بعض الصالحين الحاج في وقت خروجهم فوقف يبكي ويقول: واضعفاه، وينشد على أثر ذلك:

فقلت دعوني وأتباعي ركابكم ... أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد

ثم تنفس وقال: هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت، فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلى رب البيت؟ يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن.

ينبغي للمنقطعين طلب الدعاء من الواصلين لتحصل المشاركة:

ألا قل لزوار دار الحبيب ... هنيئاً لكم في الجنان الخلود

أفيضوا علينا من الماء فيضاً ... فنحن عطاش وأنتم ورود

لئن سار القوم وقعدنا، وقربوا وبعدنا فما يؤمننا أن نكون ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين:

---

(١) سورة الحج: آية ٢٦.

لله در ركــائــب ســارت بــهــم تطوي القفار الشاسعات على الدُّجا
رحلوا إلى البيت الحرام وقد شجا قلب المتيم منهمو ما قد شجا
نـزلـوا بـبـاب لا يـخـيـب نـزيـلـه وقلوبهم بين المخافة والرجا

على أن المتخلف لعذر شريك للسائر كما قال النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم خلفهم العذر:

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا

وربما سبق بعض من سار بقلبه وهمته وعزمه بعض السائرين ببدنه، رأى بعض الصالحين في منامه عشية عرفة بعرفة قائلاً يقول له: ترى هذا الزحام بالموقف؟ قال: نعم، قال: ما حج منهم إلا رجل واحد تخلف عن الموقف فحج بهمته، فوهب الله له أهل الموقف. ما الشأن فيمن سار ببدنه إنما الشأن فيمن قعد بدنه وسار بقلبه حتى سبق الركب:

من لي بمثل سيرك المذلل تمشي رويداً وتجي في الأول

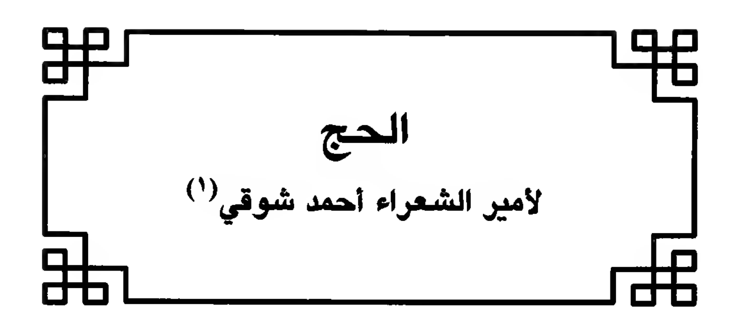
يا سائرين إلى دار الأحباب قفوا للمنقطعين تحملوا معكم رسائل المحصرين:

يا سائرين إلى الحبيب ترفقوا فالقلب بين رحالكم خلَّفته
ما لي سوى قلبي وفيك أذيته ما لي سوى دمعي وفيك سكبته

كان عمر بن عبدالعزيز إذا رأى من يسافر إلى المدينة النبوية يقول له: أقرىء رسول الله ﷺ مني السلام، وروي أنه كان يبرد عليه البريد من الشام[1].



(١) «لطائف المعارف»: ٢٣٩ ـ ٢٥٤ بتصرف.



الحج

لأمير الشعراء أحمد شوقي[1]

مَوْكِبُ الإسلامِ ومَظْهَرُه، ولُبَابُ حَسَبه وجَوْهرُه، ومَوْسمُه الحرامُ أَشْهُرُه، مِهْرَجانُه العظيم، وعُرْسُه الفخيم، ونَدِيُّه[2] الكريم، والنَّظْمُ الذي قَرَنَ فيه الدُّنيا إلى دِينِهِ القويم، فجعلَه لها صلاحاً وعِمارة، ومَلأها بِيُمنِهِ نماءً ويسارة[3]، وأَفاض بَرَكاتِه على التِّجارة، وسخَّرها لخدمَتِه وإظهارِ دَعْوتِه، وجَمْعِ كَلِمتِه، وتَوْثيق عُرْوَتِه، فإذا أَطَلَّتْ أيامُ الحجِّ المبارَكات نظرْتَ إلى البلاد فَرأيتَ أسواقاً ماجت، ومتاجرَ راجَتْ، ومَطايا من مرابِضِها اهتاجَت، ورأيْتَ الحِجازَ مُهْتَزَّ المناكب، يموجُ بالمواكب، مفتَرَّ المباسِمِ في وُجوهِ المواسِمِ، أخلَفَهُ الغيثُ[4] فمطِرَ الذهب، ويبِسَ الزرع فطَعِمَ الرُّطَب،

---

(١) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي. أشهر شعراء العصر الأخير. ولد سنة ١٢٨٥ بالقاهرة. نشأ في ظل البيت المالك بمصر وتعلم في بعض المدارس الحكومية، وأرسل في بعثة علمية إلى فرنسا فدرس الحقوق هناك، وعاد فعين رئيساً للقلم الفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي، ثم جرت عليه أحوال عين بعدها في مجلس الشيوخ بمصر فظل فيه إلى أن توفي بالقاهرة سنة **١٣٥١**. عالج أكثر فنون الشعر، وتناول الأحداث السياسية والاجتماعية فجرى شعره على كل لسان، وعاش مترفاً واتسعت ثروته. له عدة دواوين وقصص شعرية تمثيلية.

(٢) قال المحقق: النديّ: المجلس.

(٣) قال المحقق: اليسارة: الغنى.

(٤) قال المحقق: الغيث: المطر. وأخلفه: لم ينزل به.

أَزوادٌ[١] تُعَدُّ، ورحالٌ تُشَدّ، وشُرُعٌ تُمَدّ، وحاجاتٌ تنشأُ وتَسْتَجِدّ، وأُمَمٌ أَتَوْا من نواحي البلاد يضعون التُّحفَ المجلوبة، ويأخذون الأَجْرَ والْمَثُوبة.

فيا أَيُّها المعتزم حجَّ البيت، المُشَمِّر لأَداء الفريضة: لقد أَطعْت، فهل استطعت؟ وأجبْت فهل تأهَّبْت؟ وهل علمتَ أن الإسلامَ شِرْعَةُ السَّماحة، وأن ربَّ البيت واسعُ الساحة؟ يُعْفِي المريضَ حتى يُعَافَى، ويُقِيل المُعْدَمَ حتى يجِد، ولا يؤاخذ أخا الدَّين حتى يَقْضِيَ دَيْنَه، ولا يُنْكِر على الخائف القرارَ[٢] حتى تأمَنَ السبيل، من وَباءٍ مهتاج، أو لصوص قد أخذوا الفجَاج[٣]، أو حُكومةٍ جائرة تَبْتَزُّ الحُجَّاج؟

كُبْرى الكبائر أن تلقى الله في بيتِهِ وبين رَفْده بمالٍ خَلَسْتَه من أحدِ اثنينْ يُحبُّهما الله حبّاً جَمّاً: اليتيم، وأنت تعلمُ أن مالَه نار، وأنَّه نَحْسُ الدِّرهم نُحَاسيُّ الدينار[٤]، والفقير وقد فَرَضَ الله له في مالكِ حصَّةً سمَّاها الزَّكاة، فتغابيْتَ يا مُخادِعَ الله، وخرجْتَ بها تحُجُّ للتظاهر والمباهاة، وهل علمتَ أن الله لا يقبلُ منك مالاً ونَفَقَة المطلقة، من مَطْلٍ مُعَلَّقة، وذو القُربى وراءَك جائع، والولَد طريدُ المدارِس ضائع، وتِجارتُك مُختَلَّة، وأَمانتُك مُعتلَّة، وجارُك الضعيفُ يَضِجُّ من حَيْفِك، وخصيمُك الأَعْزَلُ يَشكو سَطوةَ سَيْفك، فإن لم يكن شيءٌ من ذلك أو مما إليه فَسِرْ على اسم الله، وحُجَّ بيْتَ الله، وارجعْ بِرضوان من الله[٥].

---

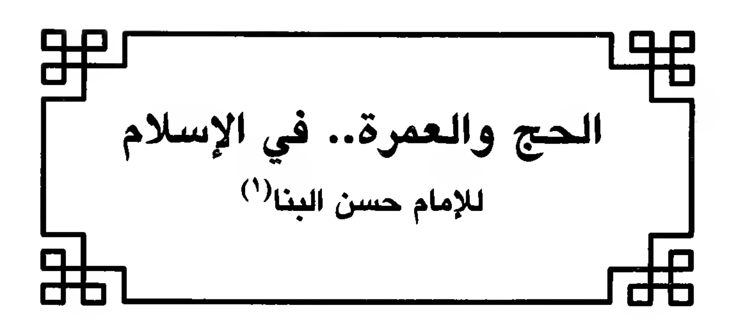
(١) قال المحقق: الأزواد: جمع زاد، وهو طعام السفر.

(٢) قال المحقق: المكث في داره.

(٣) قال المحقق: الفجاج: الطرق الواسعة بين الجبال.

(٤) قال المحقق: المراد بالدرهم النحس: أنه شؤم على كل من اغتصبه. والدينار النحس: الذي لا قيمة له لأنه حرام، والحرام لا يدوم.

(٥) «أسواق الذهب»: ٩١ ـ ٩٢.



الحج والعمرة.. في الإسلام

للإمام حسن البنا[1]

الحج فريضة من فرائض الله أمر بها عباده وكلَّفهم أداءها، وأعدَّ لهم جزيل الثواب إن فعلوها، وتوعد بأشد العقوبة من تركها وهو عليها قادر ولها مستطيع، وهو ركن من أركان الدين الخمسة يتم بتمامه وينقص بنقصه وهو من بين هذه الأركان عبادة العمر وتمام الأمر، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] وقد وردت بذلك آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول العظيم.

١ ـ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

وهذا تركيب يدل على عظيم العناية بالحج وتأكيد فرضيته، ألست ترى أن الحق تبارك وتعالى اعتبره دَيْناً له على عباده في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(١) حسن بن أحمد بن عبدالرحمن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. ولد سنة ١٣٢٤ في المحمودية قرب الإسكندرية، وتخرج في مدرسة دار العلوم بالقاهرة، واشتغل بالتعليم، واستقر مدرساً في الإسماعيلية بعد تنقل في البلدان، ثم انتقل إلى القاهرة. له عدة مصنفات. توفي شهيداً ـ إن شاء الله تعالى ـ حيث قتله ثلاثة أشخاص في الطريق العام سنة ١٣٦٨ رحمه الله تعالى، وانظر: «الأعلام»: ٢/١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) سورة المائدة: آية ٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ٩٧.

﴿ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ وألست ترى أنه تبارك وتعالى جعل مقابل القعود عن أدائه الكفر وهو أشد المقت، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يُعهد هذا التركيب في فريضة أخرى في كتاب الله غير الحج تنبيهاً على عظيم قدره وجليل أهميته.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[١].

والمعنى أكملوا الحج والعمرة خالصين لله وأنتم ممتثلين لأوامر الله مجيبين دعوة الله، ولعلك لاحظت هنا ـ أيضاً ـ في هذه الآية أنه تبارك وتعالى جعل الحج والعمرة مِلْكاً له تأكيداً للمعنى الأول وتنبيهاً على مزيد العناية بهذين العملين الجليلين.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ الآيات سورة الحج[٢].

والمعنى أن الله تبارك وتعالى أمر خليله إبراهيم عليه السلام بعد أن أتم بناء البيت أن يعلن فرضية الحج منذ تلك الساعة، فامتثل أمر ربه ونادى في الناس: أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجُّوه، وكان ذلك بمنزلة إعلان ما كان في وقته عليه السلام وما سيكون بعده إلى يوم القيامة من تقديس البيت والمبادرة إلى حجه وعمارته.

وذهب بعضهم إلى أن الأمر في ذلك للنبي ﷺ، وتكون الآية بذلك إعلاماً بفريضة الحج في الشريعة المحمدية، ولكلٍّ وجهة، والأول هو الذي عليه جمهور العلماء.

وفي الآيات الكريمة بيان بعض فوائد الحج من المنافع الدنيوية والأخروية ودوام ذكر الله وهو صقل النفوس، ونور الأفئدة، وطمأنينة

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٦.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨.

القلوب، والطهارة الحسيَّة والمعنوية، والوفاء بنذور البر، والطواف بالكعبة المشرفة، وتعظيم حرمات الله ـ تبارك وتعالى ـ وشعائره.

٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» أخرجه البخاري ومسلم والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجه.

٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد» أخرجه النسائي.

ومعنى المتابعة بين الحج والعمرة تكرارهما مرات لمن يستطيع ذلك حرصاً على هذه المزية: مزية التطهر من الذنوب والآثام، أو المتابعة بينهما بمعنى الجمع بينهما فيحج ثم يعتمر مرة أو مرات فتحصل له هذه الفضيلة، كل ذلك تحت هذا اللفظ الجامع، ومن استكثر من الخير استكثر من ثوابه.

٦ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه.

والمعنى أن من حافظ على آداب الحج فترك اللغو والحرام فقد تطهر من ذنوبه وغفر الله له خطاياه فيعود نقياً تقياً مغفوراً له.

٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفعوا شفعوا» رواه ابن ماجه وابن حبان.

٨ ـ وعنه رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله وبرسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم حج مبرور». رواه البخاري ومسلم.

والحج المبرور هو الذي لا يعقبه معصية الله.

٩ ـ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً» أخرجه الترمذي[١].

وفي ذلك أشد الوعيد للذين يستطيعون الحج ويقعدون عنه تكاسلاً عن أدائه، وإهمالاً لشأنه، وتضييعاً لحقه، وغفلة عن تأكد فرضيته، وفي الحديث روايات.

وقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين» رواه سعيد في سننه[٢].

١٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة» رواه البزار وابن حبان والحاكم وصححه[٣].

والمعنى أن النبي ﷺ يأمر أمته باغتنام فضل وجود الكعبة المشرفة التي جعلها الله بركة وهدى ورحمة وأمناً قبل أن تذهب بها حوادث الدهر إذا ما أذن الله بانقراض الدنيا، فقد هدمت قبل البعثة ثم بنيت، بناها العمالقة مرة وبنو جرهم مرة أخرى، ثم هدمها قصي بن كلاب جد النبي ﷺ في القرن الثاني قبل الهجرة وشيَّدها تشييداً محكماً وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل، وبنى بجانبها دار الندوة، ثم هدمها السيل وبنتها قريش والنبي ﷺ معهم وسنّه ٢٥ سنة في قصة الرداء المشهورة، ولعل الإشارة في الحديث إلى هاتين المرتين لأهميتهما وما عداهما كان ترميماً له واستكمالاً لأسباب متانتهما، أو أن العدد في الحديث يفيد التكرار دون

---

(١) أخرجه في سننه: كتاب الحج: باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج، وفي الحديث ضعف.

(٢) حكم الحافظ ابن حجر على هذا الأثر بالصحة: انظر «تحفة الأحوذي»: ٣/٥٤٢، والجَدَة: المال.

(٣) وافق الذهبي الحاكم على تصحيح الحديث.

الحصر ويوشك أن يهمل الناس أمر الحج فيرفع الله بيته ويستأثر به وينزع البركة السابغة من أهل الأرض الذين أغفلوا نداء ربهم وأهملوا فريضة حجهم وهجروا سيدهم.

ومن ذلك تعلم تأكد فريضة الحج وعظيم ثواب الله لمن وفاها، وشديد العقوبة لمن تركها وتكاسل عن أدائها.

لهذا أجمعت الأمة على فرضية الحج على القادر المستطيع، ثم ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعيّ ومن أهل البيت زيد بن علي والهادي والمؤيد بالله والناصر إلى أنه واجب على الفور، فمن استطاع لزمه الأداء لوقته، ودليلهم في ذلك ما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ: قال: «تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له» رواه أحمد، وما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس عن الفضل أو أحدهما عن الآخر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد الحج فليستعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتعرض الحاجة» رواه أحمد وابن ماجه.

وذهب الشافعي والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد ومن أهل البيت القاسم بن إبراهيم وأبو طالب إلى أنه واجب على التراخي، واحتجوا بأن الرسول ﷺ حجَّ سنة خمس أو ست، ولكلٍّ وجهة هو موليها.

وأما العمرة:

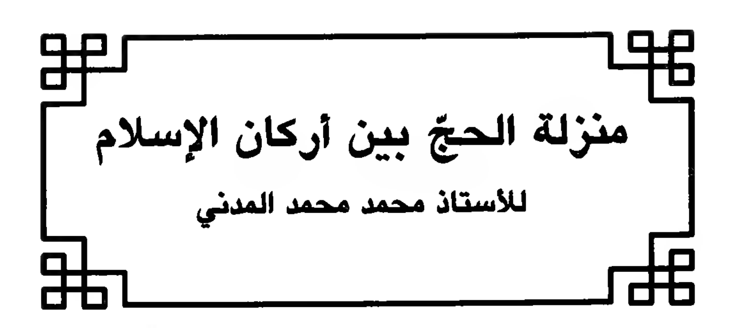
فقد رأى وجوبها في العمر مرة الإمام أحمد بن حنبل وهو المشهور عن الإمام الشافعيّ رضي الله عنه، وبه قال إسحق والثوري والمزني والناصر ودليلهم في ذلك أن الله تبارك وتعالى قرن الحج بالعمرة في الآية الكريمة: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأكد ذلك عندهم حديث أبي رزين العقيلي «أنه أتى النبي ﷺ فقال: إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الطعن فقال: حج عن أبيك واعتمر» رواه البخاريّ ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائيّ وصححه الترمذي، وقد روي القول بالواجب عن علي وابن عباس وابن عمر وعائشة وزين العابدين وطاووس والحسن البصريّ وابن سيرين وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء.

والمشهور عن المالكية أن العمرة ليست بواجبة وهو قول الحنفية وزيد بن علي والهادوية...

ولهذا لا خلاف بين الأئمة في أنها من أفضل القربات إلى الله تبارك وتعالى[1].



(١) مجلة «الدعوة»: السنة ٣٠، العدد ٥٤، ص: ١٤ ـ ١٥، ذو الحجة سنة ١٤٠٠، بتصرف يسير.



منزلة الحجّ بين أركان الإسلام

للأستاذ محمد محمد المدني

بمناسبة موسم الحج المبارك ذكرت الحديث الشريف الذي يقول:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا له إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»، وخطرت لي في شأن هذا الحديث الشريف خواطر:

فقلت: ما السر في إتيان ركن الحج آخر الأركان كلها؟ هل ذلك لأنه متأخر في الرتبة عنها، وبذلك تكون الصلاة أفضل منه، وتكون الزكاة أفضل منه، ويكون الصيام أفضل منه؟ وهل يمكن الاستئناس في ذلك بأن الشهادتين جعلتا أول الأركان، وهما أفضل من كل ركن سواهما؟

وأجبت نفسي قائلاً: كلا، إن ذكر هذه الأركان على هذا الترتيب الذي جاء في الحديث الشريف إنما كان رعاية للترتيب المنطقيّ بينها، لا رعاية لجانب الفضل والخيرية، وذلك أن أول ما يحقق إسلام المرء هو أن يشهد مخلصاً أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا شهد بذلك فقد دخل في دين الإسلام، وأصبح واحداً من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وهو بمقتضى هذه الشهادة قد آمن بأن له رباً هو الله الذي خلقه وأنعم عليه، وهو الذي يملك ناصيته، ويملك نفعه وضره، فينتقل العقل من هذه النقطة إلى وجوب عقد صلة بين هذا الإله المنعم القادر، النافع الضار، وبين عبده الذي آمن به، وأذعن لسلطانه، وأفرده بالألوهية دون كل ما سواه، ومَن سواه، وهذه الصلة تتمثل في «إقامة الصلاة» أي في القيام بها

حق القيام من حيث العناية والمواظبة، وفي أدائها مقومة لا خلل فيها من حيث الدقة والإحكام، وفي إقامة صرحها، والتحصن بها من حيث تقبل ما توحي به من تقويم وتهذيب.

وهذه الصلاة هي رسم رسمه الله تعالى لعباده من حقه أن يرسمه لأنه هو الخالق المنعم المتفضل المعبود بحق، ومن واجب عباده أن يتقبلوه وينفذوه لأنهم عابدون، مقرُّون بالنعمة، مؤمنون بالوحدانية، متجهون إلى أداء واجب الشكر لمن أنعم.

فالمنطق العقليّ يقضي بأن تكون هذه الصلة هي الخطوة التالية لخطوة: الاعتراف بالإله الواحد، وبالرسول الذي أرسله ليؤدي عنه ويبلغ.

وما كان يمكن أن تكون الصلاة ـ التي هي الصلة بين العابد والمعبود ـ إلا تالية لعرفان العابد للمعبود.

ولما كان صلاح الإنسان في هذه الدنيا مشروطاً بصلاح ما بينه وبين الله، وبصلاح ما بينه وبين الناس، كان لا بد لمن حقق الصلة بالله عن طريق الصلاة أن يحقق الصلة بالناس عن طريق البذل مما أعطاه الله، في سبيل الوجوه التي بها يصلح أمر الناس، ولذلك كانت الزكاة هي الخطوة التالية للصلاة، لأنها إصلاح للصلة بين المرء وبين الناس، فهو يبذل بعض ماله في سبيلهم، فيعترف حين يبذل بأنه واحد في مجتمع، وعن هذا المجتمع صدر كسبه وربحه، ولولا هذا المجتمع ما استطاع الربح عن طريق التجارة لو كان تاجراً، ولا عن طريق الزراعة لو كان زارعاً، ولا عن طريق الصناعة لو كان صانعاً، فهو إذن مدين للمجتمع بنجاحه في تجارته أو زراعته، أو صناعته، مدين للمجتمع بتحقيق كفايته، ثم بتحقيق فائض فوق هذه الكفاية، فلا أقل من أن يمنح مجتمعه بعض هذا الفائض في صورة «زكاة» يأخذها الفقير والمسكين، أو الغارم الذي استدان في سبيل عمل الخير، لأن الفقير والمسكين كلاهما عضو في المجتمع لم يحقق كفايته، ولأن الغارم عضو في المجتمع جاد بما عنده في سبيله، وتنفق حصيلتها أيضاً في سبيل الله، وهو كل ما يصلح عليه أمر الأمة من جهاد عسكريّ أو سياسيّ أو فكريّ.

ولم يكن من المنطق أن يطالب الإنسان بالزكاة التي يعتبرها الإسلام طهرة للمال ونماء، إلا بعد أن يتحقق له الإيمان بمن يطهره وينميه، وبعد أن تتحقق له الصلة الروحية بالصلاة.

ويأتي بعد ذلك ركن الصيام، والصيام تضحية جزئية بالنفس، من حيث إنه تضحية بشهوات النفس ورغائبها إلى حين، وإلزام لها بلون من ألوان الإذعان لله، والمراقبة له، وهو يلتقي بالزكاة من جهة أن الزكاة تضحية جزئية بالمال.

والإنسان قد يهون عليه تضحية جزء من ماله، ويصعب عليه تضحية مطلب من مطالب نفسه، فإذا مَرِن على التضحية بالمال، وذاق لذَّته، كان متهيِّئاً للتضحية ببعض مطالب النفس، فيأتي الصوم.

ومن هنا كان المنطق العقليّ يقضي بالصوم بعد الزكاة، لا بالزكاة بعد الصوم.

أما الحج ففيه كل هذه الأركان على أكمل وجه:

- فيه توحيد الله تعالى والإيمان به إيماناً صادقاً، والتصديق بما جاء به رسوله ﷺ، فإن أبرز مشاعر الحج هي التهليل والتكبير والتلبية، ولسان الحاج لا يفتر عن ذلك أينما حل أو رحل، وهو حين يؤدي مناسك حجه وعمرته يتتبع ما جاء به رسول الله ﷺ، وما فعله حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما رأى الرَّمَل - وهو إسراع الناس بالمشي عند الطواف - أراد أن يمنع الناس من ذلك بحجة أن الرمَل إنما كان على عهد رسول الله ﷺ مظهراً مقصوداً ليرى منه المشركون أن المؤمنين أقوياء أصحَّاء، لأنهم كانوا يقولون: لقد طحنتهم حمى يثرب، فظنوا بهم الضعف، فأراد المسلمون أن يظهروا بمظهر القوة في طوافهم، فكان ذلك الرمل، أي الإسراع، هكذا رأى عمر أولاً ثم عاد إلى نفسه، فقال: لا ينبغي أن نبطل شيئاً فعله رسول الله ﷺ، فلعل الرمل مشروع تعبداً، أو لحكمة غير هذه لا نعلمها، وبذلك بقي الرمل من سنن الطواف، وهذا اقتداء واتباع للرسول ﷺ، وكثير من أفعال الحج كذلك، وقد قال عمر في تقبيل الحجر الأسود: والله إني

لأعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبّلتك.

ولو أننا تتبعنا الكثير من أعمال الحج من طواف وسعي ورمي وإحرام لوجدناها كلها إنما تنبعث عن مبدأ الإيمان بالله والتصديق برسوله والرضا بما يحكمان به، وذلك لأنها أمور تعبدية قد لا تظهر حكمتها لكثير من الناس، فطاعة الله فيها هي بذاتها آية على صدق الإيمان بالله إلٰهاً واحداً، ومشرعاً حكيماً، وصدق الإيمان برسوله نبياً هادياً، ومبلغاً يتبع ما يوحى إليه.

وفي الحج تؤدى الصلوات المفروضة، ويزداد المصلي قرباً إلى الله بقربه من الكعبة المشرفة التي جعلها الله قبلة للمسلمين يولون شطرها وجوههم حيثما كانوا.

فالمصلي حين يتجه إلى الكعبة وهو في بلده يهفو قلبه إلى هذه القبلة، ويشعر نحوها بالتعظيم والإجلال، وبالشوق والحنين، فإذا حج وطاف بالبيت وتمتع برؤية الكعبة المشرفة، وصلّى متجهاً إليها وليس بينه وبينها فاصل بعد أن كان بينه وبينها آلاف الأميال، لا شك أنه حينذاك يشعر بالقرب ولذته، فيكون الاتجاه في الحج محسوساً ملموساً.

ثم إن المصلي يظل يعبد الله زماناً وهو بعيد عن حرمه وبيته، فإذا حج فقد دُعي بهذا الحج إلى زيارة بيت الله، فمثله كمثل رجل سمع من بعيد بعظيم من العظماء، فجعل يتصور عظمته، ويعمل كل ما يرضيه على بُعْده، ثم تلقى منه ليزوره في بيته، فلا شك أنه يجد من الفرحة واللذة والصلة والقرب والأنس أضعاف ما كان يجد وهو بعيد، «ولله المثل الأعلى».

وإذن فروح الصلاة وسرها وعمق معناها الذي توحى به، كل ذلك يتهيأ في الحج أكثر مما يتهيأ قبله، وبه تتوطد الصلة بين العابد والمعبود على أكمل وجه.

وفي الحج بعد ذلك بذل المال والجود به، وهو المعنى الذي

تصدر عنه الزكاة، بل إن بذل المال في سبيل الحج يقترن بأن الإنسان يترك عمله ومصادر رزقه، ويتخلى عن كل مورد من موارده - ولو إلى حين - كي يؤدي فريضة الحج، فالتضحية في الحج تضحية مزدوجة، لأنها تضحية في المورد، وتضحية في الصرف، أما الزكاة فإنها تضحية في الصرف فقط.

وفي الحج أيضاً رقابة للنفس كرقابة الصائم: إن من يفرض الحج على نفسه يجب أن يلتزم بأدب الحج التزاماً قوياً، فهو في حالة إحرام مادي حيناً، ومعنوي دائماً، فإذا كان الصائم يمتنع بعض يوم عن رغباته وشهواته، فإن الحاج يكف عن ذلك طول نهاره وطول ليله، ويمتد به هذا الحرمان أياماً، وربما امتدَّ أسابيع.

وصورة الإحرام الماديّ صورة حاسمة في فطم النفس الإنسانية عن هواها، ذلك أنه يرمز إلى خروج المرء عن أهم ملابسات حياته، ويكتفي بردائه وإزاره، كأنه شخص قد سُجِي في كفنه، فيذكر بذلك نهاية الحياة، ومصيره بعدها، وتلك عظة ما بعدها عظة.

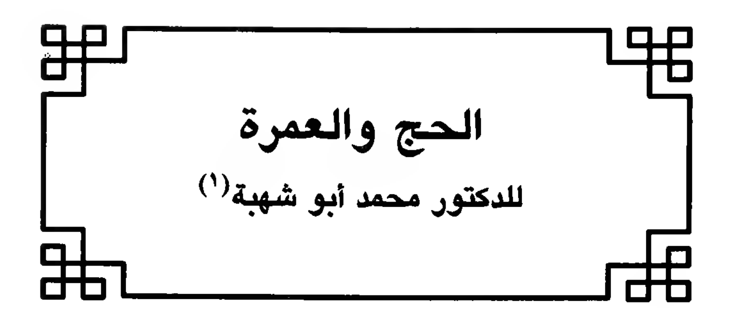
والإحرام المعنويّ الذي لا يفارقه الحاج هو ذلك الشعور الملازم له بأنه ضيف الله في حرمه، وأنه إنما قدم تاركاً أهله وماله وجميع مصالحه ليلتمس من الله رحمته ورضوانه، وليتطهر من ذنوبه، تحقيقاً للأمل الشريف المنبعث من قوله ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

بهذا يتبين أن تأخير الحج في الذكر بعد الأركان الأربعة السابقة عليه، ليس تأخير منزلة ورتبة، وإنما هو تأخير ترتيب منطقيّ حسب مراتب الوجود كما قلنا، وبالله التوفيق[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) مجلة «الأزهر»: الجزء العاشر، السنة التاسعة والثلاثون، ذو الحجة سنة ١٣٨٧، ص ٨٠٤ - ٨٠٧.



الحج والعمرة

للدكتور محمد أبو شهبة[1]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

تخريج الحديث:

رواه البخاري في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب وجوب العمرة وفضلها، ورواه مسلم في صحيحه ـ كتاب الحج ـ باب فضل الحج والعمرة.

الشرح والبيان:

«أبو هريرة» رضي الله عنه تقدمت ترجمته.

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما»: العمرة لغة: الزيارة، يقال اعتمر البيت زاره، ففي القاموس مادة عمر: «وعمر الله منزلك عمارة، وأعمره

---

(١) محمد بن محمد أبو شهبة، أبو السادات. علامة بالحديث وعلوم القرآن. ولد سنة ١٣٣٢ بقرية منية جناح بمحافظة كفر الشيخ بمصر. ونشأ في كنف أبوين صالحين عابدين. تخرج في كلية أصول الدين ونال العالمية من درجة أستاذ، ثم عين مدرساً في الكلية، وأعير لجامعات عربية كثيرة، وتولى مناصب جامعية مختلفة. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣. وكان له عدة مصنفات. انظر «ذيل الأعلام»: ١٩٨ ـ ١٩٩.

جعله آهلاً، والرجل ماله وبيته عمارة» وعموراً: لزمه، وعمر المال نفسه - كنصر وكرم وسمع - عمارة: صار عامراً، وأعمره المكان، واستعمره فيه جعله يعمره، . . . وقد اعتمر، والعمرة: الزيارة، وقد اعتمر، وأعمره: أعانه على أدائها، والمعتمر: الزائر، والقاصد للشيء، ومن ثم نرى أن المادة من معانيها الزيارة، والقصد، وجعل المكان عامراً آهلاً.

والعمرة في الشرع: زيارة البيت الحرام لأجل الطواف والسعي، فركناها الطواف حول البيت، والسعي بين الصفا والمروة.

ولما كان الحج لا يجوز إلا في أشهر خاصة، وقد لا يتيسر للإنسان السبيل إليه في أشهر الحج اقتضت رحمة الله بعباده، وليبقى هذا المكان المقدس آهلاً بالزوار والعباد، أن يجعل لهم نسكاً آخر في جميع أيام السنة، وهي العمرة فيصح أداؤها في أي وقت يشاء من العام. وقد اختلف العلماء في العمرة: أهي واجبة أم سنة؟

فالجمهور على أنها واجبة، وممن قال بالوجوب من السلف: السادة عمر، وابنه عبدالله، وابن عباس، وطاووس، وعطاء، وابن المسيب، والحسن البصريّ والثوري، وإليه ذهب الإمامان الجليلان: الشافعي وأحمد، وإليه ذهب الإمام البخاري كما تدل على ذلك ترجمته للحديث.

وذهب الأئمة: أبو حنيفة، ومالك، وأبو ثور إلى أنها سنة، وحُكي هذا الرأي عن النَّخَعي، وقد ذهب الجمهور ومنهم: الأئمة مالك، والشافعيّ، وأحمد إلى أنها لا تكره لغير الحاج في يوم عرفة، والأضحى، وأيام التشريق.

وقال الإمام أبو حنيفة: إنها تكره تحريماً[1] في خمسة أيام: عرفة، والأضحى وأيام التشريق الثلاثة، وقال أبو يوسف من أصحاب الإمام: تكره في أربعة أيام فقط: عرفة، وأيام التشريق.

(١) قال الشيخ: المكروه تحريماً أقرب إلى الحرام منه إلى الحلال، بخلاف المكروه تنزيهاً، فإنه إلى الحلال أقرب منه إلى الحرام.

«إلى» معناها الانتهاء أي العمرة المنتهية إلى عمرة أخرى، وقال ابن التين: يحتمل أن تكون «إلى» بمعنى «مع» وهذا الجزء من الحديث يدل على تكرار العمرة في العام الواحد خلافاً لمن كره ذلك.

«كفارة لما بينهما».

الكفارة: على وزن «فَعَّالة» صيغة مبالغة، وقيل: إن التاء فيها للنقل من الوصفية إلى العلمية، وهو اسم لكل ما يستر الذنوب، ويمحوها، مأخوذة من الكَفْر، وهو الستر، قال لبيد الشاعر:

في ليلة كفر النجومَ غمامُها

أي ستر، ومنه الكافر لأنه كفر نعمة الله، أي سترها بجحوده، ومنه قيل للفلاح كافر، لأنه يكفر البذر أي يستره بالحرث ونحوه، ومنه قيل لليل كافر.

وقد اختلف العلماء في الذنوب التي تكفر بالعمرة: أهي الصغائر أم الكبائر؟

فالجمهور سلفاً وخلفاً على أن المراد بها الصغائر، وأما الكبائر فإنها تكفرها التوبة النصوح أو رحمة الله تبارك وتعالى وفضله، وبذلك قال الإمام القاضي عياض رحمه الله وبه قال إمام الحرمين رحمه الله تعالى.

ويشهد للجمهور ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها إذا اجتنبت الكبائر» فحملوا ما أطلق على هذا المقيد على القاعدة الأصولية المعروفة أن المطلق يحمل على المقيد.

وذهب بعض العلماء إلى التعميم، فيشمل التكفير الصغائر والكبائر، وإلى هذا ذهب العلامة ابن المنذر محتجاً بأن الروايات مطلقة غير مقيدة، وفضل الله كبير، ورحمته واسعة، وقد نقل الإمام ابن عبدالبر هذا عن بعض علماء عصره وبالغ في الإنكار عليه.

ويشهد لهذا البعض عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[1] فإن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يشمل الصغائر والكبائر.

ومن العلماء مَن فَصَّل في الكبائر بين ما يتعلق منها بحق الله تعالى، وما يتعلق منها بحق العبد، فقال بغفران الأولى، وعدم غفران الثانية إلا بالتحلل والاسترضاء، وهو تفصيل حسن، ولعل مما يشهد له الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «أترون من المفلس فيكم؟ فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح به في النار[2]، والحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه، أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[3].

وهنا إشكالان يردان على الحديث نرى لزاماً علينا أن نعرض لهما ثم نبين وجه الحق فيهما حتى لا يتلبس الأمر على بعض المطلعين، أو القارئين، ويكون على ثَلَج من آيات القرآن الكريم، والسنة النبوية.

الأول: أن الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر، بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم

(١) سورة النساء: آية ١١٦.

(٢) قال الشيخ: صحيح مسلم: كتاب البر، والصلة، والأدب؛ باب تحريم الظلم.

(٣) قال الشيخ: صحيح البخاري: كتاب المظالم. باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته؟

﴿مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾[1] فالمراد بالسيئات هي الصغائر بدليل مقابلتها للكبائر، وإذا كان الأمر كذلك فما الذي تكفره العمرة؟

الثاني: أنه ورد في هذا الحديث أن العمرة إلى العمرة مكفرة لما بينهما، وفي الأحاديث الصحيحة الأخرى: أن الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه[2] شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» رواه الشيخان وغيرهما.

وأن الجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينها، إذا اجتنبت الكبائر، ففي صحيح مسلم مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تُغْشَ[3] الكبائر».

وكذلك صح أن النبي ﷺ قال: «ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها، وخشوعها، وركوعها، إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهرَ كله» رواه مسلم.

وكذلك صح أن صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية، والمستقبلة، فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة؟ قال: يكفر السنة الماضية، والباقية» رواه مسلم.

وأن صوم يوم عاشوراء يكفر السنة الماضية أيضاً، فعن أبي قتادة أيضاً أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «يكفر السنة الماضية» رواه مسلم، وكذلك ثبت أن قيام ليلة القدر يكفر ما قبلها من الذنوب، عن النبي ﷺ قال: «من يقم ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه الشيخان، فإذا كفرت العمرة فما الذي تكفره الصلوات؟ وإذا كفرت

---

(١) سورة النساء: آية ٣١.

(٢) قال الشيخ: الدرن بفتح الدال والراء آخره نون: الوسخ والقذر.

(٣) قال الشيخ: ما لم تؤتَ وتُرتكب.

الذنوب الصلوات فما الذي يكفره صوم رمضان؟ وإذا كفر صوم رمضان فما الذي تكفره ليلة القدر؟ وهلم جرا.

وأحب أن أؤصل قاعدة قبل أن أجيب عن هذين الإشكالين، وهي: أن كلام الله تبارك وتعالى لا يتعارض قط في الحقيقة ونفس الأمر، وما صح من كلام النبي ﷺ، فهو ﷺ ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فالقرآن والسنة من مشكاة واحدة، وكذلك لا يخالف كلام الله تعالى بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1]، وكذلك لا يخالف الصحيح من كلام النبي ﷺ بعضه بعضاً، فإذا رأى المسلم العاقل شيئاً مما قد يظن أنه تعارض، فلا يتهم الشريعة، وإنما يتهم نفسه، وليبحث بعقل متئد، وقلب مؤمن حتى يصل إلى الحق والصواب، وتتبين له هذه الحقيقة.

أما الجواب عن الإشكالين فإن كل واحدة من هذه العبادات المذكورات صالحة للتكفير فإن وجد ما تكفره هذه الأعمال من الصغائر كفرتها.

وإن صادفت كبيرة أو كبائر، ولم تصادف صغيرة رجونا أن يخفف الله تعالى عن فاعل ذلك من الكبائر بمقدار ما عمل حتى تمحى، وليس ذلك على فضل الله بعزيز.

وإن لم تصادف صغيرة، ولا كبيرة كتبت له بها حسنات، ودفعت له بها درجات، ولكني أحب منك ـ أيها القارىء ـ أن تتأمل وتتفكر في: من ذا الذي تخلو صحيفته من الكبائر فضلاً عن الصغائر؟ ولا سيما في هذا العصر الذي أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر!! ألسنا نرى المنكرات جهاراً نهاراً ولا ننكر؟ ألسنا نرى المعروف مضيعاً ولا نأمر به؟ أليس الكثيرون لا يصلون، ولا يصومون؟! وإذا صلَّوها أخَّروها عن وقتها؟! وتأخير الصلاة عن وقتها كبيرة، ثم من أين لنا أن كل أعمالنا، أو معظمها،

---

(١) سورة النساء: آية ٨٢.

أو بعضها مقبول؟ فلا تستكثر أيها المسلم أعمال الخير والعبادات مهما كثرت، وسل الله العافية في الدنيا والآخرة، ورضي الله تبارك وتعالى عن سيدنا عمر الفاروق الذي تمنى أن يخرج من الدنيا كفافاً: لا له، ولا عليه!! وقد دلَّ هذا الجزء من الحديث على فضل الإكثار من العمرة، وبه احتج بعض العلماء في تأييد مذهب الجمهور في استحباب تكرار العمرة في السنة الواحدة مراراً، وبه قال الأئمة: أبو حنيفة، والشافعيّ، وأحمد وغيرهم، وقال الإمام مالك وأكثر أصحابه: يكره أن يعتمر في السنة أكثر من عمرة، وقال آخرون: لا يعتمر في شهر أكثر من عمرة، وهم جميعاً محجوجون بهذا الحديث، والأصح والأظهر ما ذهب إليه الجمهور، لأن قوله ﷺ خرج مخرج الحثّ على تكرير العمرة، والإكثار منها، ولو حمل الحديث على غير ذلك بأن فُعلت مرة واحدة يلزم أن لا تكون لها فائدة، لأن التكفير مشروط بفعلها ثانية، وبفوات المشروط تفوت الفائدة، وقد طال المقال اليوم فلنرجىء شرح باقي الحديث إلى المقال الآتي إن شاء الله تعالى[1].

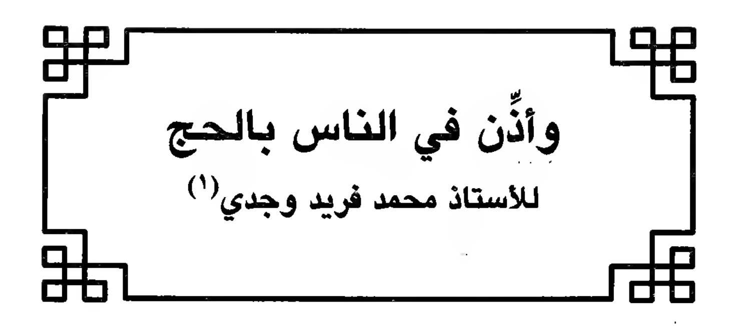


(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٤٣، الجزء التاسع، ذو القعدة سنة ١٣٩١، ص ٨١٥ - ٨٢٠.



٢ ـ تاريخ الحج





وأذِّن في الناس بالحج

للأستاذ محمد فريد وجدي[1]

إنه نظراً لاقتراب موسم الحج، نهيب بكل مسلم إلى انتهاز الفرصة إذا سنحت لهم لأداء هذه الفريضة، لا سيما وقد تيسرت سبل الوصول إلى البلاد المقدسة الآن، وأصبح الحاج يستطيع أن يجد حتى في البلاد العربية من وسائل الراحة ما لا كان يحلم به آباؤنا من قبل.

وقد فرض الله الحج على المستطيعين له، الذين تتوافر لهم الصحة والمقدرة المالية، فمن آنس في نفسه الاستطاعة المشروعة وخف إليه، فقد وقع أجره على الله، وأصبح في كَلأَته وحمايته بفضله وكرمه.

ونحن نريد في هذه المناسبة أن نذكر كلمة في الحج نضمنها ضروباً من الفوائد العلمية والحكم الإسلامية، فنقول:

تاريخ الحج:

الحج من الشؤون الدينية التي كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند

---

(١) محمد فريد بن مصطفى وجدي، مؤلف دائرة المعارف. من الكتاب الفضلاء الباحثين. ولد بالإسكندرية سنة ١٢٩٥ ونشأ بها وبدمياط، وكان أبوه وكيل محافظ بها، وانتقل معه إلى السويس فأصدر بها مجلة الحياة، ثم سكن القاهرة، وعمل في وظيفة صغيرة بديوان الأوقاف، أنشأ بعدها مطبعة أصدر بها جريدة الدستور اليومية، ثم مجلة الوجديات، ونشر بها كتابه «دائرة معارف القرن الرابع عشر، العشرين» وعكف على المطالعة والتصنيف، وتولى تحرير مجلة «الأزهر»، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٧٣. انظر «الأعلام»: ٦/ ٣٢٩.

جميع الأمم، فما من أمة إلا ولها مكان معين أو أمكنة تحج إليها، وحاداً أو جماعات، في وقت واحد أو أوقات متعددة.

فكان لقدماء المصريين وللسُّريان هياكل مقدسة يحجون إليها.

وكان الصينيون ولا يزالون يحجون إلى هياكل معينة في بلاد التبت وبلاد التتار وغيرها.

أما الهنود فحجُّهم إلى هيكل تحت الأرض في جزيرة اليفانتا على سواحل مالابار، أو إلى هيكل جاجرنات أو غيرهما.

أما اليونانيون القدماء فكان لهم في بلادهم وفي مستعمراتهم بآسيا هياكل يقصدونها ليمضوا فيها وقتاً في العبادة والنسك، أشهرها هياكل جوبتير وديانا ومنيرفا... إلخ.

وقد أُمر الإسرائيليون أن يؤموا أورشليم ليمضوا فيه عيد الفصح متعبدين مُخْبتين.

ولما جاءت المسيحية جعلت أمكنة الحج في أول عهدها قبور الأولياء والشهداء، ثم حوَّلته إلى أورشليم، فكانوا طوال عهد القرون الوسطى يقصدونها لأداء هذا الواجب.

الحجاج من أهل الملل السابقة على الإسلام كانوا يرون أن من وجوه الزلفى من الله أن يتكبدوا في حجهم حرجاً شديداً، فكانوا يتعمدون إرهاق أبدانهم، كأن يقصدوا مواطن الحج مشياً على الأقدام، أو حُفاة تُدمي أرجلَهم الرمضاء، ومنهم من كانوا يتوجهون إلى الحج موقرين بسلاسل حديدية تهدّ القوى، أو يقطعون إليه المسافات[1] الشاسعة وهم داخل أكياس ليتعثروا في كل خطوة من خطواتهم.

أما الأتقياء من الصينيين فينذرون أن يطوفوا بتلك الهياكل زحفاً على بطونهم، معتمدين على مرافقهم، أو حاملين أثقالاً باهظة على ظهورهم،

(١) المساوف جمع مسافة: انظر «المعجم الوسيط»: س و ف.

وكان على الكهان أن يعينوا لهم أي أنواع الإرهاق الجثمانيّ أحب إلى الله من غيره.

الحج في الإسلام:

كان العرب قبل الإسلام كسائر الأمم يحجون في عهد جاهليتهم إلى البيت الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في مكة، حتى أن أبرهة عامل أصحمة ملك الحبشة باليمن ابتنى قبل مبعث النبي ﷺ بنحو أربعين سنة كنيسة في صنعاء، وحاول أن يحمل العرب على الحج إليها، فلما لم ينجح في محاولته اعتزم أن يهدم الكعبة، فقصدها على رأس جيش ممتطياً صهوة فيل له، فردَّه الله عنها، ولم يبلغ مراده منها.

ولما جاء الإسلام جعل الحج ركناً من أركانه الخمسة، وهو أشد أركانه كلفة، لذلك أحاطه بكثير من وجوه الإعفاء جرياً على أسلوبه الحكيم في دفع الحرج عن متبعيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[2]، فاشترط له الاستطاعة من صحة ومال، وكره أن يرهق فيه أحد نفسه ولو تطوعاً وتطلباً لزيادة الأجر...

قلنا: أقر الإسلام الحج، ولكنه لم يدعه على ما كان عليه في عهد الجاهلية، فإن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجساد رجالاً ونساءً مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون، وقد سجل الله عليهم ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾[3]. المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وأمر النبي ﷺ لما قوي سلطان الإسلام أن لا يدخل البيت عريان.

---

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

(٢) سورة المائدة: آية ٦.

(٣) سورة الأنفال: آية ٣٥.

ونظّم سلام الله عليه الحج فجعل له أميراً يتقدم الناس ويتفقدهم، ويدفع بوائق الطريق عنهم، حتى إذا انتهوا إلى البيت تولاهم هو وخطباؤه بالإرشاد لخيري الدنيا والدين.

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تعميم العلم بأمر من الأمور خطب به الناس في الموسم، أو أوعز إلى أميره أن يخطب الناس به هنالك.

فحوّل الإسلام الحج على هذا الوجه من عبادة جسدية لا روح فيها إلى عبادة اجتماعية روحية ذات أثر بليغ في ترقية شؤون المسلمين، وقد أشار الله تعالى إلى هذه المزايا العظيمة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ الآية[1]، وقد فسَّر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً، وهذا شأن الإسلام في كل ما فرضه على الناس: يراعى فيه مصلحة الحياتين جميعاً.

فلو أردنا أن نستقصي ما يمكن أن يثمره الحج للمسلمين كافة من وجوه المنافع الأدبية والمادية لضاق علينا المجال، فإن لم يكن فيها إلا تعارف الشعوب الإسلامية، وإلمام بعضها بحاجات بعض، لكفاها ذلك عاملاً قوياً في دفعها إلى تبادل الوسائل والتعاون على سد المفاقر، ولوصلت جميعاً على هذا النحو من التكافل إلى مستوى رفيع بين شعوب العالم.

ولكن هذه الثمرات الاجتماعية الجليلة لا يمكن أن تكون إلا إذا تطورت فكرة الحج لدى المسلمين حتى تبلغ المفهوم من مراد الله من الحج، فإن المشاهد لدى أكثر المسلمين الآن أنهم لا يلحظون فيه إلا الناحية الروحية وحدها، وكان لتجريده لهذه الناحية أثر ظاهر في حصره في طبقة من المسلمين لا تتعداها إلا نادراً.

إذا تقرر هذا كان من أوجب واجباتنا أن ننوه بمنافع الحج للدين

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

والدنيا معاً، وأن نكثر من ترويج هذه الحقيقة في الأذهان، وأن ننبه خطباء المساجد إلى ملاحظة هذا الأمر الجلل في شهور الموسم من كل عام.

ولكنا نعلم من ناحية أخرى أن هذه الدعوة لا تنتج كل ما يرجى منها إلا بارتقاء العمران في البلاد المقدسة، وتيسير سبل الوصول إليها، أما الشطر الثاني من هذا الشرط فقد تم بما خصص للحج من بواخر إسلامية تُعنى جد العناية براحة الحجاج في ذهابهم وإيابهم، مما أصبح مفخرة لمصر، ونرجو أن يحذو حذوها جميع الأقطار الإسلامية.

وأما الشطر الأول منه ـ وهو انتشار العمران في البلاد المقدسة ـ فأدعى للعناية، فقد مرَّ على الناس زمان كانت الشُّقَّة بين مكة والمدينة مخوفة إلى حد أنه كان من المخاطرة بالنفس اجتيازها، هذا فضلاً عن أنها كانت تقطع على الإبل فتظل هذه الحيوانات تسير سيرها الوئيد اثني عشر يوماً، ويضطر من عليها من الشيوخ والنساء أن يمضوا لياليها في وسط فيافٍ[1] جرداء، أوديان موحشة، محرومين من جميع وسائل الإسعاف، وقد تغير ذلك اليوم، فتعلم أذكياء العرب تسيير الأوتوموبيلات[2]، فصارت تُقطع تلك الشقة في ثلاث، ولكن الثلاث كثيرة على الناس أيضاً في مثل هذا العصر، فلا بد من اختصارها إلى يوم واحد بواسطة خط حديديّ يمد بين مدينتي الحرمين، يكون فيه كل وسائل الراحة لقاصدي أداء هذه الفريضة.

ويجب أن تنشأ في مكة والمدينة فنادق على الطراز الحديث، وأن يستكثر فيهما من عدد الأطباء والصيدليات، وأن يدخل إليهما جميع المستحدثات النافعة من الأنوار الكهربائية والخطوط التلغرافية والتليفونية، السلكية واللاسلكية، والبُرُد الجوية، حتى لا يشعر الحجاج بانقطاعهم عن العالم.

نعم: إن هذه التجديدات سائرة هنالك بحيث يرجى لها أن تنتهي إلى

(١) أي صحارى.

(٢) أي العربات الآلية (السيارات).

هذه النهاية، ولكن يجب العمل على تنشيطها بكل ما يستطيعه المسلمون من وسيلة، سواء أكان ذلك بتأليف الشركات، أو بالتبرع بالمال لجماعة تنتدب لإحداث هذه الأعمال. بهذه الوسيلة يتضاعف عدد الحجاج، فبعد أن يكون أكبر عدد للحجاج مائتي ألف من سائر الأقطار قد يبلغ المليونين بل أكثر من ذلك، وفي هذا رواج عظيم للشركات التي تقوم بهذه المنشآت، وباب رزق واسع للعرب الذين يعتبرون موسم الحج حيلتهم الوحيدة في الحياة.

ربما يرى بعضهم أنه كلما كثرت المشاق من أداء فريضة الحج ازداد ثواب الحاج، هذا لا مشاحة فيه، ولكن لا يجوز الإبقاء على هذه المشاق لمصلحة بعض المتطوعين، في سبيل حرمان أكثر المسلمين من أداء هذه الفريضة، إذ ليسوا كلهم من قبيل هؤلاء المتطوعين، والإسلام جاء باليسر في كل شيء، ورفع الحرج عن كل ما يتعلق بالدين، فهو دين الكافة لا دين طائفة من الناس، وقد بُني على التيسير لحكمة عالية وغرض عظيم.

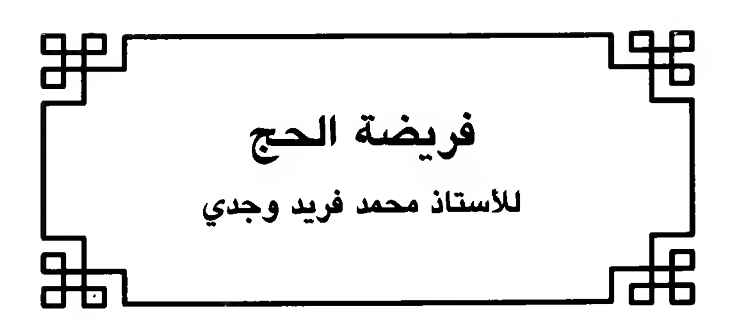
فهل خير للمسلمين أن يحجَّ عدد قليل يجازفون بحياتهم لينالوا أكبر حظ من الثواب بسبب المشاق والأخطار التي يتعرضون لها، أم أن يحج منهم عدد كبير لا يتكبدون مثل هذه المشاق، ولا يتعرضون لمثل تلك الأخطار، مكتفين بثواب القائمين بما فرضه الدين؟

لا أظن أن يحدث خلاف في أي هذين الأمرين خير للمسلمين، لا لأن المصحة تقضي به، ولكن لأنه يوافق روح الإسلام من الرفق والتيسير ودفع الحرج والعنت في كل شيء، عملاً بقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1][2].



(١) سورة االمائدة: آية ٦.

(٢) مجلة «الأزهر»: المجلد ٦، الجزء العاشر، شوال سنة ١٣٥٤، ص ٧١٥ ـ ٧٢٠.



فريضة الحج

للأستاذ محمد فريد وجدي

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾[١].

صدق الله العظيم، لقد مضى على نزول هذه الآية نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن، ولا تزال تتجاوب بأصدائها أقطار الأرض إلى اليوم، وقد امتد مداها بتوالي الأحقاب حتى اجتازت السهوب والأقيانوسات[٢] وأصبحت عالمية عامة، ليس لها في العالم شبيه كما ترى، أثر واضح شديد الوقع في النفس لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٣].

يَعِد قيوم الوجود الآخذين بهذا الدين بأن الناس سيرون آياته على توالي الأيام في آفاق العالم، وفي أنفسهم حتى يتبينوا أنه الدين الحق، وعدٌ غير مكذوب، ظهرت تباشيره في كل مكان، حتى اضطر مثل الكاتب الفيلسوف الأشهر برناردشو أن يقول: إن المستقبل كله للإسلام، وإن مصير العالم إليه على أكبر تقدير بعد قرنين.

---

(١) سورة الحج: آية ٢٧.

(٢) السَّهب: الفلاة من الأرض جمعها سُهُب: انظر «المعجم الوسيط»: س هـ ب.
والاقيانوسات: البحار العظيمة: المصدر السابق ١/ ٢٢.

(٣) سورة فصلت: آية ٥٣.

لا تجيل بصرك في أي بقعة من بقاع الأرض حتى ترى الدعوة إليه تسود كل دعوة، وهل بعد أن يجد هذا الدين من الفلاسفة ورجال العلم معضداً له شكٌ في أنه سيكون دين العالم كله بعد قرنين أو بعد عدة قرون؟

دين يدعو إلى الأخذ بكل حسن مما هو معروف وما سيعرف إلى آخر الزمان، وإلى التعويل على ما عُرف أنه حق، وما يثبت أنه كذلك في خلال العصور، وإلى الخضوع لسلطان العقل والميل معه حيث مال، ولو بتأويل النصوص التي يوهم ظاهرها غير ما يقره هذا العقل المستنير بالعلم والحكمة[1]، دين كهذا لا يعقل أن يقف حيث هو أو يضمحل، ولا يتصور أن لا يكون دين العالم كله متى زالت الجهالة، وامَّحَى أثر التقليد، وبطل سلطان الوراثات.

ألا ترى أن جميع الأديان قد تراجعت إلى الوراء إلا الإسلام؟ وهي لم تتراجع لأنها من توليدات الأوهام، ولكن لأنها قد حُمّلت آصاراً[2] من آراء قادتها، وتحجرت حتى لم تعد سائغة في عقول الآخذين بها، وخلفها الإسلام، لا لأنه شيء جديد، ولكن لأنه هو هي خالصةً لا تشوبها شائبة من هوى، كما نزل بها الروح الأمين، على قلوب الأنبياء والمرسلين: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[3].

هذه كلمة نسوقها بين يدي ما سنذكره عن الحج، وقد رأينا أفواجهم تستقل الفُلْك ميممة البلاد المقدسة، ملبّين داعي الله إلى بيته المحرَّم، مَظهرٌ يلفت النظر، ويستدعي التفكير، لا لأنه طريف، فالسفر إلى الحج مألوف في جميع بلاد المسلمين، ولكن لأن الحجيج في هذه السنين الأخيرة يكثر بينهم من كان لا يخطر لهم على بال من المترفين والسُّراة، وقد كان في الفترة التي تقدمت هذا العهد يكاد يكون مقصوراً على طبقة معينة من الأمة.

---

(١) لتأويل النصوص ضوابط لا يتسع المجال لذكرها هنا لكنه ينبغي أن أذكر أنه لم ولن يتعارض نص شرعي قطعي الدلالة مع نظر عقلي أبداً، والله تعالى أعلم.

(٢) الآصار: جمع إصر، وهو العهد المؤكد والميثاق: «المعجم الوسيط»: أ ص ر.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٦٨.

ظاهرة دينية تستدعي التأمل، ولقد تأملنا فيها فرأيناها ترجع إلى ثلاثة أسباب:

أولها: الأمن على النفس.

وثانيها: تحسن وسائل الانتقال.

وثالثها: يقظة العاطفة الدينية في القلوب.

فأما الأمن على النفس فيرجع الفضل فيه للحكومة الحجازية، فإن جلالة الملك ابن السعود لم يألُ جهداً في الأخذ على أيدي العابثين بحياة الحجيج وأموالهم، حتى طهرت الطرق من مناسرهم[1]، وخلت الصحارى من غوائلهم[2].

وأما تحسين وسائل النقل، فهو من مآثر رجال بنك مصر وعلى رأسهم المالي العظيم محمد طلعت حرب باشا[3]، فإنه لا يفتأ يبذل في هذا السبيل جهداً محموداً، فمن سفن مستكملة وسائل الراحة، إلى أوتوموبيلات تنقل الناس لمكة وعرفة ومنى والمدينة، إلى دور ورياش يأوي إليها الحجاج، يؤتون فيها بما تعودوه من مأكل ومشرب، وأماكن للنوم.

أما يقظة العاطفة الدينية فهي ذات التأثير الغالب في حمل عِلْية القوم ومتعلميهم على أداء هذه الفريضة، وهي تستمد عواملها من البحوث القيِّمة التي كتبت في التدليل على صحة الدين، وعلى سلامة أصوله من الوهن، وعلى تأديته لسعادتي الحياتين معاً.

ولا يحسن بنا في هذا الموطن أن نغمط حق العلم، فإنه بفضل المستكشفات التي هُدي إليها العلماء في المادة، حتى انتهى الأمر إلى تحليلها إلى قوة، وفي النفس البشرية من الناحية التجريبية حتى ثبت علمياً

---

(١) جمع منسر وهم جماعة اللصوص، انظر «المعجم الوسيط»: ن س ر.

(٢) دواهيهم ومصائبهم: «المعجم الوسيط»: غ و ل.

(٣) هو الزعيم المصري الاقتصادي المشهور. ولد سنة ١٢٩٣. أنشأ عدداً من الشركات، وأنشأ بنك مصر بعد معارضة. وهو إلى ذلك كاتب باحث له عدة مصنفات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٦٠. انظر «الأعلام»: ٦/ ١٧٥.

استقلال الروح عن الجسد وإمكان قيامها بدونه، مما أفضى إلى القول بخلودها في عالم روحاني، وقد شوهدت آثار هذا العالم بما لا يمكن التشكك فيه، بفضل هذه المستكشفات كلها قام الدليل العمليّ على صدق الأديان فيما أتت به من العقائد الغيبية، كل هذا كان له تأثير عظيم في إيقاظ العاطفة الدينية، وصرف الإنسان عن التعاليم الإلحادية التي بذل أنصارها نحو ثلاثة قرون في بثها في العقول، وحملها على منابذة الأديان، والتفصي من علائقها[1].

وبما أن ما حصله العالم في هذا المجال يعتبر من العلوم اليقينية، فينتظر أن تزداد أصول الدين قوة على قوتها، وتجد من النفس ميلاً إلى تقوية الارتباط بها.

فعلى هذا النحو زالت أكبر عقبة كانت قائمة باسم العلم أمام الأديان، بل أمام الإسلام، وأصبحت الطريق مفتوحة حياله ليصل بالناس إلى السمو الروحانيّ والخلقيّ الذي خلقهم الله ليصلوا إليه، واعتبر الحياة بدونه لهواً ولعباً، ليست من شأن الإنسانية في شيء.

يختلف الحج في الإسلام عن الحج في جميع الأديان، فإن الحج فيها كان الغرض منه التبرك بقبور القديسين، وما تركوه من الآثار والمباني، وأفضله عندها ما حمّل الإنسان نفسه في سبيله المشاق والمهالك، وكان الكهنة والرهابنة يفتئُون لهم في تعيين ضروب المرهقات البدنية، فكان منهم من يثقل كاهله بالسلاسل والأغلال، ومنهم من يمشي على قدميه المسافات الشاسعة، ومنهم من يمشي داخل كيس يتعثر فيه في كل خطوة، ومنهم من كانوا يطوفون حول معابدهم زحفاً على بطونهم، ولكن الإسلام كره كل ذلك فشرط أن لا يحج إلا من كان قادراً على الحج، ونهى أن يُحمّل الإنسان نفسه ما يرهقها، حتى إن النبي ﷺ رأى هرماً يمشي بين ولديه، فسأل عن شأنه فقيل له: إنه نذر أن يحج ماشياً، فكره ذلك، وقال: إن الله غني عن تعذيب هذا نفسَه، وأمر أن يحمل على بعير، وكان هذا منه ﷺ

---

(١) أي التفلت.

عملاً بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1].

ذلك لأن الإسلام قد رمى في كل ما شرع إلى إبلاغ الإنسان كماله الذي خلق له، ومُنح القوى الأدبية التي توصله إليه، وهذا الكمال كما قرره الإسلام لا ينال إلا بالعلم الصحيح، وتطهير العقل من الوساوس، والقلب من طَبَع الصفات البهيمية، وهذا عينه ما تراه الفلسفة ويؤيده العلم الطبيعيّ، وقد جرى الإسلام في كل أوامره ونواهيه على هذه السُّنة قبل أن يكون للعالم في هذا الشأن علم قائم بنفسه.

نعم إن الفلاسفة القدماء من اليونانيين قد كتبوا كتابات قيمة في هذا الشأن، ولكنهم لم يصلوا في كثير من مقومات العقل والقلب إلى المدى الذي وصل إليه الإسلام، ونحن نضرب لذلك أمثلة:

اعتبرت الفلسفة اليونانية الجنس الإغريقيّ خير الأجناس البشرية، ولكن الإسلام لم يجعل الجنس مقياساً للتفاضل بين الناس، فقد ساوى بين جميع الأجناس، وجعل معيار التفاضل التقوى. وهذا أصل أقره العلم في القرون الأخيرة، ولا يزال يوجد في الفلسفات الحديثة ما لا يقره ذهاباً منها إلى أن الجنس الأبيض خير الأجناس كلها، وأقبل من سائرها للكمال الأدبيّ، وهذا خطأ فاحش.

وحسبت الفلسفة اليونانية أن للأرقاء منزلة أمام العدالة أدنى من منزلة الأحرار، ولا يرى الإسلام ذلك، ويحسب جميع الناس سواء أمام الشريعة، أما الرق في نفسه فعَرَضٌ اقتضته شؤون لا دخل لها في أصل المساواة العامة، التي هي نصيب الكافة على السواء.

وعدَّت الفلسفة اليونانية المهن المختلفة سبباً للتفاوت بين الناس في الحقوق الوطنية، فسلبت العمال كل هذه الحقوق، وجعلتها وقفاً على الأشراف وأهل اليسار، والإسلام عد الناس كلهم سواء في التمتع بهذه

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

الحقوق لا فرق بين عاملٍ ماهن[1]، وسَرِيّ كبير[2]، ولا بين فقيرٍ مدقع، وثري خطير.

فهذا وأمثاله يعتبر نقصاً عظيماً في الفلسفة الأدبية، والأخذ بها لا يوصل الإنسان إلى السمو الخالص من الشوائب الجدير بالقلب الإنسانيّ الذي يعكر صفاءه أن يكون فيه أثر من أمثال هذه الأخطاء الفاحشة في تقدير العدالة والمساواة والحقوق الطبيعية.

فلم يصل الناس إلى تذوق الديموقراطية الصحيحة إلا في هذا العهد، بعد أن رسم الإسلام دائرتها بنحو ألف ومائتي سنة.

فلا عجب بعد هذا أن يشرع الإسلام الحج للآخذين به، وينص على أنه شُرع لمحض مصلحتهم يقومون به قادرين عليه، أصحاء الجسوم والعقول، بأكمل الوسائل وأوفقها لراحتهم الجسدية والعقلية، ولو استطاعوا أن يقطعوا المسافة الشاسعة بين بلادهم والأماكن المقدسة في ساعة من زمان، فإذا توهم بعضهم أن يعدل عن هذه الوسيلة المريحة إلى ما هو أشق على نفسه منها فإن الإسلام يكره منه ذلك ولا يعتبره موصلاً إلى الكمال الذي ينشده، وقد دلَّه على أن ذلك الكمال لا يتأتى إلا من طريقيه العلمي والتطهيريّ، لا من تعذيب النفس وإرهاقها بالمشاق وتعريضها للأمراض والقواطع، حتى إن النبي ﷺ ـ جرياً على هذه القاعدة ـ، أمر من يؤم الناس أن يخفف في صلاته، لأنه قد يكون فيمن يأتمون به المريض وذو الحاجة.

فسُقياً للرجال الذين يعملون على تسهيل الحج على المسلمين، فإنهم إنما يعملون لخدمة الإسلام من أخص النواحي، وأعودها بالخير على أهله[3].

---

(١) أي صاحب مِهنة.

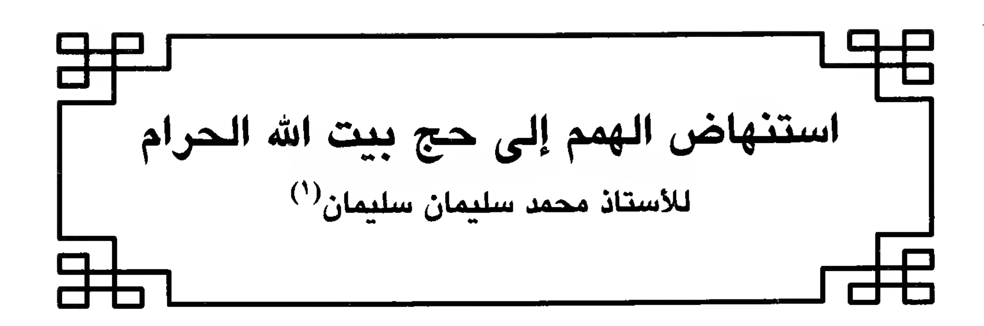
(٢) أي وجيه.

(٣) مجلة «الأزهر»: المجلد ٧، ص ٧٢٤ ـ ٧٢٨.



٣ ـ التشويق إلى الحج





استنهاض الهمم إلى حج بيت الله الحرام

للأستاذ محمد سليمان سليمان[1]

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[2].

عباد الله..

أوجب الله تعالى الحج وفرضه على عباده القادرين، وألزمهم جميعاً بالتجهز مرة في العمر إلى التشرف بحرمه المبارك الأمين، ودعاهم على لسان رسله إلى زيارة الأماكن المقدسة فهنيئاً للمستجيبين، الذين لم تحجزهم عن القيام بهذا الفرض نفقاته، ولم تثن عزائمهم متاعب الطريق ومشقاته، ولم تزعزع نواياهم وساوس الشيطان الرجيم ونزغاته، بل غلبهم الشوق فطارت قلوبهم قبل أجسادهم إلى حيث الخير الجزيل، والفيض الواسع العميم، هنيئاً لهم حيث تجردوا من ثيابهم بعد مفارقة ديارهم، هنيئاً لهم حيث أحرموا مخلصين بحجهم، هنيئاً لهم حيث رفعوا أصواتهم بالتلبية والثناء على ربهم، هنيئاً لهم حيث بسطوا أكفَّهم بالدعاء، ووجلت قلوبهم وهطلت عبراتهم من خشية رب الأرض والسماء، وتضرعوا إلى مولاهم بقلوب ملؤها حسن الظن وكبير الرجاء، فأنالهم صفحه، ومنحهم عفوه، وهو الغفور الرحيم.

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

هنيئاً لهم حيث تحركت مطاياهم إلى عرفات، وشكر الله لهم تلكم الخطوات، وسجلتها لهم الملائكة في صحيفة الحسنات، هنيئاً لهم حيث صفوا أقدامهم على جبل الرحمة باكين متذللين، ثم نفروا إلى المزدلفة ووقفوا بالمشعر الحرام داعين مهللين، ثم أتبعوا ذلك برمي الجمار إرغاماً لأعدائهم الشياطين، هنيئاً لهم كلما طافوا وسعوا، وتشرفت أيديهم باستلام الحجر وصدورهم بالتزام الحطيم، الله أكبر إذ أتموا مناسك الحج وهرعوا إلى الزيارة فرحين، الله أكبر إذ أشرقت على وجوههم أنوار النبي الأمين، الله أكبر إذ تشرفوا بروضته ووقفوا في حضرته مُسَلِّمين، الله أكبر وفي هذا المقام تهتز القلوب وتنصقل الضمائر، وترفع الأماني والآمال إلى العليم بخفايا السرائر، وتحق شفاعة الرسول لكل زائرة وزائر، الله أكبر وحُقَّ للأرواح والأموال أن ترخص لقاء هذا الشرف الجسيم.

هنيئاً حقاً لهؤلاء الأبرار وطوبى لهم، وما أوسع عطاءهم وأجزل مثوبتهم وبرهم، وما أعظم حبورهم وأنضر وجوههم يوم يلقون ربهم، وتعساً والله وسحقاً وخزياً دائماً ومقتاً، لمن خضعوا لوحي الشيطان، ورضوا لأنفسهم موقف الإبعاد والحرمان، وآثروا كنز المال على زيارة الرسول والتشرّف بمكة مهبط القرآن، فباءوا بغضب على غضب ولهم يوم القيامة عذاب أليم.

ما عذرك أيها الغني إذا أوقفك ربك يوم القيامة موقف الذل والصَّغار، وعدَّد عليك ما خولك إياه في الدنيا من الأموال والعقار، وذكرك بما حباك به من القوة والاقتدار، ثم سألك: أما بلغك يا عبدي النداء؟ أما كنت مستطيعاً قادراً على تحمل المشقة والعناء؟ ولماذا يا عبدي تعرض عني وقد غمرتك بالخير والنعماء؟ وبم تجيب يا مسكين في هذا الموقف الهائل العظيم؟

اتق الله عبدالله، وراجع نفسك منفرداً وذكِّرها بصولة هذا الخطاب، وناقشها الحساب ـ الآن ـ قبل أن يشدد عليك في الغد الحساب، وطالبها بالاعتذار الكافي الذي ينجيك من العقاب، فإن عجزت ـ وهي لا بد عاجزة ـ

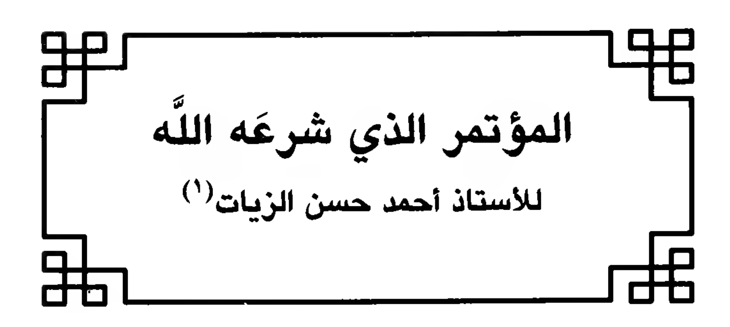
فأنِّبها على التقصير، وألهبها بسياط التقريع والتخويف من عذاب السعير، ثم أتبع ذلك بتشويقها إلى ما في الحج من الخير الوافي والفضل الكبير، وكرر عليها ذلك فإنها لا بد منقادة إلى الحق متشوفة إلى ذلك النعيم المقيم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما[2]...



(١) سورة ق: آية ٣٧.

(٢) مجلة «الإسلام»: السنة ٤، العدد ٤٤، ص ٢٠٦٥ ـ ٢٠٦٦.



المؤتمر الذي شرعَه اللّٰه

للأستاذ أحمد حسن الزيات[1]

أذن هلال ذي الحجة في المسلمين بالحج فأتوا بيت الله من كل فج عميق ومن كل قطر سحيق رجالاً وعلى كل ضامر، وفوق كل عائم وطائر، ليشهدوا المؤتمر الإسلامي الإلٰهي الذي فرض الله شهوده على كل مسلم مرة في العمر، ليؤلف القلوب في ذات الله، ويؤاخي الشعوب في نسب الحق، ويستعرض علائق الناس في كل عام فيوشجها بالإحسان، ويوثقها بالتضامن، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنضر، وعلى العزائم الخابية فتذكو، ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية والمدنية الآلية والمطامع الاستعمارية، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة جؤاراً تردده الصحراء والسماء.

وما أحوجَ المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر، لقد طالما حصرهم المستعمرون في أوطانهم المغصوبة ثم قطعوا بينهم الأسباب، وحرموا عليهم

(١) أحمد بن حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة. ولد سنة ١٣٠٢ في قرية بطلخا، في مصر. وكان أديباً من كبار الكتاب. دخل الأزهر لكن فصل قبل إتمام دراسته، وتعلم في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة، ودرَّس الأدب العربي في بعض المدارس وفي المدرسة الأمريكية بالقاهرة، ثم في دار المعلمين العليا ببغداد. انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكان قبل ذلك عضواً في مجمع دمشق، وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر من سنة ١٣٧٢ ـ ١٣٧٤. توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٨ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ١/١١٣ ـ ١١٤.

التواصل، وفصلوا حاضرهم عن الماضي الملهم، والمستقبل الواعد بطمس التاريخ، وقتل اللغة، وإطفاء الدين، فلم تكن لهم جمعة إلا في موسم الحج لو خلوا بينهم وبينه، ويسروا لهم اللقاء فيه، ولكن الحوائل كانت تحول في العلن، والحبائل كانت تنصب في السر، فلم يكن للحج تلك الحكمة التي أرادها الله من شرعه، ولا للمسلمين تلك الرادة التي يردها عليهم من نفعه.

كان ذلك والشمل شتيت، والرأي مختلف، والقوة مبعثرة، والوطن محتل، والإرادة أجنبية، فلما خشع الاستعمار، وخضع البغاة، وجلا الدخيل، وأصبح الحكم خالصاً للإسلام في الدول العربية الأربع عشرة، والعاهليات الإسلامية الخمس، لم يعد يفصل بين المسلم وأخيه من المغرب إلى المشرق إلا تخوم جغرافية ورسوم سياسية لا تقطع قلباً عن قلب، ولا تمنع يداً عن يد، ولا تحبس لساناً عن لسان، ولا تحول بين أخوة النسب وإخوان العقيدة أن يتلاقوا في ميقات الله على أم القرى ليذكروا اسمه جلَّ وعز في أيام معلومات على ما أفضل عليهم من نعمة الإسلام، ووحدة الإيمان، وإجابة إبراهيم[1] وتفدية إسماعيل، وبعثة المصطفى خاتم الرسل وفاتح العالم الجديد.

❃ ❃ ❃

إن الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، كما يقوم على الثلاثة الأركان الأخرى الأمر بين المرء وربه وبين المرء وقلبه، فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة، والحج يقيمه على التعارف والألفة، فيحقق الأول معنى الإخاء بنفي العقوق، ويحقق الآخر معنى المساواة بمحو الفروق، والإخاء والمساواة شعار الإسلام، وقاعدة السلام، وملاك الحرية، ومعنى المدنية الحق، وروح الديمقراطية الصحيحة.

---

(١) قال الأستاذ: إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ سورة إبراهيم: آية ٣٧.

كان الحج ولا يزال مطهر الدنيا، يرحض عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة.

وكان الحج ولا يزال ينبوع السلامة تبرد عليه الأكباد الصادية[1] وترفه لديه الأعصاب المرهقة.

وكان الحج ولا يزال مثابة الأمن، تأنس فيه الروح إلى موطن الإلهام، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلٰهيّ في هذه الأرض السماوية.

وكان الحج ولا يزال موعد المسلمين في أقطار الأرض على عرفات يتصافقون[2] على الوداد، ويتآلفون على البعاد، ويقفون سواسية أمام الله حاسري الرؤوس، خاشعي النفوس، يرفعون إليه دعوات واحدة في كلمات واحدة، تصعد بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تصعد البخور من مجامر الطيب، أو العطور من نوافح الروض، هنالك يقف المسلمون في هذا الحشر الدنيويّ حيث وقف صاحب الرسالة وحواريو النبوة وخلفاء الدعوة وأمراء العرب وملوك الإسلام وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن، فيمزجون الذكرى بالذكر، ويصلون النظر بالفكر، ويذكرون في هذه البقعة المحدودة وفي تلك الساعة الموعودة، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض، ونزل الدين على الدنيا وتجلّى الله للإنسان، ونبتت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب وثمرات العقل والقلب، وبينات الهدى والسكينة.

إن في كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للفداء ورمزاً للبطولة، فالحج إليها إيحاء بالعزة، وحفز إلى السمو، وحث على التحرر، وتذكير بالوحدة، هنا غار حراء مهبط الوحي، وهنا دار الأرقم رمز التضحية، وهنا غار ثور منشأ المجد، وهذا هو البيت الذي احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلي وعمرو وسعد وخالد، وهذه هو الشِّعْب وذاك بحر أذيال الغطاريف[3] من بني هاشم

---

(١) أي العطشى.

(٢) أي يجتمعون: انظر «المعجم الوسيط»: ص ف ق.

(٣) جمع غطريف وهو السيد الكريم.

وبني أمية. وتلك هي البطحاء التي درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة!

***

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1] وشرط الاستطاعة قد تحقق للكثير في هذا العهد لعموم الرخاء وحصول الأمن، فأنت تستطيع بالمال اليسير وفي الزمن القصير أن تحج على الباخرة أو السيارة أو الطائرة دون أن تعرض حياتك للموت، وثروتك للنهب، وصحتك للمرض.

لقد كان الحج لرهقه الشديد وجهاده الجاهد سيكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعمال، أما الناعمون المترفون من ذوي الرأي وأصحاب الزعامة فما كانوا يقدمون عليه ولا يفكرون فيه، فظل جدواه على المسلمين ضئيلاً لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة.

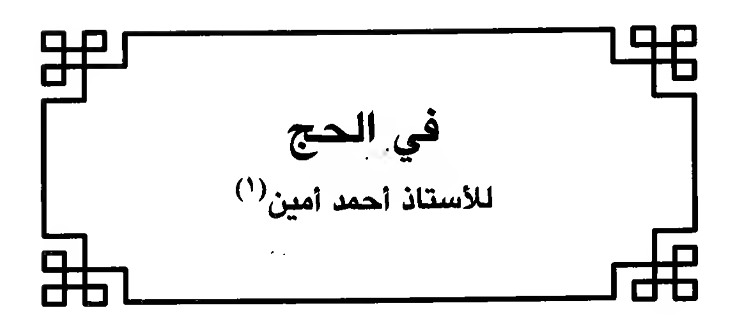
فماذا يمنع رؤساء العرب وزعماء المسلمين أن يتوافوا على ميعاد الله في أرض رسوله ليحققوا حكمة الحج بالتشاور في أمور دينهم وشؤون دنياهم على النية الصادقة والرأي الجامع والغرض المشترك؟

إن في حجهم البيت زمناً بعد زمن إعلاء لشأن الملة، وإغراء بأداء الفريضة، وسعياً لجمع الكلمة، وسبيلاً إلى عموم الوحدة، وإن البيت العتيق الذي انبثق منه النور ونزل من سمائه الفرقان وانتظم عليه الشمل لا يزال مناراً للأمة ومثاراً للهمة، ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد والمستقبل السعيد[2].



(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢) مجلة «الأزهر»: السنة ٣٩، الجزء ١٠، ذو الحجة، سنة ١٣٨٧، ص ٨٠١ ـ ٨٠٣.



في الحج

للأستاذ أحمد أمين[١]

الحج رياضة روحية ورحلة دينية، طالبت به الأديان على اختلاف أشكالها وأزمانها، فالمصريون القدماء كانوا يحجون، واليونان كانوا يحجون، والصينيون والهنود والنصارى واليهود كل أولئك يحجون لما في الحج من مزايات روحية لا تنال بغير الحج.

وكان العرب قبل الإسلام بقرون يحجّون إلى الكعبة ويأتون بأعماله من طواف وسعي ووقوف بعرفة وغير ذلك من شعائر الحج، فجاء الإسلام وأقرَّ بعض الشعائر مما يتفق مع تعاليمه وأنكر بعضها، ولكنه ـ على العموم ـ غير النية وهي أساس العبادات، فبعد أن كانوا يتقربون للأصنام المنصوبة في الكعبة كسر هذه الأصنام وجعل العبادة لله وحده، وليس الحج إلى الكعبة إلا تعظيم لبيت من بيوت الله، ورمزاً إلى الأمكنة المقدسة التي عبد الله فيها إبراهيم وإسماعيل وغيرهما من الأنبياء والصديقين.

طهره الإسلام من الأوثان وجعله رمزاً لعبادة الله، وجعل ما فيه من

---

(١) أحمد أمين الطبَّاخ. عالم بالأدب، غزير الاطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب، اشتهر باسمه أحمد أمين. ولد بالقاهرة سنة ١٢٩٥ وتوفي بها رحمه الله تعالى سنة ١٣٧٣. درس القضاء بمدرسة القضاء الشرعي وتولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية، ثم عين مدرساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وكان عضواً في مجامع اللغة بالقاهرة ودمشق وبغداد، وهو من أكثر الكتاب المصريين كتباً ومقالات. ومنح لقب دكتور فخرياً.

الشعائر ذكرى لأبينا إبراهيم عليه السلام في سعيه وطوافه، ومجتمعاً للنفوس الطاهرة تدعو ربها وتطلب منه الرحمة والمغفرة، وتتقرب إليه بهيئات مأثورة عن أسلافهم، ويسعد به المسلمون بالهجرة من ديارهم في سبيل الله وتحمل المشاق لمرضاته ومجاهدة النفس بتركها شهواتها والتفرغ لعبادة الله وحده، وليجتمع الحجاج من أقطار الأرض في مكان فسيح واحد يتبادلون في الرأي في خير المسلمين ومصالحهم ومشاكلهم، ويتجاوبون فيه الإيمان بالله والصدق في عبادته والدعوات لتوفيقه، إلى غير ذلك من مزايا للحج لا تحصى...

وعد الحج ركناً من أركان الإسلام الخمسة، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وليس ذكر الحج في آخر الأركان إلا أنه عبادة العمر، وختام الأمر، وتمام الإسلام، وكمال الدين.

وفي الحق أن في الحج فوائد دينية عديدة، فالحاج إذا نوى السفر من وطنه استحضر أعماله واستذكر سيئاته وندم عليها وتهيؤت نفسه لقبول الخير، فكان في ذلك طهارة من ذنوبه وحسن استعداد لطهارة نفسه وقربها من الخير وبعدها عن الشر.

والتجأ إلى الله أن يحفظه في أهله وماله وولده، وأن يوفقه للبر والتقوى وأن يرزقه في سفره سلامة البدن والدين والمال ويبلغه حجه على أحسن وجه وأكمله، وفي هذا كله طهارة لنفسه وقوة لروحانيته.

فإذا تقدم في أعمال الحج فأول ما يواجهه الإحرام وهو أن يتجرد الرجل من كل ثوب مخيط ويلبس إزاراً ورداء، ويلبس في رجليه نعلين، وتلبس المرأة ثيابها وتكشف وجهها وكفيها، ويَعُجُّون[1] إذ ذاك بالتلبية: لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك

(١) يرفعون أصواتهم.

والملك، لا شريك لك. فترى الناس إذا أحرموا لبسوا اللباس الأبيض البسيط، واختير اللون الأبيض لأنه أدل على الطهارة والنظافة، والطهارة والنظافة في الثياب تشعران بالطهارة والنظافة في النفس، وحرم المخيط من الثياب رمزاً إلى أن الإنسان خارج إلى ربه من زخارف الدنيا وما فيها، لأن لبس المخيط من الثياب وسيلة التفاوت بين اللابسين، فيكون الحج مظهراً للأزياء المختلفة والصناعات المتفاوتة، والإسلام يريد في مثل هذا الموقف إشعار الناس بأنهم أمام الله سواء لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وملكهم وصعلوكهم، وهذا مظهر من مظاهر المساواة في الإسلام، وكثيراً ما قصد الإسلام إلى المساواة في أكثر العبادات تأكيداً لمعنى أن الله لا يعبأ بالغني لغناه، ولا يصد عن الفقير لفقره، وأن القيمة الحقيقية للإنسان في نفسه وفضائله لا في ماله ولا في ملبسه ولا في جاهه.

ومن أجل هذا كان منظر الإحرام للحجاج ـ إذا وصلوا إلى نقطة معينة في السفر ـ منظراً آخذاً بالنفس، يشعر فيه المسلمون كلهم بالمساواة، ويدل بياض ثيابهم على بياض نفوسهم، ويشعرون بالأخوة التامة لا فرق بينهم في الجنس ولا في اللغة، ولا في أي عرض من أعراض الدنيا، وشعارهم الدائم هو التلبية، ومعناها رجوع النفس لربها، وسؤال الله أن يوفقها للخير، ويمنَّ عليها بالطاعة، ويطهرها مما علق بها من زخرف الدنيا وأباطيلها.

ومن أجل هذا عُدَّ الإحرام ركناً أساسياً من أركان الحج، إذ به تتهيأ النفس لما يلي من أعمال.

وهو ـ إذا أحرم ـ نوى أنه يحرم للحج. . .

وهو في هذه الحال كلما قابل أحداً أو دخل مجتمعاً أو صعد أو هبط كرر: لبيك اللهمَّ لبيك، ليذكر دائماً موقفه أمام ربه، وليحفظ على النفس طهارتها وصفاءها وشوقها إلى خالقها.

ولا يزال الحاج على هذه الحالة النفسية، بين إحرام وتلبية، ، ونفكُّر في الله وتضرع إليه حتى يدخل مكة، ويصل إلى الحرم المكيّ وفيه الكعبة.

وهو في هذا كله يرتاض رياضة بدنية إلى جانب هذه الرياضة

الروحية، فهذا العيش البسيط والملبس البسيط والحركة الدائمة والسفر ومتاعبه يجعل من الإنسان رجلاً قادراً على احتمال الشاق، غير منغمس في النعيم الذي يذهب بالرجولة، وتعده للقدرة على العمل الصالح إذا دعا داعي الوطن أو داعي الدين، وهو بمثابة التمرين العسكريّ الذي تفرضه الأمم الحية على أبنائها فترة من الزمن كل سنة فيتعودون خشونة العيش، ومواجهة الصعاب، وهذا الإحرام يفوق التجنيد في أن التجنيد رياضة جسمية في أكثر حالاتها، وأما رياضة الإحرام فهي فوق ذلك تجنيد روحيّ في تعود العمل لطاعة الله، ونصرة الحق وإعلاء كلمته، والتعهد الجازم بالائتمار بأمره، والانتهاء عما نهى عنه، فهو يخرج من ذلك قويَّ الجسم قويَّ الروح معاً.

وتنتهي هذه المرحلة بوصوله إلى مكة ـ عبر الصحراء ـ فإذا شاهدها ثارت في نفسه الذكريات، هذه مكة التي كانت وادياً غير ذي زرع. . .

وهذه هي مكة التي أخذت شهرتها تنمو وتتسع حتى قصدها الناس من كل فج عميق، وهذه مكة التي سكنتها قريش واعتزَّت بما كان في يدها من مفاتيح الكعبة.

هي مكة التي ولد فيها النبي ﷺ في بيت من بيوتها وشعب من شعابها، يمشي في شوارعها وأسواقها، ويقضي فيها شبابه وكهولته، وهذا بالقرب منها غار حراء، وهو الغار الذي كان يتعبد فيه النبي وفيه نزل الوحي عليه لأول مرة.

وهذه هي مكة التي تتابع الوحي فيها ثلاث عشرة سنة، نزلت فيها كل السور المكية تدعو إلى ترك الأصنام وعبادة الله وحده.

وهذه هي مكة التي جرت فيها الأحداث الأولى للإسلام، فكان النبي ﷺ يدعو قومه وهم عنه معرضون، يجاهد فيهم ويصبر على أذاهم، ويلتفّ حوله أتباع قليلون يؤذَون في أموالهم وأنفسهم فيحتسبون ذلك عند ربهم.

وهذه هي مكة التي كان فيها دار الأرقم المخزوميّ التي كان يختبىء فيها رسول الله ﷺ في صدر بعثته هو ومن آمن معه، وكانوا يصلون بها سراً

حتى أسلم عمر فجهر رسول الله ﷺ بالدعوة وتعرض للأذى.

وهذه مكة التي هاجر منها رسول الله ﷺ بعد أن ألحَّ قومه في إيذائه وأبوا نصرته، وجاهروه بالعداء وأرادوا أن يحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه، ثم هذه مكة يدخلها رسول الله ﷺ فاتحاً وينزل عليه في ذلك: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[1].

وأخيراً هذه مكة التي ظلت مقصد الناس في حجهم من عهد إبراهيم إلى اليوم... وهذه هي مجتمع المسلمين اليوم من جميع أقطار الأرض يهتفون هتافاً واحداً ويلبون تلبية واحدة وتدوي في أرجائها: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله».

هذه مكة التي يقصدها الحجاج فيرونها وادياً منحصراً بين سلاسل جبال متصلاً بعضها ببعض، قد عمرت سفوح هذه الجبال بالمساكن متدرجة عليها إلى الوادي.

كل هذه الذكريات تملأ النفس وتأخذ بمجامع القلب، وتدخلها في موسم الحج فترى عجباً أي عجب، مئات الألوف من الناس في ثوب الإحرام مغمورون بالشعور الدينيّ، يعجّون بالدعاء والتلبية، وترى معرضاً يفوق كل معرض من الأجناس البشرية، مختلفي الألوان، مختلفي الألسنة، مختلفي العادات، ولكنهم قد وحد بينهم الغرض الدينيّ، ووحدت بينهم العقيدة، كلهم يعبد الله وحده، وكلهم يشعر نحو الآخرين بالأخوة الإسلامية.

هذا الجمع الحاشد يشيع فيه الحب والإخاء والمساواة والتعاطف، ويغمرهم شعور ديني نبيل يهز القلب ويبعث الرحمة.

وفي وسط مكة تقريباً تقع العين على المسجد الحرام بقبابه ومآذنه ونورانيته...

---

(١) سورة النصر.

وهذه هي الكعبة، وما أن يراها الرائي حتى يشد إليها نظره ويخفق لها قلبه، وتتحرك نحوها قدمه، وتمتلىء نفسه خشوعاً ورهبة وإعظاماً وإجلالاً، ويرى نفسه ذاهلاً مندفعاً مع الداعين والمبتهلين سابحاً في ذكريات ما قرأه من الدين والتاريخ.

هذه هي الكعبة التي أسسها إبراهيم عليه السلام وجعل الله موضعها وما حولها مثابة للناس وأمناً...

هذه هي الكعبة التي يقصدها كل عام مئات الألوف من الحجاج طوعاً لأمر ربهم، وتطهيراً لنفوسهم، ورياضة لقلوبهم.

يطوفون حولها وقلوبهم تفيض توبة واستغفاراً وابتهالاً إلى الله أن يغفر ذنوبهم فيما مضى، ويوفقهم للعمل الصالح فيما يأتي: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾[(١)].

هنا تتساوى الرؤوس، وهنا يقوم الإنسان قيمته الذاتية، فلا فضل لأحد على أحد بماله أو جاهه أو لونه أو أي عرض من أعراض الدنيا، إنما قيمة الإنسان ما كسب من خير، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وقد يكون أشعث أغبر، وهو عند الله خير من ملك متوج وغني مترف، وحول هذه الكعبة يلف الحاج سبع لفات يعبر عنها في لغة الدين بالطواف...

وفي هذا الطواف كله يحلو للحاج أن يمعن في الدعاء، ويجد فيه راحته وسعادته، ويشعر وهو يشترك مع الحجاج في الدعاء بلذة روحية ممتعة...

ويلي هذا من أعمال الحج السعي بين الصفا والمروة، وهو طريق طوله نحو أربعمائة وعشرون متراً تقريباً، ينتهي من ناحيتيه بربوة تسمى الصفا، وربوة تسمى المروة، وكانت الربوتان في الأصل تشرفان على الصحراء، ولكن الطريق اليوم أصبح وعلى جانبيه المباني والبيوت ودكاكين

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠١.

التجارة، وكل ربوة جعل عليها درجات يصعد عليها الحجاج. . .

وهذا المسعى تجده مزدحماً بالحجاج في كل لحظة من اليوم ليلاً أو نهاراً، يعج بالساعين داعين مكبرين، وقد حث الإسلام على السعي في بعض أجزاء الطريق في إسراع لإظهار المسلمين جلدهم وقوتهم أمام عدوهم، وبقيت هذه سنة الإسلام.

في هذا المسعى ترى جميع أصناف العالم الإسلامي، من تركي، وهنديّ، وشاميّ، ومصريّ، ومغربيّ، ويمنيّ، وفارسيّ، ويابانيّ، وتسمع اللهجات المختلفة والألسنة المتباينة، وكلها تذكر الله، وتلجأ إليه، وتتجاوب الأصداء بالدعاء إلى الله بالتوبة والغفران.

وفي هذا الفيض من الشعور ينسى المرء نفسه، وينسى تعبه، ويرى الشيخ المسن وقد دفعته حرارة الإيمان للسعي الطويل مع الجلد والصبر الجميل. . .

وبعد هذا السعي يقضي الحاج فترة من الزمن يتذوق ما أنعم الله به عليه، ويشعر بنوع من الغبطة كأنه كان يحمل حملاً ثقيلاً من الأوزار والخطايا رُفعت عنه، وكأنه خلق خلقاً جديداً في صفاء نفسه وطهارته.

حتى إذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة، ويسمى يوم التروية، يخرج الحجاج إلى جبل عرفات، فيتجهون إلى الشرق في واد بين جبلين ويزدحم الناس في الطريق، هذا يسير بجمله، وهذا يسير على قدميه احتمالاً للمشقة في سبيل الله، وهذا يسير بسيارته، فترى الإبل تسير قوافل، والسيارات كذلك، والسائرون على أقدامهم في وسط ذلك، أو على جانبي الطريق، والناس يسيرون بالنهار وبالليل في ضوء القمر، والوادي يسيل بالناس سيلاً، وتسير هكذا حتى تصل إلى منى، فترى قبيل دخولك جمرة العقبة، وهي حائط من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار في عرض مترين، أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة ليرجمها الناس بالحجارة إذا رجعوا من عرفات، تمثيلاً لقوة نفوسهم وتجسيمهم الشيطان ورميه بالحجارة، وبعد الخروج من منى والمرور بواد ضيق يتسع الوادي وتنفتح أرجاؤه إلى الشمال والجنوب.

يجتمع الناس في هذا المكان في اليوم التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر فترى منظراً عجباً، لا أذكر في حياتي أني رأيت منظراً أرهب منه ولا أجلَّ منه: عصبة أمم لا عصبة حكومات، يجمعهم غرض واحد ولا تشتتهم الأغراض، يرجون التخفف من الدنيا ويندمون على التفاني في أعراضها، يحتقرون أصنام الناس من مال وجاه وشهوات، ويسعون إلى طلب رضا الله بطاعته، ويشعرون بالسعادة الحقيقية، وهي السعادة الروحية الباقية لا السعادة المادية الفانية، ويؤمنون بإله واحد فوق المادة، وفوق البشر، وفوق كل القوى، له وحده يخضعون وبه وحده يستعينون، أما الخضوع لغيره فضرب من الإشراك، وأما التذلل في سبيل المال والجاه وأعراض الحياة فضرب من العبودية لا يرضاه دين الإسلام، كلهم ينادي: لبيك اللهمَّ لبيك، فتتجاوب بهذه الكلمة الأرجاء وتدوي بها الأصداء، فتتغلب روحانيات الناس على مادياتهم، هنالك يتطلع الناس إلى رحمة ربهم ويطلبون منه العون على صفاء نفوسهم، ويحتقرون أنفسهم الماضية التي خضعت للشهوات وأفسدتها اللذات، ويَسْمُون إلى مثل أعلى فيها حب الخير وبغض الشر، والرجاء من الله أن يوفقهم إلى حياة من نوع آخر فيها الطاعة والإخلاص وعمل الخير للخير ولله...

قد احتشدت مئات من الناس... بملابسهم البيضاء يَعُجُّون بالتلبية[1] والدعاء والتسبيح والتهليل حتى يزلزلوا الجبل بدعائهم وابتهالهم، قد نسوا دنياهم ونسوا أنفسهم وتعلقت أرواحهم بربهم، هذا يستغفر مما جنى، وهذا يندم على ما فات، وهذا يعاهد الله على الطهر الدائم، وكلهم يرجون افتتاح حياة جديدة عمادها التقوى والإخلاص.

وبعد صلاة العصر من ذلك اليوم ينهض خطيب عرفة ويصعد بناقته على الجبل ويقف على الصخرة التي وقف عليها رسول الله ﷺ فخطب خطبة الوداع، فيخطب الخطيب خطبة يعلم فيها مناسك الحج ويكثر فيها من التلبية والدعاء، ومن دونه قوم يبلغون للناس قوله ويلوحون بمناديل يشيرون

(١) أي يرفعون أصواتهم بها.

بها إلى التلبية، فيتابعه كل الناس بتلبيتهم فتتّحد نداءاتهم ويغمر الناس إذ ذاك شعور غريب.

وحبذا لو استخدمت في هذا الموقف المكبرات الصوتية، وحبذا لو أعدت فيه الخطب الرائعة باختلاف اللغات المشهورة متضمنة نصيحة المسلمين بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويوقظ أممهم ويحيي آمالهم، ويوحِّد بين صفوفهم، ويوجههم أصلح وجهات الحياة.

وفي هذا الاجتماع فرصة كبيرة لتلاقي ذوي الرأي من المسلمين في الأقطار المختلفة يتبادلون الرأي فيما يصلح أممهم وينير السبيل لمستقبلهم.

حتى إذا غابت الشمس في الأفق أعلن تمام الموقف فينفر الناس من عرفات هاتفين هتاف الفرح والسرور على ما وفَّقهم الله من أداء الفرض.

هذا هو الوقوف بعرفة وهو أهم ركن من أركان الحج، من فاته فقد فاته الحج، لأنه أهم جزء في الحج يحقق حكمته، ففيه يجتمع المسلمون بعد الرياضة الروحية الطويلة والأسفار الشاقة، ويتجهون اتجاهاً واحداً، ويتبادلون النصيحة والشعور بالأخوة، ويرغبون في زوال الشرور عنهم وتوالي نعم الله عليهم، ولهذا جاء في الحديث: «ما رؤي الشيطان في يوم هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة».

والمسلمون في جميع أقطار الأرض ممن لم يقدروا على الحج يشتركون فيه بالذكرى فيتخذون هذه الأيام أيام عيد، ويصلّون صلاة العيد، ويهتفون هتاف الحجاج: الله أكبر، الله أكبر! الله أكبر ولله الحمد، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فتتلاقى قلوب المسلمين وهتافاتهم على معنى واحد واتجاه واحد، وذلك أحرى أن يتعاونوا على الخير ويتواصوا بالحق والصبر.

بعد هذا ينفر الحجاج من عرفات إلى منى وفي طريقهم يمرون على المزدلفة وينزلون بها ويقيمون بها إلى ما بعد صلاة الصبح، وفي هذه المزدلفة المشعر الحرام فضاء من الأرض أحيط بجدار قصير تتوسطه مئذنة تضاء أيام الحج، وبجواره مجرى عين زبيدة، وسمي المشعر لأن العرب

كانت قد اعتادت أن تشعر جمالها عنده أي تضربها في سنامها حتى يسيل منها الدم في التضحية. . .

يصل الحجاج إلى منى وينصبون خيامهم في فضائها الواسع، ومنى ليست مجرد صحراء كعرفات والمزدلفة، وإنما هي قرية بها مبانٍ ومساكن يقيم بها بعض الناس طوال العام وبعضهم في موسم الحج، وينزل بعض الحجاج في هذه المساكن بدل الخيام.

ويقيم بها الحجاج إلى عصر اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، فيذهبون إلى الجمرات يرجمونها، كأنهم يرمزون برجمها إلى أنهم حاربوا الشيطان وانتصروا على نوازع الشر في نفوسهم، وكبحوا جماح شهواتهم ورجموها وتغلبوا عليها، فلم يعد في نفوسهم إلا الطهارة والطاعة وعبادة الله وحده.

والرجم عادة عربية، وطريقة من طرق إعلان السخط عندهم، فهم يرجمون قبر أبي رغال لأنه كان يقود جيش أبرهة، ويرجمون قبر أبي لهب خارج مكة لما فعل مع النبي ﷺ، والإسلام أقر الرجم في الحج لأنه مظهر لتجسيم الشر والتبرؤ منه.

والحجاج كذلك في أيام منى يضحون في صبيحة العيد وينحرون، ولقد أبطل الإسلام القرابين والنذور، ونهى عما اعتاده العرب من ترك الماشية في البادية لله كالسائبة والبحيرة والحامي، ولكنه أقر التضحية في العيد ذكرى لإبراهيم، وعوناً للفقراء والمساكين، وتقريباً بين القادرين وغير القادرين، ولذا أوجب ذكر اسم الله عليها حتى لا تكون قرباناً لصنم ولا عبادة لوثن، وإنما هي لله وفي سبيل الله للمحتاجين والمُعْوزين.

فإذا تمت هذه الأعمال، ونزل الحجاج إلى مكة فطافوا بالكعبة طواف الإفاضة، وسعوا وتحللوا، وبذلك يتم الحج.

بعد هذا يقصد أكثر الحجاج إلى زيارة رسول الله ﷺ في المدينة. . .

هذه هي المدينة بأسرارها وأبوابها. وهذه هي القبة الخضراء تدلنا على مكان الحرم منها.

هذه هي المدينة التي كان يقيم فيها الأوس والخزرج، وهم أول من قبلوا الدعوة الإسلامية من القبائل العربية وبايعوا رسول الله ﷺ على أن يؤمنوا بدعوته ويحموا دعوته مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وسموا من أجل ذلك بالأنصار.

وهذه هي المدينة التي استقبلت النبي حين هاجر إليها استقبالاً رائعاً، واستقبلت من أتى معه ومن أتى بعده من المهاجرين، وأشركوهم في ديارهم وأموالهم وعقدوا الأخوة بينهم وبينهم.

وهذه هي المدينة التي تسلحت حربياً لما لم تفد دعوة السلم، فكسرت قريشاً في غزوة بدر ثم تتابع انتصارها حتى دخل العرب في دين الله أفواجاً وحتى فتحت مكة نفسها.

وهذه هي المدينة التي لبث فيها النبي ﷺ عشر سنين يدعو ويتلقى فيها الوحي، وتنزل فيها كل السور المدنية تشرع النظم وتبين الأحكام، وتنظم الغزو، وتؤلف الأمة، وتقيم الحدود، وتسمو بالروح.

وهذه هي المدينة التي كان لها شرف وجود رسول الله ﷺ بها حياً وميتاً، ثم كانت عاصمة الخلفاء الراشدين قبل دمشق وبغداد، وفيها رتبت الترتيبات لإخضاع أهل الردة، وفيها رتب عمر وعثمان نظمهما لفتح أكبر دولتين في عصرهما وهما فارس والروم حتى أخضعوهما واستولوا على بلادهما.

هذه هي المدينة التي لا تنتهي ذكرياتها وأحداثها التاريخية المجيدة...

هنا يرقد صاحب الدعوة الإسلامية التي غيرت مجرى العالم وأنزلت التاريخ على حكمها، ولا تزال إلى اليوم تنمو وتعمل في الحياة الإنسانية عملاً مجيداً.

هنا يرقد مَن علَّم الناس الحرية والمساواة والعدل، وكسر الأصنام على اختلاف أشكالها وألوانها، ودعا الناس لعبادة إله واحد هو رب العالمين.

هنا يرقد مَن لم يعبأ في حياته بمال ولا ولد، وإنما عبأ بدعوته لم يَعُقْه فيها عائق من تهديد ووعيد، ولم يلهه عنها وعد بمال أو سلطان.

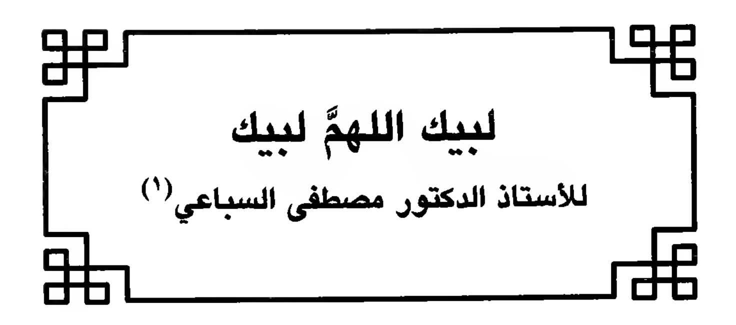
في هذا المسجد كان يسكن رسول الله ﷺ في حياته ويعيش عيشة بساطة لا تكلف فيها، ولكنه يدعو دعوة خالدة على الدهر يحمل عَلَمَها أقوام سادوا الدنيا حيناً في قوتهم وفي علمهم وفي رِوحانيتهم، فإن تقلب لهم وجه الدهر الآن فسيعودون إلى قوتهم يبنون في العالم مع البانين، ويشيدون المجد مع المشيدين، ويصلحون مع المصلحين.

هذه كلها ذكريات مرت بذهني وأنا أدخل المدينة وأزور الحرم والقبر الشريف، وهذه الذكريات وأمثالها يذكرها الذاكرون من عباد الله المخلصين.

هذا ما اتسع له الوقت من الحديث عن الحج في موسم الحج، أعاده الله على المسلمين وعلى سكان العالم الإسلاميّ بالخير والسعادة والعزة، والسلام عليكم ورحمة الله(١).



(١) «فيض الخاطر»: ٨/ ٣٠٥ ـ ٣٢٠ بتصرف، ومقاله هذا ثلاث دروس لمحطة الإذاعة بلندن.



لبيك اللهمَّ لبيك

للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي[1]

ما بال هؤلاء الناس يغدون ويروحون؟ ما بالهم طائرين في الجو، مسرعين في البر والبحر، هجروا رفاهية الحياة، وفارقوا الأهل والأولاد، وتخففوا من الهموم والأعباء، وتجردوا من المطامع والأهواء، وتناسوا الكراهية والبغضاء، واطَّرحوا الترف والرخاء، ولبسوا الخفيف البسيط من اللباس وتواضعوا فلا علو ولا كبرياء، وتساووا فلا أغنياء ولا فقراء، وابتسموا فلا هموم ولا أحزان، وتهاونوا فلا بغي ولا عدوان، واتقوا فلا رفث ولا عصيان، وتعارفوا فلا تقاطع ولا هجران، وتعارفوا وهم شتى في لغاتهم لا يتكلمون إلا بلغة القرآن، أفئدتهم كأفئدة الطير، وأعمالهم كأعمال الملائكة، وأرواحهم كأرواح الأنبياء، وأخلاقهم كأخلاق الأولياء.

عيونهم باكية، وألسنتهم ذاكرة، وجوارحهم خاشعة، ونفوسهم كريمة، وجباههم ساجدة، تائبون متطهرون، راجون مؤملون، داعون الله لأنفسهم

---

(١) مصطفى بن حسن السباعيّ، أبو حسَّان. عالم إسلامي مجاهد، من خطباء الكتاب. ولد سنة ١٣٣٣ بحمص وتعلم بها وبالأزهر. اعتقله الإنكليز في مصر وفلسطين ستة أشهر وأسلموه إلى الفرنسيين فسجنوه في لبنان ثلاثين شهراً. انطلق على رأس كتيبة من الإخوان المسلمين تقاتل في فلسطين، ثم أحرز شهادة الدكتوراه من الأزهر. استقر في دمشق عميداً لكلية الشريعة ومراقباً عاماً للإخوان المسلمين. أنشأ مجلة حضارة الإسلام، وله مصنفات. توفي سنة ١٣٨٤ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٧/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

وأهليهم وأصدقائهم بالخير، سائلون لأمتهم العزة والسيادة، ولبلادهم الكرامة والسعادة، يطوفون حول البيت لا يذكرون إلا الله، ويقفون في عرفات فلا يسألون إلا الله، ويجتمعون في منى يحصبون الشيطان، يبتهجون في العيد بذبح الأضاحي، وصلة القربى وأعانة البؤساء والمعوزين والضعفاء.

ما بالهم؟ فيمَ سافروا؟ ولم نفروا؟ وعلامَ اجتمعوا؟ وبم تعاهدوا؟ وأين التقوا؟ وممَّ شكوا؟ وماذا رجوا؟ وكيف تجمعوا وبلادهم بعيدة، ولهجاتهم مختلفة، وأعراقهم متباينة، وأعمارهم متفاوتة، وآمالهم متعددة، وثقافاتهم شتى؟ فيهم الشرقيّ والغربيّ، والعربيّ والأعجميّ، والأبيض والأسود، والكبير والصغير، والرجل والمرأة، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والراعي والرعية، والصحيح والمريض، والمطيع والعاصي، والعابد والغافل، والمنقطع والواصل؟

كيف تجددت حياتهم، ونشطت حركاتهم، وتبدلت طباعهم، وتهذبت نفوسهم، وارتفعت أرواحهم، واتسعت آفاقهم، وسمت عزائمهم، وألخست شياطينهم، واستيقظت ملائكيتهم؟

كيف؟ ولم؟ وفيم؟ ومن أين؟ وإلى أين؟

ألا إنهم جنود الله دعاهم إلى ميدان المعركة الأولى ليجددوا العهد، ويجمعوا الشمل، ويستشرفوا النور في مهبط النور، ويستجلوا الهدى في أرض الهدى، وينتظموا مع الركب من جديد وراء القائد الرائد، والرسول الحبيب.

جاءوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات، ويشكروه على ما أنعم، ويتوبوا إليه مما أذنبوا، ويتداركوا ما فرطوا، ويَغِذُّوا السير نحو الأمل المنشود، ويجددوا العهد على استرجاع المجد المفقود، وليحطموا قيود العبودية، وليرفعوا أعلام الحرية، وليهدوا بعد أن يهتدوا، وليرشدوا بعد أن يسترشدوا، وليعودوا إلى إنسانيتهم بعد أن طغت عليهم حيوانيتهم، وليسيروا إلى الله بعد أن ساروا زمناً مع الشيطان، ولينصروا دين الله بعد أن تقاعسوا حتى اجترى على دينه كل فاجر، وليحموا

أوطانهم من عدوان الكافرين، وتسلط الغادرين، ومؤامرات الذئاب، وسرقات اللصوص، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله قوي عزيز.

ألا إنهم أنصار الله دعاهم ليجدد حياتهم وأرواحهم وأخلاقهم، فلبيك اللهمَّ لبيك!

لبيك، سنسرع إلى تلبية ندائك، وسنهرع إلى لقائك، وسنصغي السمع إلى أوامرك ونواهيك، وسنجدد في نفوسنا ذكريات المجد والخلود التي شاءت إرادتك أن تنطلق من حول بيتك المحرم، وسنزور رسولك وحبيبك المصطفى ﷺ، اعترافاً منا بفضله، وتجديداً للعهد معه أن لا نلقي اللواء الذي تسلمناه منه جيلاً بعد جيل... عسى أن نسير على هديه، ونتخلق بأخلاقه، ونكون معه في جنات رضوانك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾[2].

لبيك اللهمَّ لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك

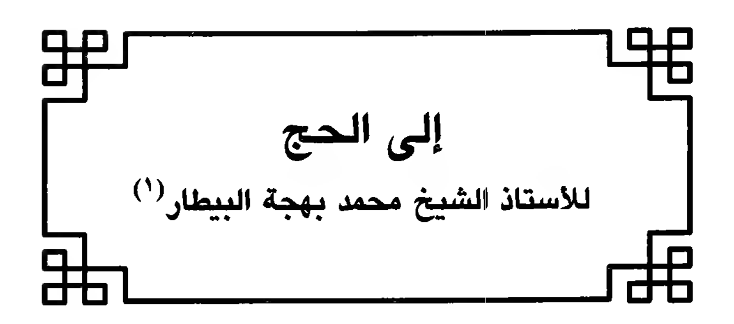
إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك[3]



(١) سورة الشعراء: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة غافر: الآيتان ١٦، ١٧.

(٣) «حضارة الإسلام»: العدد العاشر، السنة الرابعة، ذو الحجة سنة ١٣٨٣، ص: ١٠٣٣ ـ ١٠٣٥.



إلى الحج

للأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار[1]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[3].

أيها المستمعون الكرام:

المسجد الحرام هو مهد الإسلام ومطاف المسلمين، فما يظهر فيه من

---

(١) محمد بهجة بن بهاء الدين البيطار. بحاثة علامة. ولد سنة ١٣١١ بدمشق لأسرة علم وفضل يرجع أصلها إلى الجزائر. تلقى العلم عن والده وشيوخ عصره. أمَّ في مسجد بدمشق، وأدار المعهد العلمي السعودي خمس سنوات تقلد أثناءها مناصب علمية وقضائية، وعاد بعدها إلى دمشق وبيروت، ودرس في عدد من المدارس فيهما. ثم أوفد إلى الطائف ثلاث سنوات تولى فيها إدارة دار التوحيد، ثم عاد إلى دمشق للتدريس في كلية الآداب بالجامعة السورية حتى تقاعد، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية الدمشقي والبغدادي. شارك في مؤتمرات إسلامية، وله عدة مصنفات. توفي سنة ١٣٩٦ رحمه الله تعالى. انظر «إتمام الأعلام»: ٢٢٤.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٥.

ألفة ومحبة يفوح شذى عَرْفه[1] في سائر الأقطار الإسلامية فيكون له أجمل وقع في نفس كل مسلم غيور على دينه وأمته، فلا عجب إذا لبى المسلمون هذا النداء واستجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويبث روح المودة والإخاء فيهم، ويقيهم خزي التقاطع وفشل التنازع، ولئن تناءت بلادهم وتعددت أجناسهم فقد جمعتهم راية القرآن ووحدتهم كلمة الإسلام ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2].

الله أكبر ما أجلَّ رؤية الحجاج محرمين وملبِّين، وما أجمل لبس الإحرام الأبيض الذي يشف عن بياض القلب ويكشف عن سلامة الطوية والصدر، ولله درُّهم طائفين وعاكفين، وراكعين وساجدين، وساعين بين الصفا والمروة من شعائر الله، ومتعارفين متعاطفين في بيت الله، ومجتمعين في دروس العلم والإرشاد، ومحسنين إلى ذوي الفاقة والقصاد ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[3].

أيها المستمعون الكرام.. ويا حجيج بيت الله الحرام:

إن الله تعالى ـ وله الحمد والشكر ـ قد أكمل الدين وأتم النعمة ورضيَ لنا الإسلام ديناً، فقد روى الإمام أحمد والشيخان البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر بن الخطاب: إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود أُنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قالوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[4] قال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ فيه والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة.

---

(١) أي رائحته الطيبة.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٣) سورة البقرة: آية ٢١٥.

(٤) سورة المائدة: آية ٣.

وأخرج ابن جرير عن عيسى بن حارثة الأنصاري قال: كنا جلوساً في الديوان فقال لنا نصراني: يا أهل الإسلام: لقد أنزلت عليكم آية لو أنزلت علينا لاتخذنا ذلك اليومَ وتلك الساعة عيداً ما بقي منا اثنان: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فقال محمد بن كعب رضي الله عنه: أنزلت على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة، فلا يزال ذلك اليوم عيداً للمسلمين ما بقي منهم أحد. وقوله: لقد كنا جلوساً في الديوان: الديوان هو الذي أنشأه عمر فكان عمر أول نظارة مالية في الإسلام والنصراني كان كاتباً فيه.

وجملة القول أن الله تعالى أكمل الدين بالقرآن، وبيان نبيِّه عليه الصلاة والسلام، فما صحَّ من بيانه لا يعدل إلى غيره، وما بعد سنته نور يهتدي به في فهم أحكامه بلغته مثلُ إجماع الصحابة أو عمل السواد الأعظم منهم ومن تبعهم في هداهم، فمن رغب عن سنتهم ضلَّ وغوى، ولم يسلم من اتباع الهوى.

يا حجيج بيت الله الحرام:

سمعتم يا إخوة قولَ الرسول الأعظم ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، وهذه الطائرات والسيارات والبواخر تطوي الطريق طياً، وقد قربت البعيد، وخففت المشقة ـ لا سيما على العاجز والضعيف ـ فبشرى لحجيج بيت الله الحرام بشراهم اليوم، وأهلاً بالطائفين والعاكفين والركَّع السجود، والله تعالى يجازي المحسن بإحسانه ويزيدهم من فضله، إنه جواد كريم.

أيها الإخوة والأخوات: لقد شهدتم هذه الأماكن المقدسة، التي هي على تقوى من الله ورضوان مؤسسة، وهي التي لا يسفك فيها دم، ولا يروع فيها مسلم، ولا يُنَفَّر له صيد، وقد جعل الحج المبرور ماحياً للذنوب والخطايا، موجباً لدخول الجنة بسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1] وقال النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

النبي ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

قال بعض الأعلام: الحج هو مؤتمر المسلمين العام الذي يعقد كل عام في منزل الوحي، وفي ذلك البلد الأمين، وفي مكة والمدينة في حرم الله وحرم رسوله يتلاقى المسلمون على بعد الديار واختلاف الأجناس، وتباين الألسنة والألوان، وتفاوت الأخلاق والعادات، والكل قاصد إلى ربه، تائب من ذنبه، راجٍ لثوابه، خائف من عقابه، يسعى لمرضاة الله، تاركاً زخرف الحياة، يلبي طائعاً، ويكبِّر خاشعاً، ويدعو ضارعاً، يجتمعون هنالك وكلمةُ التوحيد تجمعهم، وراية الإسلام تظللهم، ولغة القرآن تربط بعضهم ببعض، يجتمعون ليشهدوا منافع لهم، روحية وجسدية، دينية ودنيوية، وليُحكموا بينهم أواصر المودة والرحمة ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾[1].

أيها المسلمون:

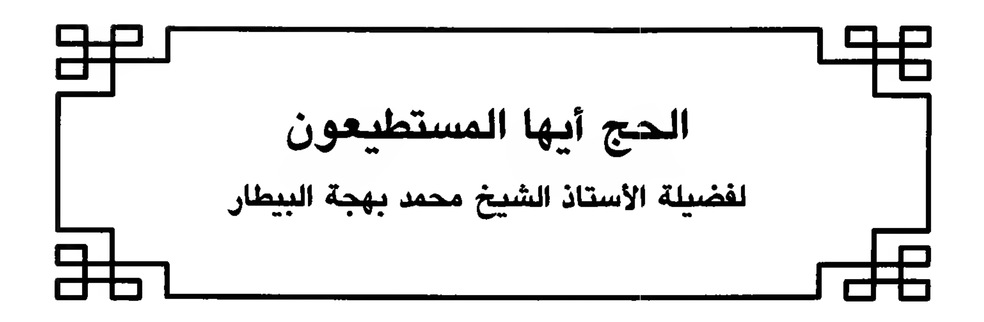
إن للحج في شعائره حكماً وأسراراً، وإن في كل عمل من أعمال مناسك الحج تذكرةً للمتذكر، وعبرة للمعتبر، إذا انكشف بابها ظهر من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه، وغزارة علمه وفهمه، وقد شرف الله البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه، وجعله مقصداً لعباده، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، وفي ملابس الإحرام التجرد عن الحطام، والمساواة التامة بهذا الزهد والبعد عن الزخارف بلا أدنى امتياز بين أعلى الطبقات وأدناها، فيعود الإنسان إلى بلده إنساناً جديداً بإيمان قوي، وخلق زكي، وضمير خالص نقي.

نسأل الله تعالى للإسلام الحفظ والرعاية، وللمسلمين التوفيق والهداية، ولأوطانهم العزة والحماية بمنه وكرمه[2].

❁ ❁ ❁

(١) سورة الحجرات: آية ٨.

(٢) مجلة «التمدن الإسلامي»: الأجزاء ٣٣ ـ ٣٦، المجلد ٣٢، رمضان سنة ١٣٨٥، ص ٧٣١ ـ ٧٣٤.



الحج أيها المستطيعون

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

فلا عجب إذا لبّى المسلمون هذا النداء، واستجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويبث روح المودة والوئام فيهم، ويقيهم ضرر التقاطع، وفشَل التنازع، وقد افتتح تعالى الآية الأولى بذكر محاسن البيت وعظم شأنه، فوصفه بأفضل الصفات، منها أنه أسبق بيوت العالم إلى عبادة الله تعالى وأنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً، ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، ووصفه بالمصدر نفسه، حتى كأنه نفس الهدى، وفي وصفه بهذه الصفات ما يبعث النفوس على حجه، وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار.

وقد جعل الله الكعبة قبلة للمسلمين، واختار لها البلد الأمين،

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٥.

وشرَّفه بأن أقسم به في كتابه فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[1] وجعله حرماً آمناً، لا يُسفك فيه دم، ولا يروّع فيه مسلم، ولا ينفر له صيد، ولا تلتقط لقطته إلا للتعريف، وجعل الحج المبرور ماحياً للذنوب والخطايا، موجباً لدخول الجنة بسلام، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وثبت عن النبي ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف في غيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» (رواه الجماعة إلا أبا داود).

وقال رسول الله ﷺ: «من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الراحلة، وتعرض الحاجة» (رواه أحمد وابن ماجه).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله، هل على النساء من جهاد؟ قال: نعم، عليهن جهاد ولا قتال فيه: الحج والعمرة» (رواه أحمد وابن ماجه وإسناده صحيح).

وعن سعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعيّ، ومجاهد، وطاوس: «لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه» وكان بعضهم له جار موسر، فمات ولم يحج فلم يصلِّ عليه.

فالحمد لله الذي جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، وجعل الحج من بين أركان الإسلام فريضة العمر وأكمل تعالى به الدين، وأتمَّ به النعمة، وأنزل على نبيّه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2].

---

(1) سورة التين: آية ٣.

(2) سورة المائدة: آية ٣.

وإنما نزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان يومَ عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، والنبي ﷺ بعرفات على ناقته العَضْباء.

قال العلماء: إن الحج المبرور هو المقبول، وهو الذي جاء على الوجه الأكمل باستيفاء الأعمال البدنية والقلبية، ومن ذلك أن يكون المال الذي ينفقه حلالاً، وأنشدوا:

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أصلُهُ دَنَسٌ ... فما حَجَجْتَ ولكنْ حجَّت العِيرُ

لا يَقْبلُ الله إلاَّ كلَّ طيِّبةٍ ... ما كلُّ من حجَّ بيتَ الله مبْرورُ

والحج المبرور الذي لا رفث فيه ولا فسوق ـ أي الذي ليس فيه كلام فاحش ولا خروج عن آداب الشريعة وحدودها ـ له في النفس وإصلاحها أكبر الآثار، لما فيه من الانقطاع عن الأهل والوطن والأعمال الدنيوية، والإقبال على الله تعالى، وإحياء شعائر أعظم المرشدين، والوقوف في مواقف أفضل المرسلين، والتذكر بتقلبهم في تلك المعاهد المقدسة تعبداً لله تعالى وتقرباً إليه، وخضوعاً خالصاً لجلاله، لا حظَّ للنفس فيه، فمن حجَّ مثل هذا الحج المبرور، واستغرق قلبه بمثل هذا الإحساس والشعور، رُجي أن يُمْحى ما كان علق بنفسه من آثار الذنوب الماضية، وعند ذلك تنبعث النفس إلى حسن الطاعة، والاستقامة على طريق الهداية، فتعمد إلى أداء ما عليها من الحقوق لله والناس بقدر الاستطاعة، فيصح أن يقال: إنها وُلدت ولادة جديدة، وأن يقال: إن السيئات الماضية قد كُفِّرت وسُترت، لأن الغفر والتكفير بمعنى تغطية الشيء، وقد غُطِّيت تلك الظلمة الماضية وسترت بهذا النور الحاضر.

حِكم الحج:

حِكم الحج كثيرة، وفي كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر، وقد شرف الله البيت الحرام بالإضافة إلى نفسه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حوله حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وأكَّد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، وفي الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقربين، الحافِّين حول العرش، الطائفين حوله، وما القصد طواف الجسم

فحسب، بل طواف القلب بذكر الرب، وفي السعي بين الصفا والمروة إظهار للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، وفي الوقوف بعرفة وازدحام الخلق وارتفاع الأصوات، باختلاف اللغات تذكر لاجتماع الأمم بين يدي الله تعالى يوم القيامة، وفي رمي الجمرات طاعة للرحمن وانقياد لأمره، وإرغام للشيطان وقصم لظهره، وللرمي أذكار مخصوصة يقصد بها ما ذكرنا، فتكون الحصيات مع هذه الأذكار كالسبحة في إحصاء الأذكار المأثورة بالعدد المعين، وكانوا في الصدر الأول إذا عدوا يعدون على نحو الحصا والنوى.

هذا قليل من كثير من مقاصد الحج وحكمه وفوائده.

الله أكبر!

ما أفضل الحج وشد الرحال إلى المسجد الحرام في البلد الحرام، موطن الرسول ومهبط الوحي ومطلع النور، وعاصمة الإسلام ومهوى أفئدة بنيه، ومجتمع المسلمين كل عام من جميع أقطار الأرض، على تعدد أجناسهم، وتنوع لغاتهم وتنائي بلدانهم، يجتمعون هناك وكلمة التوحيد تجمعهم، وراية الإسلام تظللهم، ولغة القرآن تربط بعضهم ببعض، يجتمعون ليشهدوا منافع لهم روحيَّة وجسدية، دينية ودنيوية، وليُحكموا بينهم أواصر المودة والرحمة ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾[1].

الله أكبر!

ما أجمل رؤية الحجاج محرمين وملبِّين، ولله درُّهم طائفين وعاكفين، وراكعين وساجدين، وساعين بين الصفا والمروة من شعائر الله، ومتعارفين متراحمين في بيت الله، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2].

الله أكبر!

---

(١) سورة الحجرات: آية ٨.

(٢) سورة الفتح: آية ٢٩.

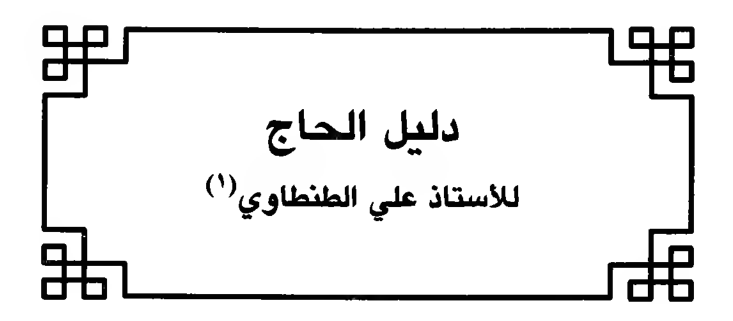
ما اعتزموا شدَّ الرحال إلى مسجد الرسول وأداء الصلاة فيه، وزيارة صفوة العالم، وسيد ولد آدم، سيدنا محمد ﷺ.

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وإنك لتجد من الأمن هنالك ما يذكرك بعهد الخلفاء الراشدين، والملوك العادلين، وحسبك أن زوَّار مسجد رسول الله ﷺ يفدون إليه الآن زرافات ووحداناً، ولو ذهبت امرأة وحدها لكانت آمنة على نفسها ومالها وعرضها.

وهذه الطائرات توصل قاصد البلاد المقدسة في ساعات، وهذه السيارات تطوي البِيد طياً، وتحمل وفود الحج من ساحل جدة إلى مكة كل يوم بكرة وعشياً، وقد قرَّبت البعيد، وخففت المشقة ـ لا سيما على العاجز والضعيف ـ وصار الركب من جدة إلى مكة يصل في أقل من ساعتين، من بعد ما كان يطوي في الطريق مرحلتين، ويركب من جدة إلى المدينة في بضع عشرة ساعة، من بعد ما كان يسير في الطريق بضعة عشر يوماً، ويبلغها جوّاً في أقلّ من ساعتين، فبشرى لحجيج بيت الله الحرام بشراهم اليوم[1].



(١) مجلة «المسلمون» السنة الثانية: العدد العاشر، ص: ١٠٠٧ ـ ١٠١٠.



دليل الحاج

للأستاذ علي الطنطاوي[1]

يا عازمين على الحج، يا من يشد الرحال، ويعد الأحمال، ليصل إلى فناء الحرم، ويقوم عند الملتزم، ويشرب من ماء زمزم: قفوا قليلاً فاستمعوا مني كلمة، ثم امضوا على بركة الله.. إنكم ما حملتم مشاق السفر، ولا رضيتم بفراق الأهل، ولا أنفقتم هذا المال إلا ابتغاء ثواب الله، وادخاراً من الحسنات ليوم الحساب، فهل علمتم قبل أن تمشوا أن الحج حجان: حج مبرور وردت الأحاديث الصحاح بأنه ليس له ثواب إلا الجنة، وأن صاحبه يرجع منه كيوم ولدته أمه، وحج ما فيه إلا إنفاق المال وإرهاق الجسد، وفراق العيال، فماذا تعملون ليرفع الله حجكم إليه، ولا يرده عليكم، فيضرب به وجوهكم.

أنا أقول لكم: هل ترتفع الطيارة إذا أثقلتها بالحديد، وحملتها أضعاف ما تطيق، ثم ربطتها بحبال الفولاذ إلى صخور الجبل؟

إنها لا ترتفع إلا إذا خففت أحمالها، وقطعت عنها حبالها، وكذلك الأعمال: فإذا أردتم أن يصعد حجُكم فخففوا عن عواتقكم أثقال الذنوب، واقطعوا الحبال التي توثقكم بأرض الشهوات، أو حُلُوها.

(١) الشيخ أشهر من أن يعرف. أصله من مصر وعاش جده في الشام، وكان من أهل العلم، ونشأ الشيخ على حب اللغة والأدب والعلم وتولى القضاء، وعدة مناصب أخرى، وله كتب كثيرة ومقالات عديدة، وللشيخ نشاط في الدعوة إلى التخلص من الاستعمار ونصرة قضية فلسطين. استقر في الحجاز في السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته، وتوفي سنة ١٤٢٠ رحمه الله تعالى عن سن عالية.

فاقعد يا أخي الحاج وحدك، وأحضر فكرك قبل أن تخطو أول خطوة في طريق الحج، وحاسب نفسك، وانظر في حياتك في بيتك، وصِلاتك بأهلك، وروابطك بأصحابك، وسلوكك في وظيفتك أو تجارتك، وفي مصادر ثروتك، وطرق إنفاقك، فكر فيها كلها، وقسها بمقياس الشرع، فما وجدته منها محرماً فتب منه، واستسمح أصحابه قبل أن تمضي إلى الحج.

انظر هل أنت تارك لفريضة من الفرائض؟ هل أنت مرتكب لمحرم من المحرمات؟ هل أسأت رعاية من استرعاك الله أمره من أهلك وولدك؟ هل أنت ظالم لزوجتك قد كرَّهت إليها بسوء معاملتك عيشها، أو أنت منقاد إليها تتبع رغباتها التي تغضب ربها؟ هل رضيت بترك أولادك الصلاة؟ هل وضعتهم في مدارس غير المسلمين؟ هل أكلت مال أحد، أو تعدَّيت عليه؟ هل لأحد في ذمتك دين لم تقضِه، أو حقٌّ لم تسدده؟ هل تقصر في عمل الوظيفة إن كنت موظفاً؟ هل تأخذ الرشوة؟ هل تعامل الناس بالربا إن كنت تاجراً؟ هل تعقد عقوداً مخالفة للشرع؟ انظر في هذا كله وأمثاله، فتب منه، وليس يكفي أن تعزم على ترك الذنب بقلبك، أو أن تعلنه بلسانك، بل أن تتخذ الأسباب لذلك.

فإن كنت تتعامل بالربا، وأردت أن تتوب منه، وألا تعود إليه، فصفِّ حساب عملائه، واقطع صلاتك بهم، وخذ رأس مالك ودع موارد الربا، ولا يغررك أن الربا سمي بـ (الفائدة) فلقد ورد أن الناس في آخر الزمان يسمون المحرمات بغير أسمائها ليستحلُّوها.

وإن كنت تكسب من عمل محرم، كأن تكون عاملاً في نادٍ يسقي الخمر، ويجمع الجنسين، أو في مصرف يرابي وأنت تشتغل فيه كاتباً للربا، أو كنت في مؤسسة أو مصلحة تنشر الإلحاد، أو تؤذي المسلمين وأردت أن تتوب، ففتش لنفسك عن عمل آخر، وإلا لم تنفعك توبتك عنه وأنت ملازم له.

واعلم أن الله هو الرزاق، وأن من يتق الله لا من يعصه يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وكذلك الحال في كل محرم.

ثم تدبر أمورك وأمور عيالك في غيبتك لتريح بالك منها، فلا تفكر فيها وأنت في الحج، فتعطي أهلك من النفقة ما يكفيهم في غيابك، وتوكل بهم من يقوم بأمرهم إلى حين عودتك، وتعهد بعملك إلى من تثق به، وتعتمد بعد الله عليه.

واعلم يا أخي الحاج أن الحج غَسْلٌ للقلب من أوضار الذنوب، فهل يغسل أحد جسده من الأوساخ بالماء الوسخ؟ فكيف إذن تبغي أن تتخلص بالحج من تبعات الحرام إذا كان حجك بمال حرام؟ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً فليكن أول ما تصنعه أن تعد لنفقات حجِّك مالاً حلالاً.

لا أريد بالمال الحلال أن يكون خالياً من كل شبهة فلقد ذكر العلماء من قرون طوال أن ذلك كان كالمتعذر في أزمانهم فكيف بزماننا؟ ولكن أريد ألا يكون المال الذي أعددته للحج مالاً ظاهر الحرمة، كأن يكون مغصوباً أو متحصلاً من الربا، أو من مهنة يحرمها الشرع كالاتجار بالخمر، أو زراعة الحشيش، أو نشر الكتب والمجلات المفسدة للدين والأخلاق.

المال الحرام ردّوه إلى أصحابه الذين أُخذ منهم ظلماً، فهذا أفضل من الحج، ثم إن وجدتم بعد ذلك ما تحجون به من المال الحلال وإلا فانتظروا حتى يبعثه الله إليكم فتحجّوا.

ومن كان منكم موسراً فليحمل معه ما يزيد عن نفقات حجِّه، ونفقات أهله في غيابه، ولينوِ بذلك مساعدة المحتاج وإسعاف المنقطع، لا يوزعه على الشحاذين الذين اتخذوا السؤال حرفة، ولعلَّ فيهم من هو غنيٌّ، بل يعطي من يثق بحاجته، ومن يكون عفيفاً، فيظنه الناس من عفته وإبائه غنياً وهو في أشد الفقر.

أمثال هؤلاء فأعطوهم، وإذا لم تعرفوهم فاسألوا عنهم من تثقون به من أفاضل أهل الحرمين.

الرفيق قبل الطريق:

واعلموا أن على ألسنة الناس أقوالاً سائرة يلقونها، لا يفكرون

بمعناها، وكأنها من كثرة الترداد قد صارت ألفاظاً بلا معانٍ، وهي ثمرة تجارب بشرية طويلة، منها قولهم: (الرفيق قبل الطريق).

وأولى سفرة باختيار الرفيق الصالح سفرة الحج، وربَّ رفيق حججت معه فاستفدت من علمه، واسترحت إلى حلمه، واطمأننت إلى أمانته، ورب رفيق نغَّص عليك حجتك، وأضاع عليك ثوابك.

رفيق يجعل الحج مردوداً مرفوضاً، ورفيق يجعله مبروراً مقبولاً، فاختر لك رفيقاً عالماً بالمناسك، فإن لم تجد فخذ كتاباً من كتب المناسك لعالم موثوق به، ولا تركن إلى هذه الكتب التي يؤلفها من ليسوا بعلماء، ولو رأيت الإعلان عنها، والدعوة إليها، ، فإن فيها خطأً كثيراً.

ولا تأخذ كلام المطوفين قضية مسلمة فإن أكثرهم من غير العلماء.

ولا تقبل من كل من يتكلم في العلم فربما تكلم في العلم في زماننا وتصدَّر للإفتاء من ليس بعالم ولا بطالب علم.

فإذا أعددتم المال الحلال، وانتقيتم الرفيق الصالح، وتبتم من ذنوبكم، وأدَّيتم الحقوق التي عليكم، فأخلوا أذهانكم من هموم العيش وخلفوها وراءكم، وفرِّغوا قلوبكم ما استطعتم لربكم، فإنكم تفكرون في الدنيا العمر كله، ففكِّروا في الآخرة هذه الأيام فقط، وتعملون طول حياتكم لما لا ينفعكم بعد موتكم، فاعملوا هذه الأيام فقط لما يبقى لكم، ويفيدكم يوم العرض على ربكم.

يا إخوتي الحجاج:

إنكم تقومون للصلاة، تنظرون إلى مسير الشمس في النهار، وتبحثون عن نجم القطب في الليل، وتضعون (البوصلة) أمامكم وتستحضرون موقع البلد في أذهانكم لتعرفوا أين تقع الكعبة، فتجعلوها قبلتكم في صلاتكم، وبينكم وبينها الأبعاد والآماد، وبينكم وبينها الصحاري والبحار، والجبال والأنهار، لا يمنعكم بعدها ولا تصدكم العوائق دونها عن أن تتوجهوا إليها بأجسادكم وقلوبكم، وأن تتصوروها على الغيبة، وتحنوا إليها على البعد، فهل أنتم هؤلاء تمشون إليها

كما يمشي المحبُّ إلى لقاء المحبوب، ودونه الحُجُب والأستار، فكلما جزتم إليها بادية، أو ركبتم بحراً، رُفع لكم من دونها حجاب، وكلما دنوتم منها شبراً رُفع لكم ستر، حتى وصلتم إلى المواقيت.

لباسه الرسمي:

هذي مواقيت الحرم يا حجاج فقفوا، هذه أعتاب ديار المحبوب، هذه مشارف بيت المليك، إن من يدخل حضرة ملك من ملوك الدنيا، يلبس للمقابلة لباسها الرسميّ، وهذه أبواب حضرة ملك الملوك، رب العالمين، فاخلعوا عن أجسادكم ثياب الدنيا، والبسوا للنسك لباسه الرسمي.

البسوا ثياب الإحرام التي لا يمتاز فيها غني عن فقير، ولا أمير من أجير، وانزعوا مشاغلها ومشاكلها عن قلوبكم، واغسلوا بالماء أجسادكم، واغسلوا بتجديد التوبة نفوسكم، وانووا إما الحج وحده، وإما العمرة والحج مقرونين، تدخلون بالعمرة فتطوفون وتسعون وتبقون محرمين إلى انتهاء أعمال الحج، وأما العمرة وحدها فإذا أكملتم مناسكها ـ أي طفتم وسعيتم ـ حلقتم ولبستم ثيابكم وحللتم، ثم أحرمتم بالحج يوم الحج، والأول هو الإفراد، والثاني: القران، والثالث: التمتع، وكل ما تنوون حسن، وكل من الثلاثة هو الأفضل في أحد المذاهب، وإن كان التمتع هو آخر ما أمر رسول الله ﷺ والعمل به أولى.

أجيبوا داعي الله:

ثم أصغوا تسمعوا صوت الشرع في قلوبكم يأمركم بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، واتباع سبل الخير، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، اسمعوا أوامر الله في آيات كتابه وأقوال نبيِّه، فإذا تمثلت لأذهانكم، فأجيبوا بألسنتكم وبقلوبكم:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

لبيك أمرتنا فأطعنا، ونهيتنا فاجتنبنا، فأعنَّا اللهمَّ على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فإنا لا نستطيع أن نقوم بها بغير معونتك، لا شريك لك

فنطلب منه، ولا إله سواك فنفرَّ إليه، لقد فررنا إليك، وجئنا قاصدين بيتك، فهل تردنا عن بابك خائبين، وأنت أكرم الأكرمين؟

هذه يا حجاج مواقيت الحرم (آبار علي) على أبواب المدينة، و(الجحفة) عند رابغ، و(قرن) عند السيل الكبير، ووادي محرم قرب الطائف، و(يلملم) في الجنوب الشرقي من مكة.

هذه حدود منزل الوحي، لقد جزتموها الآن محرمين، فجدُّوا السير، واحدوا المطي أو استحثُّوا سائق السيارة.

لقد دنوتم الآن من الحرم، أتعرفون يا إخوان ما الحرم؟

هنا دار السلام إن عمت الأرض الحروب، هنا دار الأمن إن شمل الناس الخوف.

كل حي ها هنا آمن: الناس والحيوان والنبات، ليس ها هنا حرب ولا قتال، الحيوان ها هنا لا يصاد، والأشجار لا تقطع، لا عدوان على أحد، ولا تجاوز على شيء.

هذه حدود الحرم، ألا ترون أعلامها؟

لقد أقام هذه العلامات أبو الأنبياء إبراهيم، وبقيت حيث أقامها.

لقد دخلتم الآن الحرم، فجددوا التلبية واجهروا بها، وقولوا بقلوبكم مع ألسنتكم: لبيك اللهم، قد دعوتنا فأجبنا، سمعنا المؤذن يؤذن بالحج فجئنا رجالاً وعلى كل ضامر، أتينا من مكان بعيد، نجزع الأرض، نطوي البيد، نركب الريح، ونمتطي اللجج، امتثالاً لأمرك، وابتغاء رضاك.

لبُّوا يا حجاج، واجهروا بالتلبية، لبوا عند كل رابية وجبل، تلبِّ معكم الروابي والجبال، لبُّوا كلما صعدتم نُشُزاً، لبُّوا كلما هبطتم وادياً، لبُّوا فهذه جبال مكة بدت لكم.

لقد وصلتم، لم يبق إلا قليل، فجدُّوا المسير.

هذه مكة فادخلوها من أعلاها، من جهة ذي طوى - حي الزاهر - ثم اهبطوا من الحجون، من عند المقبرة، فمن هناك دخلها رسول الله ﷺ، ثم

امشوا من عند المسعى حتى تدخلوا من باب السلام (باب بني شيبة).

لقد زالت الحجب حجاباً بعد حجاب، وتقاربت الأبعاد ساعة بعد ساعة، حتى بلغتم الأرب فنسيتم التعب، فهنيئاً لكم، نلتم المرام، هذا باب السلام، وهذه زمزم، وهذا المقام، وهذه الكعبة البيت الحرام.

فلبُّوا وهلِّلوا، وادعوا فإن دعاء المسلم أول ما يرى الكعبة مستجاب، هذا هو المشهد الذي قطعتم من أجل رؤيته الآفاق، وحملتم المشاق، إني لن أنسى يوم وقفت هذا الموقف أول مرة، من إحدى وثلاثين سنة، لقد سلكنا الصحارى من دمشق، فكنا كلما دنونا يوماً زاد الشوق بنا شهراً حتى تمنيت أن تُطوى لي الأرض، وأن يتصرم الزمن.

وأكثر ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

حتى إذا وقفت على باب السلام صفق من الفرحة القلب، وبكت من السرور العين، فما رأيت الكعبة إلا من خلال الدموع.

هذه دارهم وأنت محبٌّ ما بقاء الدموع في الآماق!

إني لا أتمنى إلا أمنية واحدة، هي أن أنسى هذا المشهد لأستمتع برؤيته من جديد، هذه مكافأة الحاج، إنها لذة من لذائذ الروح لا مثيل لها، فأشبهه بها لأدل عليها من لم يعرفها.

لذة لا يدرك مداها إلا من ذاقها، لذة لا توصف ولا تعرف:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصَّبابة إلا من يعانيها

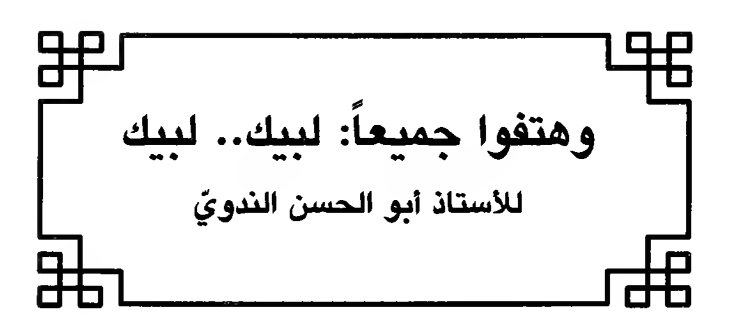
أسأل الله أن يمنَّ بذلك على كل راغب فيه، مشتاق إليه[1].

❁ ❁ ❁

(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة الأولى، سنة ١٣٨٥، ذو الحجة، العدد ١٢، ص ٣٠ ـ ٣٥.

٤ ـ الحج إشباع للعاطفة والحب





وهتفوا جميعاً: لبيك.. لبيك

للأستاذ أبو الحسن الندويّ

الإسلام دين توحيد خالص، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه[١]، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره ويصرف إليه همته ليتخيل به الإله الذي لا تدركه الأبصار، ويرتبط به في خياله، ويتمسك بأذياله، فلا وسائط ولا مظاهر، ولا صور ولا أصنام ولا هياكل، ولا طبقة كهان ولا سدنة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[٢] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٣].

إذاً فالإسلام دين يطلب تجرداً في الخيال، وسمواً في الفكر، ونقاء في الإرادة والنية، وإخلاصاً في العمل والتطبيق، وانقطاعاً عن الغير لا يتصور فوقه وأكثر منه، ومستوى في الفكر والعقيدة لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات والنظم الدينية أو العقلية إلى مثله أو قريب منه، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقة والسمو فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

(١) قال الشيخ: إلا الرسل والأنبياء بمعنى أنهم واسطة بين الخالق والخلق في تبليغ الرسالة والتعريف بالله وصفاته وما يليق به وما لا يليق، والإرشاد إلى الطريق المستقيم.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٣) سورة الزمر: الآيتان ٢، ٣.

شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1].

ولكن الفطرة البشرية هي الفطرة البشرية، فالإنسان ما زال ـ ولا يزال ـ باحثاً عن شيء يراه بعينه فيوجه إليه أشواقه ويقضي به حنينه، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنوّ، وقد اختار الله لذلك أموراً ظاهرة محسوسة اختصت به ونسبت إليه وتجلَّت عليها رحمته، وحفَّتها عنايته، بحيث إذا رئيت ذكر الله، وارتبط بها وقائع وحوادث وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ودينه وتوحيده وحسن بلاء أنبيائه، وسماها «شعائر الله»[2] التي جعل تعظيمها تعظيمه، والتفريط في جنبها تفريطاً في جنبه، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة، بل حثَّ إلى ذلك ودعى إليه فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾[3] إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[4] وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[5].

ثم إن الإنسان ليس عقلاً مجرداً، ولا كائناً جامداً يخضع لقانون أو إرادة قاسرة، ولا «ماكينة» أو جهازاً حديدياً يتحرك ويسير تحت قانون معلوم أو على خط مرسوم، إن الإنسان عقل وقلب، وإيمان وعاطفة، وطاعة وخضوع، وهيام وولع، وحب وحنان، وفي ذلك سر عظمته وشرفه

---

(١) سورة الشورى: آية ١١.

(٢) قال الشيخ: اقرأ البحث اللطيف في ذلك في حجة الله البالغة لحكيم الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي، ج ١: ص ٥٥.

(٣) سورة الحج: الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

(٤) سورة الحج: آية ٣٢.

(٥) سورة البقرة: آية ١٥٨.

وكرامته، وفي ذلك سر قوته وعبقريته وإبداعه، وسر تفانيه وتضحيته، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة، وأن يصنع العجائب والخوارق، واستحق أن يحمل أمانة الله التي اعتذر عنها السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، ووصل إلى ما لم يصل إليه ملك مقرب ولا حيوان ولا نبات ولا جماد.

إن صلة هذا الإنسان بربه ليست صلة قانونية عقلية فحسب، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه ويخضع أمامه ويطيع أوامره وأحكامه، إنما هي صلة حب وعاطفة كذلك، صلة لا بد أن يرافقها ويقترن بها ويتحكم فيها حنان وشوق، وهيام ولوعة، وتفانٍ وتهالك، والدين لا يمنع من ذلك بل يدعو إليه ويغذيه ويقويه، فتارة يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] وتارة يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

ويذكر أنبياءه ورسله وينوّه بحبّهم وحنانهم ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحب، فيقول عن يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾[3]، ويحكي قصة خليله إبراهيم كيف آثر حب الله وطاعته على حب ولده وفلذة كبده وكيف وضع السكين على حلقومه وحاول ذبحه حتى شهد ربه بصدقه وحسن بلائه وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾[4]، وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله وآلائه ونعمائه وإشادته بها والعودة إليها مرة بعد مرة، فإن الصفات هي التي

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥.

(٢) سورة التوبة: آية ٢٤.

(٣) سورة مريم: الآيتان ١٢، ١٣.

(٤) سورة الصافات: الآيات ١٠٤ ـ ١٠٦.

تثير الحب وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام «بالنفي المجمل والإثبات المفصل»[1] فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب ويفيض منه الحنان وتنبعث به الأشواق وتتغذى به العاطفة، فإذا كان النفي رائد العقل كان الإثبات رائد القلب، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى التي تطق بها القرآن، ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنى بها العارفون، وسبَّح بها المسبحون، وسبح في بحارها ونزل في أعماقها الغواصون، لكان هذا الدين خشبياً جامداً لا يملك على أتباعه قلباً، ولا يثير فيهم عاطفة، ولا يبعث فيهم حماسة، ولا يحدث في القلب رقة، ولا في الصلاة خشوعاً، ولا في العين دموعاً، ولا في الدعاء ابتهالاً، ولا في الجهاد تفانياً، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح، ولا مرونة ولا سعة، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية، لا عاطفة فيها ولا أشواق، ولا حنان فيها ولا هيام، وإذاً أي فرق بين الحياة والموت وبين الإنسان والجماد؟!

لقد كان المسلم في حاجة إلى غذاء للقلب، وإلى زاد للعاطفة، وإلى أن يقضي شوقه ويروي غلته مرة بعد مرة وعلى فترة بعد فترة، أو كان في حاجة أن تطفح كأسه، فما قيمة كأس لا تطفح أبداً؟ وكان في حاجة إلى أن يثور على عقله الرزين الوقور المقلد المطبِّق، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد؟ وكان في حاجة إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات وقوانين وضعية وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس، ويفك قيوده وأغلاله، وينتزع الزمام من يد عقله الذي استبدَّ به زماناً طويلاً ويعطيه لقلبه وعاطفته فيتحكمان فيه ما شاءا، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيَّمون، فلا حرية لمن ملكه المجتمع وسيطرت عليه الحضارة وتسلطت عليه آلهة التقاليد و«الموضات»، ولا توحيد لمن أسرته العادات والمألوفات والشهوات.

لقد كان للمسلم أن يقضي هذا الشوق وأن يبرز هذا الحنان وأن

---

(١) قال الشيخ: التعبير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

تفيض كأسه في الصلوات التي يصليها كل يوم فيسلي بها قلبه، ويطفىء بها غلته، ويهدىء بها ثائرته، ويخفف بها حرارة شوقه ووهج نفسه، ولكنها قطرات معدودة تكون خشوعاً أو تسقط دموعاً، إنها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولوع، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان، لا تسمن ولا تغني من جوع.

وكان للمسلم أن يروي ظمأ روحه، ويقضي حاجة حنانه ويكسر سَوْرة نفسه، ويثور على «وثنية» عاداته ومألوفه، وأن يغذي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان، ولكنها ساعات معدودات كذلك، محفوفة بما يخفف أثرها ويضعف سلطانها من أكلة متخمة، ورِيٍّ مسرف، وراحة منعمة، ومجتمع ثائر ومدنية قد أحاطت بالصائم كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرة صغيرة، فكان المسلم ـ بكل ذلك ـ في حاجة إلى طفرة أو قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم العتيق الخانق، وينتقل من عالم كله قديم مألوف، ومقيد محدود، ومخطوط مرسوم، ومصنوع معمول، إلى عالم كله جديد وطريف، وحر منطلق، وثائر مارد، كله حب وغرام، وشوق وهيام، قد حرر من كل رق وثار على كل وثن،، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن، وآمن بوحدة الإلٰهية، وبوحدة الحكم والملك، وبوحدة المنعم والوهاب، وبوحدة الإنسانية، وبوحدة العقيدة، وبوحدة المطلوب، وهتف الناس جميعاً بصوت واحد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

لقد كان المسلم في حاجة ـ بعد هذه الصلوات التي يصليها كل يوم، وبعد شهر رمضان الذي يصومه كل عام، وبعد الزكاة التي يقوم بها إذا تم النصاب وحال الحول ـ لقد كان بعد ذلك كله في حاجة إلى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين، وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين، وأشد الناس حباً لله، وأحبهم إلى الله في عصره، وأسرته الصغيرة الطيبة المباركة بأكبر دور في الحب والولاء، والإخلاص والوفاء والإيثار والفداء، وقاموا بأروع رواية وأجملها في تاريخ

الحب السامي والولاء الطاهر والإخلاص المعجز، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون، والموحِّدون المخلصون، والمحبون المتفانون في كل عصر، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم، واحتذوا حذوهم، وترسموا خطاهم، وحكوا هذه الرواية وأعادوها، فطافوا حول البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ووقفوا بعرفات، وباتوا في المزدلفة، ورموا الجمرات، ونسكوا في منى، وكان في المكان والزمان وفصول الرواية التي يعيدونها، والأعمال التي يقلدونها، ونسائم الحب التي ينشقونها، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذي يعيشون فيه وطبقات الأمة التي يتصلون بها ويعاشرونها ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة، ويحرك الهمم الفاترة، وينبه النفوس الخامدة، ويشعلل شرارة الحب والطموح التي انطفأت أو كادت تنطفيء، ويجدد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها إبراهيم الخليل ويمكن به التشبع بروحه والمحافظة على إرثه، والمقارنة بين حياتنا وحياته وعرضها عليها، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم، وتصحيح ما وقع في حياتهم من أخطاء أو فساد أو تحريف، وإعادة ذلك كله إلى أصله ومنبعه، فالحج عَرْضة سنوية للملة تضبط أعمال المسلمين وحياتهم ويتخلصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها[1].

أما بعد، فإن الوحدة التي تربط مناسك الحج وأجزاءه وأعماله بعضها ببعض، والتي تسيطر عليه من أوله إلى آخره، هي تهيئة الفرصة للمسلم لقضاء شوقه، وإبراز كوامن حبه، وإطفاء غلة روحه، وتقليد إمام الملة في

---

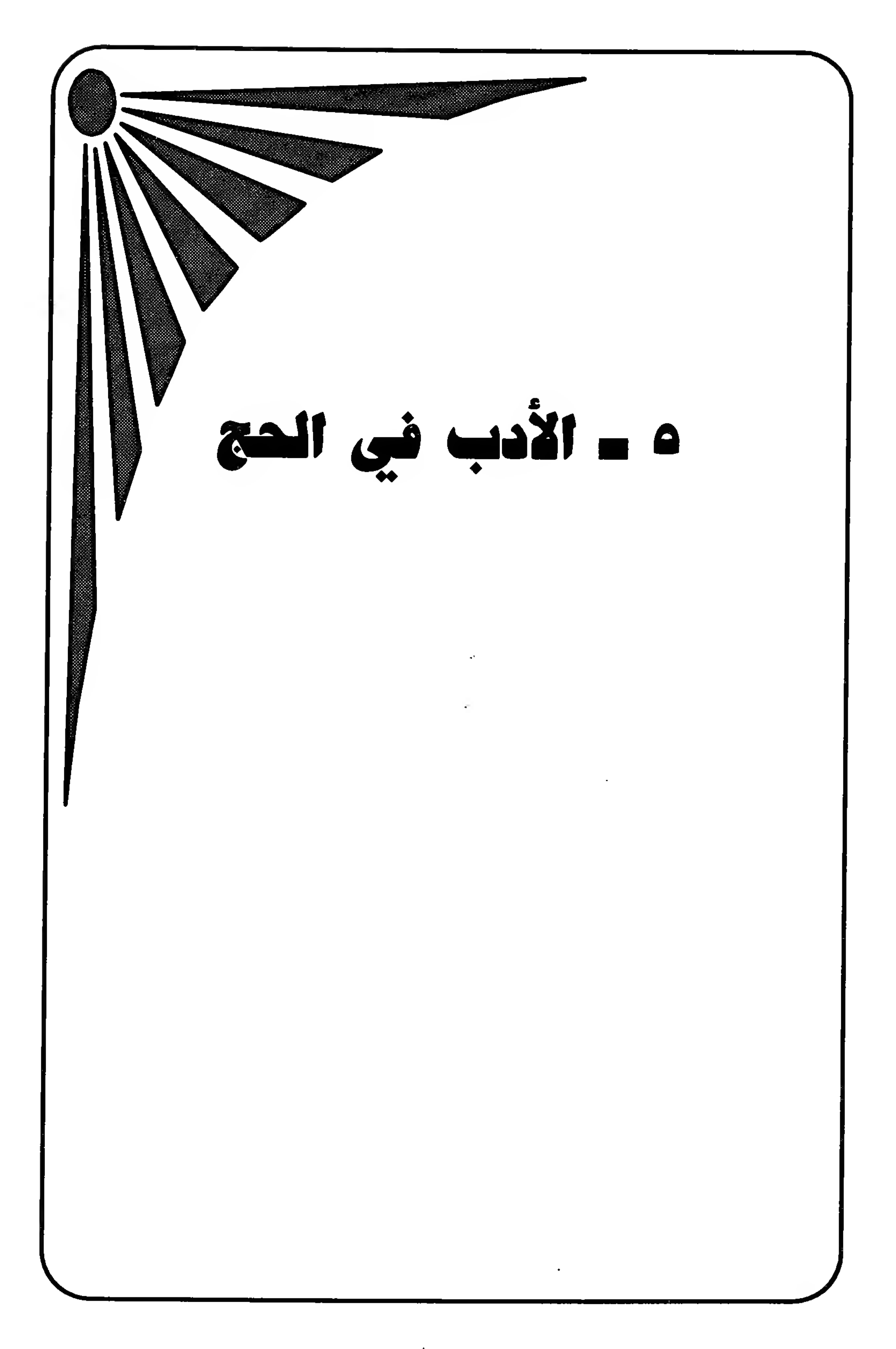
(١) قال الشيخ: يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي: وإذا جعل الحج رسماً مشهوراً نفع عن غوائل الرسوم، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة، والتحذير من الأخذ بها.
ويقول أيضاً: «وكما أن الدولة تحتاج إلى عَرَضة بعد كل مدة ليتميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرى بعضهم بعضاً فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي»: «حجة الله البالغة»: ج١ ص ٦٠.

حبه وإيثاره وفدائه، وهي السر الذي يسهل به فهم مناسك الحج وحكمتها وما تنطوي عليه من معان عميقة دقيقة، ويعلل به السعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمرات، واستلام الحجر الأسود، إلى غير ذلك من مناسك الحج وأعماله، وقد تعب مَن لم يفهم هذا السر في تعليل المناسك وللبحث عن فلسفة الحج، واقتصر على الإشادة بفوائده الاجتماعية والسياسية، وأساء إلى نفسه وأتباعه، فإن كل هذه الفوائد وما لم تخطر بعد على بال حكيم ضمنية ثانوية، ولكن الغاية الرئيسية هي التي نوَّهنا بها في هذه السطور، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(١).

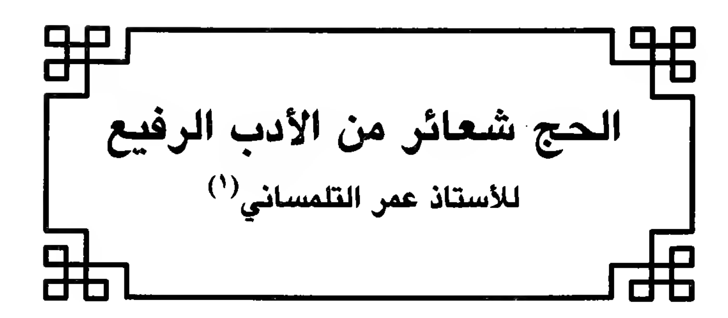


(١) مجلة «المسلمون»: العدد السادس، ذو الحجة سنة ١٣٨٤، ص ٥٢١ ـ ٥٢٥.





٥ ـ الأدب في الحج



الحج شعائر من الأدب الرفيع

للأستاذ عمر التلمساني[1]

لو أن الله قدر لك أن تحج إلى بيته الحرام، وتسعد بالمناسك، وتحظى بالتلبية بين التلال الطاهرة، والوديان العامرة بالحجيج، يرددون التلبية، فتتجاوب أصداء تلك البقاع بالنغم الهانىء في تهليل وتكبير، يهز القلوب من الأعماق شعوراً بقدسية فارض الحج، ومتعة بلقاء المسلم بالمسلم، وفرحة التعارف بين المسلمين من أطراف الأرض وروعة مشاهدة الألوف ومئات الألوف بل الملايين تهفو إلى هدف واحد، وترنو إلى بيت كريم، وتنسم نسائم المغفرة والرأفة من رؤوف، والرحمة من رحمن رحيم، لو أنك زرت تلك المنازل وسعدت عيناك بهاتيك المشاهد، لو أنك فزت برؤية الكعبة، فخشعت جوارحك أمام بيت الله الحرام، واهتزت كل جارحة منك بجلال ذي الجلال والإكرام.

لو أن الله أسعدك برقة لامست قلبك فجرت الدموع، دموع الندم

---

(١) عمر بن عبدالفتاح بن عبدالقادر التلمسانيّ. داعية مرشد. ولد بالقاهرة سنة ١٣٢٢ لأسرة جزائرية الأصل من تلمسان فنسبت إليها. تخرج بكلية الحقوق، ومارس المحاماة، والتحق بجماعة الإخوان المسلمين واعتقل. ولما مات الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام سنة ١٣٩٣ صار هو المرشد. كان شديد الحياء، نزاعاً إلى المطالعة في كتب الفقه والتفسير والحديث والسيرة النبوية، وحفظ آلاف الأحاديث. توفي سنة ١٤٠٦ رحمه الله تعالى، وخلف آثاراً علمية. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

والتوبة، أو دموع الفرحة باللقاء أن سلمت من الذنوب صغيرها وكبيرها، لو أنك استمتعت بهذا الفيض العظيم، لتيقنت تواً كيف يريد الله أن يحقق لأبينا إبراهيم عليه السلام دعوته، يوم أن جار إليه بالرجاء أن تهوي قلوب المؤمنين إلى زيارة تلك البقاع: ﴿. . فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1].

ولولا أن كل هذه المشاعر الحانية، والإحساس يرفرف بين الضلوع، لما كان هناك من دافع يدفع المسلم إلى زيارة القفر من الديار، والبلقع من الصحاري، حيث لا نبت ولا زرع ولا ضروع.

إن الله سبحانه استجاب لإبراهيم عليه السلام، وأفاض من جوده وآلائه تلك الأحاسيس الدافئة المتدفقة تروي القلوب، وتزرع فيها الشوق والحنين إلى هناك.

لولا أن الله قد أفاض هذا على القلوب فكيف كانت تتحقق دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ألهمَ إبراهيم فدعا، واستمع إلى إبراهيم فاستجاب، منه سبحانه الفضل، وإليه يرجع كل فضل في هذا الوجود.

الحج آداب عالية:

أما وقد اعتملت في نفسك كل هذه المعاني الهانية، فاعلم أن الحج آداب عالية سامية نبيلة، حتى تؤتي هذه الفريضة ثمارها، فيرجع الحاج من حجه المبرور كيوم ولدته أمه مطهراً من كل ما جنته يداه.

أنت في الحج ذاهب لذكر الله في أيام معلومات، فهل أعددت نفسك للمثول الكبير بين يدي العلي العظيم؟ إن ذكر الله هناك، بل وفي كل مكان مشغلة للمسلم عن كل ما سواه، تطهير للنفس حيث لا تشغل إلا بذكر باريها، وحياة للقلب الذي لا يستوي على عرشه إلا من أعده هذا الإعداد العجيب، نقاء في اللفظ، فلا كلمة جارحة، ولا نبرة ساخطة، ولا نظرة غاضبة، سيطرة كاملة على الأعصاب، تحول بينها وبين فورة تفسد عليك ما تحملت من أجله مشاق الفريضة، هدهدة للعواطف فلا تنبض إلا بالحب،

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

ولا تنطوي إلا على المودة، ولا تبطن إلا الخير، في حرص في حذر في يقظة في مراعاة تامة، ومراقبة كاملة لمن لبيت نداءه بالحج، إنه يعلم ما تخفي وما تعلن، إنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، إنه قابل التوب، صاحب المغفرة، فهل أنت على استعداد كامل كي تكون محلاً لمهبط الرحمات، والتزام الأدب الجم والتواضع الوفير.

هناك بين المسلمين:

أنت في أطهر بقاع الأرض، منازل الوحي، مهابط جبريل، متلقيات التنزيل، مجامع المسلمين، قواعد الإسلام، أنت هناك لا تلتقي إلا بمسلم، ولا تجالس إلا مسلماً، ولا تتعامل إلا مع مسلم، ولا تسكن إلا في بيت مسلم، ولا تطعم ولا تشرب إلا من مسلم، فهل يعز عليك أن تكون هناك مثلاً طيباً لكل مسلم، يسعدك الرضا بالالتقاء به في أرض الحب والسلام؟ أعط كل مسلم تلقاه هناك كل ما في قلبك المسلم من ألفة ووداد، أعط منازل الرحمٰن هناك حقها من التوقير والتعظيم والتكبير.

أنت سائر إلى رب الأرباب، إلى الكريم الوهاب، إلى الغفار التواب، فهل تعي كيف تدخل عليه بيته، وتغشى حرمه؟

أنت أمام الكعبة خاشع الطرف حياءً وإجلالاً، أنت أمام الحجر الأسود، واجف القلب خوفاً ورجاء.

أنت بين يدي أحب محبوب، وأعظم مطلوب، وأسعد مرغوب، فإذا أعانك صاحب البيت على إتمام المناسك تامة طاهرة مؤداة، وفارقت بلداً كان رسول الله ﷺ يحنُّ إليها في مهاجره، وتذرف عيناه الدموع إذا ما تغنى بلال بوادي القرى وإذخر وجليل[١]، واهتاجت مشاعره بذكريات تشوقاً إلى شامة وطفيل[٢].

إذا ما استقبلت المدينة فلترف جوانحك وحنايا صدرك، ولتخفق كل

---

(١) نوع من الشجر.

(٢) أماكن في مكة.

جارحة من جوارحك بلهفة الشوق، وبارقة الهيام للمثول أمام حضرة صفوة الله من خلقه أجمعين، صاحب الخلق العظيم الذي أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، فانهل هناك من مناهل القرب، ولج أبواب القبول والحب، واركع واسجد بين القبر الطاهر والمنبر فأنت حينئذ في روضة من رياض الجنة.

هناك مسجد الغمامة التي ظللت الرسول ﷺ، وهناك البقيع مثوى الأطهار المجاهدين، هناك أسلافك الأماجد.

أدب كله:

الحج أدب كله، خلا من الرفث والفسوق والجدال، طهر كله بالذكر العطر، والتهليل الندي، والتكبير المسعد السعيد، نفع كله للزائر والمزور، للمنتجع ومن كان أهله حاضري المسجد الحرام، وثام كله يسود مجتمع التآلف والتعارف، رباط وثيق بين مسلمي المشرق ومسلمي المغرب، عن قرب وعن معاشرة ومعاملة، فريضة لم ولن تتوافر لأصحاب دين غير المسلمين.

إذا انتبهت حصلت، وإذا عقلت فوت، وإن أخلصت فزت وإن تغاضيت ندمت.

أسأل الله من كل قلبي أن تعود والحجيج جميعاً وقد فاز كل واحد وواحدة بكل ما أحب له من خير، وأتمنى من سعادة.

إنه نداء صاحب الشأن، واسع السلطان لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾[١].

حج مبرور، ومسعى مشكور، وذنب مغفور، وشيطان مقهور، ووسواس مدحور، وجند للرحمٰن منصور[٢].

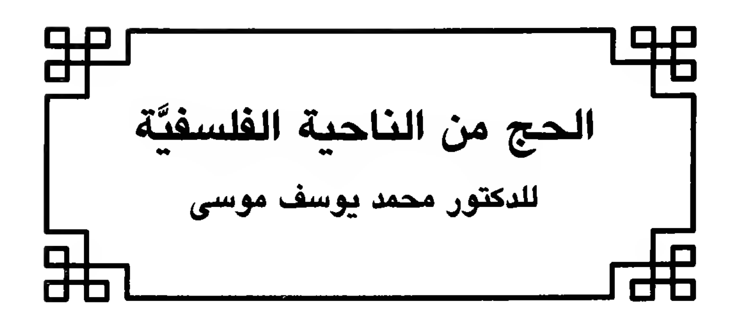


(١) سورة الحج: آية ٢٧.

(٢) مجلة «الدعوة»: السنة ٢٧، العدد ٣٠، ص ١٨، ١٩، ذو الحجة سنة ١٣٩٨.

٦ - من أسرار الحج





الحج من الناحية الفلسفيَّة

للدكتور محمد يوسف موسى

الحج ـ كما نعلم جميعاً ـ ركن من أركان الإسلام، وشعيرة يتطلب القيام بها البذل من المال والنفس، وعبادة لا يتم للقادر عليها دينه إلا بالاضطلاع بها، حتى ليُروى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»[1]، وليس من همِّي الآن بيان ما للحج من مقدمات ومعالم وشروط لا يتم إلا بها، بل موضوع الحديث هو الحج باعتباره عملاً اجتماعياً تدعو إليه الفكرة الفلسفية لو لم يدع إليه الدين.

❁ ❁ ❁

الإنسان مركب من عنصرين: أرضي وهو الجسد، وسماويّ وهو الروح. وقديماً قام النزاع الحاد بينهما كما يكون بين الشيئين أحدهما للآخر ضدٌّ وعدو. والناس في ميلهم لهذا العنصر أو ذاك بين مفرِّط ومُفْرط، إلا من كان حكيماً فعرف لكلٍّ حقه وأرضاه بقدر، ولم ترتطم الإنسانية في هذه الغمرة التي نلمسها هذه الأيام إلا بسبب انحيازها للناحية المادية وانغماسها فيها.

لهذا كان لا بد من عمل يلفتنا بقوة عن هذه الحياة بما يستلزمه من إعراض عن زينة الدنيا وطيباتها، وبما يوجبه من مساواة تشعر الغني منا بأنه أخ

(١) في الحديث ضعف كما سبق بيانه.

لمن يعيش بينهم من عبيد الله لا يتميز عنهم في ملبسه ومظهره وعامة أحواله.

هذا العمل هو الحج الذي ـ كما يقول الغزاليّ ـ يعتبر في الشريعة الإسلامية عوضاً عن الرهبانية في المسيحية، إذ فيه ما فيه من كبت الشهوات والبعد عن الدنيا والإقبال على الله والسمو بالروح، وقد سَلِم مما يلازم الرهبانية من عَنَت وإرهاق دائمين.

ثم في الحج ـ مع هذا ـ زيارة البيت العتيق الذي أضافه الله تعالى إلى نفسه لشرفه، وجمعٌ لأكبر عدد من المسلمين في صعيد واحد يؤمون غرضاً واحداً، ولكل من هذين حكمته وأثره البعيد في حياة الأمة أفراداً وجماعات، إنما تشقى الأمة إذا تناكدت وتفرقت بها السبل، والإسلام ـ الذي حث المسلمين على أن يأتمروا بينهم بمعروف ـ جعل لهم مؤتمرات: بعضها يوميٌّ وهو الصلاة جماعة، وبعضها أسبوعيّ، أوسع وأعم من سابقه، وهو صلاة الجمعة، وبعضها كل عام على نحو أشمل وهو صلاة العيدين، وأخيراً المؤتمر الأكبر وهو الحج الذي يجب أن يشهده كل مسلم قادر مرة واحدة على الأقل في حياته.

ومن الناس من لا يفهم الحقائق إلا ممثلة، أو مرموزاً لها بمُثل مُحَسَّة، فكان من الحكمة أن يكون من شعائر الحج الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود رمزاً لما يجب أن يكون عليه المسلمون من وحدة في الهدف واتحاد في التوجه لله. إن البيت الذي أُمرنا بالطواف حوله هو بيت الله، الذي جعله مثابة للناس وأمناً، وفي الطواف به تشبه بالملائكة الحافِّين بالعرش، الطائفين به قانتين مسبحين لا يفتُرون، وفي ذلك ما فيه من سمو للروح وعروج بها إلى السموات العلى.

ونفس الحلول بالبيت ورحابه تمهيد طيب لرؤية صاحبه جلَّ وعلا متى صفت النفس[1]، فصارت أهلاً لهذه السعادة القصوى، وفي استلام الحجر

---

(١) يعني في الدار الآخرة، أما الدنيا فلا سبيل إلى الرؤية.

من المسلمين كافة بيعة منهم جميعاً لله عزَّ وجلَّ على كل ما هو حق وجميل وخير وفضيلة...

إن في استلام هذا الحجر ـ وهذا ما يرمز له ـ حافزاً قوياً على وفاء الحاج بما يعاهد الله عليه من بُعد عن البشر، وحب للفضيلة، وحرص على عمل الخير.

وفي الحج ـ مع هذا كله ـ دلالة قوية على الثقة بالله واستجلاب لعونه، تعزم على الحج المرأة الضعيفة بطبيعتها والرجل الضعيف لمرضه وسنه الكبيرة، فما هو إلا أن يبدأ مَن هذه حالته السعي له حتى يجد من نفسه القوة ومن غيره المساعدة، وحتى يعود صعب الأمر ذلولاً، فتتهيأ له السبل ويمضي لما أراد دون عقبات أو صعاب، ذلك بأنه نزع عنه رداء الغرور بنفسه وحوله، وألقى نفسه في سبيل الله واثقاً به، متَّكلاً عليه، معتداً به وحده، فكان له ما أراد.

والحج ـ بعد ما نعرف من الأعمال الظاهرة ـ له حقائق باطنة يجب النفوذ إليها، وأحوال نفسية يشعر بها الحاج وينعم بها، إنه ليعجبني في هذا حديث جرى بين الشِّبليّ رضوان الله عليه، وبين صاحب له. كان من هذا الحديث أن الشبلي ـ وهو متصوف حريّ بهذا الوصف، وليس كأدعياء التصوف في هذه الأيام ـ يرى أن من عقد الحج لله، ولم يفسخ بهذا العقد كل عقد يخالفه كان كأنه ما عقد الحج ونواه، وأن من تجرد من ثيابه للإحرام ولم يتجرد مع هذا من المعاصي، يكون كأنه ما تجرد من ثيابه، وأن من لبى ولم يذق عن الله جواب تلبيته، يكون كأنه ما لبَّى، وأن من أشرف على مكة فلم يشرف عليه حالٌ من الله تعالى يكون كأنه ما دخلها، وأن من صافح الحجر الأسود فلم يجد أثر الأمن، كان كأنه ما صافحه أو لمسه؛ لأن من صافح الحجر فقد صافح الحق سبحانه وتعالى، ومن صافح الله صار في أمن وسلام منه، وأن من رمى الجمار فلم يرم بهذا جهله ولم يزدد به علماً يظهر عليه كان كأنه ما رمى...

وهكذا، نجد من الشبلي رحمة الله عليه تحليلاً دقيقاً طريفاً للحج وأعماله ومشاعره، تفهم منه كثيراً من أسراره وفلسفته.

ومن الحق أن نوافق الشبليّ وأمثاله في نظرهم للحج وحكمه وأسراره، هذه النظرة الفلسفية العالية، إن منا من يبذل في سبيل السفر للحجاز كثيراً من المال، ويتعب نفسه بكثير من المشقات، وذلك في سبيل أن يظفر بلقب حاج، ينال به من عروض الحياة الدنيا! ومنا من يعيش أيام الحج في تلك البلاد المقدسة والأجواء الروحية السامية، ثم لا يتذوق شيئاً منها، فيعود أغلظ قلباً مما ذهب! ومنا أخيراً من عرف يقيناً خطر ما هو مقبل عليه، وعلم أنه يهجر الأهل والوطن والشهوات واللّذات في سبيل الله وزيارة بيته الحرام، وإذاً فهو يقدر البيت قدره ويرى لربه عظمته وجلاله، فيخلص النية له ويرعاه في كل خطوة له وعمل، ويجاهد نفسه وهواه حتى يرجع لبلده خيراً مما ذهب، ويعود لأهله وقد تقبل الله حجَّه ورضيه وأرضاه.

ذلك، والحج للكعبة وإن كان من خصائص أمتنا الإسلامية، فإنه باعتباره قصداً إلى مكان مقدس، عرفته الأمم المتمدنة في العصور المختلفة: عرفه اليونان فكانوا يحجون قبل المسيح عليه السلام إلى معابد مقدسة لديهم، وعرفه الهنود والصينيون القدامى، ثم عرفه اليهود والمسيحيون الذين لا يزالون يحجون إلى بيت المقدس.

ومما يجدر ملاحظته أن الحجاج من هذه الأمم المختلفة وغيرها، يلتزمون أثناء الحج التقشف والزهد في هذه الدنيا كما نلتزم، ليشعروا أنفسهم شيئاً من الروحية العالية، وطلباً لمرضاة معبوداتهم وطمعاً في ثوابها، وليس هذا التوافق من الأمم المختلفة بعجيب، فالإنسان هو الإنسان في كل زمن، وإنه ليحس في قرارة نفسه الحاجة للسمو الروحيّ والتقرب من المعبود أو من الرمز الذي اتخذه لهذا المعبود، وهذا السمو وهذا التقرب لهما سبل عدة، من أهمها تجشم التعب وبذل المال في سبيل الحج للمكان المقدس الذي يراه ألصق البقاع بما اتخذه من إله.

هذا هو خطر الحج عند الأمم المختلفة لما يعتبرونه مقدساً من مكان، فكيف عندنا وهو تلبية لنداء أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام وإجابة

لرجائه ربَّه إذ يقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1] وهو مع ذلك استجابة لأمر نبينا محمد ﷺ حين أمره الله بقوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾[2]. فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآيات صعد أبا قبيس فقال: «يا أيها الناس، حُجُّوا بيت ربكم»، فأسمعه الله تعالى مَن في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق في علمه تعالى أنه يحج، من الطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود.

إني أحاول أن أتصور ديناً خلا من الحج لمشهد مقدس وبقاع طاهرة، فلا أكاد أظفر إلا بصورة باهتة لدين ميت لا حياة فيه، وقاصر عن بلوغ الكمال بمتبعيه، إنه من النافع كل النفع أن يصلي المرء، ففي هذا رياضة للجسم والروح، وحسن وجميل أن يصوم، ففيه تعويد على الصبر وترقيق للنفس وفائدة للجسم، ومن الخير للمجتمع أن يؤدي أفراده الزكاة على اختلاف ألوانها، ففي هذا اقتلاع للحسد والحقد من قلوب المُعْوَزين على القادرين، وعون للفقراء على متاعب الحياة، وإغلاق لكثير من السجون، وفتح لغير قليل من المنشآت الاجتماعية، ولكن هذه العبادات كلها لا تغني عن التزام الأمة للحج لمكان واحد، وقصد غرض واحد، والعيش فترة من الزمن في تجرد عن الحياة ومفاتنها، وإقبال على الله وحده، واستعداد لتلقي فيضه ورحمته ما دمنا قد سعينا إلى بيته مخلصين النية له.

من ذلك كله نعرف أن الحج عمل يأمر به العقل قبل أن يوحي به الدين، وأن لكل عمل من أعماله وشعيرة من شعائره حكمته وفلسفته، وأن ديناً صحيحاً لا يمكن أن يقوم بدونه، وأن أمة من الأمم لا يسعها أن

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

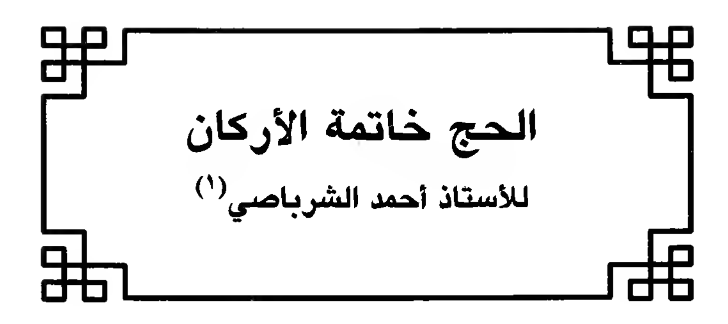
(٢) سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨.

تستغني عنه، وحسبنا دلالة على هذا ما أشرنا إليه من أن الأمم التي خلت عرفته وعرفت له خطره، وأن الأمم التي تعمر العالم اليوم ـ على اختلاف مللها ونحلها ـ تعدّ الحج لمكان ما أمراً مقدساً فيه رياضة للجسم وسمو للنفس وخير للأمة عامة، وإن أمراً تجمع عليه الأمم في العصور الخالية والأيام الحاضرة ـ رغم ما يفرق بينها من اختلاف في الجنس والدين والتقاليد ـ لهو أمر لا يقادر قدره ولا يكاد يُدرك كل ما فيه من جمال وخير وفضيلة.

من أجل هذا، أدعو الله أن يوفقنا لهذا الخير مرة بعد مرة، وأن يجعل حج من يحج من المسلمين عامة حجاً مبروراً ليس له جزاء إلا الجنة، كما جاء في حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه[١].



(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٢، ص ٣٣ ـ ٣٧، سنة ١٣٧٠هـ.



الحج خاتمة الأركان

للأستاذ أحمد الشرباصي[1]

أنزل الله دينه العظيم ليكون تزكية للحياة ونوراً للأحياء، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، ولقد بنى الله العلي الكبير دينه على خمسة أركان، يتمُّ بها البنيان، ويسعد بها الإنسان، وبدايتها شهادة التوحيد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وختام هذه الأركان حج بيت الله الحرام، ولذلك قال سيد الخلق: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»، ونلاحظ أيها الإخوة أن مجموع هذه القواعد يعمر حياة الإنسان ويصاحبه في الليل والنهار، والصباح والمساء، على امتداد اللحظات والأيام والأسابيع والشهور والأعوام، بل تصاحبه العمر كله، منذ أن يفقه الحياة إلى أن يلقى الله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2].

ونلاحظ معاً أيها الإخوة أن من هذه القواعد ما يجب تذكره وتدبره واستحضاره في القلب والعقل في كل ساعة من ساعات الحياة، بل في كل

---

(١) أحمد عبده الشرباصي، العالم الوزير المهندس. ولد سنة ١٣١٧ بقرية أبو ذكرى بمحافظة الدهقلية بمصر، ودرس في مدارسها ومدارس القاهرة، وتخرج في مدرسة الهندسة، وتنقل في المناصب حتى صار وزيراً للأشغال في الحكومة الثورية بمصر، ثم صار نائباً لرئيس الوزراء لشؤون الأزهر والأوقاف ووزيراً للأوقاف. له عدة مصنفات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٤. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٨٣، ٨٤.

(٢) سورة النمل: آية ٨٨.

لحظة من لحظات العمر، بل مع كل خفقة من خفقات القلب إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ألا وهو شهادة أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[1]، ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[2].

ومن هذه الأركان ما نقوم به كل يوم عدة مرات، ونعود إليه كلما مرت علينا من الحياة ساعات، وهي فرائض الصلوات التي نؤديها يومياً خمس مرات، في الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، والقرآن الجليل يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[3] ويقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾[4]. فالصلاة فريضة يومية متكررة، كلما مر بضع ساعات هرعنا إلى محراب الصلاة لنستغرق في المناجاة، وفي الحديث مع الله خالق الحياة، بعد أن نقطع العلاقة المادية إلى حين مع شهوات هذه الحياة.

ومن هذه القواعد ركن نستطيع أن نسميه بالفريضة الموسمية، يتكرر في كل موسم من مواسم العام، وهو الزكاة بمختلف أنواعها، ففي زكاة الزروع نؤديها كلما حل موسم للحصاد، ولذلك يقول الكريم عن الزرع: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾[5]، فإذا مر العام ـ أو كما يقول الفقهاء: حال الحول ـ وجب إخراج زكاة المال المدَّخر إذا بلغ النصاب المطلوب، والحق يقول: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[6] ويقول: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾﴾[7].

ومن هذه القواعد ما نؤديه في شهر واحد معين من كل عام فريضة

---

(١) سورة الزمر: آية ٦٦.
(٢) سورة الأنعام: آية ٩١.
(٣) سورة النساء: آية ١٠٣.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٣٨.
(٥) سورة الأنعام: آية ١٤١.
(٦) سورة الأعلى: آية ١٤.
(٧) سورة الليل: الآيات ٥ ـ ٧.

من الله والله عليم حكيم، ذلكم هو الصوم الذي يقول في شأنه التنزيل الحكيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾[1] ثم حدد القرآن تلك الأيام بقوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾[2].

ومن هذه القواعد أخيراً فريضة تؤدى مرة واحدة في العمر كله مهما طال أو امتد، وهي فريضة الحج الذي يقول عنه القرآن المجيد: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾[3]، ولأن الحج يؤدى كفريضة مرة واحدة في العمر كله جعله الله خاتمة لقواعد الإسلام الخمس، ففرضه على الناس وشرعه بعد أن شرع الفرائض الأخرى، ولأمر ما وحكمة يعلمها الله سبحانه حجَّ الرسول ﷺ حجته الواحدة ـ حجة الوداع ـ في العام التاسع من الهجرة، وقبل وفاته صلوات الله وسلامه عليه بقليل، واشتراط الإسلام في وجوب الحج على المسلم شرط الاستطاعة، فقال: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، وهذه الاستطاعة فيما يفهم المتدبر المتبصر تتسع وتنفسح حتى تشمل الاستطاعة الصحية والاستطاعة المالية والاستطاعة الذهنية، بحيث يفهم من يقوم بالحج كيف يحج ولم يحج، وبحيث يعقل ما يؤدي في مناسك الحج، لأن بعض الناس يؤدون هذه المناسك أداء صورياً تقليدياً لا يعقلون منه قليلاً ولا كثيراً، ومثل هؤلاء يحتاجون إلى تفقه في الدين، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، كما قال الصادق المصدوق عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

ولعل السر في اشتراط القرآن شرط الاستطاعة في أداء فريضة الحج

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٣) سورة آل عمران: آية ٩٧.

هو أنه يريد أداءها من صاحبها بإتقان وإحسان واقتداء، لأنها فريضة تؤدى مرة واحدة في العمر كله، ولأنها ستكون تاجاً لبقية الفرائض التي سبقت، وتمام الإحسان في العبادة هو كما قال سيد الخلق: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

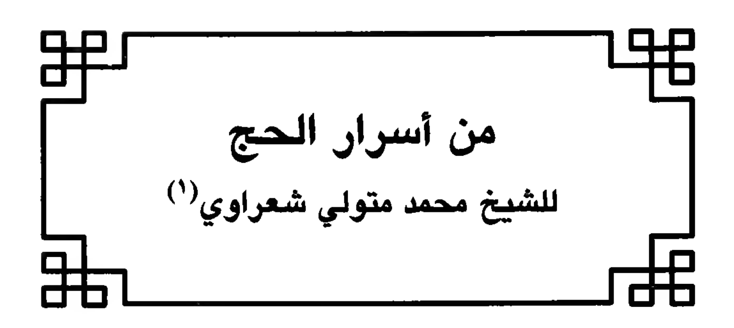
والعجيب أن قواعد الإسلام هذه مرتبة في الحديث النبوي الذي سمعناه ترتيباً يتناسب مع مقدار الزمن الذي تتكرر فيه كل قاعدة، فقاعدة شهادة التوحيد تأتي أولاً، لأنها تصاحب الإنسان دائماً في حياته، فمع كل نفس داخل أو خارج من الإنسان يتذكر أن ربه هو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[1] وأن محمداً رحمة الله لعباده دائماً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[2] ثم تأتي الثانية وهي الفريضة اليومية التي تصاحب الإنسان كل يوم مرات، ثم تأتي الزكاة وهي تتكرر في كل موسم من مواسم الحصاد، أو عند تمام العام، ثم يأتي الصوم وهو فريضة سنوية لا تكون إلا في شهر واحد في السنة هو رمضان، ثم تختم القواعد بقاعدة الحج الذي لا يفرض إلا مرة واحدة في العمر كله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾[3].

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام..

دين الله هو نور الحياة، هو روح الأحياء، هو صوت السماء، هو الدواء والغذاء والشفاء والضياء ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾[4] أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[5].



(١) سورة البقرة: آية ٢٥٥.
(٢) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.
(٣) سورة النمل: آية ٨٨.
(٤) سورة البقرة: آية ١٣٨.
(٥) «الموسوعة الشرباصية»: ٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥.



من أسرار الحج

للشيخ محمد متولي شعراوي[١]

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، ومعنى ركن أنه أساس يبنى عليه، فإذا قيل بني الإسلام على خمس فليست هي الإسلام كله، وإنما ما يبنى عليه الإسلام، فالإسلام إذاً شيء آخر يبنى على هذه الأركان، ومعنى الأركان أنها الشيء الذي يجب أن يستقر في ذهن المسلم عقيدة أولاً، بحيث يؤمن بها إيماناً جازماً، وعليه أن ينفذ مطلوبات الإيمان بجعلها سلوكاً، ولكن هذا السلوك يلزم في بعض الأركان ولا يلزم في البعض الآخر إلا إيماناً به، فمثلاً الشهادتين أمر مطلوب من كل مسلم إيماناً وفعلاً، وإقامة الصلاة كذلك، وهذا أمر لا يعفى منه مسلم، ولكن أن يؤدي المسلم زكاة المال، فذلك فرع وجود المال، فإذا لم يوجد المال فقد استقرَّ الإيمان بالركن، وهب أنه مريض لا يقدر على الصوم فقد استقر الإيمان بالركن، وكذلك الحج يؤمن به المسلم، فإن لم يستطع فلا يحج، فإذن كان هناك فرق بين أركان الإسلام وأركان المسلم، فالركنان الأساسيان هما الشهادتان والصلاة، فإذا ما نظرنا إلى الحج وجدناه مطلوباً إيمانياً معتقداً، من ينكره يكفر، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٢].

(١) أستاذ مصري أزهري مفسر، درس في الأزهر، وتنقل في المناصب حتى صار وزيراً للأوقاف، وأعير أستاذاً إلى عدة جامعات عربية، واشتهر بتفسير القرآن حتى صار صاحب منهج فيه لا مثيل له. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤١٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ٩٧.

لكن إذا نظرنا إليه وجدناه حين يصبح ركناً للمسلم فإن المسلم أصبح في دائرة استطاعته، وجدناه ملزماً به لأنه مستطيع، قد استكمل كل أركان الحج، لأن الاستطاعة قدرة بدنية ومالية، فإن كانت بدنية فقد ثبت عليه الصوم، وأيضاً إن كانت مالية فقد ثبتت الزكاة.

إذن فالحج قد استوفى كل الأركان، ولذلك نجد أن هذه الظاهرة الشائعة في تسمية كل من أدى هذه الفريضة حاجاً يأخذ هذا الوصف، ولكن هل يأخذ وصف أنه مصلي أو مزكي أو صائم مثلاً، ولكن هذا الشيوع على ألسنة الناس له معنى بره، لأن معنى ذلك أنه أصبح مسلماً قد استوفى في نفسه أركان الإسلام.

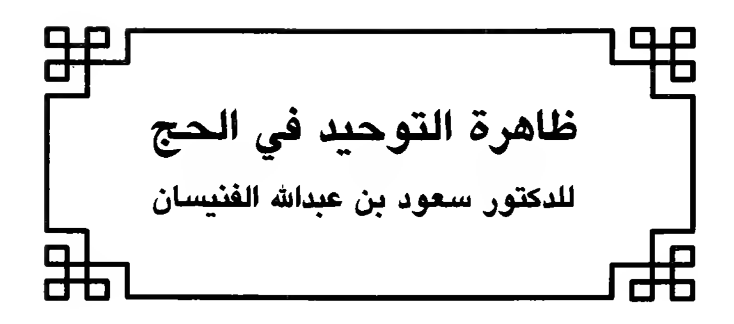
فإذا ما نظرنا إليه لنستشف بعض أسراره ـ ولله في كل حُكْم سر ـ نجد أن الإنسان يعيش مع نعمة الله دائماً وطناً ومالاً وأهلاً ومعارف وعشائر.

فإذا ما طلب الله منه أن يحج إلى بيته فمعنى ذلك أنه طلبه ليعيش مع المنعم مرة في العمر بعد أن عاش مع نعمة المنعم طيلة حياته، لذلك كان عليه أن يتجرد من كل شيء لأنه في الرحلة إلى المنعم، وأول تشخصات النعم في الإنسان هندامه وزيُّه، وبه يمكن الحكم على الشخص تقديراً لموضعه في المجتمع، وذلك أمر لا يتأتى في كثير من أمور حياته، لذلك أراد الله في الإحرام أن يكون المسلم متجرداً عن تشخصاته ـ وهو الزي ـ ليشترك مع الناس جميعاً في شيء يغطي العورة، لذلك يرفض عن نفسه أول تميز حتى يصبح في دائرة الاستغراق العبادي، وعليه أيضاً في إحرامه أن يمنع أشياء تلزم في جوارحه الأدب مع نفسه بمنعه من كثير من ترف النعم ومحسنات الزي والهندام، فلا يحلق ولا يتطيب، ولا يكون حراً في أن يلقى كل جدال بما شاء من الفعال، ولا يتزوج حتى وإن كان الزواج مشروعاً، وبذلك ينخرط في العبودية انخراطاً يخرجه عن كثير مما ألف واعتاد، ليظل دائماً على ذكر بالأمر الذي نزعه مما أنعم عليه به من وطن ومال وأهل ولباس وحرية في النقاش والجدال وأدب مع كل أجناس الكون،

فلا يصيد ما يباح له صيده في غير إحرام، ولا يعتدي على حيوان، ولا يعتدي على نبت، كل ذلك صيانة لجوارحه عما اعتاد، وبذلك يخلص نفسه للمنعم الذي عاش طوال حياته في نعمته، وكل أفعال الحج من هذا اللون، لكل شعيرة حكمة وفي كل منسك سر[1].



(١) مجلة «منار الإسلام»: العدد ١٠، السنة ١٨، ذو القعدة سنة ١٤١٣، ص ٦، ٧.



ظاهرة التوحيد في الحج

للدكتور سعود بن عبدالله الفنيسان

الحج خامس أركان الإسلام، في الحديث: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً».

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فهو عبادة مالية وبدنية يشترط له الاستطاعة بنوعيها: الحسية والمعنوية.

فالاستطاعة الحسية: هي الزاد والراحلة، فمن وجد زاداً يقوته في ذهابه وإيابه، واستطاع تأمين وسيلة تنقله من بلده إلى مكة المكرمة وتعيده إليه ـ مِلكاً أو استئجاراً ـ فقد وجب عليه الحج، وتزيد المرأة وجود المحرم المرافق لها في سفرها لحديث: «احجج مع امرأتك» قاله النبي ﷺ جواباً لرجل طلب الغزو معه وأخبره أن امرأته تريد فريضة الحج. ولو لم يكن وجود المحرم واجباً عليها لما صرفه الرسول ﷺ من الغزو إلى مرافقتها. ولحديث: «لا يحل لامرأة تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم» وهو عام لكل سفر.

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

أما الاستطاعة المعنوية: فهي ما يشترط في الحاج من الإسلام والحرية والبلوغ والعقل، إذ الكافر لا يقبل منه عمل، والرقيق لا يد له في المِلك ولا يتصرف إلا بإذن سيده، والصغير والمجنون غير مكلفين لرفع القلم عنهما، ومثلهم المريض مرضاً مزمناً أو مرضاً معدياً يستشري في الناس بسببه فإن هؤلاء لا يلزمهم الحج إذ لم تتوفر لهم القدرة المعنوية ولا يلزمهم حتى يشفوا من مرضهم، ومن علم أنه مصاب بمرض معدٍ وجب منعه فإن حج ولم يبال لحقه الإثم والوِزر من حيث أراد الثواب والأجر.

والحج مرة في العمر، وهو مقيد بالاستطاعة، ومن هذه الاستطاعة عدم تعدي الضرر إلى غيره، والقاعدة الشرعية تقول: «الضرر يزال» و«درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» ولا يجوز ارتكاب أخف الضررين دفعاً لأعلاهما.

ومن المعلوم لكل مسلم أن الله تعالى ما خلق البشر إلا ليعبدوه وحده ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾(1) وهذه العبادة التي هي توحيد الله وحده هي أصل جميع العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وترتبط بها جميع تصرفات الإنسان في هذه الحياة، ولا يقبل الله سبحانه من العبد أي عبادة لم تكن مطبوعة بطابع التوحيد ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾(2) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾(3).

وعلى هذا نستعرض إجمالاً فريضة الحج لنرى ما فيها من مظاهر التوحيد والتجريد:

الحج بينه الرسول ﷺ بقوله وفعله: «خذوا عني مناسككم فإني أخاف

---

(1) الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

(2) سورة الفرقان: آية ٢٣.

(3) سورة الأنعام: الآيتان ١٦٢، ١٦٣.

ألا ألقاكم بعد عامي هذا»، والله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً صواباً، والخالص ما أريد به وجه الله، والصواب ما كان على سنة رسول الله ﷺ، فالحج المبرور أن يخرج الحاج من بيته امتثالاً لأمر الله وانقياداً لأمر رسوله ﷺ. فيمتثل المأمور ويجتنب المحظور، ويحتذي في أداء نسكه نسك نبيه ﷺ خطوة خطوة ما استطاع إلى ذلك لقوله: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وقد جعل الله البيت مثابة للناس وأمناً، يتكرر عليه أفواج من الناس عاماً بعد عام من أجل توحيده عز وجل وعدم الإشراك به ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾[1].

فالحكمة من بناء البيت في هذا المكان لتحقيق توحيده سبحانه، ألاَّ تشرك بي شيئاً، ومن أعظم منافع الحج ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ تجديد التوحيد وتحقيق التجريد لله إذ لا يوجد في الدنيا مظهر يشبهه في القصد والشكل والحركة والسكون في زمن يسير معلوم، ونتيجة هذا الغفران للذنوب: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

والحج المبرور ينهى عن الشرك كله صغيره وكبيره. وسواء كان شرك حجر أو شجر أو شركاً في الفكر والمذهب، أوتشريع ما لم يأذن به الله تعالى، ففي الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي غيري تركته وشركه».

يستهلُّ الحاج حجه بإعلان التوحيد لله وحده والبراءة من الشرك وأهله بالتلفظ بالتلبية بالنسك الذي يريده من الأنساك المشروعة ـ تمتع وقران

(١) سورة الحج: الآيات ٢٦ ـ ٢٩.

وإفراد ـ قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. وهذه التلبية إجابة لدعوة الله على لسان خليله إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ فكل من حج أو سيحج فهو مجيب لهذه الدعوة، والدعوة للحج إنما هي من أجل تجريد التوحيد، وإجابتها تحقيق لهذا التجريد.

ثم يكمل الحاج أعمال حجه من طواف وسعي ووقوف ومبيت ورمي للجمرات ونحر الهدي وحلق للشعر أو تقصيره، كل هذه الأعمال يقوم بها امتثالاً لأمر ربه وتوحيده بالعبادة دون سواه، سواء عقل الحكمة من شرعية هذا النسك أو لم يعقلها، ورحم الله الخليفة الفاروق يوم قال وهو يقبل الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك».

ومن السنة أن يقرأ المسلم في ركعتي الطواف سورتي الكافرون والإخلاص، ففي الركعة الأولى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الركعة الثانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فالسورة الأولى تتكرر فيها صيغ النفي لأي لقاء بين عقيدة التوحيد والشرك أو بين المسلمين والمشركين، فهي تقرر المفاصلة بين أهل الدارين، أما السورة الثانية ففيه تقرير للتوحيد بأنواعه عن طريق الإثبات، ولا تتم التحلية إلا بعد حصول التخلية، وهو ما يدل عليه شرعية قراءة هاتين السورتين في موضعهما، وإذا عرفنا أن الحاج أول ما يقدم إلى البيت الحرام يطوف بالكعبة ثم يصلي ركعتين خلف المقام يقرأ فيهما بهاتين السورتين، ويفعل مثل ذلك بعد طوافه للوداع، إذا عرفنا ذلك جيداً أو تأملناه تبين لنا أن أعمال الحج إنما شرعت لتحقيق التوحيد ونفي الشرك، وأن أفعال الحاج كلها تبدأ بالتوحيد وتختم بالتوحيد[1].

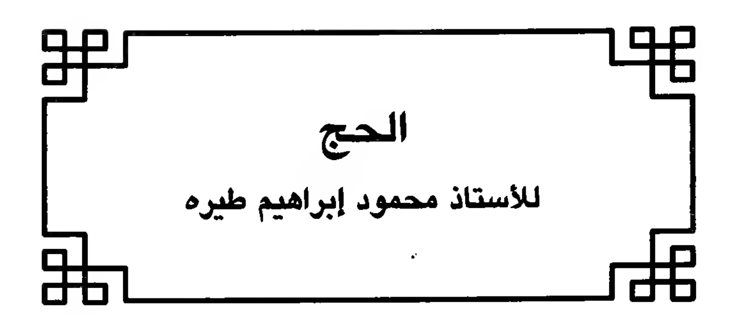


(١) مجلة «الحرس الوطني»: السنة ١٠، العدد ٨٢، ذو الحجة سنة ١٤٠٩.



٧ ـ حكم الحج ومقاصده





الحج

للأستاذ محمود إبراهيم طيره

الإسلام هو ذلكم التشريع السماويّ الحكيم، الذي لا نرى خيراً إلا وجدناه سباقاً إليه، ولا نسمع عن معروف إلا رأيناه حاثّاً عليه، ولا نكشف مخبوءاً في الكون إلاَّ وكان منبهاً إليه، الفضيلة شعاره، ومكارم الأخلاق سِمَتُه، وسعادة العالم في الدارين غايته، فهو دين الحضارة والمدنية، وناموس العدالة والحرية، وقانون الحق والإنصاف والمساواة، يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

دين كهذا جمع في ثنايا تعاليمه الإلٰهية، وأحكامه القدسية ما أنهض العالم من عثاره في أقلّ من ربع قرن، وأطلق الحرية من عقالها، وبعث العقول بعد موتها، وفك الناس من إسارها، وطهرها من ضلالها، ووجهها توجيهاً صحيحاً إلى بارىء الكائنات، ومبدع الأرض والسماوات، دين كهذا خضعت له الرقاب، وعنت الوجوه، وعملت على نصرته وإعزازه النفوس بعد أن لمست عظمته، وأحست مكانته، وأيقنت أن المولى قد رضيه لعباده ديناً.

دين عام خالد، لا بد له من أسس متينة يقوم عليها، ودعائم قوية ثابتة يستند إليها، فكان من حكمة الله العلي الأعلى أن جعل حج بيت الله الحرام من أركان الإسلام، التي هي قوامه وعليها يقوم هيكله العظيم.

إن الذوق السليم والعقل الراجح لا يمكن أحدهما أو كلاهما أن يسلم بأن الله الحكيم العليم شرع الحج وأوجبه على عباده اعتباطاً، دون أن يكون

من وراء ذلك حكم عالية، وأسرار مجيدة سامية، تتفق مع ما في هذا المجهود المزدوج، المجهود المالي والجثمانيّ، من تعب وعناء.

يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأولادهم، وكل ما تقر به عيونهم عن طيبة خاطر، ويتجشمون متاعب الأسفار، ويركبون متون البحار، ويعرضون نفوسهم للأخطار، ويعيشون عيشة التقشف والزهد، ويتكبدون هذه المصروفات الطائلة، وينفقون أموالهم بكرم وسخاء، لا طمعاً في شيء من الحطام الفاني، ولا طلباً لدنيا يصيبونها، ولكن فيما هو أسمى وأشرف، حباً في الله، وابتغاء مرضاة الله، وطمعاً في جنات الله، فأولئك مع النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

يعقد أهل أوربا المؤتمرات، ما بين حين وآخر، ويزعمون أن ذلك من بنات أفكارهم، ونتائج حضارتهم ومدنيتهم، وتقدمهم في ميدان الحياة وضروب الأعمال، وأما المسلمون فأهل تأخر وخمول، وعقولهم من الضعف بحيث لا تستطيع أن تفكر في ذلك، يقولون هذا ويتخرصون بذلكم الكذب الصراح: كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً، فإنهم لو فكروا في الأمر قليلاً وأنصفوا لوجدوا أن الإسلام من نحو ثلاثة عشر قرناً، قد شرع أكبر مؤتمر عرفه التاريخ، قبل أن تكون أوربا، ولا حضارة أوربا.

أين كان أهل أوربا وحضارتهم، يوم وقف سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ في حجة الوداع، حيث جموع المسلمين زاخرة، وبسط سياسته العامة في أول مؤتمر عالميّ عرفه التاريخ، وخطب خطبته المشهورة وفيها يقول: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس.. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رِباً موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا

تُظلمون. اعبدوا ربكم، وصَلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيِّه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، ألا هل بلغت؟ فقال الناس: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد، ونزل عليه يومها قول الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]».

من هذا يتبين جلياً أن فكرة عقد المؤتمرات ـ التي يُمْتَنُّ علينا بها ـ وهي فكرة إسلامية بحتة، مأخوذة في الحقيقة عن المسلمين، وحضارة المسلمين، وتعاليم دين المسلمين، فقد شرع الله الحج في كل عام يجتمع فيه المسلمون من أنحاء المعمورة آلافاً مؤلفة، يتشاورون في أمورهم العامة، ويبحثون في أحسن الوسائل التي يتذرعون بها لتحسين مستوى المسلمين في جميع الأقطار، مادياً وأدبياً، وأخلاقياً واجتماعياً، ومن ثم ينفرون إلى بلادهم وهم يحملون إلى إخوانهم آراء ممحصة، وسياسة مقررة، تعود على المسلمين بالخير العاجل والآجل، وهكذا دواليك في كل عام، مما يعود بالفائدة المحققة على الأمة الإسلامية، ويجمع كلمتها، ويصون وحدتها، ويضمن سعادتها، ويعزّ رايتها، ويزيدها على مرور الأيام قوة على قوة.

هذا ما رسمه الله تعالى لعباده المسلمين من نحو ثلاثة عشر قرناً من الزمان، فهل كان أهل أوربا في ذلك الحين يعقدون المؤتمرات، أو يعرفون ما هي المؤتمرات، أو يسمعون حتى عن المؤتمرات؟ اللهمَّ لا.

سبحان ربي: لعمر الحق إن حضارتهم وما ينعمون به الآن من رفاهية وسعادة، وما يختالون به علينا من عز وجاه كله مقتبس من شريعتنا الغراء،

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

وتعاليم ديننا الحنيف، الذي عقَّه أبناؤه، وحاربه أهله وانفضَّ عنه أحباؤه، وصار كثير ممن يَمُتون إلى الإسلام بصلة النسب حرباً عواناً عليه، إما جرياً وراء الحطام الفاني، وإما اغتراراً بما يسمونه الحضارة والمدنية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فرض الله الحج على المسلمين ليحققوا الحكمة الجليلة، والسر المجيد السامي في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[1].

نعم، يجتمع المسلمون في بلادهم المقدسة، فيتعرف المصريّ بالهنديّ، والشاميّ بالمغربيّ، والفارسيّ بالعراقيّ، والحجازي بالأفغانيّ، واليمنيّ بالجاويّ، والنجديّ بالتركيّ، وهكذا تتقارب قلوبهم وإن تباعدت أجسادهم، وتجتمع كلمتهم وإن تفرق شملهم، وتنتظم صفوفهم وإن تبعثرت وحداتهم، فيصبحون على كثرتهم وتعدد أوطانهم، وتباعد بلادهم جسماً واحداً، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائره بالحمى والسهر.

فرض الله الحج على الموسرين، إجابة لدعاء خليله إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، حيث يقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

فهناك يجتمع المسلمون من أقاصي الأرض، مزودين بالأموال الطائلة، والخيرات العظيمة، يدرونها على إخوانهم المسلمين ببلاد الحجاز، الذين أقفرت أرضهم، وقلَّت خيراتهم، فيبدلون عسرهم يسراً، وضيقهم فرجاً، وشقاءهم سعادة وهناء، وفي هذا من التعاون المبني عليه نظام الكون ما لا يخفى على ذوي الألباب.

شرع الله الحج رياضة للنفس، وتزكية للروح، وصفاء للقلب، وفرصة

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

طيبة للرجوع إلى الله، فهنالك يجتمع المسلمون من فوق عرفات، أشباه حفاة عراة، قد جردوا أنفسهم من كل نعيم الحياة وزخارفها، واتجهوا إلى الله بقلب واحد، والمقصد الأسمى للجميع واحد، والمكان واحد، والرب واحد، وقالوا كلهم بلسان واحد: الله أكبر، لبيك اللهمَّ لبيك، لا شريك لك لبيك، اللهم اغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا، وكفِّر عنا سيئاتنا، وتوفَّنا مع الأبرار، فيستجيب الله دعاءهم، ويخرجهم من ذنوبهم كما يخرج الطفل يوم ولدته أمه.

يجتمعون هكذا حفاة عراة مجردين من كل نعيم، اللهمَّ إلا من قلب ينبض بذكر الله، ولسان ينطق بعظمة الباري جل علاه، ليكون هذا الموقف الرهيب تذكيراً لهم بيوم المحشر، كل بنفسه مشغول وبعمله رهين ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[1].

شرع الله الحج على المسلمين ليعرف إليهم بلادهم الأولى، مشرق شمس النبوة، ومهبط الوحي حيث كان ينزل على رسول الله ﷺ جبريل الأمين من عند رب العالمين.

نعم، وجب على المسلم أن يحج بيت الله ليرى بعيني رأسه تلك البلاد المقدسة، التي بعثت أول قبس من نور العلوم والمعارف أضاء العالم، وهو يومئذ يتخبط في لُجَّة من الجهل والضلال والخسران، ونشر على المعمورة ألوية العدل والحرية والسلام في زمان الظلم والأنانية والاستبداد والاستعباد الضارب أطنابه في سائر الأمم والبلاد.

فحرام ألا يمتع المسلم أنظاره بهذه المشاهد المشرفة، ويتعرف إلى هذه البلاد المقدسة، التي تشد إليها الرحال، وتنتهي عندها الغايات والآمال.

وايم الحق.. حرام بعد الذي عرفناه من حِكَم مشروعية الحج وهو قليل من كثير، أن يذهب المسلم إلى بلاد الفرنجة، ينفق هناك الأموال

---

(١) سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧.

بسخاء، ويبذرها ذات اليمين والشمال ولا يذهب إلى موطن أسلافه الأولين الذين فتحوا الفتوحات، ومصَّروا الأمصار، ومدُّوا ظلال العمران.

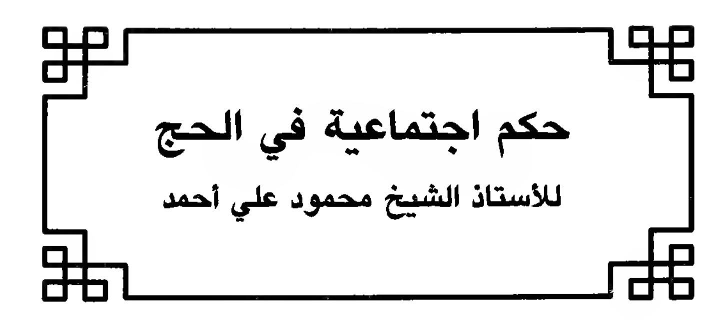
إنه لمن المؤلم للنفس حقاً أن يجود المسلم بالمئات بله الألوف في سبيل الذهاب إلى بلاد الإفرنج يعملون بها المدافع، ويصوغون منها القنابل، وآلات التخريب والتدمير، يتحكمون بها في رقابنا، ويقضون على البقية الباقية من حقوقنا واستقلالنا، ثم تراه يضنُّ بالعشرات في سبيل بلاده، بلاد المجد المُؤثَّل[1]، وموئل الإسلام، ومسقط رأس أعظم مخلوق دب على الأرض، وهو سيدنا محمد ﷺ.

نسأل الله أن يهيىء لنا من أمرنا رشداً، وأن يوقظ نفوسنا ويوجهها وجهة الخير، ويصرفها عن الشر، وأن ينير بصائرنا لنرى سواء السبيل، وأن يحول حالنا إلى أحسن حال، وأن يرزقنا في القريب العاجل حج بيت الله الحرام، والتشرف بزيارة الروضة الشريفة، وما ذلك على الله بعزيز[2].



(١) أي المجد.

(٢) مجلة «الإسلام»: العدد ٤٦، السنة ٤، ذو القعدة سنة ١٣٥٤، ص ٢١٨١ ـ ٢١٨٤.



حكم اجتماعية في الحج

للأستاذ الشيخ محمود علي أحمد

خلق الله الناس متفاوتين في معايشهم، فمنهم الغني ومنهم الفقير، هذا ميسور الحال موفور النعمة عريض الجاه، وذاك مسكين بائس ضال في الحياة، وتلك حكمة الله قدرها ليتبادل الناس العمل فيتعاونوا ويستخدم بعضهم بعضاً في مطالبهم وحاجاتهم، الغني يبذل ماله، والفقير يبذل جهده في عمله لينال أجره، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

لو وقف التفاوت بيننا عند حد تبادل المنافع لكان خيراً، ولكن بعض الأغنياء تعالى على الفقراء وتعاظم فولد بكبره كراهية في نفس الفقير، وبعض الفقراء حسدوا الأغنياء وطمعوا فيهم فقاطعهم الأغنياء وأهملوهم، كِبْر عند الغني، وبغض عند الفقير، غرور لدى الوجهاء، وحسد لدى البسطاء، فتنافرت الطبقات في الأمة الواحدة، وانعدم التعاون وانحلّت الروابط وقلّ الإنتاج، وعلاج هذا المرض في العبادات الدينية وعلى الأخص الحج فيه شفاء عملي وعلاج فعلي حاسم يقضي على الغرور، ويرسم المساواة والتعادل بين الجميع في صورة الإحرام والطواف والسعي وغيرها، فإذا نظرت إلى الحجاج فلن تميز أحدهم بزي ولا لباس ولا بمظهر ولا

(١) سورة الزخرف: آية ٣٢.

زينة، فالكل في بساطة المظهر المتحد متساوون، مساواة بين الأفراد، ومساواة بين الأجناس والألوان، فالله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾(١) ورسولنا ﷺ يقول: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» أليس الحج من هذه الناحية جديراً بعناية المصلحين؟ واهتمام المخلصين، وجهود الغيورين؟

نرى المرءَ منا خاضعاً لعاداته محكوماً بالتقاليد مقيَّداً بالعرف، يأتيه ذلك من البيت الذي نشأ فيه والمدرسة التي تعلم بها والبيئة المحيطة به، وكثير من عاداتنا سيىء ضار، وأغلب تقاليدنا فاسدة خرافية، وجُلّ ما تعارفنا عليه لغو وجهالة، والعادة ـ كما يقولون ـ طبع ثانٍ، والانفكاك عن المتعارف عسير على الكثير من الناس، وبريد المصلح أن يقوم اعوجاج أمته ويدفعها إلى مدارج الكمال فيصطدم بصخور العادات ويرتطم بالتقاليد، وقد يفنى المصلح ويموت ولم يصل إلى تحويل الناس عن عادة ألفوها (والناس عبيد لما ألفوا)، وفي الحج هدم لما تعوَّده المرء وتغيير لإلفه وتبديل لعرفه، فالحج بذلك: حكم الحاج لنفسه، وتسلطه على أعماله، وتمكينه من طرح سيىء العادات، والخروج من سخيف التقاليد وسجن المألوف والعرف إلى ميدان التقى والفضائل، والسمو الروحي والعلو النفسيّ، فالحاج مِلِكٌ على نفسه بعد أن كان عبداً لعاداته، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾(٢).

وانظر كيف يصرح النبي ﷺ بأن الحج يُخرج المسلم من ذنبه وإثمه وعاداته وقبيح طبعه فيقول: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» أليس الحج بهذا المعنى خليقاً بعناية علماء التربية وعلم النفس، وأي شيءٍ أحق بالعناية من نظام عملي تعبديّ يحرر الإنسان من رِقّ

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

الخسران، ويصل بينه وبين الرحمٰن بحبل متين من صدق ويقين وإيمان؟

رصدت الدول الأموال على الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية، وها هو شبابنا في المدارس يستعد لهذا النظام، والرياضة قوة ورجولة وشهامة ومروءة، والرياضة ركن في بناء مجد الأمة، كان الإسلام سباقاً إلى تقدير فضل الرياضة فأمر بتعلم السبق والرمي وإتقان ركوب الخيل والسباحة والمبارزة استعداداً للجهاد في سبيل الأمن والحق والسلام، وربط الرياضة بالعبادات لتشترك العاطفة والشعور مع القلب في أدائها فتكون الرياضة قوة بدنية وعبادة روحية لها في الدنيا منافعها الجليلة، ولها في الآخرة ثوابها العظيم.

هذا هو الحج، حِلٌّ وترحال، وسفر وانتقال، وطواف وسعي فيهما إسراع ثم تمهل، حتى إن رسول الله ﷺ اتخذ من الطواف مظهراً لإرهاب المشركين وإظهار قوة المسلمين في عمرة القضاء وأهل مكة ينظرون يظنون بالمسلمين الضعف والتراخي، فقال النبي ﷺ لأصحابه وهم يطوفون: «رحم الله امرأ أراهم من نفسه اليوم قوة»، وهرول يطوف والمسلمون به يقتدون، وكان من تمام الحكمة الرياضية في الحج مجيئه في سائر فصول السنة صيفاً وشتاء، وما بين ذلك لارتباطه بالأشهر القمرية ليعتاد المسلم العمل والجهاد والسعي في كل وقت غير عابىء بتقلب الفصول وتبدُّل الأجواء، وليألف النظام والترتيب حيث حددت بعض شعائر الحج بزمن معين ووقت معلوم كالوقوف بعرفات والإفاضة إلى مزدلفة ورمي الجمار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾[1] أليس الحج في حكمته هذه خليقاً بعناية المربين والرياضيين ومن يريدون لأمتهم قوة ونخوة وشجاعة وعزة؟ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

إذا غرق الناس في المادة يعبدونها من دون الله، وشغلتهم زخارف

---

(١) سورة الصف: آية ٤.

(٢) سورة المنافقين: آية ٨.

الدنيا عن الإنتاج النافع في الحياة، فأمامهم الحج يوجه المادة لخدمة الحق ويسلك بالناس طريق العدل ليأخذوا من الدنيا قدراً حلالاً ونصيباً مباحاً يسعدون به في الأولى والآخرة، ويكون طمعهم فيما وراء الحياة باعثاً لهم على الاستهانة بزينتها، ويصبح حرصهم على كرامة أمتهم أشدَّ من حرصهم على لذائذهم وشهواتهم، فليس حراماً أن أكون غنياً ممولاً أو حاكماً متسلطاً، إنما الحرام أن أطغى بمالي وأستبد بنفوذي، قال تعالى لمن ظنوا أن التزود للحج والاتجار فيه ينافي الثقة بالله ويضعف ثواب الحج: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾[1] أليست هذه ناحية تستدعي تفكير رجال الاقتصاد والمال؟

لا يكتفي الإسلام بالنظريات يقررها، ولا يقف عند حد الدعوة للحق، بل يقرن القول بالعمل والتطبيق الفعلي، فدعا إلى التآلف والتعارف والتعاون، ثم أوجد للتعارف اجتماع الصلاة، وأوجب الجمعة والعيدين لأبناء البلد الواحد، وأوجب الحج ليكون مؤتمر البلاد الإسلامية جميعاً، فلم لا تكون مكة مقر عصبة الأمم للمسلمين، كما أن جنيف مقر عصبة الأمم للغربيين؟

لقد عمَّت الفوضى في منازلنا ومجتمعاتنا ومؤتمراتنا حتى سئمنا حالتنا، وأصبحنا في زمن يحتاج إلى علاج عاجل ودواء شاف يقضي عليها القضاء المبرم، ويبدل حالنا من فوضى مدمرة إلى نظام سائد معمر، ومن هياج مفرق إلى هدوء جامع، فإذا ما بحثنا عن هذا العلاج وجدناه شاخصاً أمامنا في تلك الفريضة العظمى «فريضة الحج» فضلاً عما في إحرام الحجاج بلباس واحد وطوافهم في وقت واحد وتلبيتهم لدعوة مولاهم في وقت معين واحد بأدعية واحدة من وحدة دينية تحتم عليهم الاتحاد والتماسك، ففيها درس عمليّ يدعو إلى النظام والترتيب وضبط الميعاد، ومتى صبغت أعمالنا ومجتمعاتنا ومنازلنا بصبغة النظام والترتيب أتت بالفائدة المرجوة منها

---

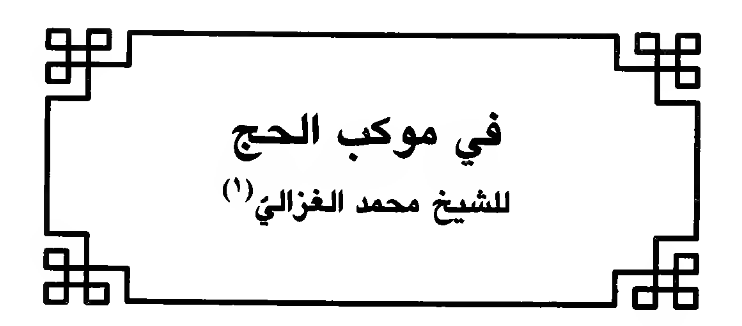
(١) سورة البقرة: الآيتان ١٩٧، ١٩٨.

وأصبحنا في أحسن حال بفضل إحياء شعيرة الحج في نفوسنا.

وفضلاً عن تيسير السبل وتمهيد الطرق لراحة الحجاج، فإن استتباب الأمن والطمأنينة على النفس والمال كان لهما اليد الطولى في ازدياد عدد الحجاج سنة بعد سنة، وإن ما نسمعه مما تفيض به ألسنة الحجاج من قصص وحكايات، وما نقرأه في صحفنا ومجلاتنا عن تعميم الأمن وكفالة الاطمئنان في هذا البلد الأمين ليجعلنا نؤمن بانفراده في هذا الأمر المحروم منه غيره من سائر البلاد الشرقية والغربية، وليس بغريب على بلد ركن إلى الدين الإسلاميّ ورجع إليه وطبق تعاليمه الصحيحة أن يكون هذا حاله سراجاً منيراً يهتدي به كل ضال بعيد عن الطريق المستقيم ليحذو حذوه وينسج على منواله، وإنا لنبتهل إلى الله جلَّ وعلا أن يشمل مليكه المحبوب بروح من عنده[1].



(١) مجلة «الإسلام»: سنة ١٣٥٧، ص ١٨ ـ ٢٠.



في موكب الحج

للشيخ محمد الغزاليّ[(1)]

قمة الصالحات التي يقوم المسلمون بها في عشر ذي الحجة أداء مناسك الحج.

إن هذه المناسك مشهد ضخم، وميدان رحب للعُبَّاد الذين جاؤوا من كل فج عميق يُرضون ربهم، يرجون رحمته، ويخافون عذابه.

يمكن أن يقال: إن مئات الألوف ربما بلغت مليونين من الأنفس، ربما يقال إن هذه الحشود المتكاتفة يمكن أن تُكوِّن مظاهرة متلاطمة الأمواج، الهتاف فيها ليس للبشر، إنما الهتاف فيها لرب الأرض والسماء، لا يملأ أذنيك إلا طنين ضخم من كل ناحية بين تلبية وتكبير وتقديس وتمجيد، الحناجر تنشقُّ بالهتاف لله وحده طلباً لرضاه، وانتظاراً لجداه، ورغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ

---

(١) الشيخ محمد الغزالي السقا. عالم أزهري مصري، ورجل من رجال الإسلام الذين وقفوا أمام المؤامرات بحزم، وألف في هذا الباب عشرات الكتب، توفي في مهرجان الجنادرية بالرياض مدافعاً عن الإسلام، رحمه الله تعالى.

شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

ناس جاؤوا من حول البحر الأبيض والأسود والأحمر، من شُطآن المحيط الأطلسي والهندي والهادي، من أعماق القارات الخمس، من كل شبر يَطلُع عليه نور الشمس، أو تَحُل فيه هدأة الليل، وقد تنبأ نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام إلى أن دينه سوف ينتشر مع انتشار الظل والضوء على ظهر الأرض، وصدقت النبوءة[2].

جاؤوا من كل مكان، كلما صعدوا ربوة لبّوا أو كبَّروا، وكلما هبطوا وادياً لبّوا أو كبروا، وكلما لاقوا فوجاً لبّوا أو كبَّروا، وكلما لقي بعضهم بعضاً لبَّى وكبَّر، كل شيء لله، هناك معارض زراعية أو صناعية أو تجارية يجيئها الرواد تشد عيونهم السلع المعروضة التي يهتمون بها، لكن المعرض المقام الآن في الأماكن المقدسة ليس لشيء من الدنيا.

إن كل شيء يدفع إلى الهُتاف لله تكبيراً وتمجيداً وتلبية تتجاوب أصداؤها في كل مكان.

نريد أن نتساءل: أصحيح ما يقال من أن أعمال الحج أعمال مبهمة أو غامضة، وأن الله جلَّ شأنه اختبر الناس بما يعقلون فسمعوا وأطاعوا، فاختبرهم بما لا يعقلون حتى يتبين له كيف يسمعون وكيف يطيعون؟!

والجواب: هذا كلام بعيد عن الصحة، والواقع أن لأعمال الحج

---

(١) سورة الحج: الآيات ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) قال المحقق: يشير فضيلة الإمام حفظه الله إلى قول رسول الله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر».
أخرجه أحمد عن تميم الداري. وكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية ١٠٣/٤ والحاكم في الفتن والملاحم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي ٤/ ٤٣٠، ٤٣١. والطبراني في المعجم الكبير ٥٨/٢ وقال في المجمع: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح ١٤/٦.

حِكَماً عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، إن لأعمال الحج حِكَماً ينبغي أن تُدرس بأناة، وأن تُعرف حقائقها حتى يدرك الناس أن الإسلام ليس دين أوهام أو أضغاث أحلام، هذا دين كل شيء فيه له حكمته وله معناه.

الطواف بالبيت وهو ركن من أركان الحج، ما سببه؟ سببه واضح، هناك أربع نُقط نذكرها في هذا المجال:

النقطة الأولى: هذا البيت أول بيت وضع للناس مُتعبداً لهم في أعماق القارات كلها، لم يُبن قبله بيت للعبادة، فمن حق أول بيت أقيم ليكون قلعة للتوحيد، ومثابة للموحدين، وملتقى للمؤمنين المخلصين، من حق البيت الأول على ظهر الأرض أن تكون له مكانة خاصة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[١].

إن مسجدنا هذا شُرِّف وحددت معالمه ووضعت دعائمه وعرفت حدوده وأركانه منذ قام إبراهيم وإسماعيل بالبناء، وإلى الآن البيت ـ زاده الله تشريفاً وتكريماً ـ يجيئه الرواد من كل أفق، والحجاج من كل فج، يطيرون إليه كما تطير الحمائم إلى أوكارها، في أفئدتهم حنين، وفي قلوبهم مشاعر ملتاعة.

النقطة الثانية: أن المسلمين في المشارق والمغارب، في الشمال والجنوب يُولون وجوههم شطر هذا المسجد في كل صلاة تقام في القارات كلها، ومن حق الذين اتخذوا المسجد قبلة لهم أن يبعثوا كل عام منهم الوفد المستطيع لكي يرى قِبلته، كي يحجَّ إليها ويزورها.

وأعرف أن أستاذاً يحمل الدكتوراه في الهندسة، كان عضواً في مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين[٢]، وضع كتاباً بيَّن فيه أن مكة في وسط

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٢) قال المحقق: هو الأستاذ الدكتور/حسين كمال الدين رحمه الله وقد أمضى نصف قرن من الزمان في ظل جماعة الإخوان في عمل وجهاد في ميادين الدعوة، ومن أبرز ما قدمه من عمل نافع هذه البحوث والجداول التي أعدها لمعرفة اتجاه القبلة للصلاة، =

المعمور من أرض الله، وأثبت هذا بجملة معادلات جبرية وجعرافية، وما ألفه علمياً في هذا الموضوع متداول الآن بين الناس.

كأن أم القرى أم حقيقة، وكأن المصلّين حول الكعبة دائرة محدودة، لكن هذه الدائرة تنداح وتتسع ولا تزال تنداح وتتسع حتى تشمل الأرض كلها، وهي تتجه في صلواتها لله رب العالمين تجمعها قبلة، وما يعبد المسلمون قبلة ولا يعرفون أن هناك حجراً له كرامة، إن كل حجر في الكعبة لا يضر ولا ينفع، وليس البر في التمسك بجهة من الجهات، ولكن هذا تنظيم وضعه الله ليوحد بين الوجوه والقلوب والصفوف، ولا يسمح للشيطان أن يمزق الناس إلى وجهات شتى.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[(١)].

النقطة الثالثة: أن هذه الأمة الإسلامية إنما ولدت في التاريخ إثر دعوة صالحة مستجابة للأنبياء الذين وضعوا حجر الأساس في هذا البيت العتيق ونهضوا به وأعلوا دعائمه.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[(٢)].

= وكذا مواقيت الصلاة الخمس وذلك في أي مكان على سطح الأرض، وأثبت علمياً أن البيت الحرام يقع في مركز الجزء المعمور من الأرض.

(١) سورة البقرة: آية ١٧٧.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ هي أمتنا.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو رسولنا ﷺ صاحب الإمامة العامة في محراب العبادة لخلق الله كلهم، صاحب الرسالة الخاتمة التي لا معقب عليها بنسخ أو تصحيح.

فمن حقنا، ونبينا وأمتنا وتاريخنا نتيجة دعوة في بناء هذا البيت، من حقنا أن نزور هذا البيت.

النقطة الرابعة: أن الله عز وجل أراد أن يُكرِّم الأمة العربية، أو أراد أن يُكرم الجنس العربيّ، بم يكرم الجنس العربيّ؟ بدمه؟ لا فارق في علم الطب بين دم العربيّ ودم الزنجيّ ودم الأمريكيّ ودم الأربيّ، تركيب الدم وجريانه في العروق والقوانين التي تحكمه واحدة، فلا فضل لدم على دم.

هل يكرم الجنس العربي بالجلد أو باللون؟

إنما كُرم هذا الجنس العربي لأنه حمل الرسالة الخاتمة.

ويوجد دجالون في عصرنا وكذابون لا دين لهم، ولا شرف، زعموا أن الجنس العربيّ له شرف خاص بغير الإسلام!! والعرب من غير الإسلام مجموعة أصفار لا وزن لها ولا قيمة ولا كيان.

إن الله شرف الجنس العربيّ برسالة الإسلام، وعندما أمر الناس في كل شبر من أرضه أن يتجهوا لهذا البيت العتيق قال لنا ـ نحن الذين نقرأ القرآن وننطق باللغة العربية ـ: أنا فعلت هذا تشريفاً لكم.

كنت أقرأ الكتاب العزيز من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[1].

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٥٠، ١٥١.

وقفت كرجل يشتغل بالعلم وحرفته الدراسة، قلت: ما معنى «كما»؟ أخذت أتأمل في الكلمة، وأتدبر ما قبلها وما بعدها، فوجدت المعنى واضحاً، يعني: أنا شرفتكم بأن تلتقي وجوه الناس عند كعبتكم، كما شرفتكم من قبل بابتعاث النبي منكم، فعلت هذا كما فعلت ذاك ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ وجهنا الناس إلى قبلتكم تشريفاً لكم وإتماماً للنعمة عليكم، كما شرفناكم بابتعاث النبي الخاتم منكم، عليه الصلاة والسلام.

وفي سورة أخرى يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[١].

شرف لك ولقومك وسوف تسألون عن هذا الشرف.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[٢].

النتيجة المطلوبة: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[٣].

هل العرب ذكروا الله وشكروه؟ لا، العرب ذكروا أنفسهم فنسيهم الله، ولم يشكروا ولي النعمة، بل شكروا من صفعهم، من لطمهم، فأذلَّهم الله بين يديه!!

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[٤].

اذكروا ديني الذي شرفتكم به، اذكروا الكتاب الذي أنزلته بلسانكم.

إنني أشعر بفجيعة يوم أرى إذاعات عالمية تخدم لغتها بحرقة وبقدرة

---

(١) سورة الزخرف: آية ٤٤.
(٢) سورة البقرة: آية ١٥١.
(٣) سورة البقرة: آية ١٥٢.
(٤) سورة البقرة: الآيتان ١٥١، ١٥٢.

وبحكمة وبذكاء، وهي لغات ليس فيها من رسالات السماء شيء.

أما اللغة التي اختارها الله وعاءً لكتابه فقد أهملناها وتبرمنا بها، وأصبح الخطأ فيها علامة تقدم، وأصبح خطاب الجهلة بها لا حدود لغلطه ولا لما فيه من اضطراب.

كل الناس يحترمون لغتهم ويضبطون قواعدها إلا هذه اللغة لا حرمة لها، يخطىء فيها من يشاء ولا تثريب عليه.

أول ما نأخذه من الحج هذا الطواف وهذه الحكمة فيه، أربع نقط حددت لماذا نرتبط بهذه الكعبة.

هذه واحدة، شيء آخر: السعي بين الصفا والمروة، ما معناه؟ لم نكلف به؟ لِم نمثل نفس الدور الذي كانت تمثله هاجر؟

المعنى واضح، إن الإنسان مادي، حِسي، والأسباب الحسية هي التي تملكه أو هي التي تحكمه، يوم يكون في يده مال يقول: مالي في يدي، فهو يعتز به، لكن يوم يكون هذا المال وعداً في الغيوب، وأملاً في المستقبل ورجاء عند الله فإن قلبه يضطرب ويقول: ليس معي شيء.

وجاء في الحديث: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا في إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغبَ منك فيها لو أنها أُبقيت لك»[1].

لكن أنا ضعيف، ضعيف جداً، ما في يدي هو الذي أستوثق منه، أما ما في يد الله فإنه لا يؤمن به إلا الأقلّون، الرزق غيب، ولا يؤمن برزق الله

---

(١) قال المحقق: أخرجه ابن ماجه في الزهد: باب الزهد في الدنيا، قال هشام: كان أبو إدريس الخولاني، يقول: مثل هذا الحديث في الأحاديث كمثل الإبريز في الذهب: ٢/ ١٣٧٣، والترمذي في الزهد: باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفيه عمرو بن واقد: منكر الحديث، «تحفة الأحوذي»: ٧/ ٣، ٤.

إلا أصحاب الإيمان الراسخ، النصر غيب، ولا يؤمن بنصر الله إلا أصحاب الإيمان الراسخ، والتوكل على الله عندما تكون الأسس فيه تعليق النفس بأمل عند الله، هذا النوع من الإيمان قلَّما يوجد، لكنه عُدة المصلحين، كلما أظلم الليل عليهم ولم يجدوا بصيصاً من نور اطمأنوا إلى أن فجراً سيجيء فهم ينتظرون بريقه بثقة.

نلمح هذا اليقين أو هذا التوكل عندما نجد أن إبراهيم عليه السلام كُلف بأن يُسكن امرأته هاجر وابنها الرضيع إسماعيل قريباً من البيت العتيق، تركهما إبراهيم، وانطلق، إلى أين؟ مكة صحراء جرداء، جبال تشبه الكف التي تمتد منها الأصابع، ثم لا شيء، الرجل ماذا يقول؟ سكت، لكن تكلمت المرأة، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: «إذاً لا يضيِّعنا!!»[1].

كيف؟ لا شيء هنا إطلاقاً، السماء والرمال والجبال الصُم.

يختبر الإيمان لآخر رمق، بدأ الرضيع يتلوى من العطش، وبدأت الأم تُحس بأن المستقبل يُظلم أمامها، وبدأت تجري يميناً وشمالاً، ثم أخبرها الملك أن نجدة جاءت، وغمز بجناحه الأرض فتفجرت زمزم، وشرب الرضيع، وشربت الأم، وبدأ الخير.

أستغرب عندما أنظر إلى دنيا الناس، وإلى الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، أكانت المرأة مع رضيعها هذا تدرك أن ابنها هذا سيكون من ذريته نبي خاتم؟ سيكون من ذريته شعب كبير؟ سيكون من أثره حضارة تظلل الأرض برحمتها وسناها؟

ما كانت الأم تدري شيئاً من هذا، ونحن البشر علمنا قاصر، علمنا محدود، ولكن الله ذا العلم الواسع يدري ما يصنع لعباده، ويختبرهم في حدود علمهم القاصر وسعيهم المحدود وقدرتهم الضيقة، وهذا هو الاختبار الذي يتجدد باستمرار، الاختبار مستمر، أَثِقْ في الله وفيما عنده وفيما غيَّبه

---

(١) قال المحقق: قصة مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة والحوار الذي دار بين إبراهيم وهاجر، وتفجر زمزم، رواها البخاري في كتاب الأنبياء.

عنا؟ هو عنده واقع لأن الله يستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل، الصفحات كلها مكشوفة أمامه، أما أنا فلا أدري إلا اللحظة التي أنا فيها ويغيب عني ما وراء ذلك، وأنسى ما كان قبل ذلك.

من هنا يجيء الاختبار، فإذا كُلف الناس أن يفعلوا ما فعلت أم إسماعيل فلكي تتجدد في مسالكهم عواطف الاتكال على الله، الثقة في الله، الإيمان بأن ما عنده أهم مما عندي، ما عندي قد يُحرق، قد يُسرق، لكن ما عنده لا حرَق ولا سرق.

لذلك يجب أن نعرف معنى هذه الشعيرة في مناسك الحج.

ثم يلتقي الناس في عرفة، وهو لقاء مهيب، ولقاء غريب لأن الناس فعلاً جاؤوا من كل مكان شعثاً غبراً، ليس هناك ما يميزهم من أبهة ولا من مُلك ولا من سلطان، وَحّدت بينهم شارات لا تفاوت فيها في ملابس الإحرام، ثم جمعتهم في هذا المكان طاعة الله، والجؤار في هذه الساحة بالدعاء، النشيد الذي يتردد باستمرار هناك:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[1].

ويروى عن الحسين بن الحسن المروزي قال: سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

فقلت له: هذا ثناء وليس بدعاء.

فقال: أما علمت ما قال أمية بن أبي الصلت حين أتى عبدالله بن جدعان يطلب نائله؟

---

(١) قال المحقق: ففي الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير» رواه أحمد «الفتح الرباني» ١٢/ ١٣٠ وقال في «المجمع»: رواه أحمد ورجاله موثوقون ٣/ ٢٥٢ وقال في الجامع الصغير: رواه أحمد، ورمز له بالحسن: «فيض القدير» ٥/ ١٦٧، ١٦٨.

فقلت: لا، فقال: قال أمية:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك؟ إن شيمتك الحياء[1]
وعلمك بالحقوق وأنت قَرْم	لك الحسب المهذب والسناءُ
خليل لا يُغيِّره صباح	عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك كل مكرمة بنتها	بنو تميم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوماً	كفاه من تعرُّضه الثناء[2]

ثم قال سفيان: يا حسين، هذا مخلوق يكتفي بالثناء عليه دون مسألة، فكيف بالخالق؟[3].

كأن الفقير إذا جاء إلى غني فلم يقل له أكثر من: «الحمد لله الذي أعطاك وأغناك وقوَّاك»، فهذا الثناء معناه: أنني محتاج إلى ما عندك.

وهو عندما يقف بين يدي الله يذكره بأسمائه الحسنى، إن كان مُظلماً فمن أسماء الله «النور» فهو يُنير له الطريق.

إن كان حائراً فمن أسمائه «الهادي» فهو يبصره بسبيل الرشاد.

إن كان فقيراً فمن أسمائه: «الغني» فهو يفتح له من خزائن العطاء.

إن كان جهولاً فمن أسمائه «العليم» فهو يهب له العلم والمعرفة، فنحن عندما نتحقق بأوصافنا من ضعف وفقر وذل بين يدي الله فإنه يعطينا.

ولذلك يقول ابن عطاء:

«تحقق بأوصافك يمنحك أوصافه».

---

(١) قال المحقق: يعني أن حياءك يكفي في قضاء حاجتي، لأن الحييّ يستحي أن يكلف قاصده ذكر حاجته فيقضيها له قبل أن يسأله إياها.

(٢) قال المحقق: يعني أن المدح يكفي في نيل الحاجة منك بدون التعرض لمطالبتك.

(٣) قال المحقق: انظر أمية بن أبي الصلت: حياته وشعره: ١٥٢، و«تجريد الأغاني»: ١/ ٩٩٥، و«نهاية الأرب»: ٣/ ٢١٤، والقرم: السيد.

«تحقق بالذل يُعزك، تحقق بالفقر يُغنك».

والواقع أن يوم عرفة يوم من مفاخر الإسلام، لأن المسلمين في هذا المكان يحتشدون ما يعرف بعضهم بعضاً إلا هنا، كيف؟ قُرر لهم وقت معين ومكان معين، فالمسلم الذي يعيش على شاطىء الأطلسيّ في الرباط أو داكار أو في لاجوس في نيجيريا يلتقي بالمسلم القادم من أندونيسيا أو الفلبين.

ولذلك كان هذا اللقاء الجامع نقطة استغلال لرؤساء الإسلام وقادته كي يوجهوا المسلمين في اليوم المشهود إلى ما ينفعهم.

ولذلك وقعت حجتان في أيام النبي ﷺ: حجة أبي بكر رضي الله عنه بالناس، وحجته ﷺ، فأما حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس فقد تقرر فيه إلغاء المعاهدات غير المتكافئة الواقعة بين المسلمين وغيرهم، وتقرر إلى جانب هذا تنظيف المجتمع الداخلي للأمة الإسلامية من المشركين، ومنع طواف العرايا بالبيت العتيق.

وانطلق المنادون وسط مضارب الخيام، ومجامع الحجيج، وملتقيات الناس يقولون: «ألا لا يحُجُّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان»[1].

هذا حجٌّ، فأين هذا المعنى من حج المسلمين الآن؟

إن الحج أصبح شبحاً، وأصبح شيئاً أقرب إلى الصورية منه إلى دعم تعاليم الإسلام وحراسة الدولة، ورفع راية الحق، وتحديد المواقف مع من يعبثون بهذا الدين، ويبيتون لأمته الضياع.

ثم حج النبيّ ﷺ بعد ذلك حجة الوداع، وكان يشعر أن هذه الحجة آخر لقاء بينه وبين الناس، ولذلك كان يقول:

---

(١) قال المحقق: أخرجه البخاريّ في كتاب الحج: باب لا يطوف بالبيت عُريان ولا يحج مشرك ١٨٨/٢، وأحمد ٢٩٩/٢.

«أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً»[1].

فماذا يريد؟ أبٌ يودِّع أبناءه، فماذا يريد؟ يلقي في آذانهم آخر ما في قلبه من حب ومن نُصح:

«تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيِّناً، كتاب الله وسنة نبيِّه»[2].

«أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت»[3].

وأنظر إلى الأمة الإسلامية الآن فأجد العجب، ما رأيت هذه الضراوة في الحرب عندما كان العرب يشتبكون مع اليهود، سبحان الله!! ما هذه الدماء المسفوكة؟

إن الطواغيت قادت الناس إلى مهلكهم، والعيب عيبنا، والجهل جهلنا، وكما قيل:

ما يبلغُ الأعداء من جاهل ... ما يبلغُ الجاهل من نفسه

إننا نخرب بيوتنا بأيدينا، إننا نمزق أرحامنا بأيدينا.

إذا كان خُلق أصحاب رسول الله ﷺ أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، فخلق مسلمي العصر الحاضر أنهم أشداء على المؤمنين رحماء بالكافرين!!

أي مسلك هذا؟ أي بلاء هذا؟

كانت الحجة الأخيرة ـ حجة الوداع ـ مليئة بما يمكن أن يسمى بالتقرير الحقيقي لحقوق الإنسان، وحريات الشعوب، وعالمية البشر،

---

(١)(٢)(٣) قال المحقق: جزء من حديث طويل رواه ابن هشام في السيرة ٤/٦٠٣، ٦٠٤.

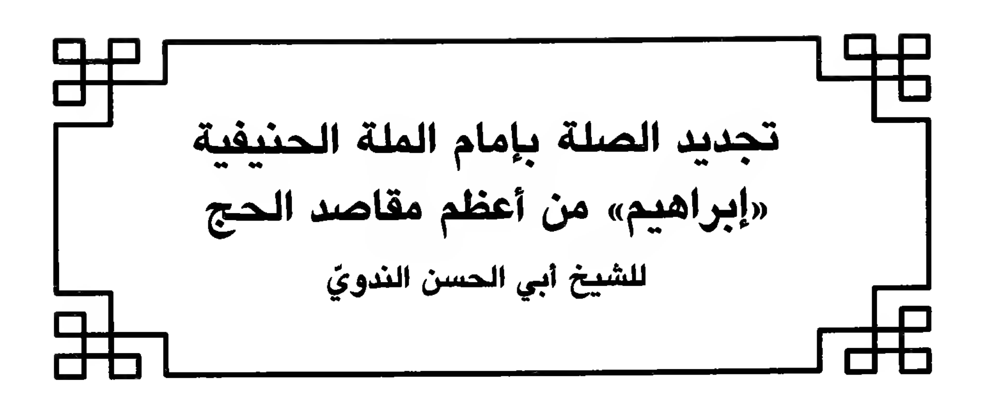
والقواعد الإنسانية النبيلة، وحسن العلاقة بين الرجل والمرأة، وأمور أخرى كثيرة.

آسف إذ أقول: إن المسلمين أجهل الناس بها، وأبعد الناس عنها، لأن الأمة الإسلامية بحاجة ماسة إلى أن تعرف دينها معرفة صحيحة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[1].



(١) «خطب الشيخ محمد الغزالي»: ١/٢٢٩ ـ ٢٤٠.



تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية «إبراهيم» من أعظم مقاصد الحج

للشيخ أبي الحسن الندويّ

من مقاصد الحج الرئيسية تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها إبراهيم الخليل، والتشبع بروحه، والمحافظة على إرثه، والمقارنة بين حياتنا وحياته، وعرضها عليها، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم، وتصحيح ما وقع في حياتهم من أخطاء أو فساد، أو تحريف، وإعادة ذلك كله إلى أصله ومنبعه، فالحج عَرْضة سنوية للملة تضبط أعمال المسلمين وحياتهم، ويتخلصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها.

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي:

«ومن مقاصد الحج موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فإنهما إماما الملة الحنيفية، ومشرعاها للعرب، والنبي ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية، وتعلو به كلمتها، وهو قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]...

إعادة قصة إبراهيم، وتمثيلها في الحج:

فمن أوضح ملامح الحج، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه، هو الحب والهيام والتفاني، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب

---

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

والعاطفة، وتقليد العشاق والمحبين، وإمامهم وزعيمهم إبراهيم الخليل، فحيناً طواف الحب والهيام حول البيت الحرام، وحيناً تقبيل الحجر الأسود والاستلام، وحيناً سعي بين غايتين، وتقليد ومحاكاة للأم الحنون حتى في تؤدتها ووقارها، وفي جريها وهرولتها، ثم قَصْدٌ لمنى في يوم معين هو يوم التروية، ثم قَصْدٌ إلى عرفات ووقوف بساحتها وعرصاتها، ودعاء وابتهال، ثم بيتوتة في المزدلفة، وعودة إلى منى وحلق ونحر، اقتداء لسنة إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

وأوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمي الجمرات، الذي ليس إلا تمثيلاً لما صدر عن الخليل، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريب في انتقال عدوى الحب، واتصال بالمركز الكهربائي الذي يجري منه التيار، ووسيلة إلى جلب رحمة الله وشمول عنايته، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر ألذّ من هذا المنظر، الذي يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من السنين، ولكن الله أفاض عليها الخلود، وطلب من جميع المحبين المخلصين إعادتها وتمثيلها إخزاءً للشيطان، وتقوية للإيمان، واقتداءً بخليل الرحمٰن.

قصة إبراهيم في القرآن، وصلتها بالبلد الأمين:

ولد إبراهيم في بيت سادن من أعظم سدنة البلد، ينحت الأصنام ويبيعها، ويقوم على الهيكل الكبير، ويتصل به عن طريق العقيدة، وعن طريق الحرفة، وما أعظم المشكلة وما أعقدَ العقدَةَ إذا التقت العقيدة بالحرفة، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية، ولا شيء في هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية، ولكنه قلب سليم هُيِّيء للنبوة، وأُعد لتكوين العالم الجديد، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1] إنه يبدأ ثورته بمرحلة ربما لا تصل إليها ولا تتناولها أعظم ثورة، إنها مرحلة الحياة المنزلية،

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٥١.

ومرحلة البيت الذي ولد فيه الإنسان، وفرض عليه أن يعيش فيه، ويقع كل ما يحكيه القرآن في أسلوبه المعجز المبين من تحطيم إبراهيم للأصنام، وغضب عبادها وحيرتهم وعيِّهم، وانتقامهم من الفتى الثائر، واشتعال النار وتحوّلها برداً وسلاماً على إبراهيم، ومناظرته البليغة، أمام الملك الجبار»[1].

وتنتهي هذه الثورة إلى أن يضيق عليه البلد، ويغضب عليه المجتمع، وتطارده الحكومة، فلا يحفل بكل ذلك ولا يحسب له حساباً، كأنه شيء كان منه على ميعاد، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها، فيخرج من بلده قرير العين، رضي النفس، إذ نجا برأس ماله، وهو الإيمان، فيهيم في أرض الله، وهو فريد لا يعرف له ثانياً، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة،، وعبادة الأوثان والشهوات، حتى يهبط مصر، فيكون هدفَ الامتحان والامتهان، وينجو بصاحبته التي يطمع فيها الملك، فيفلتان من يده، ويأويان إلى أرض الشام، فيغرس فيها الغرس الكريم، ويلقي فيها عصا التِّسيار، ويقوم فيها بدعوته إلى رفض الأوثان، وإلى عبادة الله وحده.

وتطيب له الإقامة في الشام حيث يتوفر الخصب ويتسع الرزق، ويتجلى جمال الطبيعة، فلا يلبث أن يؤمر بالتوجه إلى أرض تقابل الشام في الخصب والماء، وإبراهيم لا يعرف لنفسه حقاً، ولا يرتبط بأرض أو وطن، إنما هو طوع إشارة ورهن أمر، يعتبر العالم بلده والسلالة البشرية أسرته، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته «هاجر» ومولودها الصغير الرضيع.

وهنا في واد ضيق، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب، وقسا فيه الجو، وفقد الماء، وغاب الأنيس، وأوحش المكان، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة، والمولود الصغير، توكّلاً على الله وامتثالاً لأمره، واستسلاماً لقضائه، فلا جزع ولا فزع، ولا إشفاق ولا حذر، ولا سآمة ولا ضجر، ولا خَوَر في العزيمة ولا ريبة في الوعد، تمرد على التجارب،

---

(١) قال الشيخ: اقرأ الآيات: ٥١ إلى ٧٠ من سورة الأنبياء.

ومعاكسة للطبيعة، وانقطاع عن الأسباب، وإيمان بالغيب، وثقة بالله حين تسوء الظنون وتزل الأقدام.

ويعرض المحذور والأمر الواقع، فيغلب على الطفل العطش، ويشتدّ بالأم الظمأ، ولا مطمع هناك في ثماد[1] تروي غلتهما، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الأمومة والحنان، والإشفاق على المولود الصغير، فتخرج باحثة عن الماء، أو عن سيارة تحمل الماء، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين، يغلب عليها الحنين والإشفاق على الولد، فترجع لتطمئن إلى وجوده وحياته، ويغلب عليها الخوف على الحياة، فتعدو مسرعة تبحث عن ماء، أو عن أثر إنسان، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة، وسكينة يوحيها الإيمان والثقة، وتعرف ـ وهي زوج نبيٍّ وأم نبيٍّ ـ أن البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله، فهي مضطربة في غير يأس، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل، منظر لم تشهد السماء مثله، وجاشت الرحمة الإلهية، وتفجَّر الماء بطريق معجز، فكان ماء خالداً مباركاً لا ينضب ولا يغيض، قد وسع الخلق، ووسع الأجيال، وكان ماء لكل عصر، ولكل أمة، فيه غذاء وشفاءٍ، وفيه بركة وأجر.

وخلد الله هذه الحركة الاضطرارية التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصة، فجعلها حركة اختيارية، يكلف بها أعظم العقلاء، وأعظم الفلاسفة والنبغاء، وأعظم الملوك والعظماء، في كل عصر، وفي كل جيل، فلا يتم نسكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب، وغاية كل مطيع، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم، فهو يجمع بين العقل والعاطفة، وبين الحس والعقيدة، إنه يستعين بالعقل، ويستخدمه في مصالح حياته، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة، التي هي أعمق من العقل، إنه يعيش في عالم قد حفّ بالشهوات، ومليء بالزخارف والمظاهر، لكنه يمر بينها، كالساعي بين الصفا والمروة، لا يُعرّج على شيء، ولا يتقيد

(١) قال الشيخ: الثمد: الماء القليل يتجمع في الشتاء، وينضب في الصيف، أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر، جمعه: ثماد.

بشيء، إنما غايته وهمه ما يستقبله، يعتبر حياته أشواطاً محدودة يقطعها إطاعة لربه، واقتداءً بسلفه، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به، حركة قيمتها وروحها ورسالتها «الحب» و«الانقياد».

ويكبر الولد، ويبلغ السن التي تقوى فيها عاطفة الأبوة، فيرافق والده ويسعى معه، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الإنسانية، وطبع على الحب والحنان بميل شديد إلى ولده وفلذة كبده، وهنا المشكلة، فإن قلبه هو القلب السليم الذي خص بالمحبة الإلهية، إنه ليس كقلب كل إنسان، إنه قلب «خليل الرحمٰن»، والمحبة لا تعرف شريكاً، ولا تحتمل عديلاً، فكيف وهي المحبة الإلٰهية، وهنا يتلقى إبراهيم إشارة بذبح الولد الحبيب، ورؤيا الأنبياء وحي، وتتكرر الإشارة، فعرف أنه أمر يراد، وأنه جِد، فيختبر ولده، لأنه شيء لا يتم إلا بموافقته وجلادته، فيجد عنده غاية البر، وغاية النجابة، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلٰهي، وهو نبي ابن نبي، وجد نبي، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

وهنا يقع ما لا يصدقه العقل، فيخرج الوالد مع ولده النجيب الحبيب، ذلك ليذبح ولده، وهذا يطيع ربه ووالده، وكلاهما مطيع للرب مستسلم لأمره، وعرض لهما الشيطان ـ ذلك الذي تكفل بالضلال، ومنع الإنسان من السعادة ـ فحاول صرفهما عن التنفيذ، وزين لهما العصيان، ورغَّبهما في الحياة، فاستعصيا عليه، وأبيا إلا أن ينفذا أمر الله، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة، ويفزع له الإنس والجن، فينتصب الولد للذبح، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح، ووقع ما أراده الله، فلم يكن المقصود ذبح إسماعيل، إنما كان المقصود ذبح الحب الذي ينازع الحب الإلٰهي ويقاسمه، وقد ذُبح بوضع السكين على الحلقوم، إنما ولد إسماعيل ليعيش ويزدهر ويَنسِل، ويولد في ذرّيته آخر الأنبياء وسيِّدهم،

(١) سورة الصافات: آية ١٠٣.

فكيف يُذبح وكيف يموت قبل أن يتحقَّق ما أراده الله؟ وفدى الله إسماعيل بكبش من الجنَّة يُذبح مكانه، وجعلها سنَّة باقية في عقبه وأتباعه، يذبحون أيَّام النحر ويجدِّدون ذكرى هذا الذبح العظيم، ويضحُّون في سبيل الله ما يشترونه بحرِّ أموالهم:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾[1].

وخلد الله تمثيل قصة الشيطان مع إبراهيم، وجعل رجمه بالحصى في الأمكنة التي اعترض فيها لإبراهيم ينهاه ويصرفه، عملاً يتكرَّر كل عام، وقصة تمثَّل في أفضل الأيام، إثارة لبغض الشيطان، وإظهاراً للتمرّد عليه والعصيان، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة، إذا صحَّ فيه الإيمان، واستقام فيه الفهم، وكمل الانقياد للأوامر، ويعرف أنه في صراع دائم مع قوى الشر، ومعركة مع إبليس وجنوده، وأنه ليس له نصيب منه إلا الرَّجم والهوان.

ويدور الزمان دورته، وإسماعيل الصغير شاب قوي، أكرمه الله بالنبوة والسيادة، وقد أثمرت دعوة إبراهيم وتوسَّعت وانتشرت، وكان لا بد لها من مركز تأوي إليه، وتعتمد عليه، وكثرت القصور للملوك، والمعابد للطاغوت يطاع فيها الهوى، ويعبد فيها الشيطان، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته، ويطهر لقاصديه وعابديه، فيؤمر إبراهيم بعد ما قام الدين على قدمه وساقه، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيفة لبناء بيت الله تعالى، يكون مثابة للناس وأمناً، ومعبداً لله وحده، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره، العميق الرفيع في عظمته، فينقلان الحجارة، ويرفعان البناء، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٠٣ ـ ١٠٩.

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

وقام البيت على أساس من إيمان وإخلاص، ليس لهما نظير في الدنيا، وتقبَّله الله بقبول حسن، وقضى ببقائه، وكساه الجمال والجلال، وعطف إليه القلوب والنفوس، وجعله مهوى الأفئدة، ومغناطيس القلوب، يود الناس لو يسعون إليه على رؤوسهم، ويصلون إليه ببذل مُهَجهم ونفوسهم، مع تجرّده عن كل ما يستهوي القلوب، ويستلفت الأنظار، ووقوعه في بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبَهرج المدنية، ولما كان ذلك نودي إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[2].

كان العالم في عصر إبراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنيَّة أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها وغَلَوا من عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيين، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء وأنه يخلق الأشياء من عدم، وأنه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها، وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها، ويسخِّرها لما يشاء ومتى يشاء، أشعل الناس له النيران، وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[3]، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٢٧، ١٢٨.

(٢) سورة الحج: الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٦٨.

العنان، وإذا أرادَ أمسك الزِّمام، وحوَّلها إلى برد وسلام، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1].

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه، ويتوفَّر فيها الخصب، وتسهل فيها التجارة والصناعة، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعُرف الشائع، والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية، ومواضع الرخاء والثراء، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ويعطف إليهم القلوب، ويجبي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

وأجاب الله دعاءه، فضمن لهم الرزق والأمن، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾[4]. تركهم في أرض لا أثر فيها لماء يروي الغلّة، ويبل الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء، ويحملونه إلى بلدهم، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يُصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب، ويأتون إليه من كل فجٍّ عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٦٩، ٧٠.
(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧.
(٣) سورة القصص: الآيتان ٥٧.
(٤) سورة قريش: آية ٣، ٤.

المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيء، وهكذا كانت سنة الله معه، يُخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

الحج، تخليد لخصائص إبراهيم ومآثره، وتجديد لدعوته وتعاليمه:

والحج ومناسكه وما يحيط به من ذكريات وحوادث، وما يتلبس به الحاجّ من التجرُّد عن المظاهر، وما يأتي به من عمل ونسك ـ من إحرام ووقوف، وإفاضة، ورجم وسعي وطواف ـ تخليد لما اختص به إبراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الأسباب، والتوكل على الله والتفاني في سبيله، وإيثار لطاعته ومرضاته، وتمرّد على العادات والأعراف، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة، وتجديد لذلك الإيمان القوي، والحب العميق والتضحية الفائقة والإيثار الرفيع، والحج ضامن لبقاء هذه المعاني السامية كلّها، وهذه القيم الربانية كلّها، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التي هي فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج إبراهيم ويتشبّعوا بروحه، ويقوموا بدعوته في كل عصر وفي كل مكان، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

عنوان جديد، وخط فاصل في كتاب الإنسانية:

إن إبراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد، نيِّر مشرق في كتاب الإنسانية وامتدادها، ينفصل به التاريخ عن التاريخ، وتتوزَّع به الإنسانية بين المعسكرين يخلدان مع الزمن، ويبتدىء به عهد وينتهي به عهد، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة والكلمة الباقية، وجعل في ذريته النبوة والولاية، والوصاية الدينيَّة على العالم للأبد، وكتب لأسرته ومن دخل داره الجهاد للحق، والوقوف في وجه الباطل إلى آخر الأبد، والدعوة إلى الله، وتجديف سفينة البشريَّة في عواصف هوجاء، وأمواج عاتية، والمحافظة على هذا السراج من

---

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

أن ينطفىء، وهو العامل البنّاء الوحيد الذي استعمله الله في إسعاد البشرية وعصمها من تخريب العالم وتدمير الإنسانية، وسوقها إلى الجحيم.

عماد الإنسانية، وقيام للناس:

والحج وشهود الموسم، والتقاء أبناء ملة إبراهيم في مكة كل عام، هو كافٍ لبقاء هذه الصلة بين إبراهيم وأتباعه وأبنائه الروحيين، وتجديد هذه المعاني والعقائد والأهداف التي فيها بقاء لهذه الملة والإنسانية كلها، لذلك قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾[١].

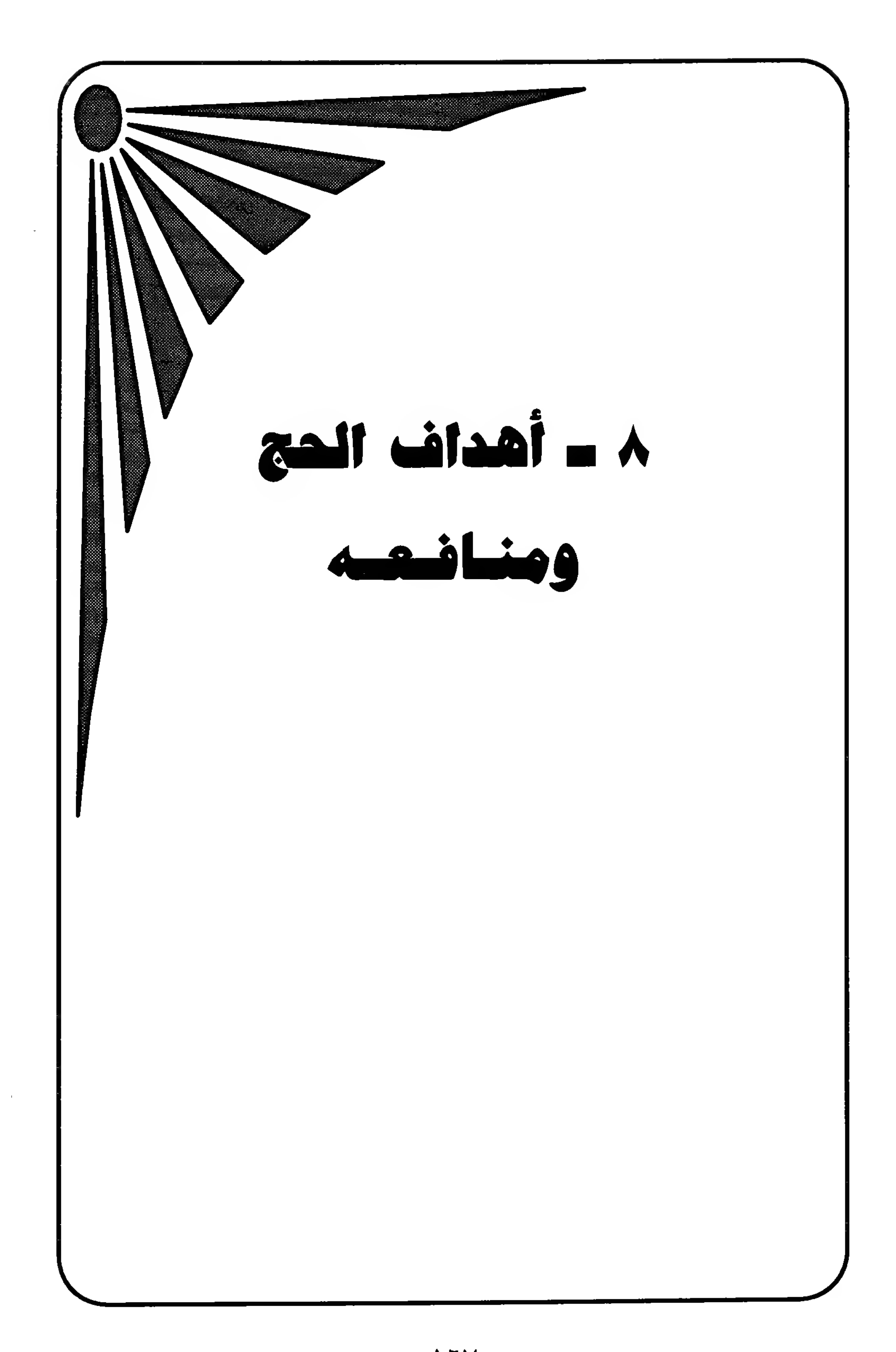
مركز دائم للهداية والإرشاد، والإصلاح والجهاد:

وجاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد، والإشعاع الروحي، والغذاء العاطفي، تقام حوله المناسك، وتغذّى به العاطفة، وتشعل به مجامر القلوب، وتشحن به «بطاريتها» الفارغة، ويتلقى منه الرسالة الدينية، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كل عام، يؤدي خراجه من الطاعة، وضريبته من الحب والانقياد، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين، ولجوءه إلى هذا الركن الركين، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء، والزعماء والعظماء، والملوك والأمراء، والأغنياء والفقراء، في وَلَهٍ وهيام، وفقه وحكمة، يثبتون أنهم مجتمعون على تفرق، متوحدون على تعدد، متركِّزون على انتشار، أغنياء على الفقر، أقوياء على الضعف، ينتشرون في العالم ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم، وينتسبون إلى أمم وسلالات، ويختلفون في الحضارات والثقافات، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة واحدة، وحياتهم كلّها طواف وسعي، ونسك وعبادة، وإيمان وعقيدة، ومقاماتهم كلّها منى وعرفات، وأسفار ووقفات، وإنما هم في رحلة دائمة، وتقدم مستمرّ، وتعارف متكرِّر، حتى يقضوا نحبهم ويلقوا ربَّهم[٢].

---

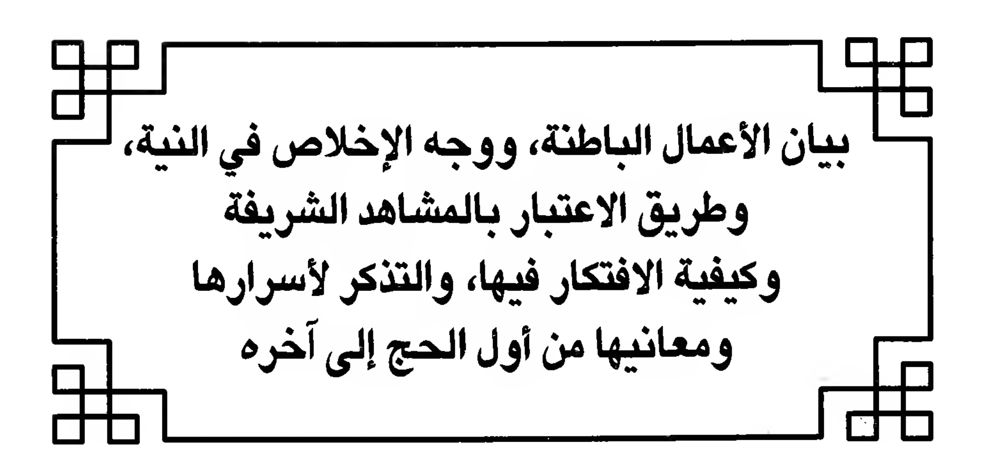
(١) سورة المائدة: آية ٩٧.

(٢) «الأركان الأربعة»: ٢٤٩ ـ ٢٦٠ بتصرف يسير.



٨ ـ أهداف الحج ومنافعه





بيان الأعمال الباطنة، ووجه الإخلاص في النية، وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها، والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره

قال الإمام الغزاليّ[1]:

اعلم أن أول الحج الفهم ـ أعني فهم موقع الحجج في الدين ـ ثم الشوق إليه، ثم العزم عليه، ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوب الإحرام، ثم شراء الزاد، ثم اكتراء الراحلة، ثم الخروج، ثم المسير في البادية، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية، ثم دخول مكة، ثم استتمام الأفعال كما سبق، وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر، وتنبيه للمريد الصادق، وتعريف وإشارة للفطن، فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه.

---

(١) ـ الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسيّ الشافعي الغزاليّ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط. تفقه ببلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل، وشرع في التصنيف، وعظم جاه الرجل، ثم رفض الرئاسة وحج وتزهد، وانعزل عن الناس مدة. وكان خاتمة أمره إقباله على الحديث ومجالسة أهله. توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٠٥ بطوس. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٣٢٢ ـ ٣٤٦.

أما الفهم:

اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات، والاقتصار على الضرورات فيها، والتجرّد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات، ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قُلل الجبال[1]، وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً في الآخرة، وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عزَّ وجلَّ وفتروا عنه بعث الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها... فأنعم الله عزَّ وجلَّ على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوَّار من كل فج عميق ومن كل أواب سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعاً لجلاله واستكانة لعزَّته، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقِّهم وعبوديَّتهم، وأتمَّ في إذعانهم وانقيادهم، ولذلك وظف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل، والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدوّ الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل، والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عزَّ وجلَّ بأفعال هي هيئة التواضع، وللنفوس أنس بتعظيم الله عزَّ

(١) أي رؤوسها.

(٢) سورة المائدة: آية ٨٢.

وجلَّ، فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط، وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه؛ مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً تعبّداً ورقّاً»[1] ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق مقتضى الاسترقاق، وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات، وهذا القدر كافٍ في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى.

وأما الشوق:

فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عزَّ وجلَّ وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد إلى الله عزَّ وجلَّ وزائر له، وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار، من حيث إن العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تتهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها، وأنها إن أمدَّت في الدار الآخرة بالبقاء ونزعت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب

---

(١) قال العراقي: أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس.

البيت بحكم الوعد الكريم، فالشوق إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عزَّ وجلَّ فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل.

وأما العزم:

فليعلم أنه بعزمه قاصداً إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهاً إلى زيارة بيت الله عزَّ وجلَّ وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره، وأن من طلب عظيماً خاطر بعظيم، وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه، وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وأما قطع العلائق:

فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكل مظلمة علاقة، وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه ويقول: إلى أين تتوجه؟ أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردّك ولا يقبلك؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفِّذ أوامره وردَّ المظالم وتب إليه أولاً من جميع المعاصي واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك، فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أوّلاً إلا النصب والشقاء، وآخراً إلا الطرد والرد.

وليقطع العلائق عن وطنه انقطاع من قطع عنه وقدَّر أن لا يعود إليه، وليكتب وصيته لأولاده وأهله فإن المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه، وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة،

فإنَّ ذلك بين يديه على القرب، وما يقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر.

وأما الزاد:

فليطلبه من موضع حلال، وإذا أحسَّ من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر، وأنَّ زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاد يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أوَّل منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيِّراً محتاجاً لا حيلة له، فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير.

وأما الراحلة:

إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عزَّ وجلَّ له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة، وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة، وهي الجنازة التي يُحمل عليها، فإن أمر الحج من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زاداً له لذلك السفر على ذلك المركب؟ فما أقرب ذلك منه، وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل، وركوب الجنازة مقطوع به، وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه، فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن؟

وأما شراء ثوبي الإحرام:

فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سيرتدي ويتَّزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله عزَّ وجلَّ وربما لا يتم سفره إليه، وأنه سيلقى الله عزَّ وجلَّ ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله عزَّ وجلَّ إلا مخالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله عزَّ وجلَّ بعد الموت إلا في زي

مخالف لزي الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن.

وأما الخروج من البلد:

فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عزَّ وجلَّ في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا، فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة مَن يقصد؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا، وشُوِّقوا فاشتاقوا، واستُنهضوا فنهضوا، وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عزَّ وجلَّ الذي فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عزَّ وجلَّ ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته، وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عزَّ وجلَّ وافداً إليه إذ قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات:

فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي والحيات، ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوّداً لمخاوف القبر.

وأما الإحرام والتلبية من الميقات:

فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عزَّ وجلَّ فأرجو أن تكون مقبولاً وأخشى أن يقال لك: لا لبيك ولا سعديك، فكن بين الرجاء والخوف متردداً، وعن حولك وقوّتك متبرّئاً، وعلى فضل الله عزَّ وجلَّ وكرمه متكلاً،

---

(١) سورة النساء: آية ١٠٠.

فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر: قال سفيان بن عيينة: حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرَّ لونه وانتفض، ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبِّي فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فلما لبى غشي عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجَّه.

وقال أحمد بن أبي الحواري: كنت مع أبي سليمان الداراني رضي الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلبِّ حتى سرنا ميلاً فأخذته الغشية ثم أفاق وقال: يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: مُر ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة، ويحك يا أحمد بلغني أن مَن حج من غير حله ثم لبَّى قال الله عزَّ وجلَّ: لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك، فما نأمن أن يقال لنا ذلك.

وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عزَّ وجلَّ إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾[1] ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في عَرَصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه، ومنقسمين إلى مقرَّبين وممقوتين، ومقبولين ومردودين، ومترددين في أوَّل الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا؟

وأما دخول مكة:

فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً، وليرج عنده أن يؤمن بدخوله من عقاب الله عزَّ وجلَّ وليخشَ أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عميم، والرب رحيم، وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير اللائذ غير مضيَّع.

وأما وقوع البصر على البيت:

---

(١) سورة الحج: آية ٢٧.

فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب، ويقدِّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدَّة تعظيمه إياه، وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم، واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه، واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين، ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة.

وأما الطواف بالبيت:

فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة، واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقرَّبين الحافِّين حول العرش الطائفين حوله، ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختتم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت، واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب، وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب، وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة، فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت، ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أُمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان، ووُعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم. . .

وأما الاستلام:

فاعتقد عنده أنك مبايع لله عزَّ وجلَّ على طاعته فصمِّم عزيمتك على الوفاء ببيعتك، فمن غدر في المبايعة استحقَّ المقت. . .

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم:

فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت، وتبركاً بالمماسة ورجاءً للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لا في البيت، ولتكن نيتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه، المتضرع إليه في عفوه عنه، المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل.

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت:

فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى، وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات، وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان، متردداً بين العذاب والغفران.

وأما الوقوف بعرفة:

فاذكر ـ بما ترى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم ـ عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول، وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عزَّ وجلَّ فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين، وحقِّق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض، ولا ينفك الموقف عن طبقة من الصالحين وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم

وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة، فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم، ولذلك قيل: إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له، وكأن اجتماع الهمم هو سر الحج وغاية مقصوده، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد.

وأما رمي الجمار:

فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجدّ والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان، واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم به ظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه.

وأما ذبح الهدي:

فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال، فأكمل الهدي وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار...

وأما زيارة المدينة:

فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ وجعل إليها هجرته، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عزَّ وجلَّ وسننه وجاهد عدوَّه وأظهر بها دينه إلى أن توفَّاه الله عزَّ وجلَّ ثم

جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة، فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها، وتصوَّر خشوعه وسكينته في المشي، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه، وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته، ثم تذكر ما من الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضي الله عنهم، ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر، وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك كما قال ﷺ: «يرفع الله إلي أقواماً فيقولون: يا محمد، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: بعداً وسحقاً»[1]، فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدو لك عن محجته.

وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة.

فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العَرَصة التي اختارها الله سبحانه لنبيِّه ﷺ ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة، وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة، وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً، فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً.

---

(١) قال الإمام العراقي: حديث: «يرفع إلي أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: بعداً وسحقاً» متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله: «يا محمد يا محمد».

وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن...

وأما زيارة رسول الله ﷺ:

فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفنا، وتزوره ميتاً كما تزوره حياً، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقترب من شخصه الكريم لو كان حياً، وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلاً بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود.

واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك، فمثل صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في اللحد بإزائك، وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روي عنه ﷺ أن الله تعالى وكَّل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته[1]، هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه، واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة؟ وقد قال ﷺ: «من صلَّى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشراً»[2]، فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟

ثم ائت منبر الرسول ﷺ وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر، ومثِّل في قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم وهو ﷺ يحثُّهم على طاعة الله عزَّ وجلَّ بخطبته، وسل الله عزَّ وجلَّ أن لا يفرِّق في القيامة بينك وبينه.

فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج، فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في

---

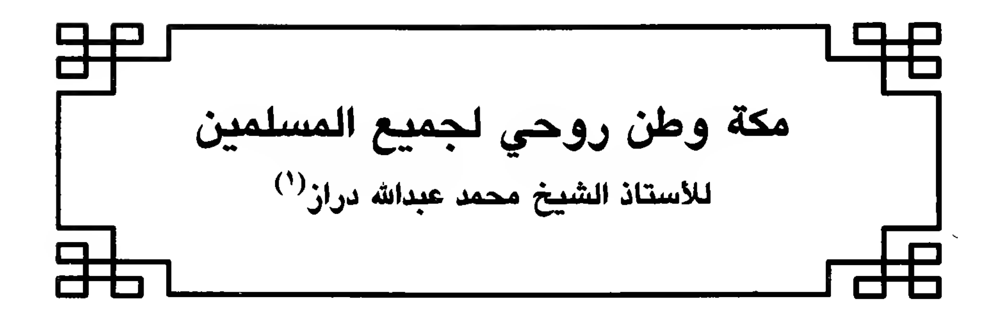
(١) قال الإمام العراقي: حديث: «إن الله وكل بقبره ﷺ ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته» أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام».

(٢) قال الإمام العراقي: حديث: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشراً» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبدالله بن عمرو.

زمرة المحبوبين أم ردَّ حجه وألحق بالمطرودين؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافياً عن دار الغرور وانصرافاً إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه، ومن أحبه تولاَّه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله، فإذا ظهر ذلك عليه دلَّ على القبول، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره: العناء والتعب، نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك[١].



(١) «إحياء علوم الدين»: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٧٢ بتصرف.



مكة وطن روحي لجميع المسلمين

للأستاذ الشيخ محمد عبدالله دراز[(١)]

الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأمناً، والصلاة والسلام على الهادي البشير، سيدنا محمد نبي الرحمة، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرا، وبعد:

أيها الحجاج الأبرار:

هذا حرم الله تفتح لكم سماؤه تكريماً لوفودكم، وتتطامن[(٢)] لكم أرضه ترحيباً بقدومكم، وهذه ملائكة الرحمٰن تستقبلكم وتحييكم، وتقود خطاكم وتهديكم.

أيها الضيف المكرمون: حنان ما أتى بكم اليوم ها هنا في هذا القيظ الملتهب هواؤه، المحترقة رمضاؤه، أعلن حين يتهيب الناس في بيوتهم أن يخرجوا من الكن إلى الضَّحّ[(٣)]، وأن يتعرضوا للفح الريح، في الوقت الذي يخرج فيه القادرون على السفر إلى مرابع الظل الظليل، ومساقط النسيم العليل في مناطق الشمال وعلى شواطىء البحار تقبلون أنتم ضاحين في العراء ضاربين في أحشاء الصحراء، تكابدون عناءَ الحل والترحال،

---

(١) عالم محقق، مصريّ، أزهريّ. كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. له عدة كتب بعضها بالفرنسية. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٧٧. انظر «الأعلام»: ٦/٢٤٦.

(٢) الكِنّ: كل ما يرد الحر من الأبنية ونحوها. «المعجم الوسيط»: كنه.

(٣) الشمس.

وتخوضون بحاراً من العرق والغبار، في بلد غير ذي زرع ولا قَطْر، هلا أجلتم هذه الرحلة القاسية عدة أُخرى من السنين حتى يدور الزمان دورته، فيجيء موسم الحج في الشتاء أو في الربيع!

هكذا يخوِّف الشيطان أولياءَه، ويخذل الضعفاءَ من أعادئه، وهكذا يفكر أولو النعمة، والمترفون في كل أمة.

أما أنتم فقد سخرتم من كل هذه المعوقات والمثبطات، إن حرارة الطبيعة قد انمحت وانهزمت أمام حرارة إيمانكم، وإن وعورة السفر قد ذللتها صلابة عزائمكم، وهكذا برهنتم على أن الإنسان ليس هو هذا الهيكل الحسي الذي تدركه الأبصار، وأن قيادته وتصريف زمامه ليسا كما يزعم الجاهلون بيد تلك القوى الطبيعية كلها بدنية كانت أو كونية، برهنتم على أن في الإنسان جوهرة أُخرى أعظم من أن ينالها الحس، السلطان في الحقيقة سلطانها، والأمر النافذ على الجوارح هو أمرها، تلك هي المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

لقد شعرتم إذن بنداء الواجب يتردد صداه بين جوانحكم، فلم يسعكم إلا أن أجبتموه سراعاً: لبيك لبيك، لا نُعرض محجمين ولا نقعد متثاقلين، وكذلك يفعل أولو الحزم والعزم، هم أبداً سباقون إلى الخير، مسارعون إلى البر، لا يحتمل نداءُ الواجب عندهم تسويفاً ولا تأجيلاً، ولا يبالون في سبيله ما يبذلون من جهد وتضحية، ذلك بأنهم لا يصيبهم فيه ظمأ ولا نصب ولا مخمصة، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم، ووفوا عليه جزاءهم. ألا فليكن في سبيل الله ما كابدتم وتكابدون، وفي صحيفة الحسنات ما بذلتم وتبذلون، وليكن جزاؤكم عند الله موفوراً، وسعيكم لديه مشكوراً.

أيها الضيف المكرمون:

لا تحسبوا حين أدعوكم باسم الضيف المكرمين أني أعدكم ضيفاً هنا على أحد من البشر، فإنما أنتم وفد الله وضيف الرحمٰن، إنكم ها هنا لستم بدار غربة، ولكنكم في أرضكم ودياركم، لئن كنتم قد فارقتم أوطانكم

الخاصة المتفرقة لقد حللتم هنا في وطنكم المشترك الجامع، هذا هو البلد الحرام الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد. فالمسلمون فيه سواسية ـ المقيمون فيه، والقادمون إليه ـ لهم جميعاً حق مشاع في مناسكه ومشاعره، وآثاره ومعالمه، لا ينازع فيه أحد أو تستأثر به أمة دون أمة.

أيها الحجيج البررة:

كم تشاهدون ها هنا من آيات بينات؟ وكم تستعيدون ها هنا من ذكريات محببات إلى القلوب؟ ها هنا هبط الوحي من السماء، ها هنا استوطن الأنبياء، ها هنا بزغ نور الإسلام، ها هنا مشى محمد وصحبه، ها هنا انتصر الحق وحزبه، ها هنا طاف الأنبياء والصالحون، ها هنا دعوا وابتهلوا، ها هنا تصدقوا وبذلوا، فإن كنتم تريدون أن تسجلوا أسماءَكم في الكتاب الذهبي الذي أعدَّه الله لهم فسيروا على مواضع أقدامهم، واقتفوا سنتهم وآثارهم في نصها وروحها ومظهرها ومخبرها.

ثم هذه الكعبة التي كنتم تحجون إليها بقلوبكم في الصلوات، وترنون إليها بأبصاركم من وراء الآفاق، كل يوم عشرات المرات، ها هي ذي منكم الآن رأي الأعين، فاغتنموا وتزوَّدوا، إنها البقعة المطهرة المطهِّرة:

مطهرة؛ أمر الله أن تنزه عن كل رجس، وعن كل إثم، وعن كل ظلم، حتى من الرفث والخصومة والجدال، الصغيرة فيها كبيرة، والحيف اليسير فيها ظلم عظيم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ومطهِّرة: جعلها الله مغتسلاً للذنوب التي ترتكب في كل مكان، وفي كل شأن إلا ظلم الإنسان للإنسان فإنه لا تكفره صلاة ولا صوم ولا حج ولا قربان، وإنما تمحوه رد التبعات إلى أهلها أو استعفاؤهم منها.

أيها الحجاج المبرورون:

لقد حدَّثتكم الآن عن أهداف هذه الرحلة المقدسة، حديثاً يعرفه كل

---

(١) سورة الحج: آية ٢٥.

امرىءٍ منكم في نفسه، وأود أن أحدثكم عنها حديثاً آخر ربما لا يعرفه منكم إلا القليل: فعامة المؤمنين يفهمون من شعائر الحج أنها مأدبة روحية أعدَّها الله لعباده عند أول بيت وضعه للناس ليتزودوا فيهاَ من أنواع القربات، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها وشأن واجباته وتأديتها.

غير أن الإسلام أوسع أفقاً وأبعد نظراً من أن تحده هذه الأهداف الفردية الضيقة، وإلا فلماذا لم يترك لنا الخِيَرة في أن نؤدي هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين في أي وقت من العام يشاؤه الواحد منا؟ ولماذا أمرنا لزاماً أن نؤديها مجتمعين في صعيد واحد، في وقت واحد، وفي زي واحد؟ لا بد أن هنالك سراً أو أسراراً يهدف إليها التشريع الإسلامي من وراء هذا التجمع والتكتل، ولست محدثكم عن هذه الأسرار جملة وتفصيلاً، ولكني أكتفي بواحد منها:

أتدرون ما الأواصر التي ربط الله بها هذه الأمة الإسلامية لتكون كالجسد الواحد؟ كلنا نعرف منها آصرتين اثنتين: وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، إله واحد، وكتاب واحد، آصرتان عقليتان معنويَّتان ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسيَّة ملموسة، فبعث منادياً في الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة، على أرض واحدة هي أرض الوطن الروحي.

وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة في وحدة الوطن الأعلى، ذلك ليذكر المسلمون أنهم ـ وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألوانهم ـ تجمعهم جامعة الدين والله والوطن، وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا.

إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامي ترينا كيف أنه يمتد في قلب العالم كتلة واحدة متصلة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وأنه كله يدور على محور واحد هو مكة المكرمة التي هي قلب الوطن الإسلامي وقطب رحاه، إن هذا الوضع الجغرافي المتماسك القوي قد اختص به

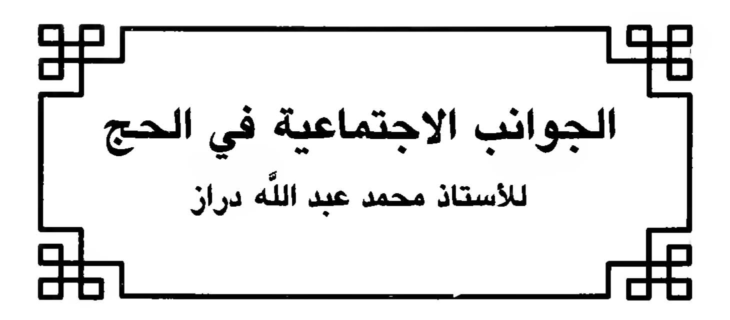
الإسلام بين سائر الأديان، ومع ذلك فمن أعجب العجب أن الذي ينظر إلى الماضي القريب للأمة الإسلامية، لا يجدها في المكانة التي يؤهلها لها هذا الموقع الفريد، ذلك أن تفتتها الإقليمي وانطواء كل شعب منها على نفسه أنساها هذه الرابطة العظمى، ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية، فكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر إلى قطر وليس بيدهم جواز سفر إلا كلمة الإسلام.

فهل يعود الإخوة المؤمنون إلى هذا التقارب والترابط لتعود للوطن الإسلامي مناعته وحصانته فلا يبقى فيه بعدئذ عيش لتلك الطفيليات التي تمتص دماء أبنائه وتحني أعناقهم؟ وهل يكون لنا من موسم الحج هذه العبرة؟

إنها ذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين[1].



(١) «نخبة الأزهار وروضة الأفكار»: ١٣٢ ـ ١٣٧.



الجوانب الاجتماعية في الحج

للأستاذ محمد عبد اللّه دراز

ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الإسلاميّ، تلك هي الطبيعة الثنائية المادية الروحية والإنسانية والفردية الاجتماعية التي تسري باطِّراد في شعائر الإسلام، حتى أرى كل قاعدة من قواعدها الأربع تمثل قطباً ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين، ، ظاهرة مطردة كلما ازددنا في دراستها إمعاناً زادتنا إيماناً بأن الذي فصل هذه الشريعة على مقياس الإنسان هو الذي فطر الإنسان روحاً في مادة، وفرداً في جماعة.

هذه الطبيعة الثنائية قد تكون جلية واضحة في بعض الشعائر دقيقة عميقة في البعض الآخر، ولكنها في شعيرة الحج أوضح وأجلى منها في سائر المواطن.

ولا نريد أن نطيل في وصف الجانب الروحي من هذه المأدبة الكبرى التي أعدها الله للمؤمنين عند أول بيت وضعه للناس، فذلك الجانب الروحي منها هو مثار الانبعاثة الأولى في قلب كل مؤمن يريد أن يلبي هذه الدعوة، ألا تراه حين يتفرغ لها من مشاغله وشواغله، ويفارق من أجلها أهله ووطنه، مضحياً بماله ووقته وراحته، متجرداً حتى من ثيابه وزينته، محتملاً في هذه السبيل كل وَصَب ونصب، إنه يرى في ذلك كله مرضاة لربه، ومطهرة لذنبه، وبرهاناً على الإيمان، وزاداً من التقوى حتى إذا بلغ غاية سفره فأطل على الحرم الأمين، ثم وطئت قدماه مهبط الوحي الأول، أحس هنالك بشعور عميق من السكينة والطمأنينة، ثم أحس برباط وثيق من القرابة

والنسب، ينتظم به في أسرة النبيين والصالحين الذين رفعوا هذا البنيان مناراً وهدىً للناس، أو الذين اجتذبهم إليه نوره وهداه، حتى إذا قضى مناسكه، وأتمَّ شعائره شعر كأنه خلق خلقاً جديداً، وعاد بريئاً طهوراً كيوم ولدته أمه.

فذلك الدافع القويّ الذي يحرك راكد الهمم إلى الرحلة والهجرة، ثم ذلك الأنس الباطن الذي توحي به أرض الحرم بما فيها من مشاهد الحاضر، وذكريات الماضي، ثم هذه البهجة والغبطة التي تملأ ضمير المؤمن عند شعوره بأداء الواجب، كل أولئك يستمد من معدن واحد وينبع من ينبوع واحد، هو الجانب الروحي الذي يلمسه كل حاج ومعتمر حتى لو فرض أنه يسافر وحده، ويقيم وحده، ويشهد المشاهد وحده.

غير أن هناك بوناً شاسعاً بين فكرة العمرة وفكرة الحج، فلو أن امرءاً أدى مناسك العمرة كلها منفرداً، في أي وقت يحلو له من أوقات السنة دون أن يرى أحداً أو يشارك أحداً في حل أو ترحال لأدى شعيرتها، وفرغت ذمته منها، ومن هنا يتجلى ما في العمرة من طابع الروحية الفردية، الذي تتسم به في الأعم والأغلب نوافل العبادات، أما شعيرة الحج فريضة كانت أو نافلة فقد حدد الإسلام لها أشهراً معلومات، وعين لمناسكها أياماً معدودات، بحيث لو فاتت فلا قضاء لها، بل قد يجب العود لها من عام قابل!

هكذا يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك في وقت واحد، وفي صعيد واحد، بل في زي واحد، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة في كل موسم، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الإسلامية، مجتمعة في ميقاتها من كل عام.

هذا العنصر الجمعي هو إذن ركن ركين، وعنصر أساسي أصيل، من دونه لا يكون الحج حجاً، ولا يقع فرضاً ولا نفلاً، ولقد حرص الإسلام على هذا التجمع في الحج حرصاً يفوق كل حرص، وجعله هو الحلقة الختامية العليا كل عام يتوج بها سلسلة التجمعات المحلية التي دعا المسلمين إليها في مختلف المناسبات دعا أهل المحلة أو الحي الصغير إلى

التجمع في أقرب المساجد خمس مرات كل يوم، ثم دعا أهل القرية أو الحي الكبير من المدينة إلى التجمع في مسجدهم الجامع مرة في كل جمعة، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع في فضائها أو في أوسع مكان منها كل عام مرتين لصلاة العيدين: مراحل متصاعدة تنمو فيها روح الجماعة شيئاً فشيئاً، ويتضخم مظهرها رويداً رويداً، حتى تصل إلى هذا التجمع الإسلاميّ الكبير مرة في كل عام، حول أول بيت وضع للناس.

ما سر تلك العناية البليغة بهذا التجمع الموسمي الأكبر؟

لقد كان مقدراً للإسلام أن ينتشر نوره في الآفاق على مختلف الأقطار والأقاليم، ولقد رأيناه بالفعل يبسط جناحيه على الأرض يميناً وشمالاً حتى أتى على نهايتها في أقصى الشرق وفي أقصى الغرب، ثم رأيناه في الاتجاه الرأسي يمدُّ قطبيه ما شاء الله أن يمدهما في الشمال وفي الجنوب، ولئن كان قد توقف سيره بعض الشيء في هذا الامتداد الرأسي، لقد كان ذلك العارض وقتياً، إذ وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية لو رفعت من طريقه لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها. ذلك أن الإسلام فكرة سائغة، وشريعة عادلة، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب المنهمر، لا يصادف أرضاً مطمئنة إلا غمرها وعمرها أيّاً كان جوّها وأياً كانت تربتها، وهكذا انفتحت لدعوة الإسلام عقول الأمم وقلوبها على تنائي أقطارها، واختلاف ألسنتها وألوانها، وأنظمتها وعوائدها وموروثاتها، فلو أن الإسلام رخص لكل أمة قبلت دعوته في أن تبقى حيث هي محصورة في نطاق حدودها لا تدري ما يجري وراء تلك الحدود من أنظمة وآراء، أو أنها تسمع بها ولا تراها فتصدق ما يصل إليها من أخبارها ـ إن صدقاً وإن كذباً ـ لو أن الإسلام رخص بذلك لأفسح إذن الطريق أمام العقائد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات الاجتماعية الخاصة بكل قطر، ولتركها تربو وتنمو وتتبلور وتتجمد حتى تكون عقيدة إلى جانب العقيدة، بل عقيدة في قلب العقيدة، وإذن لأصبحت الوحدة الإسلامية وحدة اسمية نظرية، ولعادت شعوب الإسلام جماعات متنافرة متناثرة لا قدر الله.

كان من الضروريّ إذن لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عملية أن يفرض على الشعوب الإسلامية نظام من الاختلاط والامتزاج والتجاور والتزاور، من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية إلى التماثل والتشابه، أو على الأقل إلى التقارب والتناسق إذ يكون هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حسن جميل، وتهذيب ما هو شاذ متطرف، ويكون في الوقت نفسه تدريباً عملياً على التسامح والإغضاء عن الفوارق الشكلية التي لا يخشى أن تحدث صنعاً في كيان الجماعة العظمى.

ماذا عسى أن يكون هذا النظام؟

نفرض على كل قطر أن يوفد طائفة منه تجوب الأقطار كلها بين حين وآخر، للوقوف على سير عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب عبادتها ومعاملاتها، وللسهر الدائب على التنسيق بينها وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر.

يا لها من ضريبة قاسية، ومهمة شاقة عسيرة! أليس من الخير واليَسر أن تجيء الوفود كلها إلى بلد واحد؟ أوليس من خير الخير وأيسر اليسر أن يكون هذا البلد في سرة الأرض على بُعد متناسب من كل أقطارها، وأن يكون هذا البلد هو البلد الآمن الذي يلجأُ إليه المكروبون ويأمن فيه الخائفون؟ وأن يكون هذا البلد هو البلد المحروم من ثمرات الأرض الأحق بالبر والرفد؟ وهو البلد الذي للإسلام فيه رحم تقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور، منذ قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾[١].

أو ليس من تمام الحكمة أن يكون هذا البلد هو المكان الذي نزل فيه القرآن، والذي يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن، ليكون فيه لغير العرب ألفة

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

ما بلغها العرب التي ينبغي أن تكون من عناصر العالمية الإسلامية؟ وأخيراً، أليس الخير كله في أن يكون هذا البلد هو البلد الذي فيه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم، مطافهم ومسعاهم، وموقفهم ومرماهم؟

هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوي في مكان يوفون فيه حق دينهم ودنياهم معاً. كما قال جلّت حكمته: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾[١].

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.. ما أعجب هذه الكلمة! ما أوجزها! وما أجمعها! إنها لتتناول شؤون الاقتصاد والسياسة، والحرب والقانون، والعرف، واللغة، والآداب، والعلوم، وسائر مقومات الحياة الجماعية التي تتأثر أعظم التأثر بهذا الاتصال والتلاقي كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة، فتأخذ في التوازن والتعادل طلباً للوصول إلى مستوى واحد.

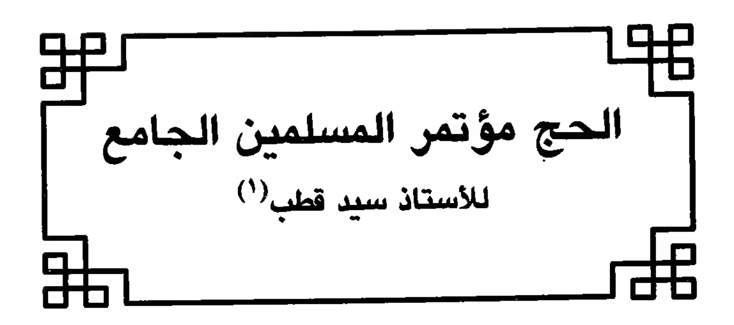
ولكن، ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطيء الفاتر؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الإسلامية الشاملة؟ بلى، لقد آن للأمم الإسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة، والقوميات المنفصلة إلى محيط الجماعة الكبرى التي يرون منها نموذجاً مصغراً في هذه الرحلة المقدسة[٢].



---

(١) سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨.

(٢) «نخبة الأزهار وروضة الأفكار»: ١٩٨ ـ ٢٠٤ بتصرف.



الحج مؤتمر المسلمين الجامع

للأستاذ سيد قطب[1]

الحج هو مؤتمر المسلمين الجامع الذي يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام، عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة، ولا يميز فرداً عن فرد، ولا قبيلة عن قبيلة، ولا جنساً عن جنس، إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة، ونسب الإسلام هو وحده النسب، وصبغة الإسلام هي وحدها الصبغة.

إن الإسلام لا يعرف نسباً، ولا يعرف طبقة، إن الناس كلهم أمة واحدة، سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ولقد كلفهم الإسلام أن يتجردوا في الحج من كل ما يميزهم من الثياب، ليلتقوا في بيت الله إخواناً متساوين، فلا يتجردوا من الثياب ليتخايلوا بالأنساب، ودعوا عنكم عصبية الجاهلية، وادخلوا في صبغة الإسلام، واستغفروا الله، استغفروه من تلك الكبرة الجاهلية، واستغفروه من كل ما

(١) سيد بن قطب بن إبراهيم. مفكر إسلامي مصري. ولد في أسيوط سنة ١٣٢٤. تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في بعض المجلات الأدبية، وعين مدرساً للعربية ثم تنقل في الوظائف الحكومية. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٣٧٣، ثم سجن فعكف على تأليف صفوة كتبه في سجنه، ثم أعدم بعد ذلك سنة ١٣٨٧ زمان الانصراف إلى القوميات الفاجرة. رحمه الله تعالى وتقبله شهيداً، وانظر «الأعلام»: ٣/١٤٧ ـ ١٤٨.

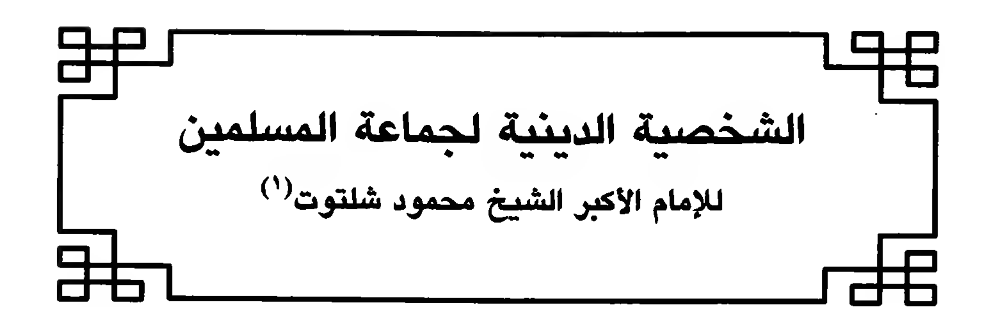
مسَّ الحج من مخالفات ولو يسيرة هجست في النفس، أو نطق بها اللسان مما نهى عنه من الرفث والفسوق والجدال.

وهكذا يقيم الإسلام سلوك المسلمين في الحج، على أساس من التصور الذي هدى البشرية إليه، أساس المساواة، وأساس الأمة الواحدة التي لا تفرقها طبقة، ولا يفرقها جنس ولا تفرقها لغة، ولا تفرقها سمة من سمات الأرض جميعاً، وهكذا يردهم إلى استغفار الله من كل ما يخالف عن هذا التصور النظيف الرفيع.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾[1].



(١) مجلة «البعث الإسلامي»: العدد ٦، المجلد ١٢، ذو الحجة سنة ١٣٨٧، والآية من سورة البقرة رقم ١٩٩.



الشخصية الدينية لجماعة المسلمين

للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت(١)

إننا ونحن الآن في أشهر الحج المبارك، نقدم للأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء ـ مستعينين بالله سبحانه ـ بعض ما جاء به القرآن فيما يتصل بهذا الموضوع من حيث الطريق، والإقامة، وما يتصل بذلك، ولذا فإننا سنُعنى بالكلام في هذا الموضوع، ببيان عن:

النداء الثاني في سورة المائدة:

وقد جاء فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾(٢).

وكما تضمن النداء الأول تشريعاً كلياً يركز مسؤولية الالتزام التعاقديّ،

---

(١) فقيه مفسر مصري. ولد سنة ١٣١٠ في منية بني منصور في البحيرة بمصر، وتخرج في الأزهر، وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة. وكان داعية إصلاح فسعى إلى إصلاح الأزهر فطرد منه ثم أعيد، وكان عضواً في هيئة كبار العلماء ثم صار شيخاً للأزهر. له مصنفات كثيرة. توفي سنة ١٣٨٣ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٧/ ١٧٣.

(٢) سورة المائدة: آية ٢.

وتشريعاً جزئياً ينص على ما أحلّه الله للإنسان وما حرم عليه من الحيوان، يتضمن هذا النداء الثاني تشريعاً كلياً يقرر المحافظة على الشخصية الدينية لجماعة المسلمين وتشريعاً جزئياً ينص على وجوب الاحتفاظ بأشياء معينة تتصل بما قدس الله من المكان والزمان.

المحافظة على الشخصية الدينية للمسلمين بإيجاب التمسك بالشعائر:

وفي الكلي يقول: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ شعائر الله: هي ما نصبه الله عنواناً على هديه وهي عند التحقيق ترجع إلى مظاهر ما فرض الله من فرائض وحَدَّ من حدود، وشرع من تشريع، وهو بعمومه يشمل في جانب الفعل: الفرض والمسنون والمندوب، وفي جانب الترك: المحرم والمكروه وما لا ينبغي، وإحلالها وانتهاكها وتركها وإهمالها فيما طلب فعله وفعلها وإظهارها وإشاعتها بين الناس فيما طلب تركه، ومن هنا يتبين أن الشخصية الدينيَّة تتكون من عنصرين: فعل مطلوب، وترك منهي عنه، فإذا اجتمعتا كملت الشخصية الدينية وإذا عدما أو عدم أحدهما عدمت الشخصية الدينية للجماعة وحرمت مكانة السمو التي تحظى بها ذات الشخصية الكاملة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

فالأذان، وصلاة الجماعة في الأوقات الخمس، وصلاة الجمعة في كل أسبوع، وصلاة العيدين في كل عام، وأداء الحج في العمر، وزكاة المال والزروع في أوقاتها، كل ذلك ونحوه من العناصر الإيجابية للشخصية الإسلامية، والابتعاد عن شرب الخمر وأكل الخنزير والاتجار بها وغلق أبواب اللهو والفسوق وبيوت الدعارة والقمار ومنع خروج المرأة متزينة متعطرة عارية كاسية من العناصر السلبية للشخصية الدينية ووجودها هدم لهذه الشخصية.

(١) سورة البقرة: آية ٨٥.

تقديس ما قدسه الله:

وبعد أن ركز هذا النداء في نفوس المؤمنين وجوب المحافظة على شخصيتهم التي بها يعرفون وعن غيرهم يتميزون، ويتضح للناس مسلكهم وصراطهم الذي يسلكون عُني النداء بالنص على أشياء خاصة كانت موضع انتهاك القوم لها وقت التنزيل، وربما كان لإحلالها في نفوس البعض ما يبرره، فحذر بوجه خاص من إحلالها.

الشهر الحرام:

ومن ذلك: «الشهر الحرام» والمراد به الجنس، فيشمل الأشهر الأربعة المذكورة في قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

الهدي:

ومن ذلك «الهدي» وهو ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام للتوسعة على عباد الله العاكفين فيه والبادين[3].

القلائد:

ومنه «القلائد» وهي ما يوضع على الهدي إشعاراً بأنه هدي إلى الله وقربان.

قاصدو البيت الحرام:

ومنه ما أشار إليه بقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ وهم الذين يقصدون البيت يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً...

---

(١) سورة التوبة: آية ٣٦.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٧.

(٣) أي القادمين من البادية.

وإحلال الأشهر الحرم، يكون باستباحة الدماء والقتال وارتكاب المظالم فيها. وإحلال الهدي حبسه عن أن يبلغ محله، وهو بيت الله الحرام، أو ذبحه قهراً عن أصحابه.

وإحلال القلائد يكون بانتزاعها من الهدي فيجهل الناس أنه هدي، ويتعرضون له بالغصب أو النهب.

وإحلال قاصدي البيت التعرض لهم بسوء، وهم لا يريدون السوء بأحد، وإنما يريدون فضل الله ورضوانه، فهم إذن ضيوف الله وفي جواره فلا يقاتلون ولا يساءون، ولا يعنف عليهم في معاملة أو بيع أو شراء.

وقد عرض القرآن الكريم للبيت الحرام وبيَّن قدسيته القديمة ومناسك الحج وشعائره في سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة، وسورة الحج، وبيَّن في كل ذلك أنه شأن ديني قديم نزلت به شريعة السماء، ودانت به الأمم من عهد إبراهيم وإسماعيل إلى عهد محمد خاتم الأنبياء إلى يوم الدين.

ومما جاء بشأنه وشأن احترامه وتقديس ما يتصل به أو يدخل فيه حتى الصيد والأنعام قوله تعالى في سورتنا هذه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (٩٧)﴾[١].

تقديس بعض الأماكن والأزمان يتيح للناس نوعاً من الهدنة والتحصن:

ومبدأ احترام بعض الأماكن وبعض الشهور مبدأ سام، شرعه الله في القديم وأقرّه في الإسلام، كيف لا وهو فرصة تعين المتخاصمين على حسن

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٩٥ ـ ٩٧.

التفاهم وإقرار الأمن والسلام، هو بمثابة هدنة الهيبة يغرس الاعتراف بها في قلوب الناس جميعاً ويمنحونها حقها من الكف عن المظالم والعدوان، فتشعر بلذة الأمن والطمأنينة، وتسعى في إزالة أسباب التدابر والتقاتل والخصام بوازع ديني تمتلىء به القلوب وتخشى في مخالفته سطوة المالك للرقاب، المهيمن بقدرته وجبروته على القوي المتجبر، وبرحمته وعطفه على الضعيف المستعبد.

ومن غريب أمر هذه الهدنة أنها أقرت الأمن في هذه الأماكن حتى بالنسبة للأشجار الصامتة والحيوان الأعجم الذي يغشاها ويتنقل في أرجائها ويطير في أجوائها ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾.

كلام القرطبيّ في هذا:

قال القرطبيّ في تفسيره:

والحكمة من جعل الله تعالى هذه الأشياء قواماً للناس وسبيلاً لأمنهم أن الله تعالى خلق الخلق على سليقة التحاسد والتقاطع والتدابر والسلب والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بد في الحكمة الإلٰهية من كافٍ يدوم معه الحال ووازع يحمد معه المآل، ومن هنا جعل الخليفة والإمام لتجري على رأيه الأمور ويكف الله به عادية الأمور، وعظم في قلوبهم البيت الحرام وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظم حرمته فكان من لجأ إليه معصوماً به، وكان من اضطهد محمياً بالكون فيه، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1] ولما كان البيت الحرام في مكان مخصوص لا يدركه كل مظلوم، ولا ينال حظه من الأمن فيه كل خائف، ولا يمكن أن يجتمع سكان المعمورة فيه جعل الله الأشهر الحرم ملجأ آخر، تنشر على الناس وهم في أقاليمهم وأقطارهم ألوية الأمن والاطمئنان، ويدخلون بها في هدنة الرحيم المنان، فقرر في القلوب حرمتها: لا يروع فيها سِرْب[2]، ولا يطلب فيها دم، ولا يتوقع فيها ثأر،

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(٢) السِّرب: الفريق من الطير والحيوان: «المعجم الوسيط»: س ر ب.

وفيها تسكن السيوف في أغمادها، وتتجه القلوب إلى ربها فيفيض عليهم من رحمته ما يطهرها من النوازع المادية التي تدفع الإنسان لأن يهلك الحرث والنسل، ويعرض الكون للخراب والدمار.

ولا ريب أن الإنسان إذا استمر في هذه الهدنة وعالج نفسه في ظلها وهي أربعة أشهر من اثني عشر شهراً، ثلث الحياة كان في فسحة وراحة ومجال للسياحة والاتصال، وتسوية الحال، مما يجعله في حصن ووقاية من الرجوع إلى طرق باب الشرور والتنازع والخصام وبذلك يصير مع إخوته بني الإنسان إخواناً متعاونين على البر والتقوى بعيدين عن الإثم والعدوان.

ختام النداء الثاني وما يوحي به من المعاني السامية:

هذا تشريع الله لعباده المؤمنين وقد ذيّله بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ليأخذ بهم إلى السمو عن مواطن الأهواء والنزغات، والترفع عن معاني الأثرة والأنانية، وسبل الشر والفساد ويجعل منهم قوة موجهة إلى الخير، متعاونة على البر.

فمتى يخضع المسلمون لتعاليم ربهم وإرشاده وهو يأمرهم أن يكونوا جميعاً أمة واحدة لا تعرف النزاع ولا الشقاق ولا التقاذف ولا التقاطع، ولا العصبية الجنسية، ولا العصبية المذهبية؟ وفيم هذه الخلافات المستحكمة التي لفتتهم عن قصدهم ولوتهم عن سبيلهم وفرقت كلمتهم وجعلتهم شيعاً وأحزاباً؟ وفيم هذه التفرقة وهم على كلمة سواء في توحيد الله والإيمان بوحيه ورسله، والإيمان بيوم البعث والجزاء، والإيمان بأصول الأحكام التي قررها كتاب الله الخالد وجعل منها معتصماً للجميع، إذ يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[1] ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٥٢.

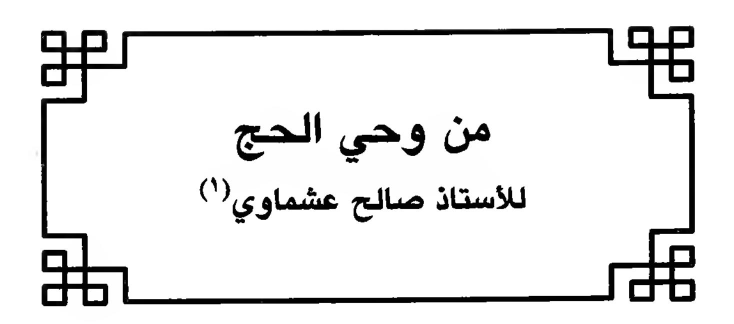
إلا أن هذه الخلافات قد صرفتنا عن النافع العملي، واستغرقت جهودنا الفكرية في مختلف الأزمان والأوطان، ولو أن المسلمين كانوا قد تخففوا منها، أو هونوا شأنها فلم يضخموه ولم يحرصوا على تلقينه لأجيالهم جيلاً بعد جيل لوجدت العقول مجالاً غير مجاله فأثمرت ثمرات طيبات مباركات، ولوطدت أواصر المحبة والتعاون بين أهل الدين الواحد والأصول الأساسية المتفق عليها، ولما وجد أعداؤنا منفذاً إلينا لا في أفكارنا وعقولنا ولا في أوطاننا وأعمالنا.

إنه لو حسبت الأوقات التي ضاعت وتضيع في الخلافات النظرية، والجهود التي بذلت وتبذل في كل شعب قديماً وحديثاً لدراسة موقف كل طائفة من الأخرى فيما تقول به من كذا، أو فيما تنكره من كذا، لهالتنا كثرتها، ولعزَّ علينا أنها ذهبت هباء لم تفد منها الأمة شيئاً إلا بقاء العدوات والأضغان بل تثبيتها وتنميتها.

فاللهمَّ هيىء لنا من أمرنا رشداً، وألِّف بين قلوبنا[1].



(١) «مجلة الأزهر»: السنة ٣٣، العدد ١١، سنة ١٣٨١، ص: ١٢٩١ ـ ١٢٩٥.



من وحي الحج

للأستاذ صالح عشماوي[1]

العبادات في الإسلام هي في الأصل وقبل كل شيء أمور تعبدية فرضها الله على عباده، وهم يؤدونها طاعة له، وامتثالاً لأمره، والتماساً لمثوبته وأجره، ولكن حكمة العليم الخبير اقتضت ألا تخلو هذه العبادات من مقاصد ومنافع، هي ممارسة عملية لمبادىء الإسلام وأهدافه وتثبيتاً لقواعده وترسيخاً لمفاهيمه.

والحج ـ فضلاً عن أنه عبادة وطاعة، وذكر لله ومناسك تؤدى بشكل خاص وفي أيام معدودات ـ فإنه ينطوي على أهداف نبيلة ومقاصد شريفة ومنافع يجب الاستفادة منها: يقول الحق تبارك وتعالى ـ في سورة الحج ـ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾[2].

وليست المنافع مقصورة على التجارة والبيع والشراء، بل هي تتسع لكل ما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم ويشمل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

---

(١) من الرعيل الأول لجماعة الإخوان المسلمين. رافق الإمام حسن البنا مدة طويلة. ترأس تحرير مجلة الدعوة منذ تأسيسها. توفي سنة ١٤٠٤ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/٢٣٨.

(٢) سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨.

لذلك يعتبَر الحج «المؤتمر الإسلامي الأكبر» يلتقي فيه المسلمون - على اختلاف شعوبهم وألوانهم وألسنتهم، وتباعد ديارهم وأقطارهم - ليتعارفوا ويتعاونوا على حل مشكلاتهم والفصل في قضاياهم، وتبادل الآراء والأفكار، وبذل المساعدات المادية والروحية حتى يحققوا قول الله تبارك وتعالى فيهم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾[1].

وإذا كان الإحرام والتجرد من الثياب المخيطة هو رمز المساواة بين المسلمين جميعاً أمام خالقهم فلا تفاضل أو تميز بجاه أو مال أو ثياب، ولا بلون أو جنس أو لسان، بل الكل عباد وهم أمام الواحد القهار سواء، لا فضل لعربيّ على عجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بتقوى الله والعمل الصالح.

وإذا كان الطواف حول الكعبة المشرفة واتجاه المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها إليها في كل صلاة، هو رمز لوحدة الهدف والغاية، وهي عبادة الله والفوز برضوانه.

وإذا كان رمي الجمار تمثيلاً رائعاً لطاعة الرحمن وعبادته، ورجماً للشيطان ومخالفته، والدفاع عن الحق ومواجهة الباطل وإنكاره.

وإذا كان النحر تحقيقاً للإخاء والتعاون والتكافل بين المسلمين بإطعام الفقراء والمساكين في يوم العيد.

إذا كانت كل هذه المناسك والشعائر هي رموز لهذه المقاصد السامية والغايات الشريفة والمبادىء الكريمة، فإن أروع ما في الحج - في نظري - من مقاصد وأهداف وغايات، هو تجسيد معنى أن المسلمين - على اختلاف شعوبهم وألوانهم وجنسياتهم - هم «أمة واحدة» و«وطن واحد» وهذا يتجلى

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.

بأروع مظهر يوم الوقوف على عرفة. فهناك تقع العين على منظر لا مثيل له في العالم، يمثل الوحدة والإخاء والمساواة.

فجميع الحجاج الذين وفدوا من كل بلد وقطر، وقفوا في ثياب واحدة بسيطة بيضاء، رمز الطهر والصفاء، حاسرة رؤوسهم، يرفعون الأكف في ضراعة وخشوع وانكسار وخضوع، يذكرون رباً واحداً وخالقاً واحداً، ويسألونه المغفرة وقبول التوبة، والرحمة والعفو عن الذنوب والسيئات، ويدعون ويلحون عليه في الدعاء، راجين منه العون على كل ما يحقق لهم طيب الحياة في الدنيا، والنعيم الخالد والسعادة الأبدية في الآخرة.

وفي هذا الموقف ترى العربي والهندي والفارسي والإفريقي والتركي والأفغاني والأندونيسي والأوروبي والأمريكي، يذكرون الله وحده بلسان عربي، لا بلغة أعجمية ولا بلهجة إقليمية مردِّدين: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله»، «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» «سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر».

هناك على عرفات، ترى الشعوب الإسلامية ـ على اختلاف ديارها وتباعد أقطارها واختلاف ألوانها وألسنتها وأزيائها ـ قد انصهرت في بوتقة الإسلام وخرجت منها تقية زكية، لا تعرف غير قومية واحدة هي «القومية الإسلامية» ولا تعتز بصفة أكثر من أنها «الأمة المحمدية»، هنا يتجلى ويتجسد معنى أن المسلمين «أمة واحدة» وأن «الإسلام وطن وجنسية»! وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1].

فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة، يعبدون رباً واحداً، ويتبعون رسولاً ونبياً واحداً، ويحكمون دستوراً وقرآناً واحداً، ويعيشون على رقعة من الأرض، إن اتسعت وامتدت من المحيط إلى المحيط، إلا أنها وطن واحد.

(١) سورة الأنبياء: آية ٩٢.

ترى هل فقه الحجاج الواقفون على عرفات هذا المعنى؟ وهل أدركه المسلمون من غير الحجاج - وقد سن لهم أن يصوموا يوم عرفة - ليتصلوا بقلوبهم وأرواحهم بإخوانهم الحجاج؟

وهل يسعى الجميع ويجاهدون ليحققوا هذا الهدف النبيل والغاية السامية من مقاصد الحج؟

أجل على المسلمين أن يتنادوا بالوحدة الإسلامية بعد أن خفت أصوات الداعين إليها في عهد الظلم والطغيان، وارتفعت الأصوات المنكرة بالدعوة إلى القوميات بعد تفريغها من كل مضمون إسلاميّ!

وهل يدرك المسلمون أن محاربة اللغة العربية ومحاولة القضاء عليها، والدعوة إلى إحياء اللهجات العامية في كل قطر عربي، هي محاولة تستهدف محاربة الإسلام نفسه، والقضاء على وحدة المسلمين التي هي ثمرة التقائهم على لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتراث الإسلامي الخالد؟

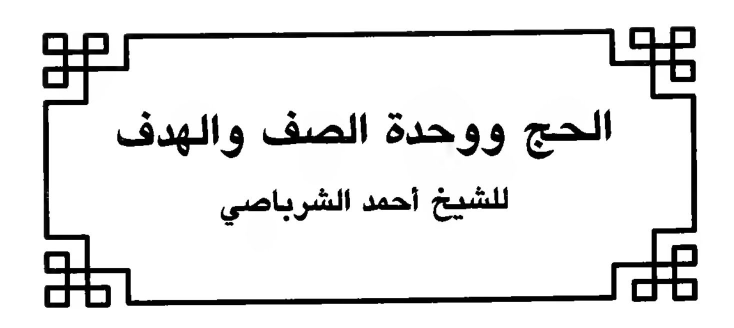
إن العمل العظيم في مغزاه ليصغر إذا جهل الناس هدفه ومرماه، وكذلك هذا الحج الذي أقام الله به دعائم الصلاح والقوة في الحياة أصبح عند الكثيرين عبادة آلية عادية يؤدونها وخيرهم من يرجو بها المثوبة والأجر، أما ما وراء ذلك من منافع مادية وروحية واجتماعية أما هذه الأهداف البعيدة والغايات السامية فإنهم لا يطيلون فيها التفكير، ولا ينظرون إليها نظرة الفاحص الخبير!

ليس الإسلام دين العبادات المجردة، ولكنه دين المقاصد النبيلة والأهداف السامية، وعلى المسلمين إذا أدوا عباداتهم - من صلاة وصيام وزكاة وحج - أن يتفكروا هل انتهوا من تحقيق غاياتها وأهدافها في أنفسهم، وفي مجتمعهم، وفي أمتهم ووطنهم؟

والله أسأل أن يوفق المسلمين لفقه دينهم، والعمل بكتاب الله وسنة نبيهم ﷺ، حتى تعود لهم وحدتهم وقوتهم، وتتحقق لهم عزتهم وسيادتهم في الدنيا، وسعادتهم في الآخرة، إنه سميع مجيب[1].

---

(١) مجلة «الدعوة»: السنة ٢٦، العدد ١٨، ذو الحجة سنة ١٣٩٧، ص: ١٨ - ١٩.



الحج ووحدة الصف والهدف

للشيخ أحمد الشرباصي

شرع الله تبارك وتعالى الحج إلى بيته الحرام، وجعله فريضة من فرائض الإسلام، وقاعدة من قواعد الدين حيث قال عز شأنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾[(١)].

ولقد كان الحج آخر الفرائض الإسلامية التي شرعها الله لعباده المؤمنين، حيث تمت فرضيته سنة ست أو تسع، وقام رسول الله ﷺ بأداء الحج سنة عشر، أي قبل وفاته بزمن قصير، ولعل الحكمة في ذلك ـ والله أعلم بمراده ـ هو أن يكون الحج مسك الختام لأداء الفرائض، وأن يكون مظهراً من مظاهر اجتماع الأمة وقوتها وتلاحمها، واتحادها في صفوفها وأهدافها، بعد أن تكون قد هذبت أفرادها، وأصلحت أمورها، ولذلك قال القرآن الكريم فيما قال عن حكمة الحج: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[(٢)] ولعل أكبر منفعة للحج هو أن يجتمع المسلمون حول بيت الله الحرام ليترجموا عملياً عن وحدتهم وقوتهم واجتماعهم واستجابتهم لخالقهم ـ جل جلاله ـ والمسلم يبدأ بأداء الصلاة والمحافظة عليها لتكون تطهيراً لروحه، وتهذيباً

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٢) سورة الحج: آية ٢٨.

لنفسه، وارتباطاً بخالقه، ثم يؤدي الصيام ليكون إحياء لروح المراقبة في صدره، وبعثاً لعواطف التراحم والإشفاق بين جوانحه، ثم يؤدي المسلم الزكاة لتكون ترجمة عملية عن التكافل والتضامن بين أبناء الإسلام، وبعد أن تتهذب الأفراد وتتأدب أدبها السامي الإسلامي بالصلاة والصوم والزكاة تأتي فريضة الحج لتكون عنواناً على ترابط هذه الملايين باسم الله، وعلى بركة الله، وبروح الأخوة في الله تبارك وتعالى.

والحج هو الفريضة الدينية الكبرى التي تجمع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، حيث يلتقي الأبيض والأسود، والقريب والبعيد، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، متجردين من زينة الدنيا، منصرفين عن شهواتها وشواغلها، مستجيبين لربهم ودعوته، مردِّدين نشيد الاستجابة والإنابة: لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وهناك وحول بيت الله الحرام، وفوق جبل عرفات، وفي منى والمزدلفة، وفي مسجد الرسول ﷺ تلتقي هذه الجموع كلها على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(١). وهناك يزدادون تعارفاً وتآلفاً، ويؤكدون ما بينهم من أخوة ومودة ومحبة، ويتناصحون ويتشاورون ويتعاونون على ما فيه صلاح أمرهم، واستقامة شؤونهم، استجابة لقول بارئهم سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢) ويلمون شملهم، ليوحدوا أملهم، ويتقنوا عملهم، ويزهقوا روح الشقاق والافتراق من بينهم، ويؤكدوا وحدة الصف ووحدة الهدف معتبرين أصدق الاعتبار بقول ربهم عز من قائل: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾(٣).

وبعد أن يطهر المسلمون في الحج حواسَّهم ونفوسهم، ويزكوا قلوبهم

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٣.

(٢) سورة المائدة: آية ٢.

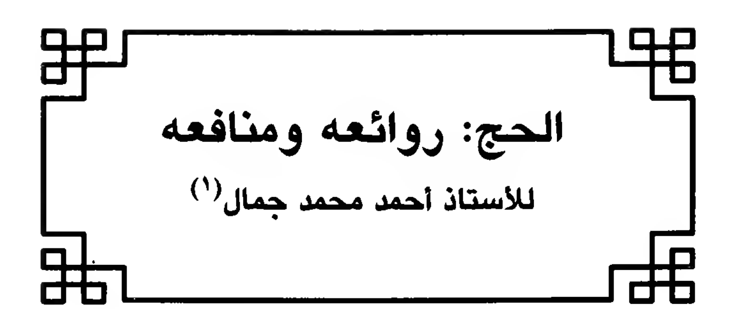
(٣) سورة المؤمنون: آية ٥٢.

وعقولهم، يتلاقون في ذلك المؤتمر الإسلامي الأكبر، ليعرضوا على أنفسهم قضاياهم، ويتدارسوا شؤونهم، وليكون كل منهم لإخوته في الله كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ويتفقوا بنية خالصة وعزيمة راسخة على ما فيه خير الإسلام والمسلمين في الدنيا والدين، ليتعاهدوا أمام بيت الله الحرام، وفي المشاعر الطيبة، وعند منزل الوحي ومشرق الرسالة ومطلع النبوة، وحيث بدأ سيدنا رسول الله ﷺ دعوته الإلٰهية الربانية، وثورته الإصلاحية الإنسانية، على أن يحرروا دارهم، ويغسلوا عارهم، ويأخذوا ثأرهم، بروح الوفاء والفداء، وإرادة الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد، ذاكرين أن الإيمان الصادق بالله والاستجابة العملية المخلصة لهداه، والالتجاء الدائم إلى حماه هو طريق السيادة والقيادة والعزة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[1]. وهذه العزة هي التي جعلها الله ميراثاً للمؤمنين، وفضلاً مستمداً من رحمة رب العالمين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ألا ما أجدر المسلمين اليوم بأن يجددوا إيمانهم، ويشدوا عزائمهم، ويتضامنوا فيما بينهم، وينتهزوا موسم الحج، ليجعلوا منه موسماً عملياً للالتقاء على الخير، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[3] وصدق الله العلي الكبير: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾[4] ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5][6].

---

(١) سورة فاطر: آية ١٠.
(٢) سورة المنافقون: آية ٨.
(٣) سورة العصر.
(٤) سورة النحل: آية ٩.
(٥) سورة آل عمران: آية ١٠١.
(٦) «الموسوعة الشرباصية»: ٥/٢٩٦ ـ ٢٩٨، بتصرف.



الحج: روائعه ومنافعه

للأستاذ أحمد محمد جمال[1]

ما أعظم هذا الدين ـ الإسلام ـ وما أروعه... !

وما أكثر عنايته بتربية الناس على الأخلاق القويمة، فترة بعد فترة، وموسماً بعد موسم، يذكرهم بها إن نسوا، ويوقظهم إذا غفوا، ويحفزهم إذا تكاسلوا..

منذ شهرين ـ شوال والقعدة ـ فرغ المسلمون من تدريب عمليّ على الصبر، وضبط النفس، والإحساس باحتياج الفقير، ومعاونته على قسوة الحياة بشطر من أموالهم.

كان ذلك في رمضان خلال ثلاثين يوماً ختمناها بعيد الفطر، وفيه تبادلنا الزيارة، وصلة الأرحام، ونسيان العداوات القديمة، وبر ذوي القربى والصحبة، والإحسان إلى من يستحق الإحسان من الأبعدين.

واليوم ـ بعد شهرين من رمضان المبارك ـ نبدأ في تدريب عمليّ آخر على الصبر وضبط النفس، والإحساس بالأخطاء والذنوب، والأمل في التوبة والصلاح..

---

(١) الكاتب الإسلاميّ الفقيه الباحث. ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٣، وتخرج في المعهد العلمي السعودي بمكة سنة ١٣٥٩، واختير أستاذاً للثقافة بجامعة الملك عبدالعزيز ثم أم القرى بمكة سنة ١٣٨٧. كان عضواً في لجنة الحكام ورابطة العالم الإسلاميّ والمجمع الفقهي. له مصنفات كثيرة. توفي سنة ١٤١٣، رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٥٥، ٥٦.

واليوم أيضاً نستشعر قرابة المسلم للمسلم مهما شَطَّت الديار، ومهما اختلفت الألسنة والألوان، ونحس بأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وندرك أن المسلمين عامة أمة واحدة، لا بد من العمل على تجميعها وتشجيعها، ومقاومة تعديدها وتنويعها.

إنها فترة الحج: موسم الجهاد الأصغر الذي هو تمرين وترويض للنفوس المؤمنة على الجهاد الأكبر: جهاد الأهواء والأخطاء.

مرة أخرى: ما أعظم هذا الدين وما أروعه، وما أكثر عنايته، وأكبر رعايته في تربية أتباعه على مكارم الأخلاق..

وصدق الله العظيم فيما يقوله:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ..﴾[1].

﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ..﴾[2].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ..﴾[3].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ..﴾[4].

الحج مؤتمر إسلامي:

إن الحج كسائر الفرائض الإسلامية ـ مثل الصلاة والصيام والزكاة ـ جميعها عبادات يجب على المسلم أن يخضع لأدائها ـ ولو لم يدرك مقاصدها ومصالحها ـ تصديقاً لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[5].

ومع ذلك يدرك العقلاء المفكرون المتأملون أن للعبادات في الإسلام ـ

(١) سورة آل عمران: آية ١٩.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٦١.
(٣) سورة الأنعام: آية ١٥٣.
(٤) سورة المؤمنون: آية ٥٢.
(٥) سورة الذاريات: آية ٥٦.

كما للمعاملات ـ مقاصد ومصالح ومكارم، وإذا كنا نذعن بأداء الحج كعبادة يجب ـ في الوقت نفسه ـ أن ننتفع بمقاصده ومصالحه ومكارمه التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ . .﴾[1].

والمنافع ـ وإن فسرها بعض المفسرين أو معظمهم بالتجارة ـ إلا أنها في حقيقتها تتسع لمعانٍ وأبعاد ومجالات متعددة ومتنوعة، فكل أمر أو فعل أو عمل أو سلوك فيه منفعة لجماعة المسلمين دينية كانت أم مادية أم اجتماعية أم سياسية، فهو من منافع الحج لا ريب فيه..

ولذلك ينبغي للمسلمين أن ينتهزوا فرصة الحج للتعارف والتعاون على حل مشكلاتهم، وفصل قضاياهم، والتوفيق بين المتخاصمين منهم، وللعمل على رفع شأن الإسلام وعزة المسلمين، في كل مكان من العالم، وتحقيق وحدتهم وقوّتهم.

وإذا كان الحج فرصة واسعة لاجتماع المسلمين من مختلف بقاع الأرض على مستوى عالميّ وائتمارهم بما يصلحهم، ويجمع كلمتهم على الحق والخير، فإن صلاة الجماعة والجمعة قد شرعتا للمسلمين لكي يتلاقوا على مستوى قوميّ أو محليّ، ويتعاونوا على قضاء حوائجهم، ويتعارفوا على مشكلاتهم، ويستمعوا إلى خطبة الجمعة، وما تحمله من موعظة وذكرى تنفعهم في معاشهم ومعادهم.

وكما شرعت صلاة الجماعة كل يوم خمس مرات، والجمعة كل أسبوع مرة، فقد شرعت صلاة العيدين ـ الفطر والأضحى ـ مرتين كل عام، لتتكون بهذه اللقاءات الأخوية عواطف البر والتعاون في المجتمعات الإسلامية، وبهذا سبق الإسلام علم النفس الاجتماعيّ، كما يشهد بذلك علماء النفس المسلمون.

فالإسلام ـ إذن ـ دين المقاصد والمصالح والمكارم، وليس دين

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨.

العبادات المجردة من منافع الفرد المسلم، والجماعة المسلمة.

متى نحج حجاً مبروراً:

لنتساءل: لماذا نحج؟

ألنطوف بالبيت الحرام؟

أم لنبيت في مزدلفة؟

أم لنقف في عرفات؟

أم لنرجم بالحصى الجمرات الثلاث؟

أم لنقدم الأضحيات والفدى؟

وغير ذلك من أعمال الحج ومناسكه؟

حقاً هذه مظاهر الحج وشعائره، ولكنها ليست لبابه وجوهره، وحقاً تلك وسائله وصوره، ولكنها ليست غايته ومغزاه.

إننا ـ منذ مئات السنين ـ نحج من أجل مظاهر الحج، ونتخذ وسائله وصوره، ونرجع ببعض بركاته: المريض يشفى، والفقير يستغني، والعقيم تلد، والعانس تتزوج، والفاسد يصلح، والمذنب يتوب، وهي بركات ـ للحج المبرور ـ لا ريب فيها، لأنها ثمرات للدعاء المخلص في مواقف مباركات ورحاب مقدسات.

والحج ـ وإن شرع من أجل الصلاح الفرديّ والنجاح الذاتيّ ـ إلا أنه شرع كذلك لإصلاح الجماعة الإسلامية كلها، شأنه في ذلك شأن بقية المشروعات الأخرى كالصيام والزكاة والصلاة.

إن القرآن الكريم يتحدث عن دعوة المسلمين إلى الحج ويعللها بقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾[1] والمنافع هنا فردية وجماعية في وقت واحد.

---

(١) سورة الحج: آية ٢٨.

ومن طبيعة البشر أنهم حريصون على تحقيق منافعهم الخاصة، فهم ساعون إليها، باذلون فيها كل جهدهم، جادُّون لها كل وقتهم، ولذلك فالمنافع الفردية الخاصة ـ في التشريعات الدينية ـ ليست محل تأكيد وإلحاح وحض، ولكن المنافع الجماعية التي بها يصلح المجتمع الإسلاميّ، ويقوى ويعز هي التي يؤكدها التشريع الدينيّ، ويلحُّ فيها، ويحضُّ عليها.

فمتى نحج من أجل جوهر الحج ولبابه؟

من أجل إصلاح المجتمع الإسلاميّ وتقويته؟

من أجل تطهير أرضنا وتنويرها؟

من أجل تحريرها من الاستعمار والصهيونية؟

إلى جانب ما نحققه من بركات فردية خاصة: من شفاء بعد مرض، وغنى بعد افتقار، وصلاح بعد مفسدة..

مرة أخرى: متى نحج حجاً مبروراً؟؟

حجوا قبل ألا تحجوا:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهنا نريد أن نقف قليلاً لنضيف إلى هذا النذير الإلهيّ نذراً نبوية وصحابية، صارخة للذين يتباطؤون ويتكاسلون عن الحج مع مقدرتهم المالية واستطاعتهم البدنية، ويعللون أنفسهم يالأماني عاماً بعد عام، أو يعتذرون بأنهم لم يتزوجوا بعد، أو لم يزوجوا أولادهم، أو لم يكملوا تعليمهم، إلى آخر المعاذير الملقاة.

إن الزمن وأحداثه يمضي بهؤلاء، وبوعودهم ومعاذيرهم حتى يفقدوا القدرة المالية والبدنية على الحج، فيأثموا ويدخلوا تحت طائلة الوعيد الإلهيّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

ولذلك فإني مذكركم بتلك النذر في سطور قلائل:

١ ـ في صحيح مسلم: إن النبي ﷺ قال: «أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج، فحجوا».

وفي الحديث الصحيح: «إن الحج مرة، فمن زاد فهو تطوع».

وفي الصحيحين: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

وفي حديث عائشة ـ كما أخرجه أحمد وابن ماجه ـ أنها قالت: يا رسول الله، هل على النساء من جهاد؟ قال: «عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة».

٢ ـ وروي عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب أنه قال: «لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فينظر كل من كان له جِدَة ـ أي مال ـ ولم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين!».

٣ ـ وروي عن الإمام عليّ أنه قال: «من قدر على الحج فتركه فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً»..

٤ ـ وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «تعجَّلوا إلى الحج ـ أي الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له» ومثله قوله: «حجوا قبل ألا تحجوا»..

وهنا نريد أن نقف قليلاً لإيضاح بعض النذر النبوية...

الحج بلا رفث ولا فسوق ولا جدال:

حرص القرآن الكريم على تهذيب الفرد الحاج وهو يؤدي نسكه، لأن الفرد المهذب أصل الجماعة المهذبة، فهي تتألف منه ومن أمثاله، ولن تكون جماعة صالحة ما لم يكن فرد صالح، وصلاح الجماعة طريق إلى تعاونها وتضامنها في الخير المشترك، والسلام العام..

يقول الله عزَّ وجلَّ من أجل تهذيب الفرد الحاج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[1].

هذه الآية من القرآن الكريم تؤكد النهي عن الرفث والفسوق والجدال أثناء تأدية مناسك الحج، وهي في خلاصة معانيها: الفحش في القول والفعل والعمل، وعصيان أوامر الله ووصايا رسوله، وتعدي حدود الآداب والأخلاق، وكثرة الكلام جدلاً ومراءً واختلافاً في الآراء والمذاهب والمعتقدات.

ونقول: هذه الآية تؤكد النهي، لأن تلك المناهي: وهي الرفث والفسوق والجدال، هي مكاره ومذام في موسم الحج، لأن الحج عبادة يُرجى بها التطهر من الخطايا، والمغفرة من الذنوب، واستقبال عهد جديد من العمل الصالح من جانب فرديّ، كما يُرجى بها من جانب جماعيّ التعاون بين المسلمين على الحق والخير، وكل مكرمة من شأنها توثيق الرابطة الأخوية، وشد الكيان الاجتماعي بين أبناء الإسلام.

إن الحج ـ في وجوب التأدب له ـ مثله مثل سائر العبادات الإسلامية الأخرى: كالصلاة والصوم، لا بد حين تأديتها من تهيئة واستعداد، وابتعاد عما يفسدها أو يبطلها، ويذهب بأجرها سدى وبأثرها هباء، فعلى الحجاج أن يذكروا أنهم في عبادة روحية واجتماعية خاصة وعامة، خاصة بالنسبة لكل فرد منهم، وعامة بالنسبة لمجموعهم كأمة اختارها الله تبارك وتعالى لأفضل رسالة وأكرم رسول ﷺ، وفرض عليها الحج لتجتمع من أقطار الأرض، ويلتقي بعيدها بالقريب، وفقيرها بالغنيّ، وسعيدها بالشقيّ، ومصابها بالمعافى، ومحتاجها بالموسر، فيتعاونوا على البر والتقوى، ورفع ما بينهم من بؤس وشكوى، وتتحقق بذلك غاية الحج العظمى، وهدفه

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

الأسمى كما رسمهما القرآن الكريم في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ . .﴾[1].

ليذكر الحجاج أنهم في فرصة مباركة، نادرة التكرار، وليتزودوا فيها بالتقوى وبالتوبة النصوح، وبالعهد الصادق على أن يعودوا خيراً مما جاءوا: أقوياء الأنفس، أصفياء الأرواح، أسخياء الأيدي بالخير، يقولون الحق وبه يعدلون.

موسم الحج في نظر أعداء الإسلام:

مكة المكرمة: كانت وما زالت العقبة الكؤود في سبيل أعداء الإسلام ومكائدهم وأعمالهم التخريبية لأنها محضن الكعبة المشرفة، ومهبط الوحي الإلٰهيّ، ومثابة الوافدين، ومهوى أفئدة المسلمين من كل مكان في العالم قريبه والبعيد.

إنها المحور والمركز والمبدأ، والمنتهى، والملتزم، والرابطة لكل مسلم مهما نأت به دياره، ومهما اختلفت لغته، وجنسيته عن إخوانه المسلمين في شرق الدنيا وغربها.

والمسلمون ـ وبخاصة العرب ـ يقرأون اعترافات الكائدين لدينهم ولقبلتهم، وهم غافلون عن مقاصدها وأهدافها، وعلى حركات الحاقدين الصريحة والخفية:

يقول القسيس وليم جيفورد بالكراف: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب أمكننا حينئذ أن نرى العربيّ يندرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه».

ويقول الكاتب الروسيّ كليموفتش في مجلة فوستكا سنة **١٩٤٥**م: «إن الحج مصدر دخل لتجار العربية وإقطاعييها، وإن القرآن إنما ألف لإرضاء الإقطاعيين والتجار».

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٢٧، ٢٨.

وتجاوباً مع مقاصد الاستعمار، المتربص بالمسلمين الدوائر، أوصى (البهاء) مؤسس الديانة البهائية بهدم الكعبة المشرفة لأنها الجامعة المانعة: الجامعة لشمل المسلمين على اختلاف الديار والألسنة والألوان، والمانعة من تصدعهم وتمزقهم، إذ يتجهون إليها أكثر من خمس مرات في اليوم، لا يذكرون إلٰهاً إلا الله الواحد، ولا أمة إلا المسلمين في كل مكان، ثم يحجون إليها كل عام، فيلتقي الأباعد والأقارب، السود والبيض، لا نسب بينهم إلا الإسلام، ولا تحية لهم إلا الإسلام.

فالحج ـ كما يقول الأستاذ محمد الغزاليّ في كتابه «دفاع عن العقيدة والشريعة» ـ عمل ينغص على المستعمرين استقرارهم، ويوهن كيدهم، فإن المسلم في داكار على شواطىء الأطلسي عندما يلتقي بأخيه في سنغافورة والملايو على شاطىء الهادي يخترق نطاق العزلة التي يريد الاستعمار حبسه وراء أسوارها كي يتمكنوا من الإجهاز عليه.

إن تقطيع أوصال العالم الإسلاميّ، وجَعْلَ كل قطر عربي غريباً عن الآخر: غاية أولى للسياسة الصليبية، والحج عبادة تلقائية لجمع المسلمين من الأرجاء القصية في يوم واحد، ومكان واحد، فإذا ظهرت تعاليم دينية ـ كما هو الشأن في البهائية ـ تسقط هذه الفريضة، وتذود الجموع عنها، فهذا ربح عظيم للاستعمار، وخطوة فسيحة لتحقيق أغراضه».

وإذا جاء الكاتب الشيوعيّ كليموفتش يزعم أن موسم الحج فرصة للإقطاعيين والتجار، وأن القرآن ألفه محمد أو ألَّفه المسلمون إرضاء للإقطاعيين منهم، فذلك لصرف حجاج بلاده والبلاد الدائرة في فلك الشيوعية الدولية عن أداء هذه الفريضة الجامعة المانعة، والاحتفاظ بنفقات الحج لزيادة الإنتاج، إذ لا ضرورة للحج، بل لا ضرورة للدين كله، فهو بزعمهم أفيون الشعب..!

❀ ❀ ❀

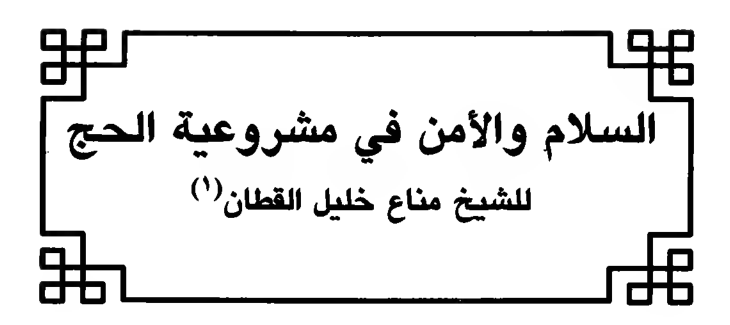
وبعد.: فإن الحج فرصة كبرى للصلاح الفرديّ، والإصلاح الجماعيّ، وعلى قادة المسلمين من أمراء وعلماء أن يعملوا صادقين للانتفاع

من هذه الفرصة المتكررة كل عام مرة لتحقيق عزة العالم الإسلاميّ، ووحدته، وقوته، وانتصاره على المتآمرين.

والله الموفق والمستعان[1].

❁ ❁ ❁

(١) مجلة «الوعي الإسلاميّ»: السنة السابعة، العدد الرابع والثمانون، ذو الحجة سنة ١٣٩١.



تتطلع النفوس منذ أقدم العصور إلى حياة آمنة، تستقر فيها النفس، ويهدأ البال، ويطمئن الخاطر، ويأمن الإنسان على نفسه وأهله إذ لا شيء أدعى إلى شقاء الإنسانية واضطراب الحياة واختلال توازنها كبواعث الخوف والفزع، واعتداء الإنسان على أخيه الإنسان.

وقد تقدم العالم الحديث في ميادين العلم والمعرفة، وتطورت وسائل حضارتها، وأحرز في ميدان المادة كسباً معدوم النظير، ولا يمر يوم حتى يسمع الناس عن جديد مبتكر، ولكن هذا العالم المتحضر لا زال يعاني من قلق النفس، وإثارة الفتن، وأسباب الفوضى، وإشعال نار العداوة والبغضاء مما جعل تلك الحضارة المادية شقاء وتعاسة وظلماً وبطشاً واستكباراً في الأرض، وأي قيمة للحياة إذا فقد الإنسان أمنه؟ وأي متعة في بُلَهْنِيَة العيش إذا كانت مقرونة بترويع النفس؟

والإسلام دين الأمن، والإيمان به أمان للنفس والعرض والمال.

والمعنى الاشتقاقي للإيمان والإسلام يدل على هذا في الاستعمال

---

(١) أحد أعلام المسلمين وكبارهم. أصله من مصر ودرس في الأزهر، ثم جاء إلى الرياض مدرساً في المعهد الشرعيّ ثم كلية الشريعة، وتنقل في المناصب الجامعية. كان له مجاهدات في نشر الفكر الإسلامي الصحيح والمنهج الأصيل في مصر والسعودية. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٠.

اللغوي والشرعي، فالله هو السلام المؤمن، وبذكره تعالى تطمئن القلوب، والسلام تحية المؤمنين في الدنيا وتحيتهم في الآخرة، والجنة دار السلام.

والأمن في الإسلام ليس فلسفة نظرية ولكنه شريعة وممارسة، يعتقد المسلم شرعيته، ويتربى عليه فيما يمارسه في حياته من أفعال تعبدية، أو أعمال مباحة، فيصوغ سلوكه على الأمان والطمأنينة.

ومن ذلك ما نجده في مشروعية الحج.

فللحج ميقاته الزمني ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾[1] وهي شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة أو ذو الحجة كله، وذو القعدة وذو الحجة من الأشهر الحرم التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[2]، وهذه الشهور الأربعة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، ثلاثة سرد وواحد فرد، وحرمة هذه الأشهر حرمة قديمة، يعظم فيها ارتكاب الإثم، واقتراف الذنب والإقدام على الظلم، وإراقة الدماء، ولئن كان هذا حراماً في غير الأشهر الحرم، فإنه في هذه الأشهر أكبر في الحرمة، وأبلغ في الوزر، وأعظم في العقوبة.

وشهر شوال من أشهر الحج يمهد للدخول في الأشهر الحرم، تأميناً لطريق الحاج، حتى يأمن في ذهابه، ويجد الأمن في أداء مناسك حجه، ويظل مستمتعاً في تلك النعمة حتى يعود إلى وطنه آمناً في كنف الأشهر الحرم الآمنة.

واستشعار الإنسان معنى الأمن فترة من الزمن كل عام ينمي فيه الشعور بالحاجة إلى الأمان دائماً، ويحمله على الحرص عليه وأخذ نفسه به، حتى يسلم الناس من أذاه، ويأمن بعضهم شر بعض، ووقيعة أحد بآخر.

والذي عليه أكثر المحققين أن حرمة هذه الأشهر باقية وأنها محكمة

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٦.

غير منسوخة، ولا يجوز ابتداء القتال فيها إلا رداً على عدوان، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[1] ويقول: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾[2].

وتؤدى مناسك الحج في الحرم ـ إذا استثنينا الوقوف بعرفة فإن عرفة من الحل وليست من الحرم ـ وللحرم حرمته المكانية، فلا يجوز القتال فيه وسفك الدماء ـ ولو استحق أهله القتال عند جمهور العلماء ـ ولو التجأ إليه أحد يستحق القتل فإنه يضيق عليه حتى يخرج من الحرم، فيقتل خارجه وهذا أقصى ما يمكن أن يكون الأمان.

ولا يقتصر الأمان في الحرم على الإنسان بل يتناول الشجر والزرع وما لا يستنبته الآدميون من النبات ولو كان شوكاً مؤذياً، ولا يستثنى من ذلك سوى ما تدعو إليه ضرورة الحياة، ويتناول الطير صيداً وتنفيراً إلا ما كان مؤذياً ضاراً كالغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إنَّ هذا البَلَد حرَّمه الله يومَ خَلَقَ السَّموات والأرض، فهو حرامٌ بحُرمة الله إلى يوم القيامة، وإنَّه لم يحلَّ القِتالُ فيهِ لأحدٍ قبلي، ولمْ يحِلَّ لي إلا ساعةً من نهار، فهوَ حرامٌ بحرمةِ الله إلى يَوْم القيامةِ، لا يُعضدُ شوكهُ، ولا يُنفَّرُ صيدُهُ، ولا يُلتقط لقطتُه، إلاَّ من عرَّفها، لا يُختلى خلاه» فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخِرَ، فإنَّه لقينهم وبيُوتهم، فقال: «إلا الإذخر».

وهذا هو ما دعاه إبراهيم عليه السلام وما امتن الله به في استجابة دعائه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[4] وقال: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ

---

(١) سورة المائدة: آية ٢.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٤.
(٣) سورة إبراهيم: آية ٣٥.
(٤) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

ءَامِنًا ﴾[1]، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[2].

والإحرام بأحد النسكين: العمرة أو الحج أمان، حيث حظر الشارع على المُحرِم أموراً كثيرة تُشعره بأنه دخل في عبادة تقتضي منه أن تستقر نفسه، وأن يسلم الناس من شره، بل تسلم جوارحه من إزالة شعثه، فمن محظورات الإحرام الجماع ودواعيه، واقتراف المعاصي، والمخاصمة والمجادلة، ولبس ما خيط على قدر العضو بالنسبة إلى الرجال، أو المصبوغ بما له رائحة طيبة، وتقليم الأظافر، وإزالة الشعر، والتطيب، والتعرض لصيد البر بالقتل أو الذبح أو الإشارة إليه.

وهكذا يدخل المسلم في نسك الحج فيجد السلام والأمن، زماناً ومكاناً، وإحراماً، ولا ينتهي من شعائره ومناسكه حتى يتذوق نعمة الأمان فقهاً وممارسة، وبمثل هذه التربية يكون الأمن النفسيّ والأمن الجماعيّ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[3].

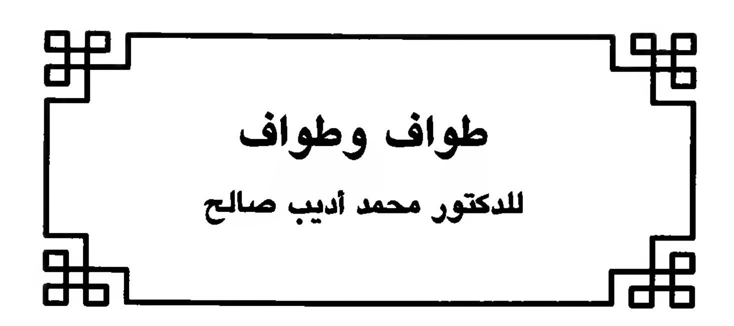
❁ ❁ ❁

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٣) مجلة «التوعية الإسلامية»: السنة التاسعة، ١٤٠٣، العدد الثاني، ص: ٤٩ ـ ٥١.



طواف وطواف

للدكتور محمد أديب صالح

عندما يفتح المؤمن قلبه لخطاب السماء، ويحاول أن يبصر أمور دينه بوحي صحيح، ونفس مشرقة وعقل مستنير، يستطيع أن يكون حيث يريد له الإسلام أن يكون، وأن يعطي لكل شيء قدره الذي به تتميز الأمور وتتضح الخصائص ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾[1].

أقول هذا: والمسلمون على موعد مع الحج والعمرة، وشد الرحال إلى المسجد النبوي، وزيارة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه.

إنهم على موعد كريم مع البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً تلبية لأذان إبراهيم عليه السلام واستجابة لدعوة القرآن ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

أيام قليلة، وترى وفود الله تؤم أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين.

أيام قليلة ويتعالى الهدير المقدس وترى ما لا يكاد يصدق من مظاهر الإيمان والطاعة، والخشوع لله القادر القاهر، والعبودية المطلقة لعظمته

---

(١) سورة فاطر: الآيات ١٩ ـ ٢١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٩٧.

وجلاله سبحانه والمساواة التي تحقق أكبر تجربة يمكن أن يرتحل إلى تحقيقها الإنسان.

وفي يقيني أن ما تصنعه شعائر الحج والعمرة وآداب الزيارة في نفس المؤمن ـ أن لو أديت العبادة على وجهها الصحيح المشروع ـ تعجز عن صنعه تربية سنين.

❀ ❀ ❀

إن المسلمين على صعيد الفرد والجماعة مدعوون لإدراك أن الحاج يقصد البيت فيطوف حول الكعبة، ويسعى ويقف بعرفة، ويؤدي ما يؤدي من شعائر وأعمال امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى ووقوفاً عند حدوده، وفي ذلك ما فيه من تأكيد معنى التوحيد ـ خصوصاً في الطواف ـ والانعتاق من الوثنية، على مختلف صنوفها ومظاهرها، وفي مقدمتها هناك وثنية النفس والأنا.

أما أولئك الذين يعودون من الحج، وفي جعبة كل منهم عشرات الأحاديث، وألوان القصص عن الأمور القريبة التي لا علاقة لها بقلب أو طاعة، أو تقوى، وعن الأمور التي عاقت سبيل أحدهم عن الراحة كما ينبغي، وحالت دون توفير ما يجب لذاته الكريمة، حطاً وترحالاً، وتميُّزه عن إخوانه من الناس كما يشاء، أما أولئك وفي زمرتهم من يحمله حب الدنيا وجمع المال على الاستغلال والتقصير في حقوق الآخرين فأخشى ما يخشى عليهم أن يكون الواحد منهم ـ والعياذ بالله ـ لم يتخلَّ عن الطواف حول نفسه، فهي أولاً وقبل كل شيء، ولم يجانب السعي بين أصناف شهواته وأغراضه.

إنه ما من أحد ينكر أن يكون المسلم على إدراك للواقع، ووعي لما يجب أن يكون من كل أمر يعود نفعه على الأمة، في توفير ما به يقوى المسلم على أداء شعائر دينه في تلك البقاع المباركة خير ما يكون الأداء.

ولكن المروّع في الموضوع، أن يقع المؤمن في شراك الوثنية، من حيث لا يشعر، حتى يبدو في تصرفاته ناسياً ما جاء من أجله، فلا همَّ له

إلا نفسه، وأغراضه، دون شعور بمقتضى العبودية والافتقار إلى الله، مع الآخرين، وينطلق وكأنه في رحلة خاصة القصد منها كذا وكذا، مع أن الأمر أمر عبادة وتكليف وإقامة شعائر، وثم في تغيير المألوف، والانتصار على العادات المستحكمة من وافر الخير والثمرات، ترى هل هو طواف حول الكعبة أو حول النفس؟

وأداء للأمانة: هل عليَّ من بأس في الإشارة إلى أنه مما يتجافى مع حسِّ المؤمن القلبي الصادق أن يكون هنالك فراغ وتطلع إلى القريب الفاني، والعاجل المستدرك في تلك المواطن مع ما يفترض من الإدراك العميق لمعنى الطواف، والوقوف بعرفة، والسعي بين الصفا والمروة، والتلبية الرائعة المستعلية وغير ذلك من الشعائر، وأين يجد الفراغ من يذكر ذنوبه وما يحمل من أوزار، وأن المقام مقام افتقار وتضرع وخضوع، وأن الموطن موطن لَجَأ إلى الله بالقبول، ودعاء خاشع باللسان والدمع وخفقات القلب أن يهيىء لهذه الأمة من أمرها رشداً، يا الله، يا ذا الجلال والإكرام ما أعزَّ من لا يذل إلا بين يديك، وما أكرم من لا يخضع إلا لسلطانك.

وهل كثير على أولئك الذين سمت هممهم فأدركوا الغاية من الوقوف بين يديك وشغلهم ذلك عن كل شيء: فلا المال، ولا الأهلون، ولا الدنيا بما فيها ومن فيها، بسرائها وضرائها، بنعيمها وبؤسها، بإقبالها وإدبارها، بحائلة دونهم ودون أن يكون رضاك هو المبتغى، والزلفى إليك هي المقصد، إنه ليس كثيراً عليهم ذلك، فعلى قدر الإدراك للغاية يكون الجد والعمل، وعلى قدر استنارة البصائر، وامتلاء القلب بالخشية يستعذب الحرمان والعذاب، ومنك العون أولاً وقبل كل شيء..

وبعد ذلك: ألم يكن من كريم فضلك، وسعة رحمتك وإحسانك أن تهيىء لعبادك مواسم خير تنظر بها إليهم، وتعيد أكفهم التي رفعت إليك مملوءة بالمغفرة والعطاء، وتجعل من دموعهم التي سكبوها، وزفراتهم التي صعَّدوها معالم نور في حياتهم تضيء لهم الطريق، وتهون عليهم الصعاب، وترقى بهم إلى مدارج الخير.

ألا ليت شعري من للمسلمين أن يعودوا سيرتهم الأولى، علماً، وعملاً وسلوكاً وصدق غاية، وسلامة اتجاه كيما يحققوا بعضاً من المعاني التي أرادها الله من فوق سبع سماوات، يوم أنزل على نبيه محمد ﷺ كتابه، وأكمل الدين بعظيم أركانه وسلامة بنيانه، وكان من هذه الأركان فريضة الحج التي تفيض بالوافر من الخير، والكثير الطيب من عناصر الفلاح.

فما أجدرنا أن نذكر ـ مثلاً ـ أن هدير التلبية المقدس: «لبيك اللهمَّ لبيك» الذي تضج به الصدور، وتنطلق به الحناجر، لم يكن في شرعة الإسلام إلا عنوان توجه المؤمنين الصادق إلى عالم الغيب والشهادة، والإعلان القوي المدوِّي عن اعترافهم له بالربوبية، وتوحيدهم المطلق لذاته والإقرار بأنه هو المنعم المتفضل، وأنه مالك الملك الجدير بكل محمدة وشكران.

ولقد نطقت كل الدلائل التي حملت آثار جولات العقيدة في جزيرة العرب، ومعالم انطلاقتها في العالمين أن هدير التلبية هذا كان هديراً في أعماق النفس، كما هو هدير تنطلق به الحناجر، وترتفع به الأصوات.

هدير في النفس يحملها على الصعب والذلول في سبيل عقيدة التوحيد، وحُداء يدفعها إلى القمة ويروضها على صدق الالتزام بحق هذه العقيدة.

وكما كانت تنطلق حناجر المسلمين بالتلبية كانت تنطق تصرفاتهم وتحركاتهم على كل صعيد، حتى رأت الإنسانية من آثار ذلك العجب العجاب، فأنى رجعت البصر وفي أي ميدان من الميادين رأيت صرحاً محكم البنيان يشير إلى سلامة المنطلق وصدق الاتجاه، وخلِّ عنك ما يتغنى به أولئك الذين يحكمون على تاريخنا من خلال قصة وردت هنا أو واقعة وقعت هناك، حيث لا يتوفر المصدر العلمي ولا العقل السليم في كثير من الأحيان.

❁ ❁ ❁

هذا: ومنا من شك أن رحلة الحج المباركة، هي ـ والله شهيد على ما نقول ـ من أكرم وأفضل ما عرف ويمكن أن يعرف الإنسان من رحلات،

فإذا خلصت النية، وصدق المسعى، وكانت الوجهة امتثال أمر واجتناب نهي، وتطبيق شرعة فما أجمل ما ينعم به المسلم من سعادة الدنيا والآخرة بما صدق في سعيه، وما وجه لله وجهه وأخلص إليه نيته.

ويا نِعم ما يرتع به من رياض الجنة أولئك الذين يجودون بالدمع سخياً ضارعين خاشعين، يسألون الله ـ وهم يطوفون حول بيته العتيق، أو يصلون عند مقام إبراهيم، أو يقبّلون الحجر الأسود، أو يسعون بين الصفا والمروة، أو يسلمون على رسول الله رحمة العالمين ـ أن يغفر زلاتهم وأن يتجاوز عن خطيئاتهم، وأن يشملهم بعنايته ورحمته، فله الحمد وإليه المشتكى، وهو المستعان وبه المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

ولقد علّمنا رسول الله ﷺ أن العبودية الصادقة لله هي مفتاح كل خير، ومن هنا شرعت التلبية، فإذا صعد الحجيج مرتفعاً، أو نزل وادياً، أو تحوّل من هنا إلى هناك رأيت ـ وكأن الدنيا كلها ـ تلبي معه وتكبر معه، وتدعو معه وتكبر معه، وتبكي خاشعة معه، وهؤلاء العباد المذنبون الضارعون الذين جاءوا بافتقارهم إليه، وذلّهم بين يديه، يدعون سميعاً قريباً مجيباً، لا يضيع مثقال ذرة، ولا تخفى عليه خافية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وعطاؤه لا ينفد، وخيراته لا تنقضي، والسعيد السعيد من شمَّر عن ساعد الجد، حازماً أمره، عازماً على المسير: المسير إلى مرابع الرضا والعطاء ليأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[2] وصلى الله وسلّم على نبي الرحمة حيث يقول: «عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».



(١) سورة البقرة: آية ١٨٦.

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٠.

إن المسلمين اليوم تنتظرهم في هذا العالم البعيد القريب واجبات لا يطيق أداءها أولئك الذين تثقلهم المعاصي، وتنأى بهم عن جادة الحق ألوان الشهوات، وليس أقلها الخلود إلى الراحة وطلب العافية والسلامة.

وترقبهم من بعيد ــ هو بالقريب أشبه ـ أعباء لا قبل لهم بها إذا لم يخلصوا أنفسهم لدين الله، ويعطوا من وجودهم وكيانهم ما لا يبخل به مؤمن بيوم الحساب، يوم تخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً وقد خاب من حمل ظلماً.

وفي حديث موصول مع الحج ـ وهو ركن من أركان الإسلام ـ ترى المسلمين يتحركون جموعاً تتلاحق، ومناكب تتدافع لإقامة شعائره، على الأرض التي كانت مهد الوحي، وموئل التنزيل، ومنطلق العمل المثمر البنَّاء.

في حديث موصول مع هذه الفريضة التي أكرم الله بها هذه الأمة المحمدية، أقول عن تجربة: إن فرضاً على أولئك الذين سعدوا بكريم التطلعات إلى خير هذه الأمة ومستقبلها أن يعملوا على أن يكون الحج وما يرافقه من أعمال جزءاً كريماً مرموقاً من التربية العملية التطبيقية، في إعداد النفس على تمثل العبودية الصادقة، والصعود إلى قمة حب المساواة والخير للجميع، والشعور بالأخوة الإيمانية الصادقة، وتعويد على التخلي عن كل ما يجعل الفرد يخلد إلى الأرض، وتحرر من كل ترف نفسي يؤذي أولئك الذين يزعمون أنهم على الطريق الصاعدة في سبيل الله.

ثم تفتيح الأبصار والبصائر على تلك البقاع التي ركض المسلمون عليها خيولهم في سبيل الحق، فأزاحوا ركام الوثنية والأوثان من طريق الإنسانية الطويل، ورفعوا علم التوحيد، وعبَّدوا بجهود مضنية لا تعرف الكلال دروب المعرفة التي زانها من أول يوم سلامة الفطرة، وكفاءة العقل، وكرامة الإنسان.



ألا إنه لا بد من منهج سديد، تنهزم معه مظاهر المرض المؤذية التي يلمسها المرء في الحياة التعبدية لكثير من المسلمين حين يستحوذ عليهم الجهل، ويخضعون لداعي الشيطان، فلا تتحرك نفس الواحد منهم، ولا ينبض قلبه بشيء من الحنين ما دام في ريعان الشباب، إن الحج هو للشيوخ المسنين الذين يدعوهم الموت وينتظرهم القبر، مع أن شعائر الحج مهما تيسَّرت الأسباب، وتقدمت وسائل الحضارة لا بد لها من شيء من الطاقة، والقدرة على التحمل، والعبادة في أصلها تكليف، والله المستعان، وعنايته هي العناية.

هذه واحدة، فإذا أضفت إليها الشعور عند البعض أن الحج حملٌ ثقيل يريد هذا المسلم أن يلقيه عن كاهله وكفى، فهناك الطامَّة الكبرى، والحرمان الذي ما بعده حرمان والعياذ بالله تعالى.

على أن مرد كثير من المظاهر التي قد لا ترضي في حياتنا التعبدية هو الجهل الذي كان أثراً من آثار ابتعاد الأمة عن مدلول الإسلام الصحيح، ومفهوماته الكريمة كما جاءت في منابعها الأصيلة الغنية بالعطاء.

ومع ذلك فإن المعجزة الكبرى تكمن ـ في تقديري ـ وراء ذلك السلوك الذي يزين تصرفات تلك الألوف المؤلفة أيام الحج، وتعدد الألوان واللغات والأقاليم، واختلاف العادات والطبائع والأمزجة والموروثات، ووجوب أن يقوم هؤلاء جميعاً بأداء شعائر معينة في أوقات معلومة محددة، وعلى أمكنة معلومة محددة، يمكنك ـ واضعاً في حسابك كل هذه الاعتبارات ـ أن تقرر على صعيد الأرقام والبحث المجرد أن سلوك الحجيج سلوك هو أقرب إلى الكمال ولا نظير له في دنيا الناس.

❁ ❁ ❁

وإذا استطاع المسلمون من طريق المعرفة علماً وتربية وسلوكاً أن يقتحموا العقبة حتى ترى المسلم ـ عموماً ـ يبادر إلى الحج عندما تتوفر له الاستطاعة، وهناك يتصرف في عبادته وتعامله مع الآخرين، ومحاولة الإفادة من السيرة وتاريخ الرجال تصرُّف الإنسان المستنير الذي يتمتع بقسط مقبول

من الثقافة والوعي والذوق الإسلامي الصحيح، عبودية لله وصدق أخوة مع الآخرين.

أقول: إذا استطاع المسلمون أن يقتحموا تلك العقبة فيا خير ما نجنيه من ثمرات لأمتنا وللبشر أجمعين.

والذي يبدو حلماً، أو خيالاً في نظر بعض الناس يمكن أن يتحول إلى واقع مشرق وحقيقة ناطقة هادية إذا صدقت العزائم، وتعاون القادرون بكفاءاتهم وأموالهم وطاقاتهم كلٌّ بحسب ما لديه لا يبخل بالمستطاع، وعملوا على التثقيف الصحيح كما تقتضيه أصالة هذه الأمة، وأن يُعنوا بالعربية عناية خاصة لفهم الإسلام، والعمل على نشر هذا اللسان المقدس الذي نزل به القرآن في ربوع تلك الملايين التي لا يمكن أن تتصل بدينها وتاريخها، وتدرك مثلها إلا من طريق العربية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾[1].

إن هذه النقطة التي لا يجدي فيها إلا الصدق والحزم وتجنيد الطاقات والكفاءات، هي امتحان الإخلاص وبرهان كثير من الدعاوى، ودليل صحة النسبة إلى خير أمة أخرجت للناس.

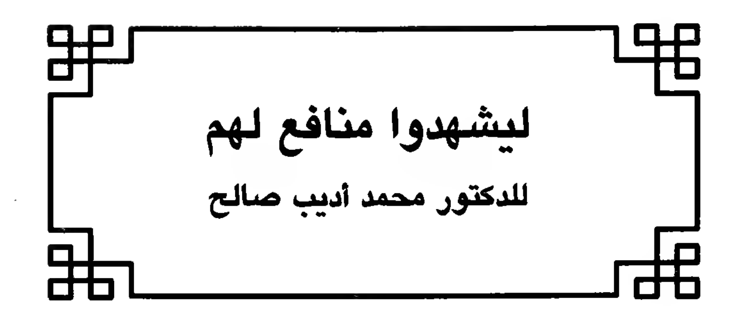
وأخيراً ـ ومن الأعماق ـ هنيئاً لأولئك الذين أسعدهم الله بالسير إلى بيته خالصين مخلصين، وتقبل الله طاعتهم، ورزقنا وإياهم حسن المثوبة وكرامة المغفرة في عباده الذين رضي عنهم ورضوا عنه: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾[2]، والحمد لله رب العالمين[3].



(١) سورة طه: آية ١١٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٩٣.

(٣) «حضارة الإسلام»: ٥ ـ ١١.



ليشهدوا منافع لهم

للدكتور محمد أديب صالح

من هناك ـ وفي ظل أول بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين ـ تشرق على قلب المؤمن نفحات هي العبير الزلال وأطيب، وتطلع على نفسه ذكريات هي الضياء في ظلمة الليل البهيم.

من هناك، حيث القلوب الخاشعة، والدموع المرسلة، والأكف الضارعة، من هناك، حيث الأوزار تُلقى، والآثام تعفي عليها التوبة النصوح، تنادي المؤمن ساعات إيمانه، وتصرخ به خفقات قلبه فيصحو من الغفلة، ويستأنف طريق الحياة الذي يبدأ بالامتثال لأمر الله وينتهي بجنة عرضها السموات والأرض.

وحين نقول ذلك لا نريد أن يكون هذا المؤمن في ميزاننا فرداً مبتوراً عن الجماعة، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ولكن نريده اللبنة الصالحة لبناء الجماعة، فالفرد الذي انقطع قلبه عن الصلة بالله عزَّ وجلَّ وضربت بينه وبين نفحات الله السدود والقيود، وغشيت نفسه غشاوة القسوة والجفاء، هو فرد لا يصلح به أمر الجماعة، ولا تفيد منه الأمة في حاضرها أو مستقبلها.

إن الأحداث الجسام التي ألقت عصا التّسيار على أرضنا حمّلت هذا الجيل مزيداً من المسؤوليات ومزيداً من الواجبات، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا مكان في هذه الساحة التي تنتظر الرجال لأولي العبث وعبيد الشهوات.

فحين نذكر البيت الحرام وما فيه، ونذكر الحج وشعائره، ونذكر كل أرض يقال على ساحها: لبيك اللهم لبيك، فإنما نضع في حسابنا أن هذا كله خير في ميزان القيم، وضياء على جنبات الطريق للفرد والجماعة.

والذين يحسبون أن العبادة في الإسلام هي أمر بين المخلوق والخالق وكفى ـ على المعنى الكنسي ـ إنما يفترون على الإسلام ما هو منه براء، إن العبادة في الإسلام ـ ومنها الحج ـ الذي هو ركن من أركان الإسلام لها كل المساس بشأن الجماعة، فالعبادة ـ وهي أمر مشروع، خاطب به الشارع عباده ـ تعد الفرد إعداداً صحيحاً وتؤهله تأهيلاً متكاملاً ـ أن لو وعى ـ لحمل العبء الذي أنيط به بوصفه مسلماً يقوم دينه على أسمى معاني الإنسانية والحق والخير.

ولقد يرى المؤمن شيئاً من ذلك فيما أشار إليه القرآن بمعرض الحديث عن أركان الإسلام من العبادات، ففي شأن الصلاة، قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] وجعل من الصيام بريداً مباركاً للتقوى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[2] ورتب على الزكاة التطهير والتزكية ـ على سعة هذين المعنيين ـ فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3] وفي آية افتراض الحج قدّم الحديث عن البيت الحرام، فهو مبارك ومصدر هداية وأمان، وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[4] وتأكيداً على عظمة هذه الفريضة وما لها من أثر في حياة الفرد والجماعة قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[5].

وفي آية أخرى ـ في معرض الحديث عن أذان إبراهيم بالحج ـ أشار

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٣.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٣.

(٤) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦ ـ ٩٧.

(٥) سورة آل عمران: آية ٩٧.

القرآن إلى بعض الحكم التي تترتب على هذه العبادة، فقال جل وعلا: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[1]، وفي حديثنا عن الحج تستوقفنا هذه الكلمات الثلاث، فما من شك في أن مدلول المنافع أوسع من أن نحدَّ بحدٍّ قريب نقصرها عليه.

ومن ذا الذي وهبه الله استنارة البصيرة ولا يرى أن من المنافع أن ترتحل من دارك وبيتك لتؤدي هذه الفريضة، بل من ذا الذي ذاق شيئاً من حلاوة الإيمان ولا يرى أن من المنافع الغالية أن تأتي بتلك الشعائر الكريمة من إحرام وتلبية وطواف وسعي ووقوف بعرفة ومبيت بمزدلفة ورمي للجمار، وما إلى ذلك من أصناف الخير في مكة وما حولها، ثم أن تسعد بزيارة رسول الله ﷺ، وتسلم عليه وعلى صاحبيه.

إن ذلك كله منافع وزيادة، بل يمكن القول بأن الأصل الأصيل في هذا كونه ـ جل وعلا ـ أمر برفع القواعد لبيت نسبه إلى نفسه وجعله مهوى أفئدة المؤمنين، أليس من الفضل أن تُحمل إلى الحبيب فتطوف حول بيته، ومولاك الخالق الحكيم لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، ويا نعمت المنفعة أن تغسل بدموعك أوزار المعاصي، وتفتح بتلبيتك أبواب الرحمة والغفران، وأن تقع دعواتك موقع القبول، فتنالك نفحة من نفحات الرضا، وتؤوب إلى أهلك وقد شملتك العناية وفزت بالقبول.

هذا قليل من كثير نذكره حين نقرأ قول الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

غير أننا ـ والأحداث تنوشنا من كل جانب، والساعات العصيبة في أيامنا ظلمات بعضها فوق بعض ـ واجب علينا شهود منافع أخرى في هذا المؤتمر الإلهيّ الكريم، فبجانب ما ذكرنا ـ وهو حق لا مرية فيه ـ لا بد أن نتلمس مرضاة الله بأن يكون لنا من موسم الحج منطلق جديد يدفع بنا إلى

---

(١) سورة الحج: آية ٢٨.

حيث نغسل العار، ونعيد الحق إلى نصابه من جديد[1]، وذلك - وايم الله - منفعة تفرض توفرها العقيدة، وتوجبها كرامة الأمة والتاريخ. .

إن هؤلاء الوافدين إلى بيت الله مسؤولون - كل بقدر وسائله - عن عمل جاد مثمر يلم الشعث ويمهد سبيل القوة ويزيل الركام من الطريق.

ولنذكر أن رمال الجزيرة التي شهدت انطلاق أمتنا في تحرير الإنسانية من أغلالها، وشهدت في خلافة عمر خروج آخر يهوديّ من أرضها هي التي تشهد اليوم ما نحن فيه من أوضاع يبكي لها الحجر الأصم.

وإن تعجب فعجب أن نعدم الانفعال الحقيقي مع شعائر هذا الدين، حتى تكون نسبتها إلى الوقت والمكان ألصق من نسبتنا إليها.

إن أرض التنزيل التي حمي فيها الوحي ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله ﷺ وأعطت الدنيا ما حفل به تاريخ الإنسانية من العظمة والخير قادرة اليوم في ظل الشعائر المباركة أن تمدَّ المسلمين بما ينفض عن كواهلهم غبار العنت، ويحرك قلوبهم بدوافع الإيمان والعزيمة.

وإذا هُدوا إلى ذلك فلسوف يكونون قادرين - بجانب الإعداد الجاد الحازم - على تصنيف قضاياهم مع الأعداء وفيما بينهم تصنيفاً واعياً، يبصرون من خلاله المقدمات التي أدت إلى هذه النتائج، ويقدمون الأهم على المهم، ويضعون أصابعهم على مكمن الداء الذي بدأ ينخر في جسم الأمة.

وهذا التصنيف الذي نشير إليه يهدي إلى الحقيقة التي لا بد من مضغها - على ما تحمل من مرارة - وهي أن الأعداء قبل أن يغتصبوا الأرض كانوا لصوصاً ماهرين في سرقة القلوب والأدمغة، وقبل أن يعتدوا على مقدساتنا وأرضنا حاولوا أن يشككونا بالمبادىء التي من خلالها كانت المقدسات مقدسات، وكانت الأرض موضع المحافظة والتقدير، فمن عدوان على اللغة، إلى عدوان على مبادىء الإسلام، إلى عبث فكري يقلب حقائق

---

(١) يعني هزيمة سنة ١٣٨٧ واحتلال بيت المقدس.

الفتوح ومعاني الجهاد من أجل أن تصبح أفئدة الأجيال هواء من الهواء، وحياتها عبثاً في عبث، وفكرها مجموعة من الكفر بالماضي وتطلع إلى ما في يد الأعداء.

وإذا كانت مشيئة الله قد قضت بأن تترتب الأسباب على المسببات، وأن ترتبط المقدمات بالنتائج، فكما حصدنا الصاب(١) والعلقم ثمرة لما جنيناه وجنته بعض الأجيال في الماضي، فإن رحمة الله قريب منا وعنايته معنا إن نحن استأنفنا الطريق، وحاولنا صادقين أن نفيد من كل شيء في سبيل قضايانا الكبرى في هذا العصر الذي يبدو وفي مقدمات خصائصه استخدام العلم في سبيل العنصرية والعدوان على كرامة الإنسان، ولا تسل عن التمالؤ والتعاون والتآمر على محاربة المسلم من بني الإنسان!!

ومن يدري لعل ساعة من ساعات الصدق لمتعلق بأستار الكعبة، أو ساعٍ بين الصفا والمروة، تخالط دمعَه زفرات الأسى، ويضطرب قلبه على بيتَ المقدس مع خفقات التوبة والمناجاة، يكون وراءها ما وراءها، ومن يدري لعل ساعة من ساعاة كرم الله وعنايته تشمل هؤلاء الوافدين إلى بيته، المتجردين لعبوديته يكون لها ما لها.

والمهم قبل كل شيء، أن تعزم القلوب، وتصدق النيات، ويتوفر لنا الإحساس الذي نشعر معه بمعنى الكارثة، وموقعها على طريق أمتنا في قضاياها ومشاكلها، كيما تجتمع النفوس على الاعتصام بحبل الله، وتُجند كل القوى امتثالاً لأمر الله في الإعداد والاستعداد: إيماناً وفكراً، وتنظيماً، وتصميماً.

ولقد أصبح الواجب آكد من أن نقابله بالبرود وعدم الاهتمام، وليذكر العابثون أن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

فيا أيها الوافدون إلى بيت الله الحرام، اذكروا ثالث الحرم، ويا أيها الذين يشدون الرحال إلى مسجد سيد العالمين صلوات الله عليه اذكروا المسجد الأقصى.

---

(١) الصاب: شجر مرٌّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة إذا أصابت العين أتلفتها.

اذكروه عندما تدعون رب الكعبة التي جعلها الله مثابة للناس وأمناً.

واذكروه عندما تجأرون في كل واد وعلى كل جبل: «لبيك اللهمَّ لبيك».

واذكروه عند كل أرض تسكب فيها العبرات، وعند كل مكان تخفق فيه القلوب، وفي كل موضع ترتفع فيه الأكف ضارعة إلى السماء.

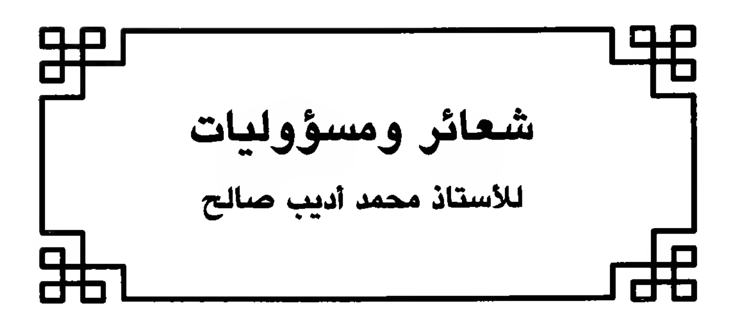
اذكروا وأنتم في تلبيتكم، وطوافكم، وخشوعكم، وسعيكم ووقوفكم بعرفة أرض المغفرة والرحمات، أننا بالأمس القريب كنا نطوف حول البيت وثالث الحرم لنا بأيدينا، واليوم يطوف مئات الألوف من المسلمين، وبيت المقدس تحت سلطان يهود، ونقف بعرفة ومصلى رسول الله ﷺ بالأنبياء في قبضة الأذلة الخاسئين، فإلى أي درك من مهاوي الصَّغار والمهانة وصلت الحال بهذه الأمة حتى باتت القدس وما حولها مرتعاً لأولئك الأناس الذين لو صوِّر القبح مخلوقاً لما تعداهم!

ألا إن وعد الله لا يتخلف، وسننه في الكون ماضية لن تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً، ألا وإن وعده بالنصر والتمكين والاستخلاف للمؤمنين الصادقين المستضعفين قائم ما قامت السموات والأرض، شريطة أن يكونوا على المنهج الذي رسم، وعلى الطريق التي أوضح لهم معالمها، فعسى أن نبرهن من خلال الاغتصاب والعدوان، وظلام المآسي والنكسات، وغبار التنكيل والتعذيب، وشدة الكرب في قلب الحقائق والأذى والتشريد، ولصوصية الفكر قبل لصوصية الأرض، عسى أن نبرهن من خلال ذلك كله: منطلقين من روح الحج مؤتمر الحق والعبودية لله أننا ما نزال جديرين بأن يتحقق فينا من جديد قول الله القادر القاهر: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[(1)][(2)].

---

(١) سورة النور: آية ٥٥.

(٢) «حضارة الإسلام»: العدد العاشر، السنة الثامنة، ذو الحجة سنة ١٣٨٧.



شعائر ومسؤوليات

للأستاذ محمد أديب صالح

ما أحسن ما يشهده المؤمن في أيام الحج، على تلك الأرض المباركة مهد الوحي، وميدان البطولات، وموئل التجربة العملية التطبيقية لمبادىء الإسلام التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس.

ما أحسنَ ما يشهده المؤمن من تلك المظاهر المعبرة، عن الأساس الذي يجب أن يقوم عليه تكوين الفرد في الإسلام، ذلك الأساس الذي على رسوخه الجذري القوي ينطلق بناء الجماعة متكاملاً متماسكاً، يتَّسم بالأصالة، ويتميز بخصائص الوعي المدرك والعقيدة الإنسانية السمحة الكريمة.

هذا الحُداء الهادف الجميل، هذا اللباس الذي يقرب من البساطة ويباعد من التعقيد، هذه الرؤوس الحاسرة في ظلال الأنس والرحمات، هذه الألسن المنطلقة بالتلبية والحمد: لبيك اللهمَّ لبيك، هذه الحناجر الهاتفة بكل معاني العبودية الخالصة لله، والتي لا تشوبها شائبة، ولا يمازجها انحراف، هذه المساواة في الظاهر، التي تدل على ما يريده الإسلام من مساواة في عالم الواقع والحياة، في الحدود التي رسمها، والمناهج التي حددها، والتي تبدو في إطار احترام الإنسان وكرامة الإنسان وتأمين وتكافؤ الفرص لكل إنسان.

هذه كلها وكثير غيرها إعلان صارخ يشير باستعلاء ووضوح إلى الحقيقة التي هتف بها محمد ﷺ يوم الفتح فأسمعها الدنيا وتعالى هديرها

في العالمين، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

ألا وإن شعائر الحج وأعمال الحج التي فرضتها الشريعة في زمن محدود، وعلى أمكنة محددة المعالم، بما في تلك الشعائر من ممارسة العبودية للخالق على صعيد الفرد والجماعة، وبما فيها من تعظيم البيت الذي هو مهوى أفئدة المسلمين في أصقاع الأرض بما يشعر بوحدة المنبع، ووحدة المنطلق، ووحدة المصير، وبما فيها من معاني العدالة والمساواة، وبما فيها من معاني العبرة والذكرى، واستشعار التجربة الأولى التي قام بها الأبطال الأولون من المسلمين، سواء أكان ذلك في ميدان الصبر على الأذى والمصابرة على المكاره، أم كان في ميادين القتال والانتصار على العدو، أم في ميدان الجهاد الأكبر من حيث الانتصار على النفوس، وتطويعها للدعوة الجديدة عملاً وسلوكاً، وإنزال أحكامها منازلها من تحويل المجتمع في أنظمته وأعرافه وعاداته وتقاليده، نعم وبما تحمله تلك الشعائر من تجديد الصلة دائماً بمحبة الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه الذي كان المنار الهادي، والقدوة الرائعة المثلى، والذي وهب الجزية العربية واقعاً من الحياة فكانت منبع الحياة، وأعطى للزمن حركة الهدى فكان انطلاق النور والهدى، وكان تاريخه على الصعيد الإنسانيّ من خير معالم الطريق للإنسانية.

إن هذه الشعائر والأعمال كلها بما تحمل من معان وبما تعطي من حوافز، وبما تهيىء من قدرة على استئناف الطريق، لتضعنا أمام مسؤولياتنا بالنسبة لهذا الإسلام.

فعلى صعيد الفرد لا بد من أن تتحرك الكوامن، ويشعر المسلم بأن اللبنة الأولى في صرح الإسلام العظيم كانت فرداً آمن ثم ضحى في سبيل هذا الإيمان، وكان سلوكه صورة صادقة عن إيمانه وتصديقه، لم يأبه لعادة جاهلية، ولا لعرف عن الآباء والأجداد.

إنه الفرد الذي أسلم نفسه لله، ووضع ذاته ووجوده بين يدي

محمد صلوات الله وسلامه عليه، فرفعه بالإسلام إلى مستوى القيادة العالمية، وارتقى به صُعُداً إلى معارج الرفعة بعد أن كان لاصقاً بتراب الجاهلية، مقيماً على كثير من الأذى والهوان.

إنه الفرد الذي أعطى الدعوة الجديدة ذوب قلبه ونضارة وجوده، فلم يهن ولم يضعف، ولم يشرك مع الإسلام نفساً ولا والداً ولا ولداً.

إنه الفرد الذي تبنى الإسلام دعوة عمل وجهاد، حتى كان شعاره دائماً وأبداً: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] وإن المؤمن إذا عاش عاش سعيداً، وإذا مات مات شهيداً.

وعلى صعيد الجماعة لا بد من أن يمتد البصر، وتتفتح القلوب، وتتماسك الأعضاء لتبصر النور من جديد، وتؤدي دورها على هذه الأرض من جديد، لا بد من أن تفتح آذانها للقوارع لتعي معنى ما يكيده أعداء الإسلام للإسلام، وأن تصغي إلى صوت النذير هنا وهناك، لتدرك أي واجبات تنتظرها إذا أرادت أن تحقق في وجودها معاني الإسلام.

لا بد من أن تنفذ إلى ما وراء الساحات التي تعيشها لترى أي تاريخ سيكتب، وأي وقائع ستدوَّن، وأي حكم للأجيال سيكون.

كل ذلك على أساس أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن كل بادرة شك في قدرة الإسلام وصلاحية الإسلام إنما هي نزول على رأي الأعداء الذين ينفقون ما ينفقون من الأموال والأوقات والكفاءات من أجل تطويع تفكير المسلمين لواقعهم وجعل هذا التفكير أداة الرضا بالموت، والبقاء في نعش التخلف، ومنعطفات الانحدار.

وأن كل ما يقال عن تاريخ الإسلام وعن شريعة الإسلام، وعن عقيدة الإسلام إنما هو تمهيد مجرم خبيث لإلباس قضايانا أقنعة تجعلنا لا نبصر إلا ما يريدون أن نبصر، ولا نفكر إلا كما يريدون أن نفكر، إن الإسلام ذلك

---

(١) سورة التوبة: آية ١٠٥.

العملاق الجبار الذي عرفوا عنه ما عرفوا، ودرسوا عن عناصر تكوينه ما درسوا، وأدركوا عن صلاحيته للبقاء في أنظمته وشريعته ما أدركوا، إن هذا الإسلام يخيفهم اليوم أن يشعل في قلوب أبنائه جذوة الحياة من جديد، فتحرق هذه الجذوة كل ما أوجد الصعاليك من أوهام، وأباطيل، وعندما تتحرر الأمة، ويزول الركام من الطريق ويتنفس العالم الإسلامي الصعداء، وإذا سارت الأمور في الطريق المؤدية إلى هذه النتيجة فهنالك الطامة الكبرى في نظر هؤلاء، هؤلاء الناس الذين هم سدنة الصهيونية والصليبية والاستعمار.

إن على الجماعة ـ وهي تقف أمام مسؤولياتها ـ أن تبادر إلى تصحيح المفهومات واستكمال وسائل التحدي التي لا يرضى الإسلام بغيرها بديلاً، فهو في فكره ومقومات وجوده صاعد أبداً، انطلاقاً من قمة التحدي مهما كانت قوة العدو المادية قاهرة وماكرة، ذلك أن قوة تحمي الباطل في غفلة من الزمن لا تعني تغيير هوية الباطل، كما أن ضعف الناصرين للحق لا يعني تغيير هويته أبداً.

على هدي هذه الحقائق نستطيع أن نقرر أن على الواعين من أبناء الشعوب الإسلامية بما أعطاهم الله من علم وغنى تجربة ومعرفة ولو بعض حقائق الأشياء أن يحاولوا صادقين التغلب على النفوس أولاً حتى تصدر عن العبودية والإخلاص لدين الله عزَّ وجلَّ.

وأن يعتقد هؤلاء أن الفرد ضعيف بنفسه قوي بأخيه، وأن يد الله على الجماعة، وأن يكون مرمى البصر دائماً ما عليه الأمة من واقع التخلف الفكري، أولاً في نظرها إلى الأمور، واستخدامها لمقاييس غير مقاييس الإسلام، وخضوعها لضوابط غير ضوابط الإسلام.

إن هؤلاء الواعين بما أعطاهم الله، وبما وهبهم، وبما أهَّلهم، يستطيعون أن يفعلوا الكثير الكثير مما تنتظره منهم الأمة، وعندها يؤتي اللقاء الإسلامي أُكُله بإذن الله، ويخرج القوم من الحيز النظري إلى الميدان العملي، ويكفيهم ذلك مغبة المسؤولية الكبرى أمام القاهر أحكم الحاكمين في ساعات من الهول قال عنها: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1]، هنالك يعض الظالم على يديه فلا يتحرك لسان بالنطق ولا تنفع المحتال حيلة، ويتحقق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[2] ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[3].

أما الذين بيدهم مقاليد الأمور، فإن شعائر الحج وأعمال الحج جديرة أن توقظهم من سبات، كيما يعتزوا بهذا الإسلام، ويسخروا ما أعطاهم الله من قوة وسلطان في سبيل هذه الدعوة الإنسانية الخيرة حتى تنمو في نفوسهم تلك القناعة الرائدة بأن الحقيقة التي لا تصح المماراة ولا الغفلة عن وجودها أن مشاكل العالم العربي والعالم الإسلامي لها سلاح وحيد هو الذي سينتصر في حل عقدها ألا وهو الإسلام.

الإسلام الذي يدفع إلى الإخلاص، والتخلي عن الأهواء والأغراض ويحمل على الإعداد بجميع ألوانه وضروبه، ويرتفع بالعاملين إلى حيث مصالح الأمة وصيانة مبادىء الخير، ويقضي على أن يكون للقضايا دائماً ظاهر وباطن، وأن يكون الغرض تحقيق شهوة أو دوام سلطان.

ألا وإن حكمة الله البالغة تأبى أن تكون المنافع التي يشهدها المسلمون في الحج قاصرة على أمور قريبة، أو شؤون مادية محدودة، بل إنها وراء ذلك ووراءه، إنها في تلك الانتفاضة الهائلة التي يمكن أن يولدها ذلك الحُداء العظيم في الحج وهي الانعتاق من كل عبودية لغير الله عزَّ وجلَّ والسعي في الطريق الصحيحة للقضاء على كل ما يعاني العالم الإسلامي من جهل وتخلف وتفرقة، ووقع تحت سيطرة الكفرة والغاصبين.

كما أن حكمة الله تأبى أن تكون إزالة التفث قاصرة على إزالة أدران الجسم وأوساخه المادية وإنما هي أيضاً إزالة الركام من طريق الحياة الصحيحة والوجود الصالح للمسلمين[4].

---

(١) سورة يس: آية ٦٥.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٣٢.

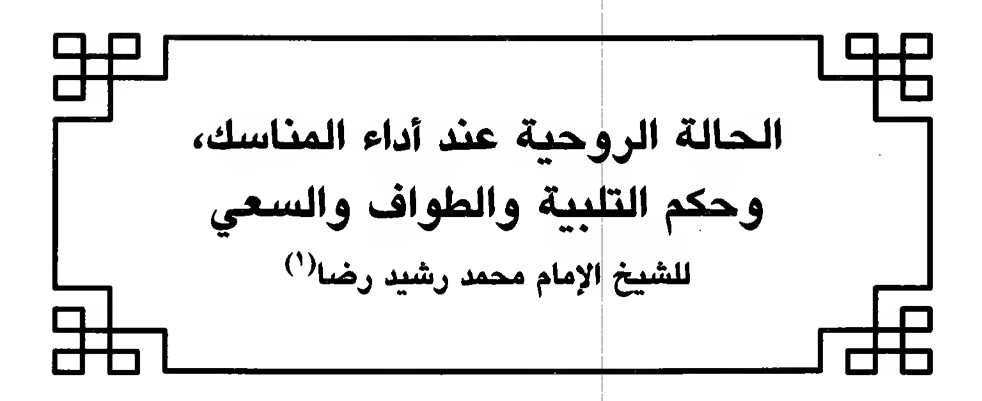
(٣) سورة المجادلة: آية ٦.

(٤) «حضارة الإسلام»: السنة السادسة، العدد العاشر، ذو الحجة سنة ١٣٨٥، ص: ١٠٣١ ـ ١٠٣٥.



٩ ـ أثر الحج





الحالة الروحية عند أداء المناسك، وحكم التلبية والطواف والسعي

للشيخ الإمام محمد رشيد رضا[١]

الحج عبادة روحية جسدية اجتماعية، فهو تربية عالية للإنسان منفرداً ومجتمعاً، أي تربية كاملة له، فإن الإنسان مركب من جسد وروح، وقد خلق ليعيش مجتمعاً، وفي الحج تقوية لجسده ولروحه ولروابطه الاجتماعية.

أما كونه رياضة بدنية مقوية للجسد فظاهر في جميع المناسك، فالإحرام ضَرْبٌ من الرياضة...

وفي الطواف والسعي رياضة المشي التي يصف الأطباء نفعها ويوصون بها، فدائرة المطاف حول الكعبة المعظمة لا يقل متوسطها عن مئة متر، وأقل الطواف سبعة أشواط (مرات)، ومن الناس من يطوف في اليوم والليلة أسابيع كثيرة متصلة ومنفصلة...

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلمونيّ، البغداديّ الأصل، الحسينيّ، صاحب مجلة المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلاميّ. ولد في القلمون ـ من أعمال طرابلس الشام ـ سنة ١٢٨٢ ونشأ بها، وتعلم في طرابلس، وتنسَّك ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وكان قد اتصل به قبل ذلك في بيروت. ثم أصدر مجلة المنار، وصار مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ارتحل مراراً، وله مصنفات كثيرة،، وجرت عليه أحداث كثيرة. توفي بمصر سنة ١٣٥٤ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/١٢٦.

وأما كونه مقوياً للروابط الاجتماعية فلما فيه من التعارف والتآلف بين الشعوب المختلفة في أفضل بقاع الأرض، وفي أحسن الأحوال التي يكون عليها الإنسان في هذه الحياة وهي التجرد من شواغل الدنيا والتوبة إلى الله تعالى من جميع المعاصي والآثام.

وأما كونه عبادة روحية مهذبة للنفس بتقوية شعور الإيمان فهو المقصود بالذات الذي يجب أن يتحرى وينوي ويلاحظ عند كل عمل من أعمال المناسك، وهاك خلاصة وجيزة من العلم والاختبار في ذلك:

الحالة الروحية في طريق مكة وتأثير التلبية:

كنت قبل عودة المشيعين لي من جدة ألبي في السر قليلاً، وأتكلم معهم كثيراً، فلما عادوا وولى النهار بأنسه وبهائه، وأقبل الليل بوحشته وظلمائه، هدأت المشاعر، وقرّت النواظر، وخشعت السرائر، وتزاحمت الخواطر، فكان الغالب منها على الفكر والقلب ما يثيره تأثير الزمان والمكان وزيّ الإحرام في النفس، فأما الزمان فهو شهر ذي الحجة الحرام، وأما المكان فهو الطريق إلى بيت الله الحرام، وأما زيّ الإحرام، فهو الذي كان يتزيًا به إبراهيم خليل الله، وإسماعيل ذبيح الله، ومحمد خاتم رسل الله، وغيرهم من رسل الله الكرام عليهم الصلاة والسلام وكل من حج البيت أو اعتمر من أصحابهم وأتباعهم هداة البشر، فيا لها من ذكرى يخشع لها القلب، ويُرجى بها رضوان الرب، بما تثمره من قوة الإيمان، وطهارة الوجدان، وخلوص السر والإعلان، ولو لم يقترن بها ذكر لسان، ولا عمل أركان، فكيف إذا صحبها تكرار التلبية، التي تزيد حرارتها تذكية، وإخلاصها تزكية: لبيك اللهمَّ لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

تأملت نفسي في تلك الليلة الليلاء، والطريق الجرداء، فرأيتني حاسراً حافياً في إزار ورداء، غير مبالٍ بما يكون من تأثير الهواء، وهي حال لم أعهدها في سالف الأيام إلا بين جُدُر الحمام، وقد كان الهواء عند خروجنا من جدة حاراً رطباً، وكانت الدابة وهي في أول السير تنهب الأرض نهباً،

وهذه ثلاثة أسباب يتفصد بها العرق من الإهاب، ثم كنا كلما أوغلنا في السُّرى وتغلغلنا في البيداء، نشعر بجفاف الجو وبرد الهواء، حتى اضطررت إلى إخراج سجادة صلاة كانت تحتي، فوضعتها على عاتقي فلم تغنِ عني، فأخرجت العباءة فتلفعت بها جاعلاً لأجل الإحرام أعلاها أسفلها، ولم أخف من أذى يصيبني من برد الليل ولا ضرر، ولم يعرض لي سأم من طول السُّري ولا ضجر، فإن مسَّني طائف من شيطان الوسوسة، ذكرت الله تعالى فطردته بالتلبية: لبيك اللهمَّ لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ويا لله ما أحلى التلبية في تلك الفلوات، وما أعظمَ الأُنسَ في حنادس الظلمات، إذا خشعت بها الأصوات، واستُمطرت بها العبرات، ومن دقائق حكم الشرع استحبابه رفع الصوت بها للرجال، وتجديدها بتجدد المناظر واختلاف الأحوال، فرفع الصوت بها ينفي الوسواس، وإذا كان في الليل يطرد النعاس، وهو أجلب للخشوع، وأذرف للدموع، واستئنافها عند اختلاف الأحوال وتجدد المناظر أدعى إلى دوام الذكر وعدم تفرق الخواطر، فكنت كلما علونا نجداً أو هبطنا غوراً، أو نزلنا مكاناً، أو استأنفنا سرانا، أو لقينا مشاة أو ركباناً، جأرت إلى الله تعالى: لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

تأثير رؤية الكعبة والطواف بها:

تلك التلبية تملأ قلب متدبرها إيماناً وتوحيداً، وتجرده من الحظوظ والأهواء تجريداً، وتعده لزيارة بيت الله والطواف، وهو في أحسن حال وأتم استعداد، حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة، وراع القلب ما جللها من المهابة والعظمة تذكر أنها أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين، وخصَّه الله بالآيات البينات الباقية على بقايا الأيام والسنين، ورأى أمامها مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام، ووجد نفسه حيث كان بدء دين الله الإسلام وحيث الختام، فإذا دنا من مهبط الروح الأمين ومطاف الملائكة والنبيين، والصديقين والشهداء والصالحين فلا تسل

ثم عن الدموع كيف تنسكب، وعن الضلوع كيف تضطرب، وعن الأعناق كيف تخضع، وعن القلوب كيف تخشع، ولا عن وجدان الإيمان كيف يتألق نوره في الجنان، ويفيض بيانه على اللسان، فيحركه بما يلهم من الثناء، وما يشعر بالحاجة إليه من الدعاء، وما يذكره أو يُذَكّر به من المأثور، لا تسل أيها القارىء عن شيء من ذلك، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك فمن ذاق عرف، ومن حُرم انحرف.

على هذه الحال تدخل الحرم المقدس، طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس، فتأتي الركن الأسود، حيث العظمة والسؤدد، فتقول: بسم الله، الله أكبر، فيصغر في قلبك كل شؤون البشر، ثم تبدأ الطواف مع النية والإخلاص بلمس الحجر وتقبيله إن قدرت، وبالإشارة إليه إن أنت عجزت، ولا بأس بأن تتذكر ما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من قبلك: إنني أعلم أنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أن رسول الله ﷺ قبّلك لما قبّلتك[1]، فتقبيلك ليس لذاتك الحجرية، ولا لمنفعة فيك مرجوة أو مضرة مخشية، ولا هذا الطواف الذي بك يبتدأ أو عندك يختتم في معنى عبادة الوثن وتعظيم الصنم، وإنما هو خضوع لأمر الله، واقتداء برسل الله، وتعظيم لما عظم الله، وأنس بالقرب مما نسب إلى الله، يكمل به توحيد الله، وتنمي به محبة الله، فمن شأن المحبين الأنس بكل ما ينسب إلى المحبوب، ولا سيما إذا تعذر اللقاء وعزَّ الوصول، وكم نظموا من الأشعار في الوقوف بالأطلال والطواف بالآثار:

أَمُرُّ على الديار ديار ليلى ... أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

ولما كان الرب العلي العظيم، الجدير بأعلى مراتب الحب والتعظيم، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا يراه عباده في هذه الدار، كان من رحمته بالمؤمنين المحبين أن وضع هذا البيت للطائفين منهم والعاكفين، ونسبه إليه، ليكون تعظيمه تعظيماً له.

---

(١) عبارة عمر: «ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك. .إلخ» رواه الجماعة كلهم.

فإذا مضيت في الطواف يميناً مصاحباً لهذه الذكرى، جاعلاً البيت من الجهة اليسرى فاشغله بالثناء على الله والدعاء لنفسك، ولآلك وصحبك، ولأمتك وأولي أمرك، فإذا بلغت الركن اليماني ـ وهو الجنوبي الغربي ـ فاستلمه إن سهل عليك فإنه على قواعد إبراهيم التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم، ومتى انتهيت إلى مقابله وهو الركن الأسود فقد أتممت من طوافك الشوط الأول، وبقية الأشواط مثله في الشروط والآداب، كالخشوع والتذكر وترك غير الضروري من الكلام، وعدم التهافت على استلام الركن والحجر عند الزحام، فإذا أتممت السبعة الأشواط، فاختم دعاءك بين الركعتين بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] ثم صلِّ ركعتين سنة الطواف، والأفضل أن تصليهما وراء المقام.

تأثير السعي وحكمته:

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة، وليس له نفل، فلا يفعل في كل منهما أكثر من مرة، ويجب أن يكون بعد الطواف، ولا يشترط فيه شروط الصلاة.

وتذكر عند السعي أنه ذكرى سعي جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان، أم أبينا إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام، وعلى أبيه، وصفوة بنيه ـ ويا لها من ذكرى لمجد العرب الكرام، ومعجزات الإسلام، مثبتة لحفظ الله تعالى لهذه الملة، وعنايته بهذه الأمة، حفظتها العرب بالعمل المتواتر، وكم حفظت ما هو دونها من المآثر، وما يحفظ بالتمثيل والمحاكاة يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات.

أليس تمثيل حال تلك الأم جائعة ظامئة، والهة حائرة، تشاهد طفلها يتلوّى ويتمرغ من شدة الجوع والظمأ، فيسوقها ذلك الألم إلى الفرار من رؤيته بتلك الحال، والسعي بين ذينك الجبلين القريبين من ذلك المكان، تصعد هذا مرة وتلك أخرى، ضارعة إلى الله راجية أن تجد من عنده غوثاً،

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٠.

حتى إذا ما انتهت من الشوط السابع أرسل الله تعالى روحه الأمين الذي يؤيد به الأنبياء، فأنبع لها ذلك الماء، وجعل فيه الري والغذاء، ثم ساق ذلك الركب من جرهم إليها، وسخَّرهم للإقامة عندها، ليتربى فيهم ولدها، ثم يجعله أصلاً لهذه الأمة الكريمة، ويجعل ذلك الوادي القاحل صَدَفة لدرة الكعبة اليتيمة، إذ جعله بلداً يحفظ بيته الذي جعله مثابة للناس وأمناً، وجعل قلوب الناس تهوي إليه من جميع الأقطار إيماناً ونسكاً، ورزق أهله من الثمرات، وسخر لهم البشر في كل زمان، ألسنا نرى في هذا العام معجزة من معجزات هذا التسخير؟ بلى وقد ابتلى في هذا العام وما قبله الأمم الغنية القوية - المتصرفة في البلاد العامرة الخصبة الغنية - بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، بهذه الحرب الأوروبية التي تقطعت بها الروابط وقلَّت المواصلات، واقتضى دخول الدولة العثمانية في غمراتها أن تضرب الدول المحاربة لها حجراً بحرياً على جميع سواحلها، فكان الضيق على سكان حرم الله تعالى أليماً شديداً، حتى إذا ما أوشك أن يفتك بهم الموت جوعاً سخَّر الله تعالى لهم تلك الدول تحمل إليهم الأقوات والأموال، وتنقل إليهم وفود الحجاج، وأراهم بهذه الإغاثة العامة مثالاً لتلك الإغاثة الخاصة، - أعني إغاثة هاجر وإسماعيل - استجابة لدعاء الخليل: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1]، وكثيراً ما ذكَّرت الناس بذلك، في أثناء أداء المناسك.

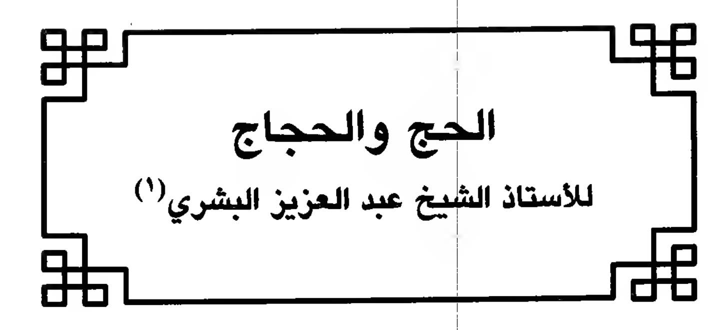
فمن سعى بين الصفا والمروة عالماً بما ذكر متذكراً له معتبراً به، فإنه يشعر قلبه بنماء الإيمان بالله وبرسل الله، ويفهم سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[2][3].



(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٥٧.

(٣) مجلة «المنار»: ٢٠/١٠٨ - ١٢٦ بتصرف.



الحج والحجاج

للأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري[1]

تطلب مني أن أتحدث إليكم في الحجج والحجاج، وما أشوقني إلى حديث الحج والحجاج.

اقترب موسم الحج المبارك، وها هم أولاء المسعودون الموعودون يشدون الرحال إلى بيت الله العتيق المحرم ليؤدوا الفريضة، ويشهدوا المناسك، ويشاهدوا مهد الإسلام، وينعموا بزيارة قبر محمد ﷺ، فهنيئاً لهم هنيئاً، جعل الله حجهم مبروراً، وسعيهم مشكوراً، وذنبهم مغفوراً، وعملهم مأجوراً.

تعلمون أن الحج هو الفريضة الخامسة في دين الإسلام، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة تتوفر فيه الشروط المعلومة من البلوغ والحرية والاستطاعة بدنية ومالية وأمن الطريق، وأداؤه مفروض على مَن تتوفر فيه شروطه مرة واحدة في مدة العمر كله على أنه مع هذا فرض كفاية في كل عام على مجموع المسلمين، بحيث ينبغي أن يؤديه جماعة منهم في كل عام، وإلا لحقهم الإثم، والعياذ بالله.

---

(١) عبدالعزيز بن سليم البشري. أديب مصري، من الكتاب المترسلين. ولد بالقاهرة سنة ١٣٠٣. تعلم بالأزهر وولي القضاء الشرعيّ في بعض الأقاليم المصرية، ثم عين مراقباً إدارياً للمجمع اللغويّ إلى أن توفي. كان مرحاً طروباً حلو العشرة، شريف النفس. نظم الشعر في شبابه ثم عدل عنه إلى النثر. له عدد من المصنفات. توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٢. انظر «الأعلام»: ١٨/٤.

لقد نجم الإسلام في مكة ثم انتشر بفضل الله في أقطار الأرض جميعاً، وإننا معشر المسلمين مهما تناءت بلادنا وتفرقت مواطننا في شرق الأرض وغربها لنولي جميعاً وجوهنا في صلواتنا إلى قبلة واحدة هي بيت الله الحرام، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[1] صدق الله العظيم.

قبلتنا معشر المسلمين إنما هي الكعبة المشرفة التي أسكن عندها أبونا الخليل إبراهيم بعض ولده ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2].

فالكعبة من الزمان القديم بيت الله آثره بأجلّ التشريف والتكريم، واستوجب له من عباده أبلغ التبجيل والتعظيم، فظلّ البيت الأقدس على تعاقب الأعوام سواء في الجاهلية وفي الإسلام.

نعم، لقد كان العرب حتى في أشد جاهليتهم يعظمون هذا البيت العتيق كل الإعظام، ويحترمونه أبلغ الاحترام، وكانت خدمته وسدانته في أشرف سادات قريش بيوتاً وأعلاها في الحسب كعباً، يتباهون بهذه الخدمة ويعقدون عليها الخناصر، يتوارثون هذا الشرف كابراً عن كابر.

هذه العرب على اختلاف قبائلها وبطونها وأفخاذها، وتفرق مواطنها وأهوائها، تخرج إليه الحجيج في كل عام فيلقى العدو عدوه، ويقابل الموتور بالدم واتره فما يرفع في وجهه سلاحاً ولا يباديه بخصام، إعظاماً للحرم وإجلالاً للأشهر الحرام، حتى إذا جاء الإسلام بالدعوة إلى توحيد الله وتمحيص العبادة له ـ جلّ وعلا ـ ورفض الأوثان وتكسير الأصنام ظلت للبيت العتيق حرمته ومهابته، بل لقد وكد ذلك له الإسلام توكيداً، وثبته

(١) سورة البقرة: آية ١٤٤.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

تثبيتاً، وجعل الحج إليه والطواف به فريضة على المسلمين إلى غاية الزمان.

هذا البيت الذي تتجه إليه وجوه المسلمين جميعاً من أقطار الأرض كلها كل يوم في صلواتهم الخمس، هذا البيت الذي تستشرف له نفوس المسلمين في أنحاء العالم وتتمثله أذهانهم كلما نهضوا لصلواتهم وتجردوا لعبادة ربهم، لقد جعل الله الحج إليه والطواف به فريضة من فرائض الإسلام، فإنه إذا وجب أن يتلاقى المسلمون عنده بالأرواح والأذهان فقد وجب كذلك أن يتلاقوا عنده بالأشخاص والأجسام ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1] وهؤلاء الإخوة الأحباء مهما تفرقت أوطانهم وتراخت المسافات بين ديارهم لفي شوق دائم إلى أن يتلاقوا، وحنين لا يبرح إلى أن يتراءوا، لينعم كل منهم برؤية أدنى الناس منه وأحبهم إليه، وليبثه ما يعتلج في صدره بين الحب والإيثار، وليراجعه فيما عسى أن يشكل حله فيما يجمع بينهما من مصالح الدنيا والدين، فليت شِعْري أين يلتقي هؤلاء الإخوة المتفرقون في رقاع الأرض إلا في بيتهم العائلي العام الذي نجم[2] فيه الإسلام، وهو بيت الله العتيق الحرام.

هنالك على عرفة ليلة عيد الأضحى يقف الهنديّ إلى جانب المصريّ والسوريّ والعراقيّ والنجديّ والحجازيّ والمغربيّ والجاويّ والتركيّ والفارسيّ والصينيّ وغير أولئك من أصناف الخلائق المنتشرة على وجه الأرض جميعاً.

لا لا.. ليس هنالك مصريّ ولا شاميّ ولا عراقيّ ولا حجازيّ ولا تركيّ ولا فارسيّ ولا هنديّ ولا صينيّ... إنما هناك مسلمون فقط يَعُجّون[3] في نفس واحد: لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك اللهم وسعديك.

إخوة وأي إخوة.. لا كبير فيهم ولا صغير، ولا غني ولا فقير، ولا

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٠.

(٢) أي ظهر.

(٣) أي يرفعون أصواتهم.

سوقة ولا أمير، ها هم أولاء محرمون متساوون فيما يستر أبدانهم، لا فضل لأحد منهم على أحد، ها هم أولاء يلجأون إلى ربهم خاشعة أبصارهم خافقة قلوبهم، وجلة نفوسهم، يدعونه جاهدين أن يغفر ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ويفيض عليهم من رضوانه، ويدخلهم جناته بفضله وإحسانه.

ها هم أولاء جميعاً ضارعون إلى مولاهم العظيم، أن يعز دينهم ويجمع كلمتهم ويضمَّ ما تفرق من شملهم، ويكفَّ عاديات الزمان عنهم، ويعيد ما كان لهم من حول وسلطان في الأرض قد تحولا عنهم لما تحولوا هم عن نهج الإسلام، وحادوا عن اتباع سنة النبي الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تفقدوا مناسك الحج جملة، تجدوا فيه أبلغ الداعيات إلى شدة الطباع، وصفاء النفوس، وإخلاص القلوب وطيها على الشفقة والمرحمة وطبع الإنسان على التضحية واقتحام الشدائد خالصة بذلك نفسه في سبيل الله، وفي سبيل النفع العام، فهذه مشاق السفر والارتحال من قواصي الأرض وأوديتها، ثم الاضطراب في تلك القِفار، وهذا الاغتراب عن الوطن وترك الأهل والولد، وهذا بذل المال في نفقات الحج، وهذا التقشف في أسباب العيش، وهذه المساواة في الملبس وفي غيره مما تقضى به واجبات الإحرام.

هذه ولا شك من أبلغ الداعيات كما قلنا إلى غرس تلك الفضائل الجليلة في نفوس الناس.

ولا يفوتنا بعد هذا أن نلحظ أمراً له خطره العظيم، أعني بذلك تحريم قتل الصيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[1].

حتى الصيد المباح لا يحل في هذا المقام قتله ولا سفك دمه، فكيف بدم الإنسان، أفرأيتم بعد هذا دعوة أبلغ من دعوة الإسلام إلى الرحمة والعطف والسلام؟

---

(١) سورة المائدة: آية ٩٥.

في مناسك الحج ولا شك أشياء تسترعي الخاطر وقد تدعو في باب التعبد إلى شيء من العجب، وذلكم مثل رمي الجمرات، ومثل السعي والهرولة بين الصفا والمروة، وقد يمتد الذهن في التماس علة هذا، وطلب الحكمة في شرعه وفرضه على الناس، وقبل كل شيء، لا أرى بدّاً من أن أشير في هذا المقام إلى قاعدة شرعية أصولية وهي: أن المؤمن يجب عليه أن يطيع أمر الله تعالى واقعاً حيث وقع ولو لم يدرك له علة ولم يلحظ وجه الحكمة فيه، فللّه تعالى في أحكامه حكم، وقد تقصر عن إدراكها عقول البشر، فمن قلة الحياء بل من الكفر الصراح أن يقول قائل: إنني لا أطيع حكم الشرع العام في كذا لأنني لا أفهم له وجهاً، أو لأنه فرض لسبب كذا، وقد زال هذا السبب، نعم إن للمجتهد بل إن على المجتهد أن يلتمس علل الأحكام الشرعية ليجري حكم ما ورد فيه النص على ما لم يرد فيه إذا اشتركا في تلكم العلة بحسب ما يعن له، وقد مثل العلماء لهذا بالتماس العلة في تحريم الخمر. والخمر ما كان من عصير البلح أو العنب حتى إذا صح عندهم أن العلة في التحريم هي الإسكار، أجروا الحرمة على كل ما أسكر مما استقطر من غير البلح والعنب.

وأرجو أن لا يفهم من هذا التقرير أنني أدعو إلى إغلاق الأذهان دون تفهم علل الأحكام الشرعية والتماس الحكم الإلٰهية فيها، بل إنني على العكس أدعو جاهداً إلى ذلك تفطيناً للأذهان وتنويراً للبصائر، ولكن لا على أن يكون ذلك للأخذ بحكم عام ورد فيه النص الشرعيّ لأنه بان لنا وجه الحكمة فيه، ونبذ آخر لم يظهر لنا وجه الحكمة فيه فذلك كما قلت من قلة الحياء، بل من الكفر الصراح بحكمة الشارع والعياذ بالله! ولعل مما يجمل الاستشهاد به في مثل هذا المقام قول سيدنا عمر رضي الله عنه وقد حاذى الحجر الأسود في بعض طوافه بالبيت: «أما إني والله لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك».

بعد هذا الاستطراد الذي لم نر بداً منه تبييناً وتوضيحاً نرجع إلى سياق الحديث فنقول: لعل من حكمة الله تعالى في استيجاب تلك الأشياء ووصلها بصميم العبادة أنها ترجع إلى أحداث دينية لها خطر عظيم. فأبقى

الشرع عليها باعتبارها من التقاليد التي ترد الأذهان إلى ذكرى العظائم في تاريخ الرسل وقيام الأديان، وللأديان تقاليد كما للسياسة تقاليد، وللاجتماع وسائر أسباب الحياة تقاليد، والله أعلم.

وبعد: يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾[1].

لبيك اللهمَّ لبيك، سيأتي المسلمون الحج رجالاً، وعلى كل ضامر، ومنهم من يستقل السيارة، ومنهم من يأتي على جناح الريح، ولعل منهم من يلبي دعوة الدين بغير أولئك جميعاً مصداقاً لقولك جل مجدك: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[2].

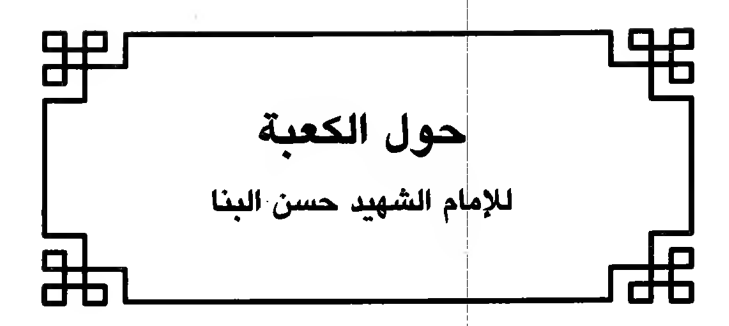
سيلبي المسلمون دعوة الأذان بالحج كما لبوها من يوم فرض على المسلمين الحج.

سيروا على بركة الله إلى بيت الله، وامضوا في أمان الحجاز وشمائله لتقضوا مناسككم وتقيموا شعائركم، وتتملوا بزيارة قبر نبيكم آمنين مطمئنين لا يجف لكم من الخوف ريق، ولا يروعكم في سبيلكم قاطع طريق.

أيها الموعودون المسعودون: ستقفون بعرفة وستمثلون بين يدي قبر محمد ﷺ، فبالله عليكم إذا بلغتم هذا أن تناشدوا ربكم أن يعز دينكم، ويجمع على الخير شملكم، ويعلي في العالم كلمتكم[3]..



(١) سورة الحج: آية ٢٧.
(٢) سورة النحل: آية ٨.
(٣) مجلة «الإسلام»: العدد ٤٦، السنة ٤٠، ص: ٢١٦٣ ـ ٢١٦٦ بتصرف يسير.



حول الكعبة

للإمام الشهيد حسن البنا

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾[1].

❁ ❁ ❁

هناك قواعد أساسية تقوم عليها الإنسانية الصالحة منها: المساواة، والأخوة، ومقاومة الشر، وحب السلامة والخير، وحسن الصلة بالله العلي الكبير.

ولقد جاء الإسلام الحنيف ينادي بهذه القواعد ويقررها فرائض من فرائضه، وأهدافاً توصل إليها كل تعاليمه، وينطق بها القرآن الكريم، وتظهر جلية في أحاديث النبي العظيم ﷺ وأفعاله وكل تصرفاته.

ولكن التقرير النظريّ لا يكفي وحده حتى تقوم الأعمال التطبيقية والرموز الحسية بتجسيم هذه المعنويات وتدعيمها في النفوس والأفئدة والأرواح، ولهذه المهمة الجليلة شرع الله الحج وفرضه على المستطيعين من عباده فقال:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2].

---

(١) سورة الحج: آية ٢٦.

(٢) سورة آل عمران: آية ٩٧.

هذا الإحرام، الذي يتجرد فيه كل حاج من ثيابه جميعاً ويرتدي ثوبين اثنين بسيطين كل البساطة في شكلهما ولونهما ووضعهما: إزار ورداء لا غير، إنما هو إعلان لهذه المساواة بين الناس بزوال شارات التفريق التي تحملها هذه الملابس العادية باختلاف قيمها وأشكالها وألوانها ومظاهرها، وإنك لترى الحجاج قد تجردوا من ثيابهم وأحرموا لله رب العالمين فلا تكاد تميز بين أمير ومأمور، وكبير وصغير، ورئيس ومرؤوس، ووجيه ومغمور، كل أولئك قد سوَّى بينهم المظهر الجديد فلا اختلاف ولا تمييز.

وبهذا الإحرام يحرم على الحاج أن يحلق شعره، أو يقصَّ ظفره، أو يقطع شجراً، أو يهيج صيداً، أو يقتل حشرة، أو ينال مخلوقاً بسوء، حتى لو لقي قاتل أبيه لما استطاع أن يمدَّ إليه يداً أو يتجه إليه بانتقام، وهذا تدريب عمليّ يتجسم به معنى المسالمة والسلام فتنطبع به النفوس وتنطوي عليه الجوانح والقلوب.

وهذه الكعبة المشرفة، التي رفع قواعدها إبراهيم وأعانه في ذلك إسماعيل، إنما هي علم الوحدة الإنسانية والأخوة البشرية، ورمز ارتباط القلوب والنفوس والأرواح:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[1].

تهوي إليها الأفئدة وتطيف بها القلوب تارة والأشخاص تارة أخرى، وتستقبلها الوجوه في كل مكان إيذاناً بوحدة الوجهة، وتقديراً لهذه الوحدة.

والحجر الأسود فيها نقطة التقاء المشاعر الإنسانية والعواطف الإخوانية، فمن صافحه فكأنما يصافح إخوانه من بني الإنسان جميعاً، ومن قبَّله فكأنما يرسل إليهم على صفحته بإخلاصه ومودته ومظهر إخائه ومحبته.

وهذه الجمرات يقف أمام هدفها الحاج متمثلاً أن قوى الشر قد جسمت في إبليس ـ لعنه الله ـ وأن الحاج الآن قد طهر من الآثام، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، بعد أن سعد بوقفة عرفات، ونزلت عليه من الله

---

(١) سورة المائدة: آية ٩٧.

الرحمات والفيوضات، فعليه أن يكون للرحمن ولياً، وللشيطان عدواً، وإنه ليعرب عن كل هذه المشاعر، ويرمز إلى مدلول هذه الخواطر بهذا العدد من الحصى يقذف به وجه عدوه اللعين إبليس، إرضاء للرحمن، ورجماً للشيطان، باسم الله والله أكبر.

والحاج في كل هذه المواقف موصول القلب بالله تبارك وتعالى معلق النفس والروح بمغفرته ومثوبته ورضاه ومحبته، فإذا أحرم فشعاره:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وإذا طاف فعمله دعوات صاعدة إلى السماء، وابتهال وبكاء، والتزام ودعاء، واستلام وتقبيل، وأنس برحمة الكبير الجليل، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك ﷺ.

ويقول الذين لا يعلمون: إن هذه الكعبة والحجر من بقية وثنية الجاهلية أقرها الإسلام.

ونقول لهؤلاء: إنما جاء الإسلام ليحطم الوثنية في كل صورها، وليقضي على عبادة الأوثان والأصنام، وإن كل موقف من مواقف الحج إنما هو تقرير لهذه الوحدانية وإسلام الوجوه والقلوب لله وحده الملك العلام، وإنما مثل الكعبة والحجر كمثل هذا العلَم تنصبه الدول رمزاً لمجدها، وشعاراً لوطنها، فتخفق له القلوب وتهتز لاهتزازه الأفئدة لا لذاته ولكن لما يشير إليه من معنى عظيم، وشعور كريم. ولقد أراد الله الحكيم العليم أن تكون الكعبة هكذا علماً مركوزاً على الأرض تتجسم به الوحدة العالمية ويرمز إلى هذه الأخوة الإنسانية، واختار الله إبراهيم ـ وهو موضع التقدير والتكريم من كل أهل الأديان السماوية ـ لإنفاذ هذه الإرادة الربانية، فصدع بأمر الله واستجاب لنداء مولاه، وسأله بعد ذلك أن يتقبل عمله وأن يبارك له فيما أولاه:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

ولعلها الحكمة الإلٰهية أن يقطع الله على هؤلاء المتربصين حبل الجدل وتشقيق الكلام بأن يختار لهذه المهمة محطم الأصنام.

وإن العمل العظيم في مغزاه ليصغر إذا جهل الناس هدفه ومرماه، وكذلك هذا الحج الذي أقام الله به دعائم الصلاح والقوة في الحياة أصبح عند الكثيرين عبادة آلية عادية يؤدونها وخيرهم من يرجو بها المثوبة والأجر، أما ما وراء ذلك من المنافع المادية والروحية والاجتماعية التي أشارت إليها الآية الكريمة:

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾[2].

فإنهم لا يطيلون فيها التفكير، ولا ينظرون إليها نظرة الفاحص الخبير.

فاللهمَّ فقِّهنا في ديننا وانفعنا بهذا الفقه في دنيانا وآخرتنا، واجعلنا جميعاً من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3][4].

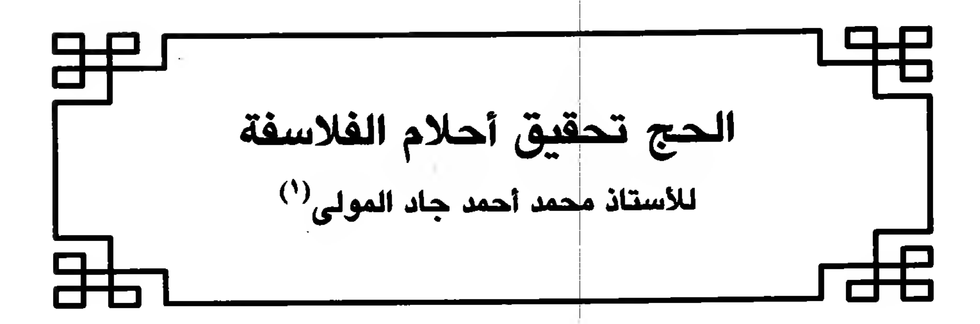


(١) سورة البقرة: الآيتان ١٢٧، ١٢٨.

(٢) سورة الحج: آية ٢٨.

(٣) سورة الزمر: آية ١٨.

(٤) مجلة «المسلمون»: السنة الثالثة، العدد العاشر، ص: ١٠٢١ ـ ١٠٢٣.



الحج تحقيق أحلام الفلاسفة

للأستاذ محمد أحمد جاد المولى[1]

تبارك الله سبحانه!

شرع لنا الدين فرائض وسنناً، وأجَنَّ[2] في كل ما فرض وما سَنَّ حكمة بالغة، وصلاحاً وجدوى، فهي بجملتها مدارج إسعاد، وموارد نعمى، بيد أن منها ما توضح لنا وجه الحكمة فيه، ومنها ما استتر عنا كُنهه، فاستدللنا بما بان لنا على ما لم يَبِن، وآمنا بما قصرت عن دركه عقولنا لما أدركناه وعقلناه، إذ قد أتم الله علينا نعمة اليقين بأن هذا الدين القيم هدى للناس ورحمة، وأُشرِب في قلوبنا الإيمان بأنه ما من مفروض أو مسنون إلا كان الخير ملء وِطابه[3].

ذلك حج البيت الذي كتبه الله على من استطاع السبيل إليه؛ قد حوى من وجوه المصلحة وصنوف الحكمة ما إن بيانه ليكبر أن يستقل به بيان، أجل! فإن فيه حكماً روحية شتى، وحكماً معاشية أخرى، فهي فريضة واحدة، ولكن يتخرج بها الإنسان في كثير من الفضائل، ويقضي بها ضروباً من الحاجات.

---

(١) باحث مصريّ ولد سنة ١٣٠٠ ابتدأ حياته مدرساً، وانتدب لتدريس العربية في جامعة أوكسفورد لمدة ثلاث سنوات، وعاد فعين مفتشاً بوزارة المعارف فمراقباً للمجمع اللغويّ فمفتشاً أول بالوزارة. له عدة مصنفات نافعة. توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٣ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/ ٢٣.

(٢) أخفى.

(٣) أي ملء أسقيته، والمراد أنه ممتلىء خيراً.

وأول ما يبدو من الحج أنه سبيل إلى رابطة إنسانية عامة لا انفصام لها، ووسيلة يتعارف بها الناس في مشارق الأرض ومغاربها، ففي يوم الجمع الحاشد، بل يوم البعث الأصغر، يلتقي الناس أجناساً مختلفة، وأمماً متباينة، وقبائل متباعدة، فإذا هم قلوب متعارفة، وآمال متواصلة، وألسنة متفاهمة، بل إذا هم قلب واحد نابض بتوحيد الله، وأمنية واحدة متجهة إلى الله، ولسان واحد يهتف: لبيك اللهم لبيك! وإن علماء الأخلاق ليفقدون مظهراً تتمثل لهم فيه مطالبهم الحكيمة، ومثلهم العليا للإنسانية إلا في تلك اللحظة الرهيبة التي يجتمع فيها المسلمون على متن الصحراء في بيت الله، إذ تتجرد الصدور مما ملكها من غل وما ملأها من إحنة[1]، ونتخلص القلوب مما ران عليها من الأهواء والشهوات، فلا تبقى إلا روح نقية لا تشعر بغير المعاني السامية، وعين صافية تتجلى لها حقائق الحياة، لا زيف فيها ولا بهرج، وأذن واعية يحتجب عنها ما يملأ جوانب الدنيا من ضجيج وعجيج، وما يزحمها من مشاغل ومشاكل! ألا وإن من النفوس نفوساً أمارة بالسوء نزاعة إلى البغي، أخذتها العزة بالإثم، وغلت أحناؤها[2] بجراثيم الأَثَرة والاستطالة والتعالي.

فأبى لها الجبروت إلا احتجازاً وأَنَفة، وزهاها التعاظم أن تنخرط في سواد الناس، وليس كالحج طهور لتلك النفوس الموبوءة، فالناس في مشاهد الحج صفوف متشابكة، وأمشاج مختلطة، لا فرق بين رب الخَوَرْنَق[3] ورب الشويهة[4]، ولا فضل لسَرِيّ ذي حسب على مهمل ذي ضِعة، فلقد لفَّهم جميعاً زي ساذج يتراءى فيه من يتخطر في الديباج ومن يتعثر في المِزَق[5]، ويشتبه فيه من يجد الألوان[6] بمن يفقد الكفاف، فهم في مشاهد

---

(١) عداوة.

(٢) جوانبها.

(٣) القصر الشامخ.

(٤) تصغير شاة.

(٥) أي الخِرق.

(٦) أي من الطعام والشراب.

الحج إخوة متقاربون، ورفقة متماثلون، وهم جميعاً متطامنون[1] متعاطفون، طارت عنهم كبرياء الألقاب، وعزة الأنساب، ومخيلة الأثواب!

والحج بعدُ مجلى رائع تتجلى فيه عزة الحنيفية السمحة في أرجاء المعمورة، وآيات مفصلات تصف نفوذ دعوة محمد ﷺ في شعاب الأرض، فهذه الرحاب الفِساح المقدسات تموج بالجمهرة الكبرى من خلق الله، بينهم الهنديّ والصينيّ، والعراقيّ واليمنيّ، والشآميّ والمصريّ، وبينهم مما وراء البحار طوائف وطوائف تناهى إليها داعي الله، فأجابت داعي الله!

والحق أن الحج مؤتمر شامل، هو أروع ما نظمته الحضارة من أشتات المؤتمرات حتى اليوم، فهذا مؤتمر يتباعث الناس فيه استجابة لوحي العقيدة النازلة منهم منزل الشَّغَاف[2]، السارية فيه مسرى الدماء، لا يبتغون من وراء ذلك فضل مال، أو وجاهة منصب، أو بعد صيت وسمعة، فما أنبل وما أشرف، وما أجلّ وما أعظم!

والحج ـ فوق ذلك ـ معرض أي معرض لحضارة الدنيا وشؤون الخلق، ففي هذا المؤتمر الحافل تتزاحم أمم مختلفة، وأناة أشتات، بينهم العلماء في كل علم، والأطباء في كل جانب، والصناع في كل صنعة، والتجار في كل سلعة، ورجال الفن في كل فن، وكل أولئك يحملون إلى الحجيج تجاربهم المبتدعة في العلوم والفنون، وأجلابهم الخاصة في التجارات والصناعات، فيتدارسون جميعاً ما درسوا جميعاً، ويطلع بعضهم بعضاً على شؤون حضارتهم، ووسائل رقيهم، وأساليبهم الحسنى في الأحوال والعادات والأخلاق، فترجع طوائف الحجيج إلى أممهم بجر الحقائب مما وقعت عليه الأعين، حاملة إليهم من أسباب العيش ما ينفع الناس، ناقلة إليهم من الأخبار والسير ما تجمل به القدوة، وتحسن في الأسوة، وبذلك يتدانى العالم من مراحل التدابر والتنافر والاختلاف، فتأخذ

---

(١) أي خفضوا جناحهم بينهم.

(٢) غلاف القلب أو سويداؤه وحَبته: انظر «المعجم الوسيط»: ش غ ف.

الألفة سبيلها إلى الأمم، ويقرب التشابه بين الخلق فتتجمع الجهة الإنسانية المتحدة التي هي أنبل أحلام الفلاسفة، وأعلى درجة في مراقي الإصلاح.

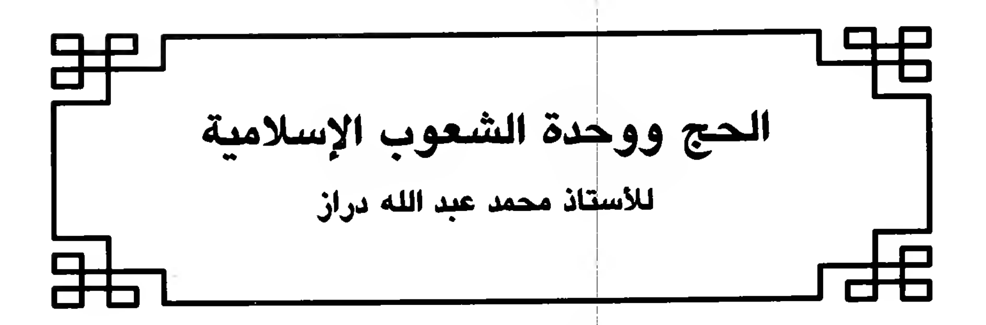
ومغاني الحج[1] آهلة بذكريات قدسية تطيب بها نفس الحاج المسلم، وتروي قلبه من كوثر الإيمان، وناهيك ببلاد هي منبعث عقيدته الشاملة التي تتأصل في نفسه لتصرفها حيث تهوى، فالرغبة حيث تأمر، والرهبة حيث تنهى، فليس بدعاً أن تنحني الأضالع لتلك البلاد على حُب،، وتنطوي على تجلة، أجل، فتلك بقاع مطهرة، هي معاهد صبا الإسلام،، ومناجم جوهره، وفي أرجائها بثت الدعوة المحمدية، واهتزت وربت، ولا تزال أجواؤها تحفظ صوت محمد صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول: «ربي الله!» فما أجدر أن يتمثل للحاج المسلم حين يطوف بالبيت العتيق كل ما أثره التاريخ في انبعاث الإسلام عن هذه التربة وبزوغ شمسه في فلك هذه الجزيرة، ثم ما كان وراء ذلك لهم من جهاد وجلاد، وغزو وفتح، وإن في تمثل تلك الذكريات له لما يملأ بالعبرة خاطره ويشغل بالتدبر فكره، ويشب فيه عاطفة الهداية والتقاة ولو مضينا نتقصى معاني الحج، ونفصل أسراره لما وسعنا الوقت، بل لا نفسح مجال القول، وتشعبت مذاهب الكلام، وانقطع بنا الجهد دون الغاية، فنحن نجتزىء بهذه الكلمة العجلى، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

على أننا إلى العمل أحوج منا إلى القول، وما منا إلا مؤمن بالحج وخطره، فالله المسؤول أن يوفقنا جميعاً إلى النهوض بهذه الشعيرة السامية، إنه أكرم مسؤول[2]..



(١) منازله التي غنيت بأهلها: انظر «المعجم الوسيط»: غ ن ء.

(٢) مجلة «الإسلام»: العدد ٤٦، السنة ٤، ص: ٢١٦١ ـ ٢١٦٢.



الحج ووحدة الشعوب الإسلامية

للأستاذ محمد عبد الله دراز

هل أنت قريب عهد بالاطلاع على خريطة العالم الإسلاميّ، وعلى موقعها من الخريطة الجامعة؟

إن لم تكن قريب العهد بها فإننا نعيدها إلى ذاكرتك، ونقرِّب لوحتها إلى خيالك، حتى كأنك تراها رأي العين.

جاوز ببصرك منطقة الثلوج المتجمدة في شمالي القارات الثلاث، وجاوز ببصرك من الناحية الأخرى منطقة الثلوج المتجمدة في جنوبيها، وتخطَّ كذلك المناطق المتاخمة لهاتين المنطقتين، أو القريبة منهما، فإذا جاوزت هذين الطرفين في أعلى الخريطة الجامعة وأسفلها فأقبل على الرقعة المتوسطة بينهما، مبتدئاً من أقصاها في المغرب على شاطىء المحيط الأطلسي متجهاً نحو المشرق وانظر ما ترى.

إنك سترى رقعة فسيحة الأرجاء متلاحمة الأجزاء، تصطبغ بلون واحد، وترتسم أمامك في صورة طريفة تستوقف النظر وتستأثر بالانتباه، إنها صورة جمل ضخم، قد برك على الأرض بمؤخرته، ولكنه أخذ يهم بالنهوض، فنصب ساقيه الأماميتين، ورفع رأسه ومدَّ عنقه، وقد سُحب إلى الأمام من مشفره بحبل، وتدلى من عنقه حبل ثان، واجتذب إلى الوراء من منكبه بحبل ثالث، كأنه المقود في يد الراكب، أما مبرك الجمل فهو الجزء الأعظم من القارة الأفريقية، أعني كتلتها العظمى المحصورة بين المحيط والبحر الأبيض والبحر الأحمر، وأما ساقاه الأماميتان فهما الصومال

وأوغندة، وأما صدره فهو جزيرة العرب وما يليها من الشمال، وأما عنقه ورأسه الممتدان في قلب القارة الآسيوية فهي بلاد إيران وأفغانستان وباكستان وما فوقهن، وأما الحبلان الممدودان من مشفره ومن عنقه فهما سلسلتان من الأقاليم الآسيوية تمتد إحداهما إلى أقصى الشرق على المحيط الهادي أمام الجزر اليابانية، وتمتد الأخرى إلى الجنوب حتى تعبر القارة الآسيوية عند ملتقى المحيطين الهادي والهندي وهناك تؤلف مجموعة الجزر الأندونيسية، وأما المقود الذي يجذبه من منكبه إلى الوراء فهو سلسلة من الأقاليم الأوروبية تبتدىء من الأقطار التركية، وتسير في اتجاه شمالي غربي حتى تصل إلى قرب بحر البلطيق.

دع عنك الآن هذه التفصيلات الجزئية وألق على الخريطة نظرة عامة جامعة: أرأيت الكتلة العظيمة المعترضة في صلبها من الغرب إلى الشرق، وسطاً في موقعها بين الشمال والجنوب، وسطاً في جوها غالباً بين البرد القارس والحر اللافح؟

في هذه الرقعة الوسط، وفي هذا الجو الوسط، تستوطن الشعوب الإسلامية التي جعلها الله أمة وسطاً، وسطاً في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة والجحود، وسطاً في شريعتها نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب، والمثالية الذاهلة العقل، وسطاً في مطامعها بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة والحرص الجشع، وسطاً في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة، وسيط سلام بينهما، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها.

هذه الأمة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافي وحدة طبيعية جامعة جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة: وحدتين لو أثمرت كل منهما ثمرتها في مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الإسلامي، كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الإسلام تلك الحواجز الإقليمية في شؤون الاقتصاد والإنتاج، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعاً ينشر فيها الرغد والرخاء، ويحقق لها الاكتفاء الذاتي والاستغناء عما سواها، وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك

الفوارق والسطحية بين شعوب الإسلام في ألسنتها وألوانها، وفي مذاهبها وعاداتها، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية، وأن توجه رؤوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمي والأدبي، ورؤوسها المدبرة إلى تنسيق خططها السياسية والاجتماعية، وأن توجه جيوشها إلى التكتل في الدفاع عن كل شبر من أرضها، فكلما اشتكى من جسم الإسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية.

نعم.. لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الأمم الإسلامية من أرغد الأمم عيشاً، وأعظمها قوة، وأتمها عزة، فيا ليت شعري ما الذي قعد بها عن بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير في يدها مفاتيحها المادية، وبعد أن وضع الإسلام في يدها مفاتيحها الروحية؟

لقد كان المجال يكون فسيحاً في الجواب عن هذا السؤال، وفي التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود لو كان الإسلام اكتفى بتقرير هذه الحقائق والمبادىء، إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظرية لا يدركها إلا الأفذاذ الذين تتسع آفاقهم حتى يستوعبوا خريطة العالم الإسلامي في نظرة، ويستوعبوا عقيدة الإسلام وشريعته في فكرة.

ثم كان لهم أن يعتذروا بأن إقامة هذه الوحدة عبء جسيم لا يسعى إلى حمله طائعاً مختاراً من بين هؤلاء الأفذاذ إلا عبقري يؤمن في قرارة نفسه بأن له رسالة إصلاحية في هذا العالم، أما الجماهير والدهماء فإنهم لا يمتد نظر أحدهم إلى أبعد من قطره أو إقليمه، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته، أو نطاق حرفته.

فالرجل الذي لم ير في حياته هندياً ولا صينياً ولم يعرف روسياً ولا تركياً، ولم يعامل صومالياً ولا سنغالياً، كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم، وأن يهتم بشؤونهم وشؤون أقوامهم؟

ألا فقد أبطل الإسلام هذه الحجة، وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار، إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية، ولكنه وضع إلى جانبها نظاماً دقيقاً إلزامياً وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامي مركزاً في بقعة.

أتدري ما هذه البقعة؟ إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب، إنها القطب المغناطيسيّ الروحيّ الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إنها الكعبة: البيت الحرام، ومكة: البلد الحرام، ومنى: معسكر الحرام، وعرفة: عتبة باب الحرم، ذلكم هو مهد الإسلام في طفولته ومبعث نشاطه في فتوته، جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتماً على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً، ولو مرة في حياته، فليس لأحد منهم إذن أن ينطوي على نفسه في قطره وإقليمه، وأن يقول: إني لم أر في حياتي مشرقياً ولا مغربياً، إنه يجب عليه ديناً أن يرحل ليرى ويسمع، ولیندمج في هذه الكتلة الإسلامية الكبرى، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة، فإنه لا يباح لجماعة المسلمين أن يقطعوا هذه الشعيرة الموسمية، ولا مناص من أن تتجمع الوفود الإسلامية هنالك في كل عام في وقت واحد في صعيد واحد، بل في زي واحد، وأن ينشدوا جميعاً نشيداً روحياً واحداً، تردد معهم الجبال والأَكَمات فتتجاوب أصداؤه في قلوبهم، وتنصهر نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك، والوجدان الموحد.

تلك هي تجربة الوحدة الروحية، تكملها وتتوجها تجربة الوحدة الاجتماعية، ذلك أن الإسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب، ولكنه جعله في الوقت نفسه قياماً للناس وموسماً لتبادل مصالحهم في مختلف وجوهها وأنواعها، بل إنه لأمر ما جعل هذه قبل تلك في معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج، ألا نسمع إلى قول الله ـ جلَّت حكمته ـ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾[1].

إنه تطبيقاً لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة، وأن يمكثوا هنالك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية متكشفاً كل منهم عن زيه ومهنته، وجنسه ولهجته، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا، وهم في أوضاعهم الطبيعية، حتى

(١) سورة الحج: آية ٢٨.

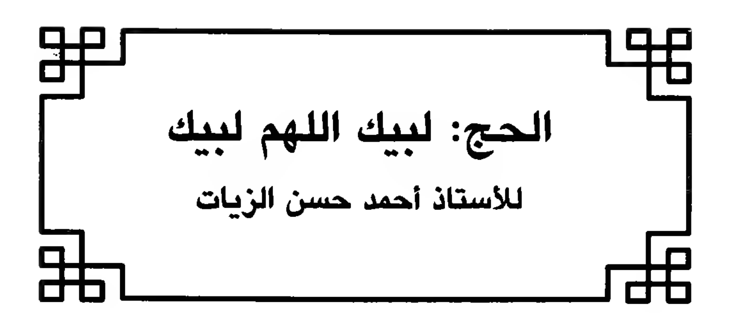
تبرز بينهم صورة هذه الرحلة الإسلامية المختلفة المظهر، المؤتلفة الجوهر.

هل فقه الناس إذن مغزى هذه الشريعة؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آن في نطاق أوسع، وعلى مقياس حقيقي مكبر؟

فقّهنا الله في أسرار شريعته، وأدبنا بآدابها، آمين[1].



(١) «نخبة الأزهار وروضة الأفكار»: ١٩٢ ـ ١٩٧ بتصرف.



الحج: لبيك اللهم لبيك

للأستاذ أحمد حسن الزيات

الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، كما يقوم على الثلاثة الأُخَر الأمر بين المرء وربه، وبين المرء ونفسه؛ فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاف والرحمة، والحج يقيمها على التعارف والألفة، فيحقق الأول بنفي العقوق معنى الإخاء، ويحقق الثاني بمحو الفروق معنى المساواة؛ والإخاء والمساواة شعار الإسلام، وقاعدة السلام، ومِلاك الحرية، ومعنى المدنية الحق، وروح الديمقراطية الصحيحة.

كان الحج وما زال مَطْهَر الدنيا: ترحض فيه النفوس[1] عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة؛ وكان الحج وما زال ينبوع السلامة: تَبْرد عليه الأكباد الصادية[2]، وترفهُ لديه الأعصاب الوانية[3]؛ وكان الحج وما زال مثابة الأمن: تأنس فيه الروح إلى موضع الإلهام، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلـٰهي في هذه الأرض السماوية.

وكان الحج وما زال موعد المسلمين في أقطار الأرض على عرفات:

---

(١) أي تغسل: انظر «المعجم الوسيط»: ر ح ض.

(٢) أي العطشى.

(٣) أي المتعبة.

يتصافقون على الوداد ويتآلفون على البعاد، يرفعون إليه دعوات واحدة، في كلمات واحدة، تَصَعَّدُ بها الأنفاس المضطرمة المؤمنة تَصَعُّدَ البخور من مجامر الطيب، أو العطور من نوافح الروض! هنالك يقف المسلمون في هذا الحشر الدنيويّ حيث وقف صاحب الرسالة، وحواريو النبوة، وخلفاء الدعوة، وأمراء العرب، وملوك الإسلام، وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن، فيمزجون الذكرى بالذكر، ويصلون النظر بالفكر، ويذكرون في هذه البقعة المحدودة، وفي هذه الساعة الموعودة كيف اتصلت هنا السماء بالأرض، ونزل الدين على الدنيا، وتجلَّى الله للإنسان، ونبتت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب، وثمرات العقل والقلب، وبينات الهدى والسكينة.

الحج مؤتمر الإسلام العام، يجدد فيه حبله، ويتعهد به أهله، ويؤلف بين القلوب في ذات الله، ويؤاخي بين الشعوب في أصل الحق، ويستعرض علائق الناس كل عام فيوشجها بالإحسان، ويوثقها بالتضامن، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنضُر، وعلى العزائم الخابية فتذكو، ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية، والمدنية الآلية، والمطامع الغربية، فيؤلف منها دعاء واحداً تجأر به النفوس المظلومة جؤاراً تردده الصحراء والسماء!

وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر! لقد حصرهم المستعمرون في أوطانهم المغصوبة، ثم قطَّعوا بينهم الأسباب، وحرَّموا عليهم التواصل، وفصلوهم عن الماضي الملهم والمستقبل الواعد، بطمس التاريخ، وقتل اللغة، وإطفاء الدين، فلم يبق لهم جُمعة إلا في هذا الموسم.

❀ ❀ ❀

إن في كل بقعة من بقاع الحجاز أثراً للتضحية ورمزاً للبطولة، فالحج إليها إيحاء بالعزة، وحَفْز إلىَ السموّ، وحث على التحرر، هنا غار حراء مهبط الوحي، وهنا دار الأرقم رمز التضحية، وهنا جبل ثور منشأ المجد،

وهذا هو البيت الذي احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعمرو وسعد وخالد، وهذا الشعب وذاك مجرُّ أذيال الغطاريف[1] من بني هاشم وبني أمية، وتلك هي البطحاء التي درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة!!

* * *

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2]، أما شرط الاستطاعة فقد بطل اليوم، وأصبح الحج فريضة عين لا تحول عن أدائها عقبة، ولا يَسُوغُ في تركها معذرة، فأنت تستطيع بالمال اليسير وفي الزمن القصير أن تحج على الباخرة والسيارة والطيارة، دون أن تعرض حياتك للموت، وثروتك للنهب، وصحتك للمرض...

لقد كان الحج لرهَقه الشديد وجهده الجاهد يكاد يكون مقصوراً على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعَملة؛ أما الناعمون المترفون من أولي الأمر، وذوي الرأي، وأصحاب الزعامة، فما كانوا يقدمون عليه ولا يفكرون فيه، فظل جَداه على المسلمين ضئيلاً لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة. فماذا يمنع الكبراء والزعماء اليوم أن يتوافوا على ميعاد الله؟

* * *

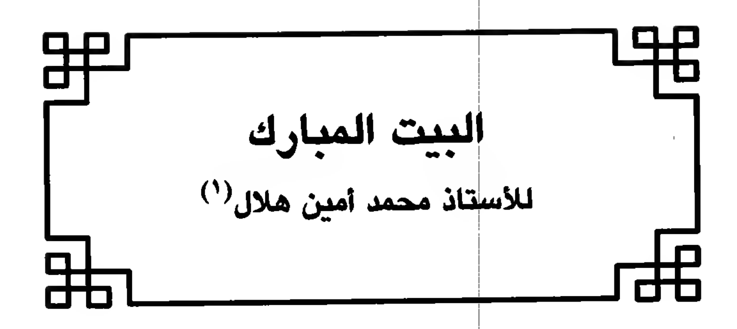
إن في حج سراة العرب والمسلمين إعلاءً لشأن الملة، وإغراءً بأداء الفريضة، وسعياً لجمع الكلمة، وسبيلاً إلى الوحدة المرجوة. وإن مقام إبراهيم الذي انبثق منه النور، ونزل فيه الفرقان، وانتظم عليه الشمل، لا زال مناراً للأمة، ومثاراً للهمة، ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد[3].



(١) جمع غُطارِف وهو السيد الكريم.

(٢) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٣) مجلة الرسالة: السنة الثالثة، العدد ٨١، سنة ١٣٥٣، ص: ٨١ ـ ٨٢ بتصرف يسير.



البيت المبارك

للأستاذ محمد أمين هلال[1]

تهفو قلوب المؤمنين إلى المسجد الحرام، ولا يهدأ هذا الحب مهما تغير الزمان وتراخت الأيام، ذلك لأنهم يرون فيه بقية من مجد دينهم السالف امتزج بروحهم امتزاج النور بالهواء لا يتسنى لمحلل أن يَفْصِمَ ما بينهما؛ ولا لمعترك الحياة أن تمحو أثرهما، يتذكر المسلمون ما غبر من تاريخ هذه البلاد وتمر بخيالاتهم أطياف مما عمل سكانها، ويستنبطون ما في الأرض ويستظهرون ما على ظهرها، فيشرفون من حال على حال، ويجدون أن دهرهم هدم منهم العناصر الحية فتناثرت رفاهيتهم وذاقوا بأسهم، فكأنهم هم الموتى وكأن أسلافهم أضفت عليهم الحياة أثوابها، فتلك آياتهم متجسمة تفرغ حياتها وتشرق نورانيتها على هذه المشاعر الكريمة، وتسطر كلماتها في الأرض إلى نهاية الدنيا ليقرأ فيها معاني الإخلاص والوفاء والرحمة، وناهيك برجال استلهموا الفطنة فما كذبتهم، وعالجوا الهموم فما صرعتهم، وقطعوا الشك يتلجلج في الصدور بقوة يقينهم، ومحوا الخوف يذهل النفوس بصرامة إقدامهم، فإذا دين الله يزيد أتباعه ولا يقلون، وينفذ شعاعه في رفق وتؤدة حتى يستفيض على الجزيرة وما حواليها جميعاً في مدى لا يتجاوز العشرين عاماً، وهي في عمر الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً، فكانت هذه المعجزة الإنسانية الكبرى التي تفيأ ظلالها

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

كل لاجىء، والمنارة الوضاءة لمعاني الإخاء والمساواة إذا رغبت الناس في نعمى الحياة، واهتدوا إلى دين الله.

أفكان من الغريب أن يشرع الله من فضله فريضة الحج، ويجعلها أحد أركان الدين الخمسة ليصل المسلمون حاضرهم بماضيهم، ويغذوا مشاعرهم بذكريات أسلافهم، ويترسموا في دنياهم خطى رجالاتهم، ويعلموا أن المسلم أخو المسلم، لا يفرق بين الأخوين اختلاف مكان أو تفاوت لسان أو ألوان، وهذه بقعة الحج تجمع بينهما على بعد المكان، وتغرس الود في نفسيهما على تقوى من الله ورضوان.

إذا أذن مؤذن الحج رأيت صدى دعوته يتجلجل في جنبات العالم الإسلاميّ، ويهز المشاعر هزاً إلى أرض الحجاز، وإلى الكعبة قبلة للمسلمين، وإلى تلك المناسك التي تفصح عن سرها وتبين عن شريف حكمها، فإذا وقف الحجيج في عرفات هاتفين: لبيك، لبيك وقد حسروا الرؤوس، واطّرحوا زينة هذه الحياة الدنيا فكأنهم في يوم المحشر وقد زاغت الأبصار فلن ترى إلا خاشعاً يتبتل، وباكياً يتوسل، ومذنباً يتوب، ونفساً تذوب، وتشعر آنئذ أن الروح الأمين والملائكة المقربين تطل على هذه الجموع من عُلٍ، معجبة بتقواها، مشاركة في دعواها، مقرة بقصور علمها عن مغزى الإرادة الصمدانية ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

هذا هو الحج وتلك من ثماره:

يؤلف بين المسلمين ويجمع كلمتهم، ويلفتهم إلى أن القوة في اتحاد الكلمة، واطّراح تلك الزخارف الفاتنة والرجوع إلى طهارة الدين، فإذا كانوا يريدون الخير فهذا طريقه معبد، وما عليهم لو خرج أغنياؤهم ومتوسطوهم عن قليل من المال في سبيل هذه الفريضة وشهود الجماعة، فيؤدون واجباً لله في إقامة أحد الأركان وواجب الأخوة الإسلامية في توثيق روابطها،

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٢.

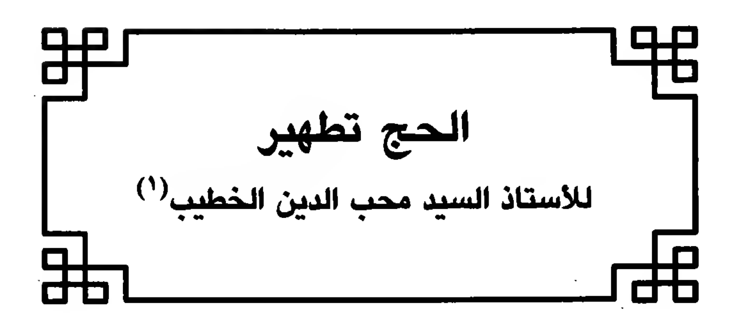
وواجب الإنسانية في بر جماعات انقطعوا لجيرة الله، وحُرموا كثيراً من وسائل الحياة، ثم شاهدوا آثاراً حافلة بشتى الذكريات تحدث عمن غبر حديثاً عجباً يهدي إلى الرشد ويحفز إلى كل فضيلة وكمال، وما تقهقر المسلمون إلا حين تراخت العُرى بين ماضيهم وحاضرهم، فزلزلتهم أطماع الدول، وتنكرت لهم مباسم الكون وخشنت مناعم الزمان، وضرب الدهر ضربته في ذلك البنيان المرصوص حتى كاد اليأس يعصر عُود الأمل ويصبح أبناء الإسلام في ليل من الشك مظلم، نعم في تلك البقاع الطاهرة تتحلى النفس بالقوة وتتجلى الشمائل المرجوة، وتحسس إلى النفس معاني الشرف والإباء والمفاخر تدفع بها دفعاً لا شعورياً إلى الاستهانة بالخطوب، مُصْخية[1] لقول القائل:

إذا أنت لم تحمِ القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

إن هذه المناسك التي يؤديها الحاج لتكشف عن نواحي العظمة في هذا الدين، وتحث على السمو بالروح إلى عليين، فهذا الإحرام والطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات، ورمي الجمار عند العقبة، وتقديم الهدي، واستلام الحجر الأسود، والإهلال بالتلبية، كل هذا يفصح للمتدبر العاقل عن مغازٍ سامية لصلاح المعاش والمعاد، وتلك البقاع الحجازية تهيب كل بقعة منها بالمسلم أن يكون رجلاً قويَّ الإرادة لا يثنيه في سبيل الحق والكرامة خطب وإن ذل ولا مُغْرٍ وإن جَلَّ، هذا جبل ثور وغاره المبارك مهبط جبريل على خاتم النبيين، وتلك دار الأرقم شعار الوفاء والتضحية، وتلك الكعبة بناء إبراهيم، وعرفات مجمع الحسنات، يرى المؤمن في كل منها حالاً تنطق بمجد الدين والأجداد وهادياً يرشد الأبناء والأحفاد...



(١) أي مستمعة.



الحج تطهير

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب(١)

أكتب هذه السطور لكل أخ من إخواني المسلمين وفقه الله لحج بيت الله الحرام في هذا العام أو في أيّ عام، فأتحدَّث معه في معنى الحجّ، والغرض منه، والأثر الذي يترتب عليه، وبماذا يكون الحجُّ مبروراً، وما الذي يفسد على الحجاج حجهم فينقلبون إلى أهليهم وقد خسروا ـ والعياذ بالله ـ دينهم، وأضاعوا نقودهم، وكانوا من إخوان الشياطين.

الحجُّ تطهير، وكما أن ثياب المرء تتسخ وتتنجس إذا لامستها الأقذار أو أصابها رشاش من نجاسة، كذلك نفسه تتسخ أو تتنجس إذا قارفت بعض الآثام، أو تعاونت مع الظلام، أو تلطخت بمساخط الله العزيز الجبار شديد الانتقام.

---

(١) محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبدالقادر الخطيب، يتصل نسبه بالسيد عبدالقادر الجيلاني الحسنيّ. من كبار الكتاب الإسلاميين. ولد في دمشق سنة ١٣٠٣ وتعلم بها وبالأستانة، وشارك في إنشاء جمعية النهضة العربية بها، ثم رحل إلى صنعاء وعمل في بعض مدارسها، ثم عاد إلى دمشق، ثم جرت عليه أحداث تنقل على إثرها من دمشق إلى مكة ثم دمشق فالقاهرة التي استقر بها وعمل محرراً في جريدة الأهرام، وأصدر مجلتيه الفتح والزهراء، وكان من أوائل مؤسسي جمعية الشبان المسلمين، وتولى تحرير مجلة الأزهر ست سنوات، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها. له عدة مصنفات ومكتبة خاصة فاخرة. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٨٩. انظر «الأعلام»: ٥/ ٢٨٢.

ونحن جميعاً غير معصومين عن ارتكاب الإثم، لأن الشيطان مسلط علينا، وإيحاؤه متصل بتفكيرنا، وله أساليب ناعمة مرنة في استمالتنا نحو الباطل والشر، وهو دائب على إيقاظ شهواتنا وتهييج مطامعنا وأنانياتنا. وكم بات قرير العين بإغراء الواحد منا وتحريضه على معصية الله باختلاس حق من حقوق خلقه، أو إلحاق الأذى بمن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، أو بعرقلة مصالح أناس وضع الله مصالحهم بين يديه، فيما يتولاه من وظائف الحكومة، أو فيما يقوم به للناس من مختلف الأعمال.

إن هذه الآثام تقع من الناس بالفعل في كل يوم وفي كل بيئة. فإن لم تقع منك نحوي أو نحو غيري، لا يبعد أن يقع مثلها مني نحوك أو نحو غيرك، ومما لا شك فيه أن هذه الألوف المؤلفة من الحجاج الذين يقصدون بيت الله من أندونيسيا والملايو وباكستان والأفغان وسائر البلاد الآسيوية، ومن المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا والسودان وبلاد السنغال ونيجيريا وأرتيريا والصومال وغيرها من البلاد الأفريقية، يوجد فيهم ـ كما يوجد في حجاج مصر والشام والعراق واليمن وغيرها ـ رجال ونساء لا عداد لهم صدر عنهم فيما مضى كثير أو قليل من مثل هذه الآثام، وهم الآن في طريقهم إلى معالم الحرم يريدون أن ينخلعوا من لباس بلادهم ليأتزروا بمآزر الإحرام ويطهروا جوارحهم بماء زمزم، ويتوجهوا بأدعيتهم إلى الله على أمل أن يكونوا من المقبولين عنده.

لقد حججتُ ـ ولله الحمد والمنة ـ ثلاث حجّات، ولم يقع نظري في كل ذلك على حاجٍ واحد نسي أن يخلع ملابسه التي كانت عليه قبل الإحرام بالحجّ، ليتسربل بمآزر الإحرام التي يشترك في مظهرها جميع الحجاج على اختلاف أوطانهم وأجناسهم ولغاتهم، ولكني كنت أتساءل بيني وبين نفسي في كل مرة: كم عدد الحجاج الذين طهروا نفوسهم وانخلعوا من أدناسها، وعزموا على أن يكونوا بعد حجهم طاهرين نظيفين، مترفعين عن الإسفاف نحو الإثم، والميل مع الباطل، والطمع في حقوق الآخرين؟

الغرض من الحج الانخلاع من ماض مشوب بالإثم والباطل والشر،

وتجديد العهد مع الله على استئناف حياة نظيفة مستقيمة يقنع صاحبها بنصيبه المقسوم له من الحلال، فنقاطع الشيطان في كل ما يحاوله من الاتصال بتفكيرنا، والإيحاء إلينا بما يوقظ أنانياتنا ومطامعنا وشهواتنا.

وليس في رموز الحج الكثيرة رمز واحد لا يتفق مع هذا الغرض الأول والأخير من أغراض الحج.

الانخلاع من الملابس المخيطة المختلفة الأشكال، والاستعاضة عنها بمآزر الإحرام: رمز للانخلاع من مظاهر الحضارة الكاذبة، والرجوع إلى وحدة الفطرة الإسلامية ونقائها وصفائها وبساطتها.

والتلبية التي ترتفع بها أصوات الحجاج بين كل خطوة وأخرى منادين ربهم «لبيك اللهم لبيك»: تجديد للعهد مع الله على الابتعاد عن كل ما يسخطه، والتزام كل ما يرضيه.

والأضاحي: تضحية، وصدقة، وتوسعة، وبذل.

ورمي الشيطان بالحصى أسباعاً أسباعاً: إيذان بمحاربة الباطل والشر، ومجاهرة للشيطان بالعداوة، وتأكيد العزم على مخالفته في كل ما يوسوس به إلى النفس، متوسلاً إليها بمدارج الشهوة ومزالق الهوى، وميول الأنانية، والرغبة في الكسب كيفما كان.

إن حجاج بيت الله الحرام لا يقصرون في جمع الحصى أسباعاً أسباعاً ساعة انحدارهم من مزدلفة إلى منى ليرجموا بها الشيطان، فهم يقومون بذلك بكل عناية ودقة، لا يشذ عنهم في ذلك ولا واحد منهم، ولكن كم ترى عدد الحجاج الذين إذا انقلبوا إلى بلادهم قاطعوا الشيطان حقاً، ولم يصغوا إلى إيحائه فيما يسوّل لهم من ارتكاب الأذى لمواطنيهم، واختلاس ما لا حق لهم باختلاسه من حقوق الغير، ومناصرة الأقوياء على الضعفاء في مختلف ظروف الحياة؟

لم يقع نظري في عرفات ومنى وما بينهما وبين مكة على حاج واحد لا تنطلق حنجرته بالنداء المتواصل: «لبيك اللهم لبيك» ولكن كم ترى عدد

الحجاج الذين يستعرضون في أذهانهم ـ عندما ينادون ربهم «لبيك اللهم لبيك» ـ الأمور التي يدعوهم الله إلى القيام بها، والصفات التي يأمرهم بأن يتصفوا بها، ومعاني الحق التي أوحى إليهم بألسنة رسله وجوب تحقيقها ومناصرة أهلها؟ كم عدد هؤلاء الحجاج الذين يستعرضون في أذهانهم هذه المعاني وأمثالها، ويتصورونها في عقولهم، عندما يقولون لربهم «لبيك اللهم لبيك» متخذين ذلك عهداً وثيقاً بينهم وبين الله على أنهم استجابوا لإرادته، وسيحققون أوامره فيما بقي من حياتهم، إلى أن يموتوا وهم على هذا العهد، صادقين مخلصين؟

وكم عدد الحجاج الذين خلعوا عن أجسامهم المخيط من ملابسهم فتصوَّروا في أذهانهم أنهم مكلفون بالانخلاع من طوارىء الإثم وعوارض الدنس الملطخة بها نفوسهم، ليدخلوا بيت الله وهم أطهار بنفوسهم كما هم أطهار بمآزرهم، وليخاطبوا الله بأدعيتهم وتلبيتهم وهم صادقون في الدعاء والتلبية.

وكم عدد الذين تجشموا متاعب السفر للحج، ودفعوا في سبيله النفقات الكثيرة، وهم يعلمون أن الغرض من الحج تجديد الحياة وإقامة حائل حصين من الحج بين حياة ماضية تلطخت بالقليل أو الكثير من الآثام، وحياة أخرى مستقبلة يكون من أثر الحج عليها أن تبقى نظيفة نقية مصونة عن قذارات الطمع والأنانية والبغي على كرامات الناس وحقوقهم وأموالهم وهنائهم؟

إن الملوك الظالمين لم يتوصلوا إلى ظلم الناس إلا بأيدي فريق من هؤلاء الناس، وإذا كنت قويَّ الذاكرة فإنك تستطيع أن تتذكر أسماء باشوات وبكوات حجوا بيت الله ثم عادوا فكانوا أعواناً للملوك الظالمين، بل إن من الذين حجوا بيت الله، ورأيتهم أنا بعيني في عرفات ومنى ومكة، أناساً وقفوا حياتهم على العبودية للمستعمر والكيد لإخوانهم المسلمين تحقيقاً لأغراض الاستعمار، رأيتهم وهم يطوفون حول الكعبة، ورأيتهم في عرفات وهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك»، وكنت أظن أن هذه الكلمة إذا قالها

إنسان بأي لغة من لغات البشر يتصور معناها ويخجل من مخالفة الله بعد انطلاق هذه الكلمة من فمه، لأن رجوع الرجل عن وعد وعده للمخلوق ـ فضلاً عن عهد تعهد به للخالق ـ يعدّ من الكذب والدناءة والانخلاع من صفات الرجولة.

الحج الذي يضع حداً بين ماضي الإنسان بما فيه من الآثام والمخازي، وبين آتيه بما يجب أن يكون عليه من نقاء وصفاء واستقامة، هو الحج المبرور، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

أما الحج الذي يخرج صاحبه من بلده إلى مكة وعرفات وهو مثقل بالذنوب والآثام، ثم يعود ليستأنف ما كان عليه من ذنوب وآثام، فهو الذي يخسر به صاحبه دينه والعياذ بالله، وتضيع به نقوده، ثم يكون به من إخوان الشياطين!

في كل سنة يحج عدد من المسلمين يزيدون كثيراً على مائة ألف، فلو أن هذا العدد من المسلمين عادوا إلى بلادهم في كل عام وهم من أصحاب الحج المبرور، لاختفى الشيطان من العالم الإسلاميّ، وليئس المستعمرون من أن تكون لهم مصالح في أوطان المسلمين، ولما وجد الملوك الظالمون الأيدي التي يستعملونها في استعباد رعاياهم وسرقة أموالهم ومطاردة الحق والخير من ممالكهم.

ولكن لماذا لا يتم الحج المبرور لجميع الحجاج؟ وما هو المانع من أن يكون حجهم مبروراً؟

أظن أن المسؤولية تقع على ورثة الأنبياء، وإن واحداً منهم إذا صحب ألفاً من الحجاج يستطيع أن يقنعهم بمعاني الحج المبرور، وأنه توبة، وأن التوبة انخلاع من الماضي القذر، واستقبال للحياة النظيفة، ومائة عالم إذا خرجوا مع الحجاج من أندونيسيا وملايا وباكستان والأفغان، ومن المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا والسودان وبلاد السنغال ونيجريا وأريتريا والصومال، ومن مصر والشام والعراق واليمن وحضرموت ومسقط والإحساء ونجد، مائة عالم إذا خرجوا للحج من كل هذه الأقطار، فتولى كل واحد

منهم تفهيم ألف من الحجاج معنى الحج المبرور، يستطيعون أن يحدثوا في العالم الإسلاميّ كله انقلاباً أدبياً هادئاً لا يقل في روعته وعظمته وجميل آثاره عن الانقلاب العظيم المبارك الذي قام به الغازي محمد نجيب وصحبه الأبرار رضي الله عنهم[1]، فلماذا لا يفعل علماؤنا مثل هذا؟

إن تفهيم الحجاج معنى الحج المبرور ليس في قوانين أمة من الأمم ما يمنعه، فلماذا كان علماؤنا يقصرون تعليم المناسك على مظاهرها وألفاظها، ولا يغوصون على مقاصدها وحقائقها؟

لماذا يتكلمون عن طهارة مآزر الإحرام، ولا يتكلمون عن طهارة النفوس من الآثام؟

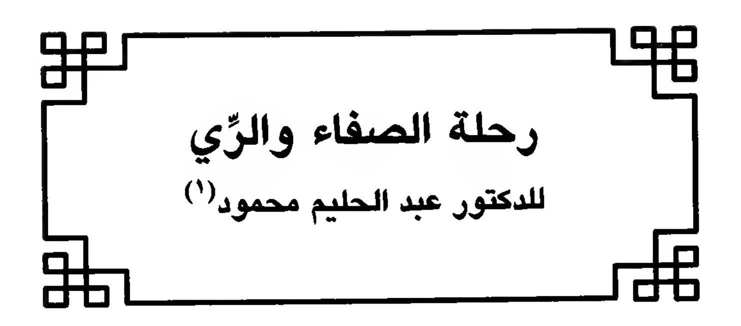
سبب ذلك ـ فيما أظن ـ أن ورثة الأنبياء من العلماء قليلون، وأكثرنا محترف ويعيش ليأكل، ولذلك ضاعت القيادة من أيدي أناس، وانتقلت إلى أيدي آخرين. و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2][3].



(١) هذا قبل أن تتضح حقيقة نجيب وعصبته الناصرية القذرة.

(٢) سورة الرعد: آية ١١.

(٣) مجلة «المسلمون»: السنة الأولى، العدد العاشر، ذو الحجة سنة ١٣٧١، ص: ١٠٠٥ ـ ١٠٠٨.



رحلة الصفاء والرِّي

للدكتور عبد الحليم محمود[1]

إن كلمة الإسلام التي هي عنوان على دين الله الخالد تُشعر - في وضوح - بالهدف الذي أراده الله سبحانه من رسالته التي لم يختلف جوهرها على مر العصور.

هذا الهدف هو إسلام الوجه لله، والتسليم له، والدخول في رحابه. وذلك - بالنسبة للإنسان - كمال، وبالنسبة للمجتمع أمن وطمأنينة.

وقد اختلفت وسائل الإسلام في قيادة الإنسان إلى إسلام الوجه لله، وتعددت نظراً لاختلاف طبائع الإنسان وتعددها، وما كانت العبادات في الإسلام على اختلاف ألوانها، إلا وسائل لتزكية النفس، وكمال الإنسان حتى يستأهل لمرضاة الله تعالى، وحتى يفلح بالقرب من الله والانتساب

---

(١) عالم صوفي. ولد في عزبة أبو أحمد التابعة لمركز بلبيس في محافظة الشرقية سنة ١٣٢٨. وأبو أحمد الذي نسبت إليه العزبة هو جده. كان والده يدرس في الأزهر فسافر به إلى القاهرة فدخل الأزهر هنالك، ، ثم انتقل إلى معهد الزقازيق، وترقى في دراسته حتى حصل على العالمية ثم نال الدكتوراه من باريس، ورجع من هناك ليعين مدرساً لعلم النفس بكلية اللغة العربية ثم أستاذاً للفلسفة بكلية أصول الدين ثم عميداً للكلية، استعانت به عدد من الدول العربية موجهاً وزائراً وشارك في كثير من المؤتمرات. ترقى في المناصب حتى صار وزيراً للأوقاف ثم شيخاً للأزهر. له مصنفات كثيرة. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٣٩٨. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٢٧٠ - ٢٧٢.

إلى عباد الرحمن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[1]، ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾[2].

وإن من هذه العبادات الحج، إنه وسيلة من أسمى وسائل قيادة الإنسان إلى الله تعالى، وهو مجموعة رائعة من الرموز الروحية، التي تنتهي - إذا أقيمت على وضعها الصحيح - بالمسلم إلى الدخول في المحيط الإلٰهي.

وتبدأ أعمال الحج - بتوفيق الله تعالى - بالاغتسال الظاهر، بالنظافة الجسمية، فإذا ما تم ذلك يتوب المسلم توبة خالصة نصوحاً، نادماً على ما فعل من آثام، مقلعاً عن الذنب، عازماً عزماً لا يلين على ألا يعود إلى ذنب أبداً، متجهاً بتوبته إلى الله تعالى طالباً منه العون والتوفيق، راجياً مرضاته.

وتأكيداً لهذا التطهر الباطن والتطهر الظاهر يلبس ملابس الإحرام بيضاء ناصعة، يلبسها على طبيعتها التي نسجت عليها دون أن تدخلها صنعة، فتغير من معالمها، أو تبدل من أوضاعها، إنه يلبسها على الفطرة وعلى النقاء، تاركاً ما عساه أن يكون قد تلوث بالأخطاء من ملابسه.

ثم يسجل العزم المصمم على استمرار الطهر فيما يستقبل من أيام بهذه الكلمات التي تعبر عن الاستجابة الكاملة لله سبحانه وتعالى:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

إن هذه الاستجابة إلى الله سبحانه وتعالى عهد منه إلى الله بالتزام إسلام الوجه له سبحانه، يكرر هذا العهد في كل آونة بقوله إذا صعد، وبقوله إذا نزل، بقوله مصبحاً، وبقوله ممسياً، فيرتسم في فؤاده بأحرف من نور الإيمان، ومن سناء الهداية..

---

(١) سورة الشمس: آية ٩.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٩.

ويبدأ الطواف: يبدؤه ببسم الله، والله أكبر.

وما كان البيت ـ هيكلاً وبناء ـ في يوم من الأيام المقصد الأخير للطائفين والعاكفين، والركع السجود، وإنما هدفهم الأول والأخير رب البيت.

ويستلم الحجر الأسود.

والحجر الأسود إنما هو الحجر الذي بقي يتسم بطابع سيدنا إبراهيم الذي لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، والذي تضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يبعث في الجزيرة العربية رسولاً عربياً هادياً ومزكياً، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

وكان المسلم بهذا الاستلام لهذا الأثر الإبراهيمي يعاهد الله على ألا ينحرف عن الملة الحنيفية، وأن يكون على مر السنين تابعاً لهذا الرسول العربيّ الذي بعثه الله رحمة للعالمين.

إنه يطوف معلقاً قلبه وبصره وسمعه وكيانه كله برب البيت...

إنه يطوف خاشعاً خاضعاً، يدعو ويتضرع، لعله يشعر بنسمات الرضى، بنفحات الأنس، بكأس المحبة، بسلسبيل المعرفة:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

ويذهب إلى السعي يبتدىء من الصفا أي من الصفاء، ذاهباً إلى المروة، أي إلى الري وإلى المروءة يتزود منهما، ويكر راجعاً إلى الصفاء من جديد، ليزداد صفاء، وليزداد نوراً، ... وهكذا، من الصفاء إلى الري، ومن الري إلى الصفاء.

وفيوضات الله لا تنتهي، ومِنَحه سبحانه وتعالى لا تحدها حدود، إنه

---

(١) سورة البقرة: آية ١٢٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٠١.

يسعى وهو متذكر لتلك السيدة الكريمة التي كانت تسعى وكلها رحمة بابنها.

إنه يسعى رحمة بنفسه، ويسعى ليكون رحمة في أسرته وفي عشيرته وفي وطنه وفي العالم بأسره.

إنه يسعى ليصير رحمة:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[1] ويذهب إلى عرفات للتعرف على الله، سبحانه وتعالى، وليقف متلقياً منه سبحانه رحمته.

والحج عرفة، كما يقول الرسول ﷺ إنه تعرف على الله سبحانه وتعالى، مصدر الخير كل الخير، ومصدر النعمة كل النعمة، ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنسانيّ.

إن الذي يتعرف على الله يصبح من الكمال الإنسانيّ في الذروة، وما كانت طريقة التعرف على الله في يوم من الأيام قراءة آراء الفلاسفة وهي متضاربة متعارضة.

وإنما سبيل التعرف على الله توبة نصوح، واستجابة مخلصة، وطواف بالبيت في تضرع وابتهال إلى رب البيت، وسياحة من الصفاء إلى الري، ومن ري يزداد إلى صفاء يصفو.

فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك، يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نوراً يعرفها به، فتتعرف عليه وتلتزمه وتقف عنده وتنتهي إليه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾[2].

وليس هناك منتهى دون الله سبحانه وتعالى، وكل منتهى دونه هو منتهى مزيف فاسد، أما المنتهى الحق فهو الله سبحانه وتعالى.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: آية ١٠.

(٢) سورة النجم: آية ٤٢.

(٣) سورة الممتحنة: آية ٤.

وتنتهي أعمال الحج بالذهاب إلى منى والمكث فيها لرجم مصدر الشر: إبليس مرة ومرة ومرة....

وما كان رجم إبليس إلا رجماً لعامل قوي من عوامل الفساد والمعصية والإثم.

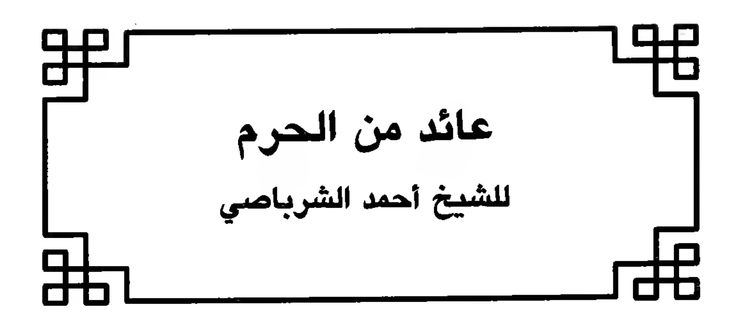
إن المسلم يرجمه مؤكداً بذلك الرجم أنه تخلص إلى الأبد من الشر، من المعاصي من كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى وذلك هو العيد حقيقة والبهجة والسعادة.

والعيد الإسلامي عقب الحج إنما هو احتفال عام في الأمة الإسلامية بأكملها بمن انتهى بهم الحج إلى إسلام الوجه لله.

إن العيد الأكبر إنما هو حفل تكريم لمن استقام أمرهم على الجادة، لمن دخلوا بالحج في عباد الرحمٰن، لمن أسلموا وجههم لله سبحانه وتعالى، لمن أسلموا[1].



(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة الأولى، العدد ١٢، ذو الحجة سنة ١٣٨٥، ص: ١٥ ـ ١٧.



عائد من الحرم

للشيخ أحمد الشرباصي

إن من حسنات دين الله تعالى أنه إذا أمر بشيء طوى الأمر على حكمة وثمرة، وإذا نهى عن شيء جعل للنهي سبباً وعلة، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾(١) وهو لا يقول للإنسان: اعتقد وآمن ثم فكر وابحث، بل يقول له: ابحث وفكر، ثم آمن واعتقد، وحتى الأمور التعبدية التي لا تبدو لنا حكمتها تنطوي حقيقتها على حكمة وهدف، وإذا كنا لا نعرف هذه الحكمة أو هذا الهدف فلعل السبب راجع إلى قصور في الفهم وضيق في الإدراك، وليس عدم العلم بوجود الشيء دليلاً على أنه غير موجود، فما أكثر الأشياء التي لا نعلمها ومع ذلك هي موجودة وقائمة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

هذا هو الحج مثلاً: كلما أمعن الإنسان فيه النظر تكاثرت أمامه الحكم والعبر، ففي أوائل شهر ذي القعدة من كل عام يؤذن مؤذن الإيمان في المسلمين بالدعوة إلى حج بيت الله الحرام، فيسمع السامع ويستجيب القادر، ويسعى الحجيج إلى ربهم مواكب في إثر مواكب، وجموعاً وراء جموع: منهم فريق يتجه إلى المدينة فيبدأ بزيارة الرسول قبل الشروع في أداء الفريضة والقيام بمناسك الحج، ومنهم من يتجه إلى مكة إذا جاء متأخراً فيقوم

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٢.

بالفريضة، ثم يذهب عقب الموسم إلى مدينة الرسول ﷺ ويتوالى تجمع الجموع في رحاب مكة ورحاب المدينة قبيل موسم الحج، ولكن هذه الجموع مع كثرتها وضخامتها تعد محدودة قليلة بالنسبة إلى الجمع الأعظم الذي يتكتل في الحج الأكبر، فإذا أشرق يوم عرفة رأيت الجبل الواسع الفسيح - جبل عرفات - كأنه يتطامن أو يخشع من ضخامة هذه الجموع الهائلة التي تلاقت على موعد محدد لتمثل بضخامتها قوة الإسلام وعزة المسلمين، لتمثل وبحسن استجابتها صدق الطاعة لله رب العالمين، لتمثل وبملابس إحرامها إخلاصَ الخضوع والتواضع لله في المظهر والمخبر، وفي الحس والنفس، لتمثل وبجنبها ما لا يليق من القول والعمل الاعتصام بحبل الله القوي المتين، والتأبي على وسوسة الشيطان الخبيث اللعين: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[1].

هناك تجتمع هذه الآلاف المؤلفة من الحجيج الذين كتب لهم ربهم النعمة، وحفهم خالقهم بالرحمة، يتلاقون فوق الجبل الكريم المبارك عرفات، ويقفون في ساحته طاعة لأمر ربهم، واستجابة لنداء رسولهم، بعد أن زاروا مكة منزل الوحي، وطافوا بالكعبة بيت الله الحرام الذي يقول فيه القرآن: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[2]، وبعد أن سعوا بين الصفا والمروة: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[3] وهناك يقرعون أبواب السماء بالدعاء، ويجأرون إلى ربهم بالتكبير والتهليل والرجاء، يسألونه أن يغفر ذنوبهم، ويتقبل متابهم، ويتم

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٣) سورة البقرة: آية ١٥٨.

حجهم، ويوفقهم لجمع كلمتهم، ودراسة مشكلاتهم، وإخلاص نياتهم، واستكمال حرياتهم، وتوطيد عزتهم، وتحقيق العدالة والتكافل بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم... ويتذكرون وهم فوق الجبل، وفي أثناء هذه اليقظة الروحية القوية أن رسولهم محمداً ﷺ وقف موقفهم هذا منذ مئات ومئات من السنين، وخطب في أتباعه خطبة الوداع التي وعاها الزمن ورددتها الأيام، وأبطل فيها الوثنية والشرك، والربا والظلم، وأنصف فيها المرأة والضعيف، ورد فيها الحق إلى نصابه، كما يتذكرون في هذا اليوم أيضاً أنه قد نزل على رسولهم قول ربهم جلَّ جلاله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1].

وفي هذا اليوم الذي يُعَدّ عند الله تبارك وتعالى أفضل الأيام، وفي هذه اللحظات التاريخية الخالدة في حياة مَن حج وسعى من بني الإنسان، يلزم المؤمن أن يضع فاصلاً قوياً متيناً بين حاضره وماضيه، فهو قد أحرم ولبى وطاف وسعى، بعد أن تاب إلى الله، وتآلف مع عباد الله، ثم ازداد إشراقاً وضياء بتطهير الله، فلا بد له إذن من أن يعد نفسه في هذا اليوم المجيد كأنه يولد من جديد، وأن سجله مع الله ومع الناس يجب أن يعاد فتحه منذ البداية بلا أوزار ولا أثقال، فهو إذن يأخذ على نفسه العهد الوثيق والوعد الأكيد بأن يقلع عما كان يأتيه حيناً أو أحياناً من انحراف أو اعتساف، وأن يحرص على الطاعات والباقيات الصالحات، يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه، واصل في الخير بعد أن نزل ضيفاً على مولاه، فأكرم وفادته ومسعاه، وأكمل له أمنه وهداه، مما يستوجب إخلاص العمل لوجهه ورضاه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾[2] ثم يعود إلى وطنه مع غيره من الحجاج بعد أن طهرهم ربهم جل جلاله ذلك التطهير المنقي الممحص الذي يجعلهم ـ إذا صدقوا وأخلصوا ـ وكأنهم مولودون لساعتهم فليس في حياتهم إلا الطهارة والصفاء.

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) سورة قريش: الآيتان ٣، ٤.

ولكن السؤال الذي يجب أن نسأله هنا ويلزم أن نجيب عليه بوضوح هو: أيحقق المسلمون فعلاً هذه الأغراض والأهداف المأمولة في موسم الحج وبعد موسم الحج؟

الجواب: لا.

وإذا كنا نقول إن المسلمين لا يحققون الأهداف المأمولة من موسم الحج فإنه يلزم منا الاستثناء هنا، وإن كان يلزم الاستثناء هنا، إذ توجد قلة مخلصة تحاول جهدها أن تبلغ بأداء الحج غايته وهدفه، ولكن هذه القلة تضيع بين طوفان آخر هو طوفان الغفلة عن الحكم الجليلة العظيمة لموسم الحج، وطوفان الكسل والتخلف عن تحقيق هذه الحكم بالقول والعمل، وبمختلف الوسائل فهذا فريق يحج لأنه يريد أن يزيل عن كاهله ما أثقله به من ذنوب وسيئات، ولا مانع عند هذا البعض من أن يحج اليوم ليزيل ذنوبه، ثم يعاود الذنوب والمنكرات غداً، وأمامه ـ كما يتوهم خطأ ـ فرص كثيرة لكي يعود فيحج فيزيل الآثام مرات ومرات، وكأنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[1] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

وفريق يحج للسمعة والشهرة والتمتع بلقب «الحاج»، وله في هذا اللقب مآرب أخرى يطول حديثها كما يطول ليل الشتاء الثقيل.

وفريق يذهب إلى الحج وهو جاهل به وبأحكامه ونظامه، غافل كل الغفلة عن حكمه وأهدافه وثمراته، فهو يقاد بلا وعي أو بصيرة، وهو يقلد بغير علم أو فهم، وهو يردد ما يقال له من عبارات أو دعوات، فيحكيها كما تحكي الببغاء كلمات تسمعها دون أن تفقه لها معنى أو مغزى، ولو أنصف المسلمون دينهم وأنصفوا أنفسهم أيضاً لكان الحج في حياتهم فاصلاً رائعاً يفصل بين ماض لا يرضى ولا يشرف، وبين مستقبل يجب أن يكون عامراً بجلائل الأعمال وصوالح الأفعال، ولو أنصف المسلمون دينهم

---

(١) سورة النساء: آية ١٤٢.

(٢) سورة الأنفال: آية ٣٠.

وحجهم وأنفسهم لكان مؤتمر الحج في دنياهم مغنياً لهم عن كثير من المؤتمرات والاجتماعات ولحلوا مشكلاتهم في حمى ربهم حل العقلاء البصراء المخلصين، ولاختطوا لأولاهم وأخراهم خطة تصلهم بأسباب ربهم، وتمكن لهم في أرضهم، وتبعدهم عن أسباب فرقتهم وضعفهم وذلتهم وهوانهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[1].

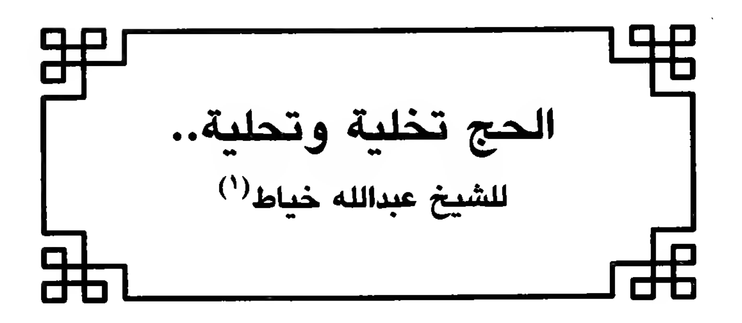
يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام:

إذا كان النبي الصادق الأمين قد قال: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» فليس معنى ذلك أن الحاج قد تخفف من ذنوبه وتخلص من آثامه فحسب، بل معنى ذلك ـ أيضاً ـ أن الله قد هيأ له فرصة العمر الذهبية الفريدة، فإذا كان قد قصر أو تخلف في الماضي، فها هوذا ربه تبارك وتعالى كأنه يخلقه من جديد ويسويه بقدرته الربانية مرة أخرى في صفاء ونقاء، فواجبه المحتوم هو أن يحسن استغلال النعمة، وأن يواصل المسير بعد ذلك على الصراط المستقيم، يؤدي واجبه نحو ربه ونحو دينه ونحو الناس جميعاً في استقامة وإخلاص بعد هذا نذكر موضوع الماء، وموضوع الذبائح في منى، وموضوع إتعاب النفس والتعرض للشمس، وموضوع غناء الحجيج، وسبحان مَن لو شاء لهدانا جميعاً سواء السبيل، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون[2].



(١) سورة ق: آية ٣٧.

(٢) «الموسوعة الشرباصية»: ٥/٣٠٤ ـ ٣٠٨ بتصرف يسير.



الحج تخلية وتحلية..

للشيخ عبدالله خياط[1]

في هاتين اللفظتين المسجعتين التي اخترنا أن تكون موضوعاً لمقال اليوم نستجلي ما تنطوي عليه أو على الأصح ما تهدف إليه هذه العبادة (الحج) التهذيبية الاجتماعية التي تنتظم من المسلم قلبه وجسده وماله ـ أو تجهد جميع ذلك منه كما قال أبو الشعثاء: نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن دون المال، والصيام كذلك، والحج يجهدهما أي المال والبدن.

وإن التخلية توحي بسلب دائب لا هوادة فيه تجاه النفس ونزواتها والحظر عن المهابط في الفترة التي يتلبس فيها الحاج بالنسك ويتجرد للإحرام، إيذاناً بأنه قد تجرد عن كل هوى وجانَبَ كل نزعة، وابتعد عن كل تدهور وإسفاف يتنافى مع الصون المطلوب والكمال المفروض لهذه العبادة، يصور هذا الواقع ـ واقع التخلية ـ قول رب العزة: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[2]. فالآية الكريمة ترسم أرفع منهج يجب أن يلتزمه الحاج في حجه ليبلغ به أفضل جزاء ويصل إلى أرفع غاية من الغفران والرضوان كما ورد في الحديث: «من حج

---

(١) عبدالله بن عبدالغني خياط إمام وخطيب المسجد الحرام. ولد سنة ١٣٢٦. وكان مدرساً بمدارس مكة ثم أصبح عميداً لكلية الشريعة فيها، ثم مديراً للتعليم بمكة فمستشاراً في وزارة المعارف. كان متواضعاً، له أخلاق العلماء وشيم الصالحين. توفي سنة ١٤١٥ رحمه الله تعالى. انظر «تتمة الأعلام»: ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٢.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» وفي رواية: «خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وتلك هي الثمار التي يحرزها الحاج من حجه ويحصل عليها بقدر حزمه وعزمه في التخلية في زيارته إلى بيت ربه، وقصده للمشاعر والرحاب المقدسة في مهبط وحيه.

وثمة ثمار معجلة يحصل عليها الحاج تتجاوز نطاق الفردية إلى حيز أوسع، ينتظم الأمة جمعاء، فالحج يشهده عشرات الألوف من المسلمين كلها قد تخلى عن وطنه وأهله وولده وحيثياته وأقبل على الله وانضم إلى أخيه في جوار البيت العتيق، يعبد الله كما يعبده، ويلبي كما يلبي، ويؤدي النسك، ويقضي التَّفَث كما يؤديه أي مسلم من أي صقع من الأصقاع، فعليه إلى جانب هذه الروحانية التي غمرته والتخلية التي يفرضها عليه نسكه أن ينضم إلى إخوانه الذين يمثلون مختلف الأقطار الإسلامية للعمل على جمع الكلمة وتوحيد الصف وتحقيق أهداف الإسلام ورسم خط السير نحو غاية موحدة وسبيل يلتقي فيه المسلم بأخيه لا يقف به عند نزعة، أو يفصله عنه شعار، أو يصده عن المشاركة في رسم الهدف مبدأ يحتضنه، أو اتجاه ينزع إليه، أو نحلة ينتحلها، فإن التخلية عن ذلك لا تقل أهميتها عن التخلية تجاه النفس وشطحاتها، لأن المسلمين لم يكونوا في زمن أحوج منهم إلى التخطيط لوحدتهم ولمّ شعثهم ونبذ الخلافات ورأب الصدوع بينهم من هذا الزمن الذي ترابطت فيه الفتن وتضافرت قوى الشر على الإسلام وأهله تبتغي الإجهاز عليه بعد أن غدا غريباً بين أهله، صريعاً يطلب النجدة، وأنى له بذلك وقد وضعت السدود والحواجز بين المسلمين لئلا يلبوا الصريخ أو تسمع لهم نأمه[1].

لقد مُني المسلمون في أعقاب الزمن بفعل أعدائهم بالفرقة والاختلاف وتحيز كل فريق لما يحتضنه من مبدأ، أو يعتنقه من شعار، أو يأخذ به من مسلك، في حين أن الله ذمّ الفرقة في الغابرين ليحذرها أولو البصائر ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ

(١) هكذا كتبت ولعلها: نامّة، وهي الحس والحركة.

ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[2].

أجل.. مني المسلمون بالفرقة والاختلاف مع أن دينهم واحد ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[3] والأمة واحدة والرب واحد ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾[4].

والرسول المرسل بهذه الشريعة الإسلامية واحد ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[5] وشريعته واضحة لا تتشعب فيها المسالك أو تختلف فيها النظريات والآراء.

اختلف المسلمون مثلاً وتفرقوا في الأخذ بالثقافة الغربية البعيدة عن المحيط الإسلاميّ، والتي تقوم دعائمها على انسلاخ الأمة من مقومات دينها وركائز أخلاقها وفصلها عن إسلامها وتقطع الصلة بأمجادها، ففريق من المسلمين ـ ولعلهم سواد الناس في مختلف أقطارهم وأمصارهم ـ يدفعون بعجلة هذا المد الوافد والثقافة العجيبة بدعوى التقدمية والسير في ركب الحضارة وعدم التخلف والاتهام بالرجعية،، وينشئون لذلك تعابير ومفاهيم براقة خلابة تبلبل أفكار الشباب الإسلاميّ وتدفعه إلى التقليد دون وعي ناضج وهدى راشد.

والفريق الواعي من عقلاء الأمة ومفكريها الغيور على الإسلام الحريص على وحدته، وعدم تلوينها واصطباغها بصبغات زائفة خادعة يرى ضرورة الاستبراء للدين وأخذ الحيطة من كل ثقافة وافدة غربية أو مستغربة والأخذ منها بما يتمشى مع الواقع الإسلاميّ دون تنكر لعقيدة، أو تحلل من مبدأ، أو انمياع وذوبان لشخصية، أو تحلل من خلق إسلاميّ كريم.

---

(١) سورة الشورى: آية ١٤.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٥٩.

(٣) سورة المائدة: آية ٣.

(٤) سورة المؤمنون: آية ٥٢.

(٥) سورة الأعراف: آية ١٥٨.

واختلف المسلمون وافترقوا أيضاً في المجال الاقتصاديّ، ففريق من المسلمين يتجوز في التعامل مع البنوك لاستثمار رؤوس الأموال أو الاقتراض منها بفائدة محدودة مشروطة، وأصدر البعض في ذلك فتاوى وفتح الباب على مصراعيه بدعوى ضرورة تشغيل الأيدي العاملة وإنعاش الاقتصاد الإسلاميّ، وتنظيم الموارد وغير ذلك من العبارات المعسولة.

والفريق الآخر معاكس ومناهض لهذه النظرية والمبدأ الذي يستحل محرماً آذن الله من يجنح إليه أو يتعامل معه بالحرب، ويشجع إقامة بنوك للتسليف دون فائدة كقرض حسن مشروع، وعلى استثمار رؤوس الأموال في شركات مضاربة بالأموال خاضعة للربح والخسارة تتوزع الأرباح والخسائر على المساهمين بعد خصم تكاليف وأجور الخدمات وما إليه.

والأمثلة على اختلاف المسلمين وتفرقهم في شتى المجالات لا تستوعبها السطور أو تحصرها الأمثلة.

هذا كان من الواجب المفروض بل ومن الثمار المعجلة التي تجنيها المجموعة الإسلامية في الرحلة المباركة رحلة الحج: عقد المؤتمرات، وتنظيم رابطة الإسلام لمختلف الندوات لعموم أفراد المجموعة حسب مجالاتهم، فإن من صميم أهداف الرابطة الإسلامية القائمة في مهبط الوحي بحث الشؤون الثقافية والتربوية ودراسة الشؤون الاقتصادية الإسلامية، وبحث القضايا الإسلامية الموحدة وتحقيق التعاون بين المسلمين والصدور من هذا الوادي المقدس بفكرة موحدة ورأي إسلامي جماعيّ في مختلف الشؤون الإسلامية، فهذا البلد الأمين الذي انبثق منه نور الإسلام فأضاء بإشعاعه الخافقين وسارت على ضوئه الأمة حقباً خلد لها فيها أمجاداً، ونشر لها مُثُلاً، ودوَّن لها عدالة ليس لها مثيل في تاريخ أمة.

هذا البلد موطن الحج ومهوى أفئدة المسلمين من حقه أن يصنع للأمة تاريخاً ويكون لها من جديد وحدة، ويجمع لها شملاً مبعثراً، نعود فنقول إنها ـ أعني التخلية عن النزعات والشعارات والمبادىء والنحل التي تقف بالمسلم أو تفصله عن أخيه ـ لا تقل أهميتها عن التخلية تجاه النفس وشطحاتها في

الفترة التي يتلبس فيها الحاج بالإحرام ويتجرد طاعة للملك الديان.

أما التحلية وهي الشطر الآخر في موضوع المقال واللفظة المرادفة المعاكسة مفهوماً ومدلولاً للفظة (التخلية) فهي في واقعها إيجاب للمثل العليا، ومدرج للفضائل والتكملات يترقى فيه الحاج بحسب نزوعه المخير، واعتماله في نفسه، وتصميمه على صقل جوهره.

يصور هذا الجانب في أوضح بيان قول رب العزة ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾[1] وقوله تعالى في إيضاح الهدق من ذبح الأضاحي ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾[2] ففعل الخير الذي تشير إليه الآية الأولى مطلق يشمل الفضائل والتكملات التي يقرنها الحاج بحجِّه ويحرص عليها في رحلته إلى زيارة بيت الله مما يرتفع بحجه إلى درجة البرور، ويأمل أن ينال عليه أفضل الأجور، كما قال ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

وهذا المدلول الواسع أو الإطار الفضفاض الذي ينتظم الفضائل والتكملات وجميع ألوان البر منه ما يتصل بمسلك الحاج مع نفسه وأخذها بالحزم والعزم في العبادة، وعدم ضياع فرصة الحج إلا في الاشتغال بألوان القُرَب كصلاة النافلة والذكر والطواف، وكالإخلاص وهو العمدة في سائر الأعمال ومحور العبادات بحيث يغدو الحاج في منجاة عن الرياء والسمعة والعُجب والخُيلاء، ومنه ما يتصل بالغير أي معاملة الحاج لغيره كإحسان الصحبة وطلاقة الوجه ودفع الأذى وإفشاء السلام، وكالبر والصلة، وغير ذلك مما يتخلق به الحاج ويسعى إليه جهده.

وإن من أجمع خصال البر ومما لا غنى للحاج عنه توجيهه ﷺ لأحد أصحابه بقوله: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تعطي شسع النعل ـ وهو تنبيه من الأدنى للأعلى من الفضائل ـ ولو أن تُنَحِّي الشيء من طريق الناس

---

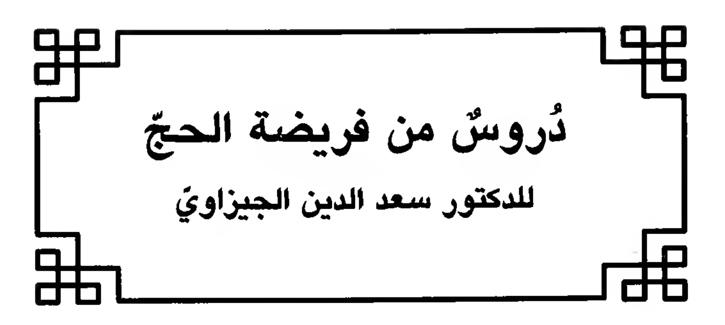
(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٢) سورة الحج: آية ٣٧.

يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه ـ الحديث، كل ذلك مما يشير إليه شطر الآية الأولى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أما شطرها الآخر: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] مع قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾[2] ففيه التوجيه إلى الثروة الضخمة والركيزة التي تكون بها العدة، وهي مدار كدح الكادحين ومحور نشاطهم وغاية ما يأملون أن يصلوا إليه، إنها تقوى الله وهي خير ما تنطوي عليه القلوب وأفضل ما تعمر به، ولذا كان التوجيه إليها خاصاً بأولي الألباب لأنهم الصفوة التي تعقل عن الله مراده وتأخذ في الاتجاه الذي يرضيه ولا تخالف عن أمره، وللتقوى آثارها في توجيه السلوك العام للمسلم، وتصحيح اتجاهاته، والارتفاع به إلى حظيرة الله، وبقدر نصيب العبد من التقوى يتسع له المدى في الحصول على السعادة في العاجلة والعقبى كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4].

ولما كان قوام رحلة الحج الزاد المادي دفعاً للاتكالية وَجَّه الرب ـ جلَّ جلاله ـ العباد فيها إلى الزاد الروحيّ فهو خير مآلاً وأحسن عقبى، فلن يصل الحاج إلى غايته إلا به بل كل مسلم في مراحل حياته وقطع الأشواط فيها لن يبلغ غايته إلا بالمزيد من التقوى، وصدق الله إذ يقول في التوجيه إلى التخلية والتحلية في رحلة الحج: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5][6].

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.
(٢) سورة الحج: آية ٣٧.
(٣) سورة الطلاق: آية ٤.
(٤) سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣.
(٥) سورة البقرة: آية ١٩٧.
(٦) «مجلة رابطة العالم الإسلامي»: العدد ٩، السنة ٢، ذو القعدة سنة ١٣٨٤.



دُروسٌ من فريضة الحجّ

للدكتور سعد الدين الجيزاويّ

إن المتأمل في أسرار هذه الفريضة يجد أن وراءها كثيراً من الدروس القيِّمة التي تنفع الناس في حياتهم، وترسم لهم طريق النجاة يوم يعرضون على ربهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وإن أول درس يطالعنا في هذه الفريضة هو «التيسير» وأَعْظِمْ به من درس يحل كثيراً من مشكلات الحياة وعقدها، وقد دعانا إليه كتاب الله وسنة رسوله الكريم، فما خير الرسول ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

وأهم مظاهر التيسير في هذه الفريضة تتمثل في أمرين:

أولهما: أن أداءها لا يكون إلا بالقدرة عليها، فقد يعيش المسلم ما يعيش دون أن يؤديها ثم يموت غير آثم، ولا تاركٍ لأحد أركان الإسلام لأنه لم يترك أداء هذه الفريضة متعمداً ولا متهاوناً ولا منكراً؛ بل إنه عجز عن القيام بها لعجزه عن تكاليفها فاقتضت رحمة الله ألا يكون هذا من المذنبين ما دام غير مستطيع.

ولأئمة المسلمين توجيهات كثيرة في تفسير هذه الاستطاعة ترغيباً في أن يحاول كل مسلم أن يهيىء لنفسه الظروف التي تمكنه من أداء هذه الفريضة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن نفدت طاقاته دون الاستطاعة فإن رحمة الله واسعة، ومن كان في سعة من المال وعجز لمرض أقعده اقتضت

رحمة الله أن يقبل حجه بالإنابة، أما من أخر أداء هذه الفريضة مع قدرته عليها ثم مات فهو آثم، وبقي عليه الحج في تركته، لينيب ورثته من يقوم به من ماله ولو لم يوصِ بذلك. وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج وهو يستطيع إليه سبيلاً»[1].

أما ثاني الأمرين من مظاهر التيسير:

فهو أن هذه الفريضة تلزم المسلم مرة واحدة في العمر على ما قد يكون فيه من سعة ويسر، ذلك لأن الله تعالى يريد من عباده أن يظهروا الخشوع والامتثال لأوامره لا أن يشق عليهم، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن في هذه الألوف المؤلفة من المسلمين الذين تجب عليهم هذه الفريضة كل عام في مشارق الأرض ومغاربها ما يكفي لبعث الحياة في مناطق الحجاز حول الحرم ويعود على أهلها بالخير العميم، ثم إن القيام بهذه الرحلة الروحية بشوق ولهفة، وما يصحبها من تغيير في نظام الحياة المألوف فترة من الزمن ومشاهدة تلك البقاع الطاهرة وأداء مناسك الحج وما يصحبها من خشوع، كل ذلك كفيل بأن يترك في النفس من الآثار والصور ما يجعلها تتذكره دائماً. وقد يكفي الإنسان القيام به مرة في العمر، ومع ذلك فما أكثر من يعاودون الكرة بعد الكرة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً متطوعين راغبين في الاستزادة من تلك المتع الروحية، والاستفادة بما في ذلك من دروس.

وقد روي أن أحد الصحابة سأل رسول الله ﷺ: الحج علينا كل عام؟ فأعرض عنه الرسول الكريم حتى كرر السائل ثلاثاً، فقال له ﷺ: «ويحك! ما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

---

(١) قال الدكتور: «إحياء العلوم» للغزالي ج١ ص ٢٢٠ طبعة الحلبي سنة ١٣٤٦.

وهكذا رسم الرسول الكريم سبيل التيسير واضحة، وقد نزلت آية المائدة تؤيد الرسول الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وهكذا كانت الدعوة إلى تيسير الأمور والبعد عن تعقيد الحياة درساً من الدروس العديدة التي تستفاد من فريضة الحج.

ومن الدروس التي نتعلمها من فريضة الحج: هذه التجارب العملية لتهذيب النفس والسمو بالروح، وتطهير القلب بالإحرام ينتقل الإنسان إلى نظام في حياته غير مألوف في سائر الأيام، إذ يجد نفسه في ثياب لا تدل على أبَّهة، ولا تحتاج إلى تنسيق أو تنميق أو أي مظهر من مظاهر التجميل، بل إن الاهتمام بالتجميل ينتقل من الظاهر إلى الباطن فيشعر الإنسان أنه بحاجة إلى تنقية نفسه أشد من حاجته إلى نظافة ثيابه المألوفة وتنسيقها، وهذا يبعث في النفس معاني بعيدة الأثر إلى قيمة زخارف الدنيا، وأن الإنسان إذا تجرد منها لا يشعر بنقص في إنسانيته، بل إنه يحس بقيمته كإنسان مهذب.

وفترة الإحرام أيام الحج تقيد الإنسان بقيود تكبح جماح النفس فلا تستطيع أن تستمتع بما هو مباح كالتطيب، أو التزين، أو مقاربة زوجته، أو اللهو بالصيد.

وإذا كان الإنسان يشعر بقيد وهو قائم يصلي فلا يكلم غيره ولا يلتفت. فإن شعوره بقيد الإحرام أيام الحج عند الوقوف بعرفة والطواف ومنى قد يكون أشد وقعاً على نفسه من شعوره بقيد الصلاة، وهذا يدعو إلى تعويد النفس الصبر وامتثال أوامر الله تعالى.

وفي اختلاط الجنسين أثناء القيام بهذه الفريضة ما يعتبر من أروع الدروس في المجتمعات العامة، وضبط النفس وكبح جماح الشهوات، ذلك

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ١٠١، ١٠٢.

أن الحجاج يختلطون رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، في مزدحمات دونها كل المزدحمات: في الطواف حول الكعبة، وفي منى، وفي عرفات، والعبرة هنا أن كلاً من الرجال والنساء يكون في أشد الحذر من تلاصق الأجساد، ولا سيما عند الطواف حول الكعبة حيث تجتمع الألوف المؤلفة في مدار محدود، ويسعى كلٌ لأن يكون قريباً من بنية الكعبة ليستطيع لمس الحجر الأسود.

ولسائل أن يسأل: لم جعل ترتيب النسوة عند صلاة الجماعة في صفوف خلف الرجال ولم يخصص وقت للرجال ووقت للنساء أو مكان دون مكان مع ما هو معلوم من شدة الزحام في الحج؟

والجواب: أن الصلاة تتكرر في كل يوم وليلة خمس مرات، أما الحج فمرة واحدة في العمر، وأن أكتاف المصلين في الصفوف ينبغي أن تكون متلاصقة، وهذا أمر لا يمكن الاحتراز منه، وهو لذلك مدعاة إلى إثارة الشعور الجنسي إذا أبيح الاختلاط في الصف الواحد، أما في الطواف فإن الاحتراز ممكن، وأول إمكانياته هو خلوص النية وعزم الحاج على ألا يحاول الالتصاق أو النظر بشهوة وهو يرى نساء من جنسيات مختلفة، وقد يكون فيهن من هي أكثر جمالاً وفتنة وأشد جاذبية من نساء وطنه، إن شعور المرء في هذا المقام بأن شيئاً من الملاصقة أو النظر الخارج قد يفسد عليه حجه[1] ويخرجه من سعادته الروحانية التي يضفيها عليه ذلك المقام الكريم وهو متجرد إلى الله، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، إن الشعور بذلك يعيد المرء إلى صوابه، ويجعله ينفر من لذة عاجلة إلى سعادة آجلة، وهذا هو المقصود من بقاء الاختلاط هنا فيتعود الإنسان في حياته العادية أن يكبح جماح نفسه ويتجنب الاستمتاع بما ليس من حقه فيحتاط إن هو اضطر إلى الوجود في مزدحم.

وفي توقيت الوقوف بعرفة من بعد زوال اليوم التاسع إلى قبيل فجر

---

(١) يعني يفسد كمال الحج، أو أصله بالوطء.

اليوم العاشر من ذي الحجة درس في احترام الوقت، وتقدير قيمته، والمحافظة عليه، فقد يقيم الحاج شهراً أو سنة بالحجاز ثم يغيب هذه اللحظة في تلك الفترة المحددة فلا يقفها بعرفات، فإنه لا يتم حجه ويضيع ما قضاه من وقت طويل.

وما أحوجنا في حياتنا العادية إلى مثل هذا الدرس والمحافظة على الأوقات، ولا سيما عندما يكون أحد مستأجراً على عمل في وقت محدود كوقت الموظف، فإنه ليس من حق هذا الأجير أن يقضي لحظة من وقته في غير ما يعود على المؤجر بالمنفعة، وما أحوج أولئك الذين يعبثون بأوقات وظائفهم فيقضون بعضها في المحادثة إلى الأصدقاء أو قراءة الصحف. ما أحوج هؤلاء إلى الانتفاع بمثل هذا الدرس الذي يتكرر في تحديد أوقات الصلاة وأوقات الصوم. فليتنا نعتبر!

كذلك في تحديد منطقة عرفات، إن هنا درساً في احترام الأماكن، فلو أن الحاج وقف خارج المنطقة المحددة في الزمن المحدد فإن ذلك لا يجزيه، بل يعتبر تاركاً لأحد الركنين الأساسيين للحج مهما كان قريباً أو محاذياً لمنطقة الوقوف.

نعم هنا درس قيم، فكثيراً ما تحدث منازعات في حياتنا العادية بسبب تخطيط الأراضي وتحديد الأماكن، كذلك اقتضت إرادة الله تفضيل بعض الأماكن على بعض فينبغي أن تلزم حدود الله رب العالمين.

ومن الدروس التي نتعلمها من فريضة الحج: التعاون، نعم فإن كل حاج يشعر في تلك الأماكن بأنه أخ لغيره، فإذا ما احتاج لمعونة فإن أخاه سرعان ما يلبي نداءه، وما أكثر ما يشاهد في موسم الحج من ظاهرة المساعدات والمعاونات، التي تبدو بين الحجاج، فما أن يحس أحدهم بمرض الآخر أو نفاد زاده أو عجزه على أية صورة حتى يسارع إلى معونته إن استطاع ودعوة من يكون أكثر مقدرة على رفع الأذى إن هو عجز.

ومن تلك الدروس إظهار قوة المسلمين بطريقة عملية، فموسم الحج

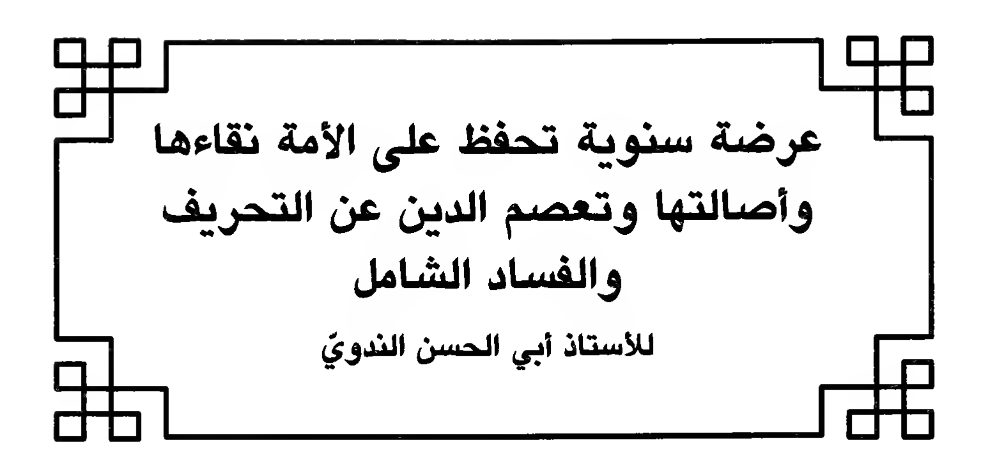
يثبت أن في الإمكان تجميع المسلمين في صعيد واحد إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو.

ولو تدبر المسلمون ما في هذه الفريضة من دروس، وما ترمي إليه من حكم بالغة وإرشادات سامية لحرصوا عليها، وسارعوا إلى أدائها، واعتبروها من نعم الله الكبرى عليهم، والله ذو الفضل العظيم.

اللهمَّ بصِّرنا، ووفقنا، وانفعنا بما نعلم، واهدنا إلى صراطك المستقيم[1].



(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٣٨، الجزء ٨، شوال سنة ١٣٨٦، ص: ٨٥١ ـ ٨٥٤.



عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل

للأستاذ أبي الحسن الندويّ

الحج عرضة سنوية للملَّة، يرجع إليها الفضل في نقائها وأصالتها، وفي بقاء هذا الدين بعيداً عن التحريف والغموض والالتباس، وفي بقاء هذه الأمة بعيدة عن الانقطاع عن الأصل، والمصدر والأساس، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم كثيرة فريستها في الزمن الماضي، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة، تبقى هذه الأمة العظيمة الخالدة محتفظة بطبيعتها الإبراهيمية الولوع الحنون، العطوف الرؤوف، الثائرة القويَّة، الحنفيَّة السمحة، وتتوارثها جيلاً بعد جيل، فكأنها القلب الحي القوي الفياض الذي يوزِّع الدم إلى عروق الجسم وشرايينه، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها في صعيد واحد، فينفي بذلك علماؤها وزعماؤها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وخرافة المخرفين، ويردونها إلى الأصل الإبراهيمي الحنيفي، وإلى الشرعة المحمدية الصَّافية وإلى الدين الخالص، وبها تستطيع هذه الأمة أن تحافظ على وحدتها الدينيَّة والعقلية والثقافية، وتعتصم عن أن تؤثِّر فيها الإقليمية والمحلية تأثيراً يُفقدها الوحدة الحنيفية الإبراهيمية، والصبغة الإسلامية المحمدية، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة، والأمم الدينية العديدة.

لقد قدَّر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة، وفي أقاليم

عديدة، وتجتاز أدواراً كثيراً جداً، مختلفة جداً، من حرارة وقوة وجمود وخمود، وعنف وقسوة، ومصارعة ومقاومة، وإغراءات مادية وسياسية، وتقدم في الحضارة والمدنية، وتوسُّع في المال والمادة، وضيق وضنك، وبذخ وترف، وعسر ويسر، وشدة ورخاء، وتسلُّط عدو قاهر وملك جائر، وكانت الأمة في حاجة دائمة إلى إشعال جذوة الإيمان، وإثارة عاطفة الحب والحنان، وإعادة الوفاء والولاء في سائر الأجزاء والأعضاء، فجعل الحج ربيعاً تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام، وتؤتي أُكلها كل حين بإذن ربِّها، وتكتسي فيه هذه الشجرة العالميَّة لباساً جديداً قشيباً، غضاً طرياً.

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي[1]، بما أكرمه الله من فقه دقيق، وفهم عميق لأسرار التشريع ومقاصد الإسلام، فأشار إلى هذه النكتة في كتابه «حجة الله البالغة» فقال:

«وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليتميَّز الناصح من الغاش، والمنقاد من المتمرِّد، ليرتفع الصِّيت، وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملَّة تحتاج إلى حج، ليتميَّز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرى بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي»[2].

وقال: «وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم، ولا شيء مثله في تذكُّر الحالة التي كان فيها أئمة الملَّة والتحضيض على الأخذ بها»[3].

وقال: «ومنها تحقيق معنى العرضة، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده الأقاصي والأداني، ليعرف فيه بعضهم بعضاً، ، ويستفيدوا أحكام الملَّة، ويعظموا شعائرها.

---

(١) الفاروقي الدهلويّ الهنديّ، أو عبدالعزيز شاه وليّ الله. فقيه حنفي من المحدّثين. ولد سنة ١١١٠، وأحيا الله به وبأولاده وبأولاد ابنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند، وعلى كتبه ومسانيده المدار في تلك الديار، وله عدة مصنفات في علوم وفنون شتى. توفي رحمه الله تعالى سنة ١١٧٦. انظر «الأعلام»: ١/ ١٤٩.

(٢) قال الشيخ: حجة الله البالغة: ج١ ص ٥٩، ٦٠.

(٣) أيضاً: ج١ ص ٥٩، ٦٠.

والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملَّتهم، وهو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1]».

مركز الإشعاع العالمي الخالد:

وقضى الله أن لا يخلو الحج في أشد أيام هذه الأمة وأحلكها من الربانيين المخلصين، ومن الصالحين المقبولين، ومن الدعاة المرشدين، ومن الداعين المبتهلين، ومن الخاشعين المنيبين، ومن العلماء الراسخين الذين يملأون الجوَّ روحانية وخشوعاً، فترق القلوب القاسية، وتخشع النفوس العاصية، وتفيض العيون الجامدة، وتلتهب المجامر الخامدة، وتنزل رحمة الله وتغشى السكينة، ويخزى الشيطان، لذلك جاء في الحديث، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلاَّ بما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[2]، ويتكهرب الجو فيشحن المسلمون الذين جاءوا من كل صوب بعيد وفج عميق بطارية قلوبهم الفارغة، ويأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة، وعلم وفقه، يعيشون عليه في حياتهم الباقية، ويقاومون به كل ما يواجهونه من إغراء وتسويل، وتخويف وتزيين، ويشركون في هذا الزاد إخوانهم المسلمين الذين قعد بهم الفقر أو الضعف، أو المرض أو العدو، وهكذا يجري هذا التيار الكهربائي الإيماني في جسم هذه الأمة المنتشرة في الآفاق، فيتعلم الجاهل، ويقوى الضعيف، ويتحمس الخامد، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها، وتستأنف كفاحها من جديد.

مظهر الجامعة الإنسانية الإسلامية:

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل

---

(١) أيضاً: ج٢ ص ٤٢.

(٢) قال الشيخ: رواه مالك مرسلاً.

كثيرة، وهو إظهار لشعار هذه القومية، فتتجرَّد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية التي تميز بعضها عن بعض ويتعصَّب لها أقوام، وتظهر كلها في مظهر واحد يسمى: الإحرام في لغة الدين والفقه وفي مصطلح الحج والعمرة، حاسرة رؤوسها ما بين رئيس ومرؤوس، وصغير وكبير، وغني وفقير، وتهتف كلها في لغة واحدة، ونغمة واحدة، «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، وهكذا تتجلَّى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف، وهما من أوضح ما تجلَّت فيه قومية، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب، ويسعى إليها العرب والعجم، ويلتقي عليها القاصي والداني، فكلهم يطوفون حول بيت واحد، ويسعون بين غايتين مشتركتين: الصفا والمروة، وكلّهم يقصدون منى، وكلّهم يؤمون عرفات ويَقِفُون في موقف واحد، وكلّهم يبيتون في مبيت واحد، ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[1]، ويفيضون إفاضة واحدة، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾[2]، وكلهم يقفون أياماً في منى تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر وحلق ورمي.

وما دام الحج ـ والحج فريضة باقية إلى يوم القيامة، ومؤسسة خالدة خلود هذه الأمة ـ فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات، كما ابتلعت أمماً كثيرة، ولا يصبحون ضحيتها، ولا تكون بلادهم التي يحبُّونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية قبلة يتوجهون إليها، وكعبة يحجون إليها، إنما هي قبلة واحدة يتوجه إليها الشرقي والغربي، والعجمي والعربي، وإنما هي كعبة واحدة يحجُّ إليها الهندي والأفغاني، والمسلم الأوروبي والأمريكي، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[3]، ويحنّ إليها

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٨.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٩.
(٣) سورة البقرة: آية ١٢٥.

المسلم في أقصى الأرض، وينذر لهذه الرحلة النذور ويسعى إليها على الرأس والعين، ويعتبر ذلك غاية الأوطار وأقصى الأماني وأعظم السعادات.

ليشهدوا منافع لهم:

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير، ونجهل منها الكثير، وربما كان ما نجهله ونتمتع به أكثر مما نعرفه، ومما نوه به حكماء الإسلام، وأشادوا به في مؤلفاتهم، فقد قال الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾[1]، فأطلق المنافع، ونكَّرها وأبهمها، ودلَّ هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوّعها وتجدّدها، في كل زمان وإنها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والاستقصاء[2][3].

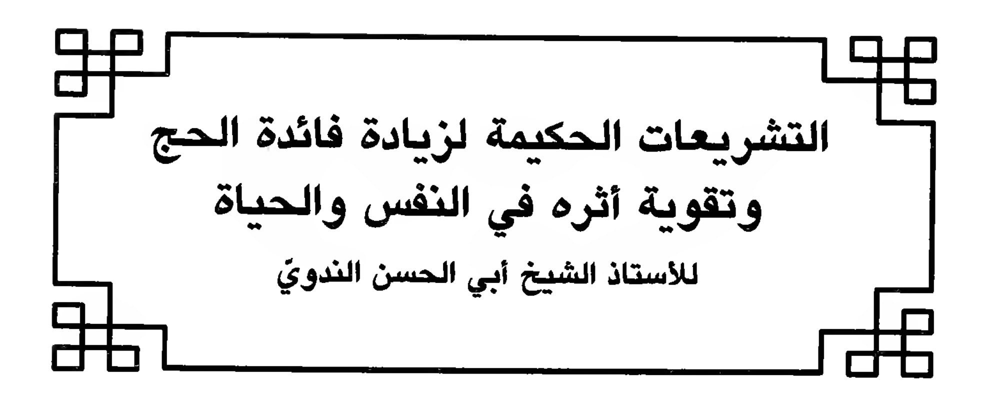


(١) سورة الحج: آية ٢٨.

(٢) قال الشيخ: إن الحج لا شك موسم يشهده المسلمون من آفاق الأرض ونواحي العالم الإسلاميّ ليشهدوا منافع لهم، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد والفكر الحصيف، ويتعرف بعضهم ببعض، ويجتمعوا على كلمة واحدة ومصلحة راجحة راشدة.

ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة ـ كما اعتاد الكتاب العصريون أن ينوهوا بها ـ وليس الحج مؤتمراً سياسياً فحسب، كما يصوره كثير من حملة الأقلام، ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع لها الحج، لكان في الحج استقرار وساده جو من الهدوء يساعد على ذلك، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان إلى مكان ومن نسك إلى نسك، ولكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء، والأذكياء والنبهاء، وعلى الخاصة من المسلمين، إنها لا شك ثمرة من ثمرات الحج، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة، وقد فرضت على المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً»، ولكان له وضع غير هذا الوضع، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي.

(٣) «الأركان الأربعة»: ٢٦٠ ـ ٢٦٥.



التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج وتقوية أثره في النفس والحياة

للأستاذ الشيخ أبي الحسن الندويّ

قد هيَّأ الوحي الإلٰهيّ والتشريع السماوي للحج جواً يثير الجدَّ والقصد، وينبِّه النفس والفكر، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانية والقدسيَّة، فإنه كان في أكثر الأحيان رحلة طويلة، وانتقالاً من بلد إلى بلد، يمرّ فيه الحاج ببقاع مختلفة، وأجواء متنوعة، وملاذٌ وملاهٍ، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدة وقد تطول، ويدخل في بلد جديد، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة، ويخرج النساء مع الرجال، وفيهم الشيوخ والشباب، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته، وكل ذلك خليق بأن يُفقد الحج روعته ومهابته وقدسه، وروح العبادة والجهاد فيه، وتصبح هذه الرحلة كأي رحلة عادية طبعيَّة، أو الإقامة في مكة، والتنقّل في مواضع المناسك كأيّ إقامة في أيّ بلد.

لذلك أضفى التشريع على الحج لوناً لا يزول، لوناً من الجديَّة والقدس، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة، جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول، والعبث والفضول، وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة، كانت كفيلة بأن يبقى الحجّ عبادة عميقة الأثر في النفس والحياة، وركناً من أركان الإصلاح والتربية، ووسيلة قوية للتقرب إلى الله.

منها: أنه جُعل ركناً من أركان الإسلام الأربعة، وفريضة على من استوفى شروطها، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى

ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]»، وقد روى الترمذي عن علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ رفعه: «من ملك راحلةً وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً، وذلك أنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾، وقال النبي ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

وقد نوّه لسان النبوّة بفضل الحج ومكانته عند الله، وأكثر من بيان فضائله، لأنها هي التي تُثير في النفس الشوق والرغبة، وتبعث الإيمان والاحتساب، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بهما ويكونان هما الباعثين على إتيانها، فقد روى الستَّة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه».

وروى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنَّهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه».

وعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النَّار من يوم عرفة».

وسُئل النبي ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة، «المواقيت» التي تُنبِّه في الحاج شعوراً جديداً، ويقظة فكرية روحية، فيعرف أنه دنا من الحضرة الملوكية،

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

ودخل في حدودها المحمية المقدسة، فلولا المواقيت لاقتحم الحجّاج الحضرة المقدسة، وهجموا عليها كما يهجم الجهاد الأجلاف على حضرة الملوك وعتبة السلاطين، فيقابلون باستنكار وجفاء، وطردٍ وإهانةٍ، وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي بيان حكمة المواقيت، وسرّ تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة، قال:

«الأصل في المواقيت أنه لما كان الإتيان إلى مكة شعثاً تفلاً، تاركاً لغُلَواء نفسه مطلوباً، وكان في تكليف الإنسان أن يحرم من بلده حرج ظاهر، فإن منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر، وجب أن يُخصَّ أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها، ولا يؤخرون الإحرام بعدها، ولا بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة، ولا تخفى على أحد، وعليها مرور أهل الآفاق، فاستقرأ ذلك، وحكم بهذه المواضع، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت، لأنها مهبط الوحي ومَأْرِز[1] الإيمان، ودار الهجرة، وأول قرية آمنت بالله ورسوله، فأهلها أحق بأن يبالغوا في إعلاء كلمة الله، وأن يُخَصوا بزيادة طاعة الله، وأيضاً فهي أقرب الأقطار التي آمنت في زمان رسول الله ﷺ، وأخلصت إيمانها بخلاف جُواثى والطائف واليمامة وغيرها، فلا حرج عليها»[2].

ومنها «الإحرام» الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول، وينبهه إلى أنه مقبل على أمر عظيم، وأنه قاصد للحضرة الملوكية، وإلى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعارات زائفة، وأبَّهة مصطنعة، فيصير هذا الإحرام كالتحريمة للصلاة تنقله من جو إلى جو، ومن حرية وانطلاق إلى تقيد وارتباط، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي رحمة الله عليه:

«اعلم أن الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة، فيه تصوير الإخلاص والتعظيم، وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر، وفيه جعل

---

(١) ملجأ: «المعجم الوسيط»: أ ر ز.

(٢) قال الأستاذ: حجة الله البالغة: ج٢، ص٤٤.

النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله»[1].

وكذلك شرع للخروج من الإحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة تُنبِّه في النفس الشعور، ولا يصعب إتيانها، فلا يخرج الحاج من إحرامه فلتة أو مفاجأة، ويتمتع بالمباحات إلا بعمل ظاهر، وقصد وإرادة ـ كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم ـ وهو الحلق، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي:

«السر في الحلق أنه تعيين طريق للخروج من الإحرام بفعل لا ينافي الوقار، فلو تركهم وأنفسهم لذهب كلٌّ مذهباً، وأيضاً ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبر بالوجه الأتمّ، ومثله كمثل السلام من الصلاة»[2].

ومنها «التلبية» التي حث الشرع على الإكثار منها، واستحسن النبي ﷺ رفع الصوت بها وتكثيرها، وقد سئل أي الحج أفضل؟ قال: «العجُّ والثجُّ»[3]، وفي التلبية تأثير غريب في تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج، وشحنها بالإيمان والحنان، والاطِّراح على عتبة الرحمٰن، وبها يسري التيار الإيمانيّ الروحيّ في جسم الحاج ومشاعره وأعصابه كما يسري التيار الكهربائي في الأسلاك،، ويُعدّ الحاج للاستفادة من هذا الركن العظيم الذي قد يكون قد هجم عليه من غير استعداد، أو من غير تفقه ووعي، فإذا قال: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه، وثارت فيه الأشواق، وفاضت كأس الحب والحنان، والتهبت شعلة التوحيد في عروقه ودمه، واتصل بإبراهيم الخليل، الموحد الحنيف، واتصل بمحمد ﷺ والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً، واندمج في حزبهم.

وقد جمع الله للحج حرمتين: حرمة الزمان والمكان ليقوى الشعور

---

(١) قال الأستاذ: حجة الله البالغة: ج٢، ص٤٤.
(٢) قال الأستاذ: حجة الله البالغة: ج٢، ص٤٥.
(٣) العَجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثج: صبُّ دماء الأضاحي.

بحرمة هذا الركن العظيم، وجلاله وروعته، والشعور بالمسؤولية، وليكون الحاج في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته، مرهف الحس حاضر الفكر، لا يذهل لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[2]، وقد روى مسلم عن النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وأما حرمة المكان فقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح (فتح مكة): «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»، وقال يوم الفتح ـ فتح مكة ـ: «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ فيه القتال لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفَّر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرَّفها، ولا يختلى خلاها، وقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم[4] ولبيوتهم، فقال: إلا الإذخر».

---

(١) سورة التوبة: آية ٣٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٢١٧.

(٣) سورة النمل: آية ٩١.

(٤) القَين: الحداد والصائغ، ومعناه يحتاج إليه القين في وقود النار، ويُحتاج إليه في القبور لتسد به فُرج اللحد المتخللة بين اللبنات، ويحتاج إليه في سقوف البيوت يجعل فوق الخشب. انظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٩/ ٤٨٤.

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشد، وقد استدل بعض العلماء على أن إرادة المعصية فيه معصية، بخلاف غيره من البقاع، بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، قال ابن كثير: وهذا من خصوصية الحرم، أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه، وإن لم يوقعه.

وقد ضمَّ إلى ذلك كله حرمة الإحرام، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصة، منها: حرمة الصيد في حالة الإحرام، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[2] وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾[3].

يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه:

«وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل وترك الزينة والتشعث، وتنويهاً لاستشعار خوف الله وتعظيمه، ومؤاخذة نفسه أن لا تسترسل في هواها، وإنما الصيد تلهٍّ وتوسع»[4].

ولما كان الحج سفراً طويلاً في غالب الأحيان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾[5]، وانتقال من حال إلى حال، ويكثر فيه الاختلاط، وتطول الزمالة، وتتنوع المعاملات، كان ذلك مثاراً لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات، وكثيراً ما تثور النفس ويضيق الصدر، وينفد الصبر، فيلجأ الحاج إلى ما يتحاشى عنه في الوطن والإقامة، والأحوال العادية، ويتورط في بعض المعاصي والأخلاق القبيحة، وما ينافي روح الحج

---

(١) سورة الحج: آية ٢٥.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٥.

(٣) قال الأستاذ: سورة المائدة: آية ٩٦، اقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منهما، وما في ذلك من خلاف وتفصيل في كتب التفسير وأحكام القرآن.

(٤) قال الأستاذ: حجة الله البالغة: ج٢، ص ٤٤.

(٥) سورة الحج: آية ٢٧.

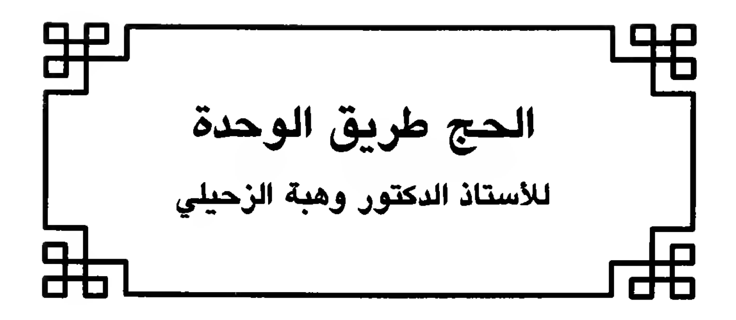
ومقاصده، فجاء النهي عن ذلك بصفة خاصة في الحج؛ لأن الحج مظنة قوية له، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٧)﴾[١].

وقد أسبغت هذه التشريعات، وهذه الأحكام التي تتصل بالقلب والجوارح، والقصد والعمل، والزمان والمكان على الحج لباساً من القدس، والطهر، والتورع والتقشف، والمراقبة لله تعالى والحسبة للنفس، والجهاد، لا يشاركه فيه ما يماثله، أو يدخل في موضوعه في الديانات الأخرى وطوائف الأمم، وكانت لها آثار عميقة في النفس والأخلاق والحياة، يتحقق معها قول النبي ﷺ: «من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»[٢].



(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٢) «الأركان الأربعة»: ٢٦٨ ـ ٢٧٥.



الحج طريق الوحدة

للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

إن إيقاظ الجماعة من رقدتها وسباتها، وهز أركان البُنى الاجتماعية الواهية أو تغييرها، ودحر فساد الحكم وعجزه عن طريق الثورات العالمية قد يرافقه أحياناً هدم وتخريب، ومن أجل إنجاح الثورة يفرض رجالها سلطانهم، ويعملون على تحقيق أهدافهم بالعنف والبطش والجاسوسية الرهيبة، مما يؤدي إلى تمزيق أوصال المجتمع، وخلق نوع من الكراهية الجديدة والحقد الدفين بين فئات الناس.

أما طريق الإسلام إذا وجد حماته إلى تحقيق أهداف الثورة الإصلاحية الدائمة، فهو في تمثل معانيه الصافية، ووعي مقاصده الأصيلة، والتزام تطبيق تعاليمه وواجباته الرشيدة.

وفهم مقاصد الحج على نحو سليم يوحي لنا بكثير من العبر الخلاَّقة والقيم المبدعة في تجديد بنية الجماعة وتخريج الأجيال المتطلعة إلى مستقبل مشرق ونمط في الحياة أصلح وأفضل.

ومن أهم قوى الدفع نحو حياة جديدة للجماعة هو التخلص من أوزار الماضي، ونبذ كل عوامل التخلف والتجزئة أو التمزق والانقسام، وطريق ذلك في الإسلام هو الحج.

فالحج ذلك المؤتمر الإسلاميّ الأكبر الذي يتجدد في كل عام في أقدس بقاع الله في الأرض، طريق واضحة للوحدة والجامعة الإسلامية إذا شاء الحكام وساعدوا عليه واستغلوا إمكانياته وطاقاته الخيرة الكبرى؛ إذ هو

العبادة الجماعية الحسية المتميزة في الإسلام بهذا الوصف، فمناسكه وشعائره كلها مفروضة الأداء بصفة جماعية في حد ذاتها، أو لأن وقتها محدود في أيام معلومة معينة، وهي قائمة أساساً على التجمع والتكتل والتعارف والتآلف، وكل جماعة تؤم البيت الحرام وتفيد من منجزات الحج تكون خير رسل لأقوامها تبلغهم مايجب عليهم، وتبعثهم على إنجاز ما يلزم، ومع الزمن يتصل حبل الجماعة وتتضافر جهودها في بناء الوحدة والأجيال القادمة بتكرار مناسبات الحج كل عام...

وواضح أننا لا نجد لغير الحج من فرائض وعبادات الإسلام الأخرى هذه الصفة الجماعية الذاتية، لأن تلك العبادات يمكن القيام بها بصفة منفردة، وهي إما ذات نفع شخصيّ محض، أو ذات هدف اجتماعيّ محصور في نطاق معين، فأداء الصَّلاة جماعة ودفع الزكاة مثلاً يقتصر أثرها على بقعة ضيقة بدليل جعل الجماعة في الصلاة فرضاً كفائياً في كل بلدة، وأن الزكاة لا يجوز نقلها إلى بلد آخر، وهذا لا عيب فيه؛ بل هو فضيلة لما فيه من تمتين بناء الجبهة الداخلية، وتكافل كل جماعة قليلة فيما بينها، باعتبار أنها أعرف بمناطق عيشها، وأهل موطنها، مما يدعو إلى اتحاد الجماعات الصغرى، واجتماع كلمتها، ووقوفها صفاً واحداً إزاء مصالحها المشتركة، وتوثيق عرى التآلف وتبادل المحبة والإخاء بين أفرادها، كما يحصل ذلك ـ أيضاً ـ في أداء صلاة الجمعة والعيدين.

وقد أبان العلامة الدهلويّ في «حجة الله البالغة» حقيقة الحج وأثره التجديديّ في المجتمع فقال: «اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومكان فيه آيات بينات قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله متضرعين راغبين وراجين من الله الخير وتكفير الخطايا، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة، وهو قوله ﷺ: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة...» الحديث، ثم قال: «وكما أن الدولة تحتاج إلى عَرْضة ـ أي اختيار ـ بعد كل مدة ليتميز الناصح من

الغاش، والمنقاد من المتمرد، وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، كذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرى بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي..».

والمكاسب الجماعية التي تتحقق بالحج متعددة متنوعة منها سياسيّ ومنها اقتصاديّ، فبالمجتمع المنظم وبتمثل وإدراك غايات الحج يلتقي المسلمون على منهج واحد، وخطة عمل موحدة، ويقيمون دولة واحدة. وبالتعارف والتآلف تتعرف الشعوب حاجات بعضها وموارد وإنتاج بلدانها، بالإضافة إلى ما تقوم به السفارات والقنصليات الحديثة والوفود الاقتصادية من دور وخدمة رسمية في هذا الشأن، وبالاجتماع في صعيد الحج يستنصر الضعيف بالقويّ، ويستعين صاحب الخطر الداهم بالبعيد عنه لدفع الأخطار وصد العدوان والضغط على الحكام المحليين إذا تراخوا أو قصروا في القيام بواجبهم العام نحو إخوانهم المهدد وجودهم أو مصالحهم، وبذلك تتضح صور المواقف جلية وتنجلي الرؤى التي قد تشوهها أو تزيفها أو تسكت عنها وسائل الإعلام الحديثة.

وبهذا يتوصل المسلمون إلى الظفر بمقاصد الحج الحقيقة؛ إذ أن العبادة في الإسلام ليست مقصودة لذاتها، وإنما لما يترتب عليها من ثمار ومنافع اجتماعية باعتبارها وسيلة إصلاحية تربوية ناجعة لمن يدرك معناها ويحظى بمغزاها الأصيل، ومن هنا لا نريد أن يتقوقع الإسلام في زاوية ومفهوم العبادة المحضة، وترك جوانبها النافعة بين أبناء المجتمع، فالهدف الأول بجعل الإسلام رهين المسجد أو المنزل أو القلب هو غرض العدو، والهدف الثاني بمد أثر العبادة إلى المجتمع هو لبّ الإسلام وسمته وقصده الصحيح، ومن المؤسف أن الأعداء استطاعوا غزو المجتمع الإسلاميّ وروجوا لهدفهم الأول، وشلوا أو عطلوا فاعلية الحج وغيره في إصلاح الأخلاق والمعاملات وتأييد التجمع الإسلاميّ.

وتتجلى أهداف الحج الجماعية من وجوه مختلفة في التشريع الإسلامي، وأخصها بناء الوحدة الإسلامية:

ففي أصل إيجاب الحج خاطب الحق تبارك وتعالى المكلفين بعبارة «الناس» التي هي أعم من عبارة «يا أيها الذين آمنوا» التي يغلب استعمالها في المطالبة بأداء العبادات، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[1] ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾[2] وكان نداء إبراهيم عليه السلام تنفيذاً لهذا الأمر الإلٰهي: «يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً، فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومَن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك» مما يدل على معاني الشمول والإحاطة في أصل مفهوم الحج، وما أجمل تعبير النبي ﷺ بوصف الحجاج أنهم وفد الله حيث قال: «الحجاج والعمَّار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم» والوفد في اللغة: الجماعة المختارة لشأن هام، وليس هناك أهم شأناً من العمل على توحيد الصف الإسلاميّ، وفي سبيل ذلك وردت أحاديث نبوية كثيرة ترغب في الحج وتبين فضله، وأنه يلي مرتبة الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله: «من حج فلم يرفث، ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

وقد ذكرت أحكام الحج في سورة البقرة بعد أحكام القتال في سبيل الله باعتبار أن الجهاد طريق تكوين الجماعة وبناء كيانها وحفظ وجودها. وأما الحج فهو سبيل توحيد الأمة ولمّ أشتاتها وجمع كلمتها واتجاهها نحو غاية واحدة، وبعدئذ أعقب الله تعالى ذكر النفاق وعلامات المنافقين تحذيراً من خطر التجزؤ والتفرقة والدسائس؛ إذ ليس هناك كالنفاق أعظم تهديماً منه لصرح بنيان الجماعة وتقويض شوكتها، وبعثرة جهودها وعرقلة سيرها نحو سمو الهدف المنشود، والحج طريق نبذ المنافقين والمثبطين المعوقين لإقامة الوحدة بين المسلمين.

وإذا خالج الشك بعض الناس بقيمة الوحدة، وانتابتهم مخاوف الحفاظ

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢) سورة الحج: آية ٢٧.

على مصالحهم الشخصية، فإن الإسلام يطمئن تلك القلوب المترددة بأن مبدأ الإسلام وشعاره هو المساواة بين جميع الناس، والحج يترجم ذلك المبدأ إلى واقع عمليّ، حيث يتمثل الحاج أنه بزيارته لبيت الله تعالى مقبل على الله سبحانه قاصد له، فيتجرد عن عاداته وينسلخ من مفاخره ومميزاته على غيره، ويخلع كل مظاهر الدنيا ومفاتنها، فيتساوى الغني مع الفقير، ويتماثل الدنيّ مع الأمير، الكل عبيد لله، وإخوة متحابون في سبيل الله، وكان ذلك المعنى هو أبرز ما في خطبة الرسول ﷺ يوم حجة الوداع في الثاني من أيام التشريق: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى».

وبما أن تنظيم الجماعة سياسياً واقتصادياً ودفاعياً وبناء الوحدة الإسلامية لا بد له من جو يسوده الاستقرار والطمأنينة كان مكان الحج وزمانه الحرمة والجلال، وكان موسم الحج عيداً أكبر للمسلمين، ففي جعل الحرم أمناً وقصر دخوله على المسلمين، وفي إيقاع الحج في الأشهر الحرِم إعلان لمبدأ الحرية والسلام، وإكبار لشأنهما، وتمكين من ممارستهما دون تخوف من سلطان جائر أو حاكم ظالم أو مفسد عاتٍ.

وفي أجواء الحرية والسلام والمساواة بحق تنبت الأفكار الصالحة، وتتهيأ الخطط الملائمة، وتتضح معالم الشخصية الإسلامية الذاتية التي تريد الاستقلال والوحدة والتقدم وإقامة العدالة الشاملة في شؤون الحياة، وأخصها الاستفادة من منتجات البلاد وعطاء الله الخير: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1] أي أن جميع ما في الكون مخصص للناس على جهة الانتفاع المشاع، دون استئثار ولا احتكار ولا استغلال.

وحيثما تقلب الحاج لأداء مناسك الحج يجد لفتة قرآنية إلى ضرورة التآخي والتعاون وتغيير مفاسد المجتمع وتجديد شباب الحياة وقلب الأوضاع

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٩.

الاجتماعية بأعدل الوسائل وأكرم الغايات، ففي قوله تعالى بعد ذكر بعض أحكام الحج: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] في ذلك حث على فعل الخير والتزود من التقوى، والخير اسم جامع لكل الفضائل الاجتماعية، والتقوى التي هي التزام الأوامر والنواهي الإلهية عنوان بارز على التقيد بآداب المجتمع كما حددها الله، ومن أولى الأوامر وأهمها المطالبة بوحدة الجماعة الإسلامية ودعمها: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[2] ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[3].

وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[4] دلالة على أهمية النتائج المستفادة من الحج، وإدامة تذكر المطالب والمقاصد الربانية والتزام الأوامر العامة إثر التفرق في أرض الله، ومن أوجبها قوة الإحساس بمشاعر الأخوة، وعواطف الإيمان، وتقوية الوحدة، وإحكام روابطها الأساسية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[5] ومن المعروف أن سبب نزول آية الأمر بذكر الله يوحي بضرورة التجمع على أساس الصالح العام، فقد كان أهل الجاهلية يقفون في مجامعهم في الموسم، فيفاخرون فيها بآبائهم، ويذكرون أنسابهم وفعال آبائهم ونحو ذلك مما لا نفع فيه.

وليس في الدعوة إلى الاتحاد بين المسلمين هدف سوى قوة الجماعة ورهبة جانبها وتحقيق الخير والنفع الكبير لهم في الدنيا والآخرة، وهذا هو شعار الحجاج المؤمنين البررة: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٣.
(٣) سورة الأنفال: آية ٤٦.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٠٠.
(٥) سورة الحجرات: آية ١٠.
(٦) سورة البقرة: الآيتان ٢٠١، ٢٠٢.

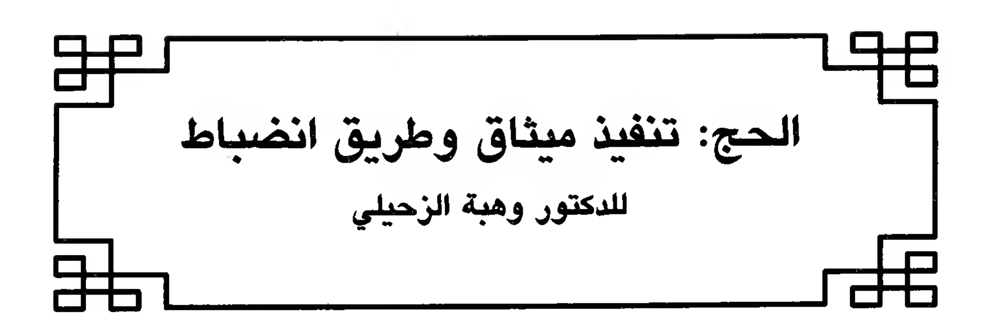
يتبدى لنا من كل هذه الإشارات النصية أن العبادة ـ ولا سيما الحج ـ لا تقصد لذاتها كما أشرنا، وإنما لما تتمخض عنه أو تهدف إليه من إصلاح عام، أو خير جماعيّ شامل، وأما الأحاديث المرغبة في الحج فهي لبعث الهمم وشحذ العزائم باعتبار أن الإنسان لا يقدم على فعل شيء غالباً إلا إذا كان منساقاً بغايات نفعية خاصة، وهذا لا ننكره عملاً بمقتضى الأحاديث المقررة للثواب العظيم لمن برَّ في حجه.

ولكن لا يصح الاكتفاء بالثمار الخاصة للحج، وإنما لا بد من تمثل الأهداف البعيدة التي يرمي إليها المشرع من وراء أداء شعائر الحج وتعظيم حرماته وإطعام المحتاجين والإنفاق في سبيل الله، وهذا ما يميز الغرض من فريضة الحج في الإسلام عن غيره من الديانات كاليهودية والمسيحية والبوذية مثلاً، التي تقصر معنى الحج على التقديس والتبريك والتطهر من الذنوب والخطايا، أي أنه مجرد عبادة شخصية، ولذا فلم تثر اهتمام الأوساط الغربية عن اتباع تلك الديانات، أما في الإسلام فقد اهتم المستعمرون الغربيون بشأن الحج، وحاولوا ـ كما أبنت في فاتحة مقالي ـ عزل الحجاج عن الاهتمام بالمصالح العامة، وقصر نشاطهم على العبادة المحضة والتزود منها للآخرة، وترك قضايا الدنيا لأهلها وللحكام فيها، وفي ذلك البلاء المبين؟!

ولعل ذلك هو السبب ـ بالإضافة إلى جهل الحجاج وعدم إدراكهم مغزى الحج ـ في أن الحاج الواعي يؤوب إلى بلده يائساً أو آسفاً على عدم الإفادة من طاقات هذه الجموع المؤمنة الغفيرة في مضمار الحياة العامة وقضايا الإسلام الكبرى ومصير المسلمين، وقد بدت بوارق أمل باسمة وصيحات إسلامية واعية بضرورة الاستفادة من موسم الحج وعقد مؤتمرات إسلامية متكررة، لكننا مع الأسف لم نجد للآن صدى وتجاوباً صادقاً في تنفيذ مقررات تلك المؤتمرات، مما يؤكد ما ندعو إليه من أن الحكام هم المسؤولون عن توحيد روابط المسلمين في العصر الحاضر[1].

---

(١) مجلة «الوعي الإسلاميّ»: العدد ٨٣، السنة السابعة، ذو القعدة ١٣٩١، ص: ٢٤ ـ ٢٩ بتصرف يسير.



الحج: تنفيذ ميثاق وطريق انضباط

للدكتور وهبة الزحيلي

ما أحوجنا في الواقع العمليّ لكثرة الكلام عن الحج انضباطاً، وتثقيفاً وتحذيراً، وتوعية وتذكيراً بخطورة هذا الموسم وأهميته البالغة، لأنه موسم يترجم الصورة الصادقة، والمرآة الصافية لحقيقة المسلم المؤمن الملتزم بقضايا دينه، وأحكام شريعته التي أنزلت للتنفيذ والتطبيق لا للتقليد والتلفيق، وإقامة الهياكل الفارغة المحتوى، الزائفة المضمون.

فالحج في حقيقته: انسلاخ من مادية الدنيا، وانعتاق من قيودها الصارمة، وانقطاع كليّ للعبادة الخالصة، وتفرغ شامل لمرضاة الله، وارتحال منهجيّ تدريبيّ قاس نحو عالم الآخرة، له وسائله الدقيقة الواعية، وغاياته العميقة البعيدة المدى، لا يكفي المسلم أن يمر بها دون وعي وإفادة منها، ولا يليق بحاج يعبر مناسك الحج دون تأمل فيها وإدراك مراميها، وإنما عليه شرعاً تحقيق الغاية الكبرى التي شرع الحج من أجلها، ومن أخصِّها ارتباط الشرائع القديمة والأخيرة ببعضها، والتقاء قادتها في غاية واحدة، جاهد من أجلها رسل الله الكرام، وتعانق في ميثاقها محمد رسول الله، وإبراهيم خليل الله، لرسم طريق الهدى، وتحديد معالم توحيد الإله الحق، والإذعان لتعاليمه، وإخلاص العبودية والعبادة له وحده، وصدق التوجه إليه، وتخطي أهواء البشرية الدنيا، والقفزة الجبارة نحو ملكوت الله وحده، ثم الربط القوي بين ماضي الإسلام وحاضره ومستقبله، لشد الأجيال المسلمة نحو أنضر عهد صنعه صحب النبيِّ الكرام مثال الأسوة الحسنة الذين تمثلوا روح

الإسلام، وطافوا به في كل مكان، نافذ السلطان، رفيع المقام، عزيز الجانب، يترجمون للملأ مزايا الدعوة الجديدة: رسالة الله الخالدة في الأرض...

وتظل ناشئة الإسلام في كل زمان معلنة التزامها بميثاق نبيها على أمته، فتهرع إلى الحج في ديار تذكر بإعلاء كلمة الحق، وسكوت الباطل، وقمع دعاة الشر والفساد، وإعلان حقوق الإنسان، ومن أهمها مبدأ المساواة.

ويستمتع المسلم من أقاصي الدنيا حينما يشد العزم إلى رحاب البيت الطاهر، ويشرع في هاتيك الرحلة الروحية السامية المقصد، مع ما في الحج من مشاقّ ومتاعب كثيرة مادية ومعنوية وصحية، بل لا أبالغ إن قلت: إن الحج هو أشقُّ عبادة في الإسلام؛ إذ أن باقي العبادات والفرائض تتم في حال الإقامة والأمن وفي الوطن وبين الأهل، أما الحج ففيه تعرض لمخاطر كثيرة، سواء في أثناء الأسفار أم حين ممارسة شعائره، ففي كثير من الأحيان حيث يشتد الزحام المذكر بأهوال المحشر يكاد يتعرض المرء للموت الزؤام[١]، وتعتبر نجاته منها عوداً إلى الحياة، ومع كل هذا تهش النفوس المؤمنة لاقتحام أهواله، وتبدو البشاشة والطمأنينة في مُحَيَّا الحجاج والعمار؛ لأنهم كما قال النبي ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله: إن سألوا أعطوا، وإن دعوا أجيبوا، وإن أنفقوا أخلف لهم» رواه البيهقيّ.

ويستشعر المسلم قوة ارتباطه بالله، كلما كرر نشيد الحج: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وتعلو نفسَ الحاج روحٌ قوية مشبعة بالصفاء والعذوبة وقوة الإيمان، وتذكره بمدى تعلقه بأخوة الإسلام التي أقامها الدين، وجمع فيها بين أهل الشمال والجنوب، وسكان الشرق والغرب، في لغات متباينة، ولهجات متغيرة، وطباع متباعدة، وعادات وتقاليد متنافرة، ولكنهم جميعاً أبوهم

---

(١) العاجل: انظر «المعجم الوسيط»: ز أ م.

الإسلام، لا أب لهم روحياً سواه، غذاهم بلبانه، وضمهم تحت جناحيه، فوحد غاياتهم، ورعى مقاصدهم، وحمى آمالهم، وحشد طاقاتهم للوصول إلى هدف واحد مجمله «رضوان الله»، ويدفعهم إلى بلوغه قول علي رضي الله عنه: «مَن ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله تعالى فلم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً» وذلك أن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1]. ولا يمل المسلم من تكرار هذه الرحلة ـ مع أن الفريضة مرة في العمر ـ امتثالاً لأمر الله، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إن عبداً صححت له بدنه، وأوسعت عليه في الرزق لم نعد إلى في كل أربعة أعوام، لمحروم» رواه الطبرانيّ وأبو يعلى[2] أي محروم من الأجر، ومطرود من «رضوان الله».

وما أعظمَ تأثرَ الحاج حينما يتذكر الآثار التاريخية لصدر الإسلام وكيف تحطمت معاقل الشرك، وتبددت معالم الوثنية، وتهاوت الأصنام بجهاد النبي المصطفى، ومؤازرة السلف الصالح ذوي الإيمان الصادق، ويجدد الحاج العهد مع الله ومع نبيه على التزام حدود الله، وشكر نعمته العظمى بإكمال شرع الله في موسم الحج: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِيناً﴾[3]، وبه يتذكر المسلم ميثاق النبي على أمته الذي أعلنه في حجة الوداع معلناً مبدأ المساواة بين الناس، ومبيناً الحقوق والواجبات الاجتماعية والأسرية، ومحدداً دستور الأمة ومنهاجها الذي تلتزمه: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي» ومفصلاً طريق تحقيق الأمن والعدلِ الاجتماعيّ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢) قال الإمام الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى إلا أنه قال خمسة أعوام، ورجاله رجال الصحيح: «مجمع الزوائد»: ٣/٢٠٩.

(٣) سورة المائدة: آية ٣.

وتبدو في الحج وحدة المسلمين الكبرى، وصلابة الإسلام، وتذوب الخلافات المذهبية بين أتباع المذاهب، وتتجلى وحدة المسلمين في العبادة الواحدة، والفكرة القريبة والبعيدة، والآمال والآلام، والإيمان والإخاء والتضامن، ويدرك الحاج بالذات دور المرأة المسلمة في مجالات الإسلام المختلفة، فهو دور بنَّاء، دور يمليه موقفها المشارك للرجال، موقف هذه المرأة الخاشعة الباكية المشحونة بالعواطف المؤثرة أمام المشاهد المباركة، والآثار التاريخية، وأمام البيت المقدس، وسائر شعائر الحج، إن هذا الموقف للمرأة يدل بحق على أن الإسلام سوَّى بينها وبين الرجل فيما تقتضيه المساواة في فرص العمل والقرب من الله، وفي المجالات الاجتماعية الكريمة التي تصان فيها كرامتها وسمعتها، فلا يكاد المرء يفرق في رحاب الحج بين امرأة ورجل.

ويلحظ الحاج ظاهرة طيبة في الحج: وهي سخاء الأيدي، وسماحة العطاء والبذل، وكثرة الإنفاق في سبيل الله، مما يحقق التضامن والتكافل الاجتماعيّ بين المسلمين، ويهيىء وسيلة إغناء الفقراء، ويلبي نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[1].

وتظهر في الحج غالباً أخلاق إسلامية رفيعة من التعاون والتضامن، والإيثار والتضحية، والصبر والتحمل، ويترفع المؤمن عن تدنيس نفسه بأوزار المعاصي والذنوب، وتتحلى النفوس بأفضل خصال المحبة والخير والمعروف، مما يجعل الحج من أقوم السبل المؤدية إلى تهذيب الأنفس وتقويم الطباع والشعور بالأمن والطمأنينة والسعادة، فهو منهاج تربويّ عمليّ، وفرصة سانحة للتفاهم والتعاون، والتجرد عن الأهواء.

وترشد مناسك الحج إلى معان كثيرة، لا يصح لحاج تخطِّيها دون

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

إدراك وإمعان، لأن حكمة مشروعيتها تزيد النفس متعة، وتبعث لأداء التكاليف والطاعات، وتحقق مغزى الحج.

فالإحرام والتجرد من اللباس لدى الرجال يقمع شهوات النفس والأهواء، ويبعد الناس عن التفكير في الدنيا، ويوجه البشر إلى الإقبال على الله، والسمو بالروح، والتفكير بجلال الله وعظمته، ويسوي بين الناس جميعاً، فلا فرق بين حاكم ومحكوم، وغني وفقير، وكبير وصغير.

ونشيد التلبية شاهد على التوجه نحو الله، ومذكِّر بضرورة الترفع عن أوضار الدنيا، وحافز على الطاعة وامتثال أوامر الله.

والطواف حول بيت الله مؤكد لوحدة المسلمين العامة، وبه تشبه بملائكة الرحمٰن الحافين حول العرش، وسمو للروح، وعروج إلى ملكوت الله، وتذكير دائم بصاحب البيت وهو الله جل وعلا وتجديد للعهد مع الله، بدءاً بالحجر الأسود ليكون علامة على وحدة العمل بين الناس، وطريقاً لإنفاذ عهد الله على الحق والخير والفضيلة.

والسعي بين الصفا والمروة تردد في معالم الرحمة، والتماس للمغفرة والرضا، وبحث عن فضل الله وخيراته وطلب معونته لتحمل مشاق الحياة، كما فعلت السيدة هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام حينما أعْوَزها الماء، فقامت تسعى ضارعة إلى الله تعالى لإرواء ظمئها، وسد حاجة ابنها إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال ﷺ: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» رواه أحمد في مسنده.

والوقوف بعرفة في ساحة واحدة إقبال خالص على الله، واتصال مباشر مع الله، واحتماء بسلطان الله، وطلب فضله ورحمته، ويتيقن الحاج حينئذ بإجابة دعائه.

وأما الرمي أو رجم إبليس فهو رمز ماديّ لمقاومة الشيطان وأهواء النفس، والتخلص من نزعات الشر، ومحاربة الفساد، إذ كما يقول

---

(١) سورة البقرة: آية ١٥٨.

المناطقة: «المحسوس يدل على المعقول» ورمي الجمرات، واستلام الحجر الأسود، والطواف حول الكعبة، تمثيل للحقائق بصور محسوسة، ورمز لمعاني عميقة بمُثُل مادية تذكر المؤمن بضرورة استيحائها، وإدمان مقاومة شرور النفس ونزعاتها، هذا هو القصد من هذه الشعائر، وليس كما يحلو لسخف بعض المستشرقين الذين يرون في ذلك عبادة أحجار ووثنية أصنام.

وقد تنتهي هذه الشعائر بالذبح ليكون الوداع الأخير للرذيلة والتزام فضيلة التضحية والفداء: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[1].

وكل هذه الشعائر والمناسك في الحج والعمرة تدل دلالة قوية على الثقة بالله، وطلب أفضاله، وتشعر شعوراً قوياً بعظمة وحلاوة عبادة الله، فيكثر البكاء، ويشتد النحيب، وتصفو النفوس، وتعلن التوبة النصوح والندم على الماضي.

وإذا كانت هذه بعض إيجابيات ومنافع الحج، فهناك سلبيات له بسبب شذوذ بعض الناس ورعونتهم، ومن أهم هذه السلبيات: الجهل بأحكام ومقاصد الحج، فيجدر تثقيف الحاج وتعلمه وتعليمه قبل القدوم إلى أماكن النسك، كما ينبغي إدراك أخلاق الإسلام وضرورة ضبط النفس، والبعد عن ساقط الكلام ولغوه، وتجنب فعل بعضهم بإظهار كلمات السب والشتم، بل والخصام والمشاجرة في أقدس الأماكن وأحرج البقاع، وكأن بعض الناس يغفل عن أهم شرائط الحج المنصوص عليها في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[2]، وقال النبي ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

---

(١) سورة الحج: آية ٣٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

ومن سلبيات الحج: التهاون في تطبيق أحكام الشرع الحنيف، من كشف العورات لدى بعض النساء والرجال، وإلقاء الأوساخ في الأماكن الطاهرة، وعدم النظافة، وتنجيس أماكن التجمع، وإذا كانت السنة مرغبة في التواضع في الحج والتبذل ولبس الثياب العادية اقتداء بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ ووسيلة لإظهار المسكنة أمام الله لإجابة الدعاء، فليس معنى ذللك إهمال نظافة الثياب وألبسة الإحرام، فقد جعل الحج طريق النظافة بما شرع فيه من أغسال كثيرة مسنونة، وحلق أو تقصير، وتقليم أظافر، ولبس البياض، وعدم لبس المخيط عند الإحرام، وضروة المبيت بمنى والمزدلفة لإراحة النفس، وعدم حصر الحجاج في أماكن محصورة بمكة ونحوها، وتعرضهم لفضاء صحراويّ رحيب تعبث فيه الرياح والهواء، وتطهرهم الشمس من كثير من الأمراض بسبب الازدحام وإلقاء الفضلات.

ومن سلبيات الحج: الحرص الشديد على تقبيل الحجر الأسود، وتقبيل أسوار القبور، وعدم التزام الأدب النبويّ لدى زيارة المصطفى ﷺ وزيارة وزيريه: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

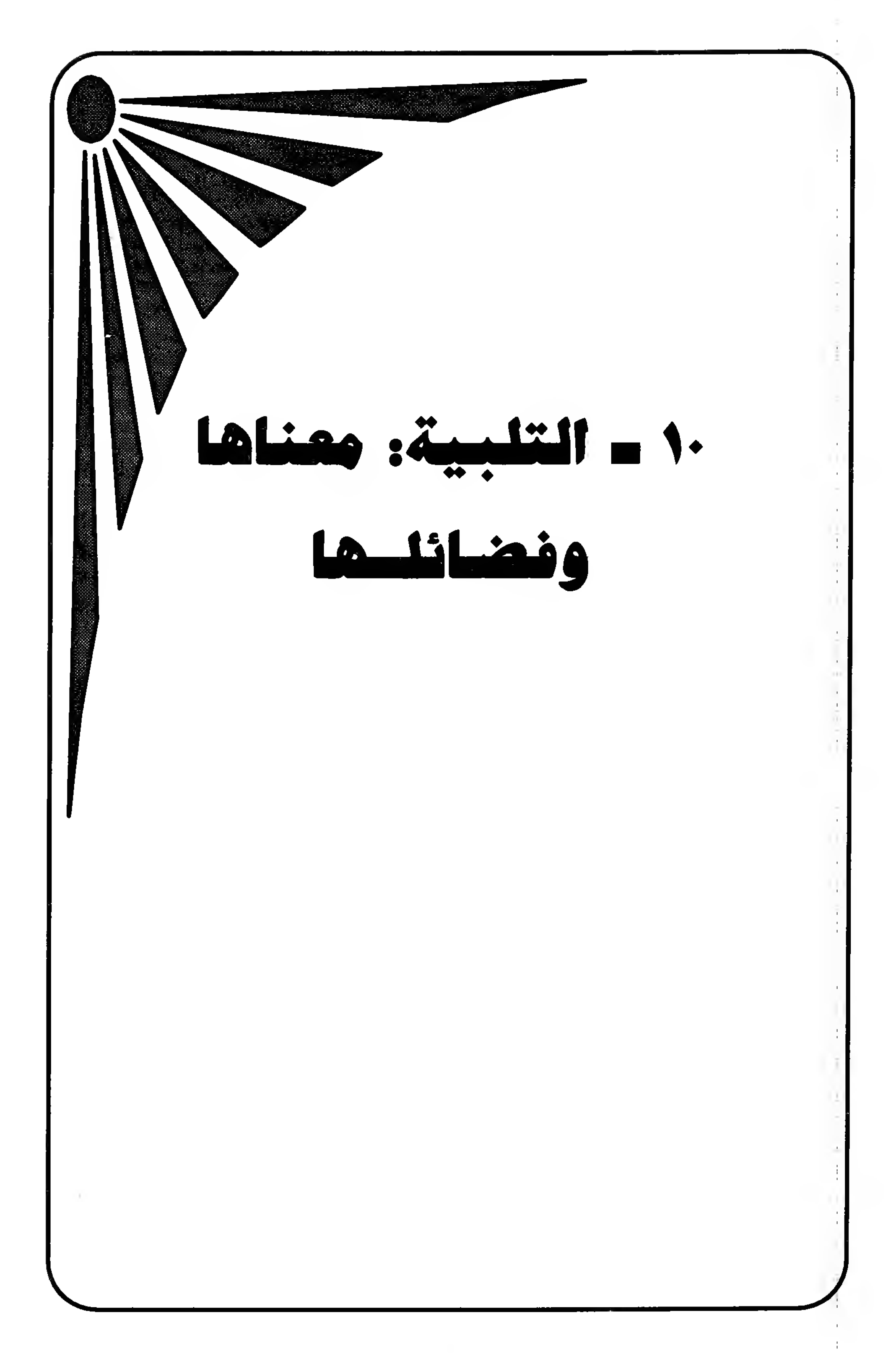
ومما يلاحظ أن الإفادة من الحج على الصعيد السياسيّ وخدمة قضايا الإسلام الكبرى معدومة الأثر لا يلتفت إليها الآن.

والكلمة الأخيرة: هي أن الحج في حقيقته طريق التزام أحكام الشرع والتدرب على الأخلاق الإسلامية الكريمة، ويختلف الحج عندنا عن أي مفهوم له لدى الأمم الأخرى، فهو ليس وسيلة وقتية للتخلص من الخطايا وغسل الذنوب، كالاعتراف على الكرسيّ أمام راهب، وإنما هو تجديد عهد مع الله، وطريق ضبط للنفس وتهذيب الخلق فيما بعد انتهاء الحج؛ إذ أن علامة الحج المبرور الذي ليس له جزاء إلا الجنة أن يكون الحاج أحسن حالاً مما كان عليه قبل الحج، فإن لم يحصل ذلك خرق عهد الله، واختلط العمل الصالح بعمل السوء، والله ولي المتقين[1].

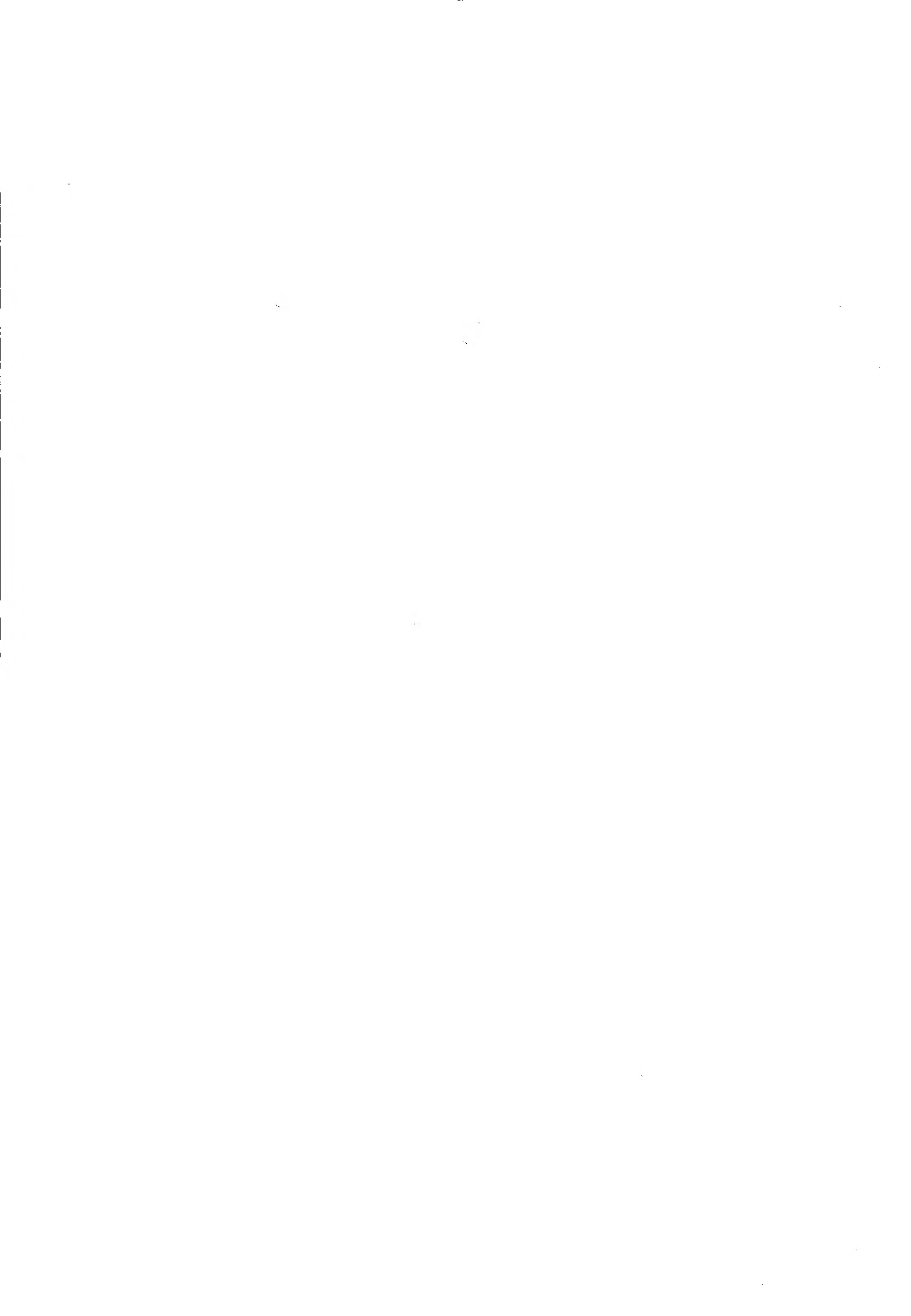
---

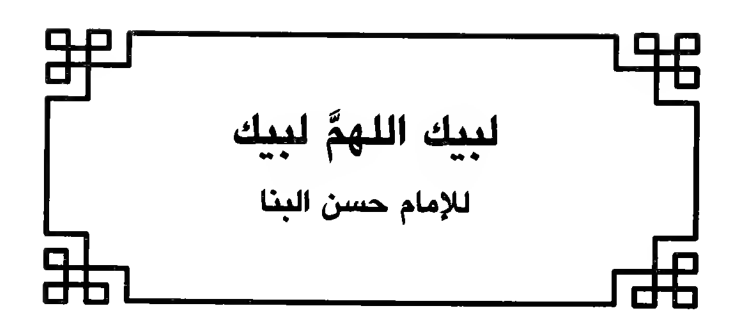
(١) مجلة «الوعي الإسلاميّ»: العدد ١٣٢، السنة الحادية عشرة ١٣٩٥، ص: ٢٥ ـ ٢٩ بتصرف يسير.





١٠ - التلبية: معناها وفضائلـها





لبيك اللهمَّ لبيك

للإمام حسن البنا

لبيك اللهمَّ لبيك.

ما أجمل عظمة الربوبية.

وما أعظم فضل الألوهية.

وما أجمل أن يتفضل الله على عباده فيدعوهم إلى بيته العتيق ليغفر ذنوبهم ويطهر قلوبهم، ويضاعف أجورهم، ويجدد أرواحهم، ويمنحهم من فيض فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وما أجمل أن يتفتح المؤمن على هذا النداء العلويّ، ويتلقاه كما تتلقى الزهرة قطرات الندى، فيحيا به ويسعد، ويتجهز من فوره لإجابة دعوة الله والانضمام إلى وفده الكريم، مهاجراً إلى حرمه المقدس وبيته الأمين، هاتفاً من أعماق قلبه:

«لبيك اللهمَّ لبيك».

أيها الأخ الكريم:

إن كنت ممن سمعوا هذا النداء فأجابوا الدعاء وقدر لهم أن يكونوا في وفد الله تبارك وتعالى فاعلم أنها غرة السعادة وفاتحة الخير كله، وعنوان رضوان الله، فما دعاك إلا وهو يحبك، وما ناداك إلا ليمنحك، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم، فهنِّىء نفسك بهذا الفضل المبين، وتقبَّل

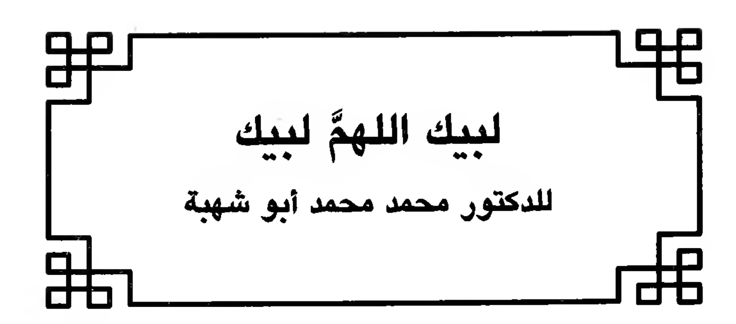
منا تهنئة الإخوان المحبين، واذكرنا بصالح الدعوات المشرفة، وإن حالت دون ذلك الحوائل، فصاحب الحجاج بقلبك، ورافقهم في أداء المناسك بروحك، فإن لك مثل ثوابهم إن شاء الله.

وصلَّى الله وسلم على سيدنا محمد القائل لأصحابه ما معناه: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم سيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «حبسهم العذر».

وفقنا الله وإياك إلى حج بيته وزيارة رسوله، وكتب لنا ولك القبول.. آمين[1].



(١) جريدة الإخوان المسلمون الأسبوعية، العدد ٢٦، سنة ١٣٥٦.



لبيك اللهمَّ لبيك

للدكتور محمد محمد أبو شهبة

«لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

بهذا النشيد الإلٰهيّ الحبيب إلى النفوس المؤمنة، وبهذه الكلمات المشرقة العِذاب التي هي رمز التوحيد والإيمان، وعنوان الخضوع والإذعان، والاعتراف بالجميل والإنعام يرفع الحجاج أصواتهم مسلمين وجوههم لله ومقبلين عليه، يحدوهم الرجاء في عفو الله ومغفرته، ويحثُّهم الشوق إلى زيارة هاتيك البقاع المقدسة التي فيها الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس، وزمزم العين الثرَّة المباركة، ومقام إبراهيم عليه السلام الذي يشهد لله بالقدرة والجلال، ولإبراهيم بالإخلاص والامتثال.

وقد شاء المشرع الحكيم أن يكون الإهلال بالحج والعمرة بهذه الصيغة المأثورة، ليكون إيذاناً من الحاج والمعتمر بنبذ الشرك وعبادة كل ما سوى الله من حجرٍ أو شجر أو كوكب أو حيوان أو إنسان، وتخصيص العبادة بالله الواحد القهار، وإقراراً من المسلم بأن قصد بقاع شرفها الله ودعا لزيارتها على لسان أنبيائه ورسله ليس من الشرك ولا من الوثنية في شيء، وإنما هو امتثال لأمر الله، فهو الآمر الحكيم المتصرف كما يشاء. فلا تعظيم إلا لما عظمه الله، والحلال هو ما أحله الله والحرام هو ما حرمه الله، وليس بالعقل ولا بالتشهي واتباع الأهواء.

وفي رفع الصوت بهذا التوحيد الخالص إزالة لكل اشتباه، واحتراس

بالغ لأي إيهام قد يتطرق إلى بعض الأذهان، وكأني بك أيها المسلم ترغب في معرفة صيغة ومعنى هذه التلبية التي يرفع أصواتهم بها الآلاف المؤلفة من المسلمين حين يقصدون إلى بيت الله الحرام محرمين بحج أو عمرة، وإليك البيان:

صيغة التلبية:

في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن تلبية رسول الله ﷺ كانت بهذه الصيغة: «لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، وهذا القدر هو الذي اتفق عليه البخاري ومسلم في صحيحيهما وكثير من أصحاب السنن المعتمدة، لذلك رأى بعض الأئمة الاقتصار في التلبية على هذا القدر الذي اتفقت عليه غالب الروايات الثابتة.

وذهب البعض الآخر إلى جواز الزيادة وقالوا: لا بأس بها من غير استحباب أو كراهة، واستدلوا بما روي عن بعض الصحابة من زيادتهم بعض العبارات على هذا، فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه وفيه: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهل بإهلال رسول الله ﷺ من هؤلاء الكلمات ويقول: لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك، لبيك والرغباء إليك والعمل».

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقتدي بأبيه الفاروق ويزيد هذه الزيادة، ففي صحيح مسلم من رواية نافع عن عبدالله بن عمر أن تلبية رسول الله ﷺ: «لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. قال: وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها: لبيك لبيك وسعديك، والخير بيديك، والرغباء إليك والعمل»، وقد وردت هذه الزيادة أيضاً في مسند الإمام أحمد. ومما يشهد للزيادة أيضاً ما رواه النسائيّ وابن ماجه وابن حبان وصححه والحاكم عن أبي هريرة قال: «كان من تلبية رسول الله ﷺ: لبيك إلهَ الحق لبيك»

وروي أن أنساً رضي الله عنه كان يزيد: «لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً»، وهكذا نرى أن الزيادة على المتفق عليه من المأثور عن النبي أو الصحابة لا بأس بها.

معنى التلبية:

«لبيك اللهمَّ لبيك» لبيك: مصدر مثنى وهو ما عليه إمام العربية سيبويه، وتبعه على ذلك جماعة من أئمة اللغويين، والتثنية هنا غير حقيقية، والمراد بهذا التعبير وما شاكله التكثير أو المبالغة في الإجابة، ومثل هذا قولهم حنانيك أي تحنناً بعد تحنن، والمعنى أجيبك يا ربي إجابة بعد إجابة، وأسعى في طلب مرضاتك سعياً بعد سعي، وقيل في معنى هذه الفقرة: اتجاهي وقصدي إليك يا الله، وقيل: أنا مقيم على طاعتك لا أبرح عنها. وقيل: إخلاصي لك[1]، والأولى والأظهر هو المعنى الأول، لأن استعمال «لبيك» في الإحابة أمر معروف، ولأن الملبي مجيبٌ داعيَ الله سبحانه وتعالى، وهو الخليل إبراهيم عليه السلام، يوم أن فرغ من بناء الكعبة وأمره الله سبحانه أن يؤذن في الناس بالحج، فقد رُوي عن ابن عباس بإسناد قويّ قال: «لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قيل له: أذن في الناس. قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعليَّ البلاغ. فنادى إبراهيم: يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فسمعه من بين السماء والأرض، ألا ترى أن الناس يجيبون من أقصى الأرض يلبون»، وفي رواية عنه: «فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء».

وفي اختيار هذا اللفظ الدال على هذا المعنى الكريم تنبيه على تكريم الله سبحانه لعباده المستجيبين له وإشعارهم بأن وفودهم على بيته إنما كان

---

(١) قال الشيخ: في القاموس: أَلَبَّ: أقام ـ كَلَبَّ ـ. ومنه «لبيك» أي أنا مقيم على طاعتك إلباباً بعد إلباب وإجابة بعد إجابة، أو معناه اتجاهي وقصدي لك، من داري كلبَّ داره أي تواجهها، أو معناه: محبتي لك، من امرأة لبة أن محبة، أو معناه إخلاصي لك من حب لُباب أي خالص.

باستدعاء منه، فهم ضيوفه وزواره، وحقٌّ على المضيف أن يكرم ضيوفه وزواره.

«لبيك لا شريك لك لبيك»: إقرار بالوحدانية، ونفيٌ للشريك وما عسى أن يُتوهم، فنحن وإن كنا جئنا قاصدين تعظيم بيتك وأداء مناسكك، فما عظمنا إلا ما أمرتنا بتعظيمه، وقلوبنا عامرة بتوحيدك، وألسنتنا لاهجة بنفي كل شريك لك، وكيف لا وآثارك الدالة على وحدانيتك في الأنفس والآفاق متكاثرة، وفي كل شيء لك آية تدل على أنك الواحد الأحد الفرد الصمد.

وكان أهل الجاهلية يلبسون الحق بالباطل، وينقضون التوحيد بالإشراك فيقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، ملكته وما ملك» فأبطل الإسلام هذه الزيادة الكافرة، وأبقى الحق المأثور من لدن الخليل عليه السلام.

«إن الحمد والنعمة لك والملك»: روى لفظ «إن» بكسر الهمزة وفتحها، فالكسر على أنه كلام مستأنف، والفتح على أنه تعليل لما قبله، والذي عليه جمهور العلماء ترجيح الكسر، لأنه يقتضي أن تكون الإجابة لله سبحانه غير معللة بعلة، وأن الحمد لله على كل حال، ولفظ «الملك» يجوز فيه النصب على العطف، أو الرفع على أنه مبتدأ، والخبر مقدر، أي والملك لك: وكأن الحاج أو المعتمر يقول: إنا نجيبك يا ربنا ونسعى إليك وندوم على طاعتك وكيف لا؟ وأنت لك الحمد في السموات والأرضين، ولك الحمد في الأولى والآخرة، ولك الحمد لأنك متصف بكل كمال وجلال، ولك الحمد لأنك مولي النعم ومعطيها، وما من نعمة من النعم الظاهرة والباطنة والجليلة والعظيمة إلا وهي منك ومردُّها إليك، ونعمك يا رب لا تعدّ ولا تحصى، وكيف تحصى نعمك؟ وما من إنسان يتنفس إلا ولك يا ربنا في كل نفس نعم ومنن، وما من نعمة من نعمك إلا ولك فيها حق الشكر علينا، ومهما شكرنا فنحن عاجزون عن الوفاء، فكيف لا نَجِدّ في السعي إليك، ونرفع أصواتنا بتوحيدك والثناء عليك، وأنت مالك الملك

والمتصرف في الكون كما تشاء، تأتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء وما أجمل أن نكرر في هذا الموقف شعار التوحيد، وأن تترطب ألسنتنا بقولنا: «لا شريك لك».

«لبيك وسعديك» أي إسعاداً لك بعد إسعاد، ومسارعة في طاعتك وطلب رضاك بعد مسارعة.

«والخير بيديك» فكل خير فهو منك وبتوفيقك وفضلك، ومهما يكن من خير فمردُّه إليك، وفي تعريف الخير بالألف واللام والاقتصار عليه في هذا المقام حُسْن وأي حُسْن!

«والرغباء إليك والعمل»: روى الرغباء بفتح الراء والمد، وبضم الراء والقصر أي الرُّغبى، والمعنى: الضراعة والمسألة إنما هي إليك يا الله، فأنت المقصود في الحوائج، وأنت الحقيق بالإجابة، وأنت المقصود بما نعمل من طاعات، فتقبل منا أعمالنا، وارحم ضراعتنا، وأجب سؤلنا، واغفر لنا ما قدَّمنا وما أخَّرنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

هذه هي التلبية وهذا هو معناها، فعليك أيها المسلم أن تستشعر هذه المعاني وأنت تلبي رافعاً صوتك بها، وأن تملأ قلبك بها، فخير الذكر ما كان مفهوم المعنى نابعاً من أعماق القلب[1].



---

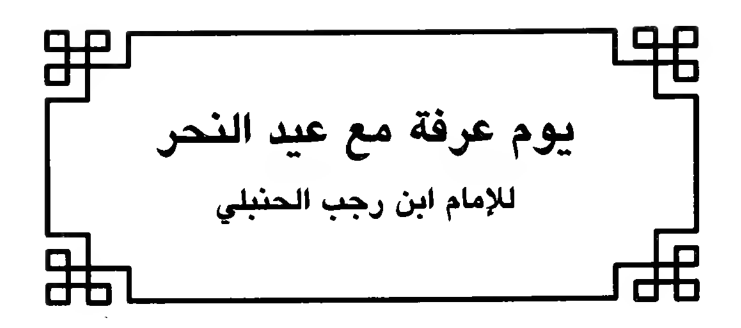
(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٨، الجزء ١٠، شوال سنة ١٣٧٦، ص: ٩٢١ ـ ٩٢٤.





١١ - الوقوف بعرفة





يوم عرفة مع عيد النحر

للإمام ابن رجب الحنبلي

في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]. فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه: نزلت ورسول الله ﷺ قائم بعرفة يوم جمعة» وخرج الترمذي عن ابن عباس نحوه وقال: فيه نزلت في يوم عيد من يوم جمعة ويوم عرفة.

العيد هو موسم الفرح والسرور، وأفراح المؤمنين وسرورهم في الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بإكمال طاعته وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضله ومغفرته كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2] قال بعض العارفين: ما فرح أحد بغير الله إلا بغفلته عن الله.

فالغافل يفرح بلهوه وهواه، والعاقل يفرح بمولاه، وأنشد سَمْنون في هذا المعنى:

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم وكان بذكر الخلق يلهو ويمرحُ

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) سورة يونس: آية ٥٨.

فلما دعا قلبي هواك أجابهُ ... فلست أراه عن فنائك يبرحُ
رميت ببعد منك إن كنت كاذباً ... وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإن كان شيء في البلاد بأسرها ... إذا غبت عن عيني لعيني يملحُ
فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل ... فلست أرى قلبي لغيرك يصلحُ

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما بيوم الفطر والأضحى» فأبدل الله هذه الأمة بيومي اللعب واللهو يومي الذكر والشكر والمغفرة والعفو، ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعياد: عيد يتكرر كل أسبوع وعيدان يأتيان في كل عام مرة مرة من غير تكرر في السنة، فأمام العيد المتكرر فهو يوم الجمعة، وهو عيد الأسبوع، وهو مترتب على إكمال الصلوات المكتوبات، فإن الله عزَّ وجلَّ فرض على المؤمنين في كل يوم وليلة خمس صلوات، وأيام الدنيا تدور على سبعةِ أيام، فكلما كمل دور أسبوع من أيام الدنيا واستكمل المسلمون صلواتهم فيه شرع لهم في يوم استكمالهم، وهو اليوم الذي كمل فيه الخلق، وفيه خلق آدم وأدخل الجنة وأخرج منها، وفيه ينتهي أمد الدنيا فتزول وتقوم الساعة، فالجمعة من الاجتماع على سماع الذكر والموعظة وصلاة الجمعة، وجعل ذلك لهم عيداً، ولهذا نُهي عن إفراده بالصيام، وفي شهود الجمعة شبه من الحج...

وقال سعيد بن المسيب: شهود الجمعة أحب إلي من حجة نافلة.

والتبكير إليها يقوم مقام الهدي على قدر السبق، فأولهم كالمهدي بدنة ثم بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة، ثم بيضة، وشهود الجمعة يوجب تكفير الذنوب إلى الجمعة الأخرى إذا سَلِم ما بين الجمعتين من الكبائر، كما أن الحج المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجة الأخرى...

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة» وفي المسند عنه ﷺ أنه قال في يوم الجمعة: «هو أفضل عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى» فهذا عيد الأسبوع وهو متعلق بإكمال الصلوات المكتوبة، وهي أعظم أركان الإسلام

ومبانيه بعد الشهادتين، وأما العيدان اللذان لا يتكرران في كل عام وإنما يأتي كل واحد منهما في العام مرة واحدة، فأحدهما عيد الفطر من صوم رمضان، وهو مترتب على إكمالهم صيام رمضان، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا استكمل المسلمون صيام شهرهم المفروض عليهم واستوجبوا من الله المغفرة والعتق من النار فإن صيامه يوجب مغفرة ما تقدم من الذنوب وآخره عتق من النار، يعتق فيه من النار من استحقها بذنوبه، فشرع الله تعالى لهم عقب إكمالهم لصيامهم عيداً يجتمعون فيه على شكر الله وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفي الصائمون فيه أجر صيامهم ويرجعون من عيدهم بالمغفرة.

والعيد الثاني: عيد النحر، وهو أكبر العيدين وأفضلهما، وهو مترتب على إكمال الحج، وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمل المسلمون حجهم غفر لهم، وإنما يكمل الحج بيوم عرفة والوقوف فيه بعرفة، فإنه ركن الحج الأعظم، كما قال ﷺ: «الحج عرفة»، ويوم عرفة هو يوم العتق من النار، فيعتق الله فيه من النار من وقف بعرفة ومن لم يقف بها من أهل الأمصار من المسلمين، فلذلك صار اليوم الذي يليه عيداً لجميع المسلمين في جميع أمصارهم من شهد الموسم منهم ومن لم يشهده، لاشتراكهم في العتق والمغفرة يوم عرفة، وإنما لم يشترك المسلمون كلهم في الحج كل عام رحمة من الله وتخفيفاً على عباده، فإنه جعل الحج فريضة العمر لا فريضة كل عام، وإنما هو في كل عام فرض كفاية بخلاف الصيام فإنه فريضة كل عام على كل مسلم، فإذا كمل يوم عرفة وأعتق الله عباده المؤمنين من النار اشترك المسلمون كلهم في العيد عقب ذلك، وشرع للجميع التقرب إليه بالنسك وهو إراقة دماء القرابين، فأهلُ الموسم يرمون الجمرة فيشرعون في التحلل من إحرامهم بالحج، ويقضون تفثهم[1]،

---

(١) التفث: ما يصيب المحرم من ترك الادّهان والغسل والحلق، وإزالته من مناسك الحج: «المعجم الوسيط»: ت ف ث.

ويوفون نذورهم ويقربون قرابينهم من الهدايا، ثم يطوفون بالبيت العتيق، وأهل الأمصار يجتمعون على ذكر الله وتكبيره والصلاة له، قال مخنف بن سليم ـ وهو معدود من الصحابة ـ: «الخروج يوم الفطر يعدل عمرة، والخروج يوم الأضحى يعدل حجة»، ثم ينسكون عقب ذلك نسكهم ويقربون قرابينهم بإراقة دماء ضحاياهم فيكون ذلك شكراً منهم لهذه النعم، والصلاة والنحر الذي يجتمع في عيد النحر أفضل من الصلاة والصدقة الذي في عيد الفطر، ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر أن يصلي لربه وينحر، وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[1]. ولهذا ورد الأمر بتلاوة هذه الآية عند ذبح الأضاحي، والأضاحي سنة إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ فإن الله شرعها لإبراهيم حين فدى ولده الذي أمره بذبحه بذبح عظيم...

فهذه أعياد المسلمين في الدنيا وكلها عند إكمال طاعة مولاهم الملك الوهاب وحيازتهم لما وعدهم من الأجر والثواب.

مرَّ قوم براهب في دير فقالوا له: متى عيد أهل هذا الدير؟ قال: يوم يغفر لأهله.

ليس العيد لمن لبس الجديد إنما العيد لمن طاعاته تزيد، ليس العيد لمن تجمل باللباس والركوب إنما العيد لمن غفرت له الذنوب، في ليلة العيد تفرق خِلَع العِتق والمغفرة على العبيد، فمن ناله منها شيء فله عيد، وإلا فهو مطرود بعيد...

وأما أعياد المؤمنين في الجنة فهي أيام زيارتهم لربهم عزَّ وجلَّ، فيزورونه ويكرمهم غاية الكرامة، ويتجلى لهم وينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم من ذلك، وهو الزيادة التي قال الله تعالى فيها ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2] ليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه:

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٢.

(٢) سورة يونس: آية ٢٦.

إن يوماً جامعاً شملي بهم   ذاك عيد ليس لي عيد سواه

كل يوم كان للمسلمين عيداً في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه، ويوم الجمعة يُدعى في الجنة يوم المزيد، ويوم الفطر والأضحى يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة، وروي أنه يشارك النساء الرجال فيهما كما كن يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة، فهذا لعموم أهل الجنة، فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم مرتين بكرة وعشياً، الخواص كانت أيام الدنيا كلها لهم أعياداً فصارت أيامهم في الآخرة كلها أعياداً، قال الحسن: كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد.

كل يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره وشكره فهو له عيد.

أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها خمسة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، والحج، فأعياد عموم المسلمين في الدنيا عند إكمال دور الصلاة، وإكمال الصيام والحج يجتمعون عند ذلك اجتماعاً عاماً، فأما الزكاة فليس لها وقت معين ليتخذ عيداً بل كل من ملك نصاباً فحوله بحسب ملكه، وأما الشهادتان فإكمالهما يحصل بتحقيقهما والقيام بحقوقهما، وخواص المؤمنين يجتهدون على ذلك في كل وقت، فلذلك كانت أوقاتهم كلها أعياداً لهم في الدنيا والآخرة، كما أنشد الشبليّ:

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف   والقلب مني عن اللذات منحرفُ
ولي قرينان ما لي منهما خلف   طول الحنين وعين دمعُها يَكِفُ

ولما كان عيد النحر أكبر العيدين وأفضلهما، ويجتمع فيه شرف المكان والزمان لأهل الموسم كانت لهم فيه معه أعياد قبله وبعده؛ فقبله يوم عرفة وبعده أيام التشريق، وكل هذه الأعياد أعياد لأهل الموسم، كما في حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب» خرجه أهل السنن وصححه الترمذيّ، ولهذا لا يشرع لأهل الموسم صوم يوم عرفة لأنه أول

أعيادهم وأكبر مجامعهم، وقد أفطره النبي ﷺ بعرفة والناس ينظرون إليه، وروي أنه نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة، ورُوي عن سفيان بن عيينة أنه سئل عن النهي عن صيام يوم عرفة بعرفة فقال: «لأنهم زوار الله وأضيافه ولا ينبغي للكريم أن يجوع أضيافه»، وهذا المعنى يوجد في العيدين وأيام التشريق أيضاً فإن الناس كلهم فيها في ضيافة الله عزَّ وجلَّ لا سيما عيد النحر، فإن الناس يأكلون من لحوم نسكهم أهلَ الموقف وغيرهم، وأيام التشريق الثلاثة هي أيام عيد ـ أيضاً ـ، ولهذا بعث النبي ﷺ من ينادي بمكة أنها أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ فلا يصومن أحد.

وقد يجتمع في يوم واحد عيدان كما إذا اجتمع يوم الجمعة مع يوم عرفة أو يوم النحر فيزداد ذلك اليوم حرمة وفضلاً لاجتماع عيدين فيه، وقد كان ذلك اجتمع للنبي ﷺ في حجته يوم عرفة فكان يومَ جمعة وفيه نزلت هـذه الآيـة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] وإكمال الدين في ذلك اليوم حصل من وجوه منها:

إن المسلمين لم يكونوا حجوا حجة الإسلام بعد فرض الحج قبل ذلك ولا أحد منهم، هذا قول أكثر العلماء أو كثير منهم، فكمل بذلك دينهم لاستكمالهم عمل أركان الإسلام كلها.

ومنها: إن الله تعالى أعاد الحج على قواعد إبراهيم عليه السلام ونفى الشرك وأهله فلم يختلط بالمسلمين في ذلك الموقف منهم أحد، قال الشعبي: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة حين وقف موقف إبراهيم واضمحلَّ الشرك، وهدمت منار الجاهلية، ولم يطف بالبيت عريان، وكذا قال قتادة وغيره، وقد قيل إنه لم ينزل بعدها تحليل ولا تحريم، قاله أبو بكر بن عياش.

وأما إتمام النعمة فإنما حصل بالمغفرة فلا تتم النعمة بدونها كما قال لـنـبـيـه ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ

(١) سورة المائدة: آية ٣.

﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾[1] وقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾[2]. ومن هنا استنبط محمد بن كعب القرظيّ بأن الوضوء يكفر الذنوب كما وردت السنة بذلك صريحاً. . .

فهذه الآية تشهد لما روي في يوم عرفة أنه يوم المغفرة والعتق من النار فيوم عرفة له فضائل متعددة منها: إنه يوم إكمال الدين وإتمام النعمة.

ومنها: إنه عيد لأهل الإسلام كما قاله عمر بن الخطاب وابن عباس، فإن ابن عباس قال: نزلت في يوم عيدين يوم جمعة ويوم عرفة، وروي عن عمر أنه قال: وكلاهما بحمد الله لنا عيد، خرجه ابن جرير في تفسيره ويشهد له حديث عقبة بن عامر المتقدم لكنه عيد لأهل الموقف خاصة، ويشرع صيامه لأهل الأمصار عند جمهور العلماء وإن خالف فيه بعض السلف.

ومنها: إنه قد قيل إنه الشفع الذي أقسم الله به في كتابه وإن الوتر يوم النحر، وقد روي هذا عن النبي ﷺ من حديث جابر خرجه الإمام أحمد والنسائيّ في تفسيره، وقيل إنه الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه فقال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾[3]، وفي المسند عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً «الشاهد»: يوم عرفة، والمشهود: يوم الجمعة، وخرجه الترمذي مرفوعاً وروي ذلك عن علي من قوله وخرج الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً: «الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة» وعلى هذا فإذا وقع يوم عرفة في يوم جمعة فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهد ومشهود.

ومنها أنه روي أنه أفضل الأيام، خرجه ابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «أفضل الأيام يوم عرفة» وذهب إلى ذلك طائفة من العلماء. . .

---

(١) سورة الفتح: آية ٢.
(٢) سورة المائدة: آية ٦.
(٣) سورة البروج: آية ٣.

ومنها أنه يوم الحج الأكبر عند جماعة من السلف منهم عمر وغيره، وخالفهم آخرون وقالوا: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وروي ذلك عن النبي ﷺ.

ومنها أن صيامه كفارة سنتين وسنذكر الحديث في ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومنها أنه يوم مغفرة الذنوب والتجاوز عنها والعتق من النار والمباهاة بأهل الموقف كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء» وفي المسند عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: إن الله يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً...

وخرجه ابن منده في كتاب التوحيد ولفظه: «إذا كان يوم عرفة ينزل الله إلى سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً من كل فج عميق أشهدكم أني قد غفرت لهم، فتقول الملائكة: يا رب فلان مُرَهّق[1] فيقول: قد غفرت لهم، فما من يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة» وقال: إسناد حسن متصل. انتهى. ورويناه من وجه آخر بزيادة فيه، وهي: «أشهدكم يا عبادي أني قد غفرت لمحسنهم وتجاوزت عن مسيئهم»...

وروى أبو عثمان الصابونيّ بإسناد له عن رجل كان أسيراً ببلاد الروم فهرب من بعض الحصون قال: فكنت أسير بالليل وأكمن بالنهار، فبينا أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار إذ أنا بحسٍّ فراعني ذلك، فنظرت فإذا راكب بعير فازددت رعباً وذلك لأنه لا يكون ببلاد الروم بعير فقلت: سبحان الله في بلاد الروم راكب بعير، إن هذا لعجب، فلما انتهى إلي قلت: يا عبدالله: من أنت؟ قال: لا تسأل، قلت: إني أرى عجباً فأخبرني، فقال: لا تسأل. فأبيت عليه فقال: أنا إبليس، وهذا وجهي من عرفات

(١) أي كثير المعاصي.

رافقتهم عشية اليوم أطّلع عليهم فنزلت عليهم المغفرة ووُهب بعضهم لبعض فداخلني الهم والحزن والكآبة، وهذا وجهي إلى قسطنطينية انفرج بما أسمع من الشرك بالله وادِّعاء أن له ولداً، فقلت: أعوذ بالله منك، فلما قلت هذه الكلمات لم أر أحداً، ويشهد لهذه الحكاية حديث عباس بن مرداس الذي خرجه أحمد وابن ماجه في دعاء النبي ﷺ لأمته عشية عرفة ثم بالمزدلفة فأجيب، فضحك ﷺ وقال: «إن إبليس حين علم أن الله قد غفر لأمتي واستجاب دعائي أهوى يحثي التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور، فضحكت من الخبيث من جزعه».

ويروى عن عليّ بن الموفق أنه وقف بعرفة في بعض حجاته فرأى كثرة الناس فقال: اللهمَّ إن كنت لم تتقبل منهم أحداً فقد وهبته حجي، فرأى رب العزة في منامه وقال له: يا ابن الموفق أتتسخَّى عليّ؟ قد غفرت لأهل الموقف ولأمثالهم وشَفَّعت كل واحد منهم في أهل بيته وذريته وعشيرته، وأنا أهل التقوى وأنا أهل المغفرة، ويروى نحوه عن غيره أيضاً من الشيوخ.

فمن طمع في العتق من النار ومغفرة ذنوبه في يوم عرفة فليحافظ على الأسباب التي يرجى بها العتق والمغفرة، فمنها: صيام ذلك اليوم، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده.

ومنها: حفظ جوارحه عن المحرمات في ذاك اليوم.

ومنها: الإكثار من شهادة التوحيد بإخلاص وصدق فإنها أصل دين الإسلام الذي أكمله الله تعالى في ذلك اليوم وأساسه، وفي المسند عن عبدالله بن عمر قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وخرجه الترمذيّ ولفظه: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

فتحقيق كلمة التوحيد يوجب عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار؛ كما ثبت في الصحيح أن من قالها مائة مرة كانت له عدلَ عشر رقاب، وثبت أيضاً أن من قالها عشر مرات كان كمن أعتق أربعة من ولد إسماعيل.

ومنها: أن يعتق رقبة إن أمكنه فإن من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار؛ كان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقف بعرفة ومعه مائة بدنة مقلدة ومائة رقبة، فيعتق رقيقه فيضج الناس بالبكاء والدعاء، ويقولون: ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فأعتقنا، وجرى للناس مرة مع الرشيد نحو هذا، وكان أبو قلابة يعتق جارية في عيد الفطر يرجو أن يعتق بذلك من النار.

ومنها كثرة الدعاء بالمغفرة والعتق فإنه يرجى إجابة الدعاء فيه، روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي قال: ليس في الأرض يوم إلا لله فيه عتقاء من النار، وليس يوم أكثر فيه عتقاً للرقاب من يوم عرفة فأكثر فيه أن تقول: اللهمَّ أعتق رقبتي من النار، وأوسع لي من الرزق الحلال، واصرف عني فسقة الجن والإنس، فإنه عامة دعائي اليوم.

وليحذر من الذنوب التي تمنع المغفرة فيه والعتق، فمنها: الاختيال. والمختال هو المتعاظم في نفسه المتكبر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1] وقال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى مَن جر ثوبه خيلاء».

ومنها الإصرار على الكبائر، روى جعفر السراج بإسناده عن يونس بن عبدالأعلى أنه حج سنة فرأى أمير الحاج في منامه أن الله قد غفر لأهل الموسم سوى رجل فسق بغلام، فأمر بالنداء بذلك في الموسم، وروى ابن أبي الدنيا وغيره أن رجلاً رأى في منامه أن الله قد غفر لأهل الموقف كلهم إلا رجلاً من أهل بلخ، فسأل عنه حتى وقع عليه فسأله عن حاله فذكر أنه

---

(١) سورة الحديد: آية ٢٣.

كان مدمناً لشرب الخمر فجاء ليلة وهو سكران فعاتبته أمه وهي تسجر تنوراً فاحتملها فألقاها فيه حتى احترقت.

يا من يطمع في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الإثم والأوزار تالله ما نصحت نفسك ولا وقف في طريقك غيرك، تُوبِق نفسك بالمعاصي فإذا حرمت المغفرة قلت: أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم:

فنفسك لم ولا تلم المطايا ومت كمداً فليس لك اعتذار

إن كنت تطمع في العتق فاشترِ نفسك من الله فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة من كرمت عليه نفسه هان عليه كل ما يبذل في افتكاكها من النار، اشترى بعض السلف نفسه من الله ثلاث مرار أو أربعاً يتصدق كل مرة بوزن نفسه فضة، واشترى عامر بن عبدالله بن الزبير نفسه من الله بديته ست مرات تصدق بها، واشترى حبيب العجمي نفسه من الله بأربعين ألف درهم تصدق بها، وكان أبو هريرة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة بقدر ديته يفتك بذلك نفسه...

من عرف ما يطلب هان عليه كل ما يبذل، ويحك قد رضينا منك في فكاك نفسك بالندم، وقنعنا منك في ثمنها بالتوبة والحزن، وفي هذا الموسم قد رخص السعر، مَن ملك سمعه وبصره ولسانه غفر له، مد إليه يد الاعتذار، وقم على بابه بالذل والانكسار، وارفع قصة ندمك مرقومة على صحيفة خدك بمداد الدموع الغزار، وقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[1] قال يحيى بن معاذ: العبد يوحش فيما بينه وبين سيده بالمخالفات، ولا يفارق بابه بحال لعلمه بأن عز العبيد في ظل مواليهم، وأنشأ يقول:

قرة عيني لا بد لي منك وإن أوحش بيني وبينك الزلل
قرة عيني أنا الغريق فخذ كَفَّ غريق عليك يتكل

(١) سورة الأعراف: آية ٢٣.

كانت أحوال الصادقين في الموقف بعرفة تتنوع فمنهم من كان يغلب عليه الخوف أو الحياء: وقف مطرف بن عبدالله بن الشخِّير وبكر المزني بعرفة فقال أحدهما: اللهمَّ لا ترد أهل الموقف من أجلي، وقال الآخر: ما أشرفه من موقف وأرجاه لأهله لولا أني فيهم.

وقف الفضيل بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة قد حال البكاء بينه وبين الدعاء، فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك! وإن عفوت.

وقال الفضيل ـ أيضاً ـ لشعيب بن حرب بالموسم: إن كنت تظن أنه شهد الموقف أحد شراً مني ومنك فبئس ما ظننت.

دعا بعض العارفين بعرفة فقال: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول مني.

وقف بعض الخائفين بعرفة إلى أن قرب غروب الشمس فنادى: الأمان الأمان، فقد دنا الانصراف، فليت شعري ما صنعت في حاجة المساكين:

وإني من خوفكم والرجا   أرى الموت والعيش منكم عيانا
فمنوا على تائب خائف   أتاكم ينادي الأمانا الأمانا

إذا طلب الأسير من الملك الكريم أَمْنه أمَّنه:

الأمان الأمان وزري ثقيل   وذنوبي إذا عُدِدْنَ تطول
أوبقتني وأوثقتني ذنوبي   فترى لي إلى الإخلاص سبيل

وقف بعض الخائفين بعرفة فمنعه الحياء من الدعاء فقيل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثَمَّ وحشة، فقيل له: هذا يوم العفو عن الذنوب، فبسط يديه ووقع ميتاً. . .

وقف بعض الخائفين بعرفات وقال: إلهي. الناس يتقربون إليك بالبُدْن[1] وأنا أتقرب إليك بنفسي، ثم خرَّ ميتاً.

---

(١) أي بالجمال.

كان أبو عبيدة الخواص قد غلب عليه الشوق والقلق حتى يضرب على صدره في الطريق ويقول: واشوقاه إلى من يراني ولا أراه، وكان بعد ما كبر يأخذ بلحيته ويقول: يا رب قد كبرت فأعتقني، ورؤي بعرفة وقد ولع به الوله وهو يقول:

سبحانَ مَن لو سجدنا بالعيون له	على حمى الشوك والمَحْمي من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته	ولا العُشير ولا عُشراً من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه	سبحانه من مليك نافذ القدر
سبحان مَن هو أُنسي إذ خلوت به	في جوف ليلي وفي الظلماء والسحر
أنت الحبيب وأنت الحب يا أملي	مَن لي سواك ومن أرجوه يا ذخر

ومن العارفين من كان في الموقف يتعلق بأذيال الرجاء، قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوريّ عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان، فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالاً؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم.

وروي عن الفضيل أنه نظر إلى تسبيح الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إل رجل فسألوه دانقاً - يعني سدس درهم - أكان يردهم؟ قالوا: لا، قال: والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق:

وإنـي لأدعـو الله أطـلـب عـفـوه	وأعـلـم أن الله يـعـفـو ويـغـفـرُ
لـئن أعـظـم الـنـاس الـذنـوب فـإنـهـا	وإن عـظـمـت في رحـمـة الله تـصـغـرُ

وعما قليل يقف إخوانكم بعرفة في ذلك الموقف، فهنيئاً لمن رُزِقه، يجأرون إلى الله بقلوب محترقة ودموع مستبقة، فكم فيهم من خائف أزعجه الخوف وأقلقه؟ ومحبٍّ ألهبه الشوق وأحرقه؟ وراجٍ أحسن الظن بوعد الله وصدقه؟ وتائبٍ نصح لله في التوبة وصدقه؟ وهارب لجأ إلى باب الله وطرقه؟ فكم هنالك من مستوجب للنار أنقذه الله وأعتقه؟ ومن أسير للأوزار فكَّه وأطلقه؟ وحينئذ يطلع عليهم أرحم الرحماء ويباهي بجمعهم أهل السماء

ويدنو ثم يقول: ما أراد هؤلاء، لقد قطعنا عند وصولهم الحرمان، وأعطاهم نهاية سؤلهم الرحمان، هو الذي أعطى ومنع، ووصل وقطع:

ما أصنع هكذا جري المقدور — الجبر لغيري وأنا المكسور
أسير ذنب مقيد مأسور — هل يمكن أن يبدل المسطور

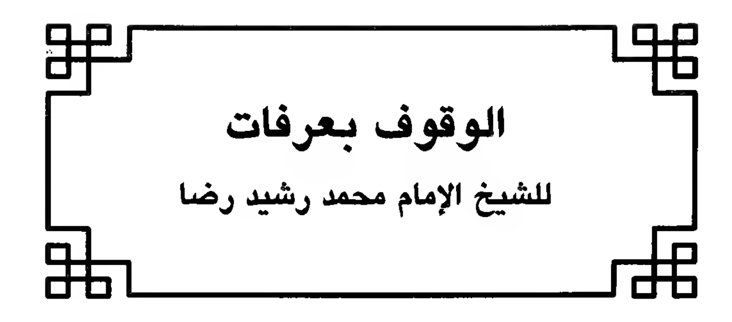
مَن فاته في هذا العام القيام بعرفة فليقم لله بحقه الذي عرفه، من عجز عن المبيت بمزدلفة فليبت عزمه على طاعة الله وقد قربه وأزلفه، من لم يمكنه القيام بأرجاء الخيف فليقم لله بحق الرجاء والخوف، من لم يقدر على نحر هديه بمنى فليذبح هواه هنا وقد بلغ المُنا.

من لم يصل إلى البيت لأنه منه بعيد فليقصد رب البيت فإنه أقرب إلى من دعاه ورجاه من حبل الوريد.

نفحت في هذه الأيام نفحة من نفحات الأنس من رياض القدس على كل قلب أجاب إلى ما دُعي، يا همم العارفين بغير الله لا تقنعي، يا عزائم الناسكين لجمع أنساك السالكين اجمعي، لحب مولك افردي، وبين خوفه ورجائه اقرني، وبذكره تمتعي، يا أسرار المحبين بكعبة الحب طوفي واركعي، وبين صفاء الصفا ومروة المروى اسعي وأسرعي، وفي عرفات الغرفات قفي وتضرعي، ثم إلى مزدلفة الزلفى فادفعي، ثم إلى منى نيل المنى فارجعي، فإذا قُرِّب القرابين فقربي الأرواح ولا تمنعي، لقد وضح الطريق ولكن قَلَّ السالك على التحقيق وكثر المدعي[1]...



(١) «لطائف المعارف»: ٢٨٥ ـ ٣٠٠ بتصرف.



الوقوف بعرفات

للشيخ الإمام محمد رشيد رضا

بلغنا عرفات في وقت السحر فألفينا الخيام قد ضربت لنا وفُرشت فنزلنا فيها، ولما طلع النهار وجدنا أنفسنا بالقرب من مسجد الصخرات حيث كان موقف النبي ﷺ، ورأينا أكثر الحجاج في هذا الجانب من بسيط عرفات وسائر الجوانب والأجواز خالية وفي بعضها قليل من الحجاج، ولبعض حجاج الأقطار مواضع خاصة يقفون فيها كل عام، ويقف كثير من عرب الجزيرة في جبل الرحمة ويصعده كثير من حجاج الأقطار الأخرى.

وكانت خيام الشريف في موضعها المعتاد من وسط ذلك البسيط وكان السبب في بعدها عن مسجد الصخرات وموقف الإمام أن يسهل على أي فريق من الحجاج الوصول إليه للزيارة أو الشكوى في زمن قصير...

قد فاتنا لقلة الحجاج رؤية منظر من أعظم المناظر المؤثرة في النفس، المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب، وهو رؤية تلك البقعة الشريفة غاصة بالشعوب الوافدة من جميع أقطار الأرض، ملبين داعين، باكين خاشعين، يجأرون إلى الله عزَّ وجلَّ على اختلاف لهجاتهم، الناشئة عن اختلاف لغاتهم، يرددون الأذكار المأثورة بالعربية، ويدعون الله ما شاؤوا بلغاتهم المختلفة...

الحالة الروحية في الوقوف والنفر:

إن الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات ظاهراً وباطناً إلا في

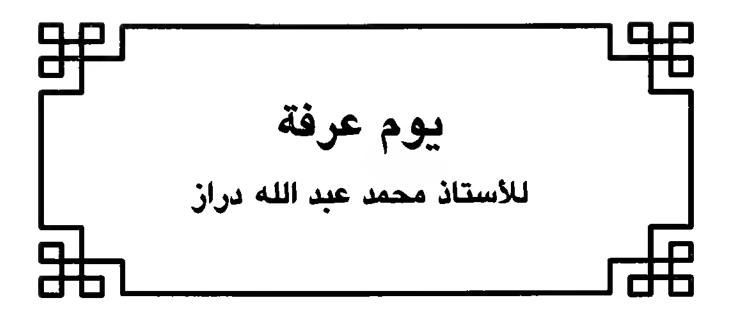
أصيل ذلك اليوم العظيم، ففي أول النهار يعرض لأكثر الناس شواغل تشغل حواسَّهم وجوارحهم وأفكارهم، منها ضروريات الأكل والشرب، ومنها رؤية المناظر الجديدة من تلك البقعة الجامعة لشعوب كثيرة وما يحيط بها من الجبال، فهذه المناظر تشغل كثيراً من الناس بصورتها وشكلها ـ في أول العهد برؤيتها ـ عن معناها وحكمة كون السير إليها والوقوف فيها عبادة الله تعالى، وفي أثناء النهار يأكل الناس طعامهم ويستريح أكثرهم في خيامهم ومضاربهم أو في ظلال الجبال ولا سيما إذا كان الحر شديداً، فإذا جاء وقت العصر جمعوا متاعهم وشدوا رحالهم وفرغوا قلوبهم للذكر والدعاء وازدحموا عند موقف الخطيب من جبل الرحمة، حرصاً على سماع الخطبة، أو الاشتراك مع الألوف من إخوانهم في التكبير والتلبية.

قضينا جل نهار عرفة بذكر الله والدعاء، وتيسر لي ـ والحمد لله ـ الاغتسال فيه. وصلينا الظهر والعصر جميعاً في مسجد الصخرات، ورأينا هنالك خطيب عرفة وهو نائب الشرع بمكة وقد صعد بناقته فاستوى على تلك الصخرة من جبل الرحمة ذات التاريخ الإسلامي العظيم وقد أحاط به الناس وازدحموا من حوله يسمعون منه أحكام المناسك، ومن دونه ومن فوقه في الجبل ألوف من الناس يشاهد بعضهم بعضاً ويراهم من في السفح ومَن في بسيط عرفات كلها؛ لأن الجبل مدرّج يشبه ما يتخذ في بعض المدارس الكبرى من المقاعد ذات الدرج المقوسة، وكلما لبى وكبر الخطيب لبى من حوله وكبروا وأشاروا بأطراف أرديتهم البيضاء أو مناديلهم، ويتبعهم في التلبية والإشارة كل من هنالك من قمة الجبل إلى سفحه، فيلبي سائر الناس ويكبرون، فيتموج بأصواتهم الهواء، وترتج الجواء، حتى تصل إلى عنان السماء، بل تخترقها حاملة ذلك الذكر والثناء، والضراعة والدعاء إلى من استوى إلى عرشه المجيد، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد. فيا له من موقف ما أعظمه، وما أصدق من شبهه بيوم القيامة، وقد يكون التشبيه على أكمله في ذلك المساء، فإنه وقت يكون فيه لكل مؤمن من الشغل بنفسه والتوجه إلى ربه ما لا يعهد مثله في وقت من أوقات حياته، يشعر ـ والناس محيطون به من كل جانب ـ بأنه في خلوة لا يشغله فيها عن ربه

شاغل، ولا يشوب خشوعه له وبكاءه من خشيته وسروره بمناجاته رياء ولا سمعة، بل لا يكاد يخطر بباله أن أحداً هنالك يرى أحداً. فما أعجب شأن هذا الاجتماع العظيم الذي يجمع كل من شهده - بإيمان وعرفان - بين مزايا عبادة الخلوة وعبادة شعائر الاجتماع، بل أقول إن له مزية على سائر الشعائر لا يعرفها إلا من ذاقها[1].



(١) مجلة «المنار»: ٢٠/٢٣٦ ـ ٢٤٥ بتصرف.



يوم عرفة

للأستاذ محمد عبد الله دراز

في شرق مكة على يسار الطريق الذاهب إلى الطائف، وفي الحدود بين الحل والحرام ينفرج واد عظيم يحيط به قوس جبليّ كبير يكاد يكون ملتحماً من جهات ثلاث: الشمال، والشرق، والغرب، ولكنه مفتوح فتحة كاملة من الجنوب، وعلى ذلك الطريق الذي يمثل وتر القوس، وعلى امتداد سفح الجبل تجري عين زبيدة متابعة للقوس في تعريجاتها، هذا الوادي العظيم هو وادي عرفة، وهذه القوس الكبيرة التي تحتضن الوادي بذراعيها هو جبل عرفة، جبل شرفه الله وشرف واديه، إذ جعلهما مثابة ومجتمعاً لحجاج بيته، في وقت معلوم من كل عام، ذلك هو اليوم التاسع من ذي الحجة وليلة العاشر منه.

مثل هذا المكان المبارك ـ ولشعائر الله المثل الأعلى ـ مثل قاعة الانتظار التي تسجل فيها أسماء الزائرين قبل الحظوة بالاستقبال في الحجرة الخاصة الكريمة، هكذا قبل أن يطوف الحجيج بالكعبة المكرمة الطواف المفروض الذي لا يعتد به ركناً من أركان الحج إلا في اليوم العاشر أو فيما بعده، يجب أن يكونوا قد سجلوا حضورهم قبل ذلك في مدخل الحرم، أعني قبل حدود الحرم على جبل عرفات، أو في الوادي الذي يحتضنه ذلك الجبل في اليوم التاسع، أو في عشيته أو فيهما معاً.

ذلك هو يوم عرفة الذي قال فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «الحَجُّ عَرَفَةُ»، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج، ومن فاته عرفة فقد فاته

الحج من عامه، ذلك هو يوم عرفة الذي سماه الله: «يوم الحج الأكبر» في تفسير طائفة من الصحابة، أو هو أحد أيام الحج الأكبر في تفسير طائفة أخرى، ذلك هو يوم عرفة الذي سجل فيه تاريخ الإسلام ذكرى من أعظم الذكريات، وبشرى من أحب البشريات: فلقد كان أعداء المسلمين يحاولون بكل الوسائل أن يطفئوا نوره، وأن يقتلوه في مهده، وما زال الصراع بينه وبينهم عشرين عاماً أو يزيد، حتى انتصر الانتصار النهائيّ باستتباب الأمر له في جزيرة العرب، وبتطهير الحرم وما حوله من رجس الوثنية وأنصارها في السنة العاشرة من الهجرة، فلما كان يوم عرفة من حجة الوداع في ذلك العام نزل القرآن، لا ليسجل هذا الحادث التاريخي الحاسم فحسب، ولكن ليعلن كذلك أنه حادث ما بعده حادث، وأنه لا خوف على الإسلام بعد اليوم من أعدائه: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾[1]، ولقد كان دستور الشريعة يتنزل فصولاً ومواد متفرقة ونجوماً متقاربة أو متباعدة، وكان يخشى أن تختم حياة الرسول ﷺ قبل أن تتم مواد هذا الدستور، فلما كان يوم عرفة من حجة الوداع أعلنت الآية نفسها أن أمر الشريعة قد أُحكم وأُبرم، وأن هذا هو مسك الختام، وأنه لن ينزل بعد ذلك التشريع شرع جديد بتحريم حلال، أو تحليل حرام، إعلان فذ في تاريخ التشريع السماوي؛ فقد كان كل رسول ينبىء أمته أنه سيأتيهم بعده من يكمل لهم البنيان، حتى جاء محمد خاتم النبيين ﷺ فلما بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، أعلنها الله على لسانه في ذلك اليوم، شريعة تامة كاملة خاتمة دائمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[2].

ذلك هو يوم عرفة، الذي قالت اليهود في شأنه لعمر: إنكم تقرأون في كتابكم آية لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال عمر: وما تلك الآية؟ قالوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، قال عمر: والله إني لأعلم في أي يوم أُنزلت، وفي أي ساعة أنزلت، وأين أُنزلت، وأين كان رسول الله ﷺ حين أُنزلت: أنزلت ورسول الله ﷺ قائم

(١)(٢) سورة المائدة: آية ٣.

فينا يخطب ونحن وقوف، وذلك عشية يوم الجمعة، ألا وإنهما لنا عيدان: صدق عمر فيوم الجمعة للمسلمين عيد أسبوعي، ويوم عرفة لهم عيد سنويّ يتلوه عيد سنويّ.

ذلك يوم عرفة في تاريخه المجيد، وما يوم عرفة في حاضره القريب بأهون منه شأناً في ماضيه البعيد، إن قدره على الزمان يتجدد، وإن فضله في كل عام يعود ويتردد، إنه في موسم الحج ليوم مشهود، بل هو أعظم وأفخم مشاهده، أوسعها رقعة، وأحفلها جمعاً، وأخلبها منظراً وأعمقها أثراً، فلو أن أبصارنا وأسماعنا تتخطى هنا الأفق، وتنفذ من وراء الحجب لترى وتسمع ما يدور اليوم في تلك البقعة المطهرة، لرأينا وسمعنا ما لا ترى عين ولا تسمع أذن في غير هذا المكان المشهود.

ما تلك الجزيرة البيضاء التي تسد الأفق وتغطي السهل والجبل؟ إنها كتلة ذوي القلوب المؤمنة يلوحون في ثيابهم البيض كأنها أجنحة الملائكة، وقد تضاموا وتلاصقوا حاسري الرؤوس، حفاة الأقدام أو يكادون، باسطي أيديهم إلى السماء، رافعي أصواتهم بالتلبية أو الدعاء متقطعة أنفاسهم بدقات الخوف أو بخفقات الرجاء! يا له من موقف: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1]، يا لها من لحظات، بعيدة الغور في النفوس، بعيدة الأثر في الحياة! إنها لحظات التجرد؛ تجرد عن المال والأهل والولد، بل تجرد كل امرىء عن نفسه، ونسيانه لمطامحه ومطامعه، فراراً إلى الله، وإقبالاً على الله.

يا ليت شعري! هل يسمع الداعي هنالك نفسه؟ أو هل يسمع من حوله؟ لعله لا يسمع شيئاً من ذلك إلا في فترات عابرات، فإذا رجع إليه صدى صوته، أو صدى تلك الأصوات المختلطة من هذه الجموع الحاشدة ازدادت روحانيته انفعالاً واشتعالاً، ثم ارتد أثر هذه الحمية إلى الجماعة، وهكذا دواليك: متوالية هندسية، وربح مركب، يتضاعف على توالي الآنات

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٣.

واللحظات، يا لها من نقطة تحول في طبيعة الإنسان، هذا الإنسان المادي الروحي، تنصهر ماديته هاهنا انصهاراً، وتذوب ذوباً، فإذا هو قد عاد ربانياً خالصاً وروحاً محضاً، أولئك هم ملائكة الأرض، يباهي الله بهم ملائكة السماء، طوبى لهم، طوبى لهم، يا ليتنا كنا معهم!

أي وفد الرحمن:

إن أجسامنا ها هنا موثقة، ولكن قلوبنا بكم ملصقة، تسير معكم حيثما سرتم، وتنزل معكم حيثما نزلتم، ولئن فاتنا السير في ركابكم إنه لن يفوتنا إن شاء الله اقتفاء آثاركم، إنكم تدعون وتضرعون في عرفات، فلندع نحن ولنضرع في الفلوات والخلوات، إنكم ستكبرون عند الجمرات، فلنكبر نحن في أعقاب الصلوات، إنكم ستذكرون اسم الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام لتأكلوا منها وتطعموا البائس الفقير فلنذكر كذلك اسم الله على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، لنأكل منها ونطعم البائس الفقير.

وأخيراً، فإننا نرجو أن يكتب لنا أجر حجتكم، وأن ينالنا شيءٌ من دعائكم.

أي وفد الرحمن:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم ... رب ذكرى قرَّبت من نَزَحا

وسلام الله علينا وعليكم، وعلى عباد الله الصالحين[1].



(١) «نخبة الأزهار وروضة الأفكار»: ٢٠٥ ـ ٢١٠ بتصرف.



يوم الحج الأكبر

للشيخ أحمد الشرباصي

أتدرون أي يوم هذا؟ إنه يوم عرفة، إنه يوم الحج الأكبر، إنه أفضل أيام العام على الإطلاق، وهو يوم الخير والرحمة، وفيه كمل الدين وتمت النعمة، ويوم عرفة هذا العام تجتمع فيه حسنيان، الأولى أنه يوم المشهد الأكبر، والأخرى أنه يوم جمعة، ويوم الجمعة هو عيد المسلمين كل أسبوع، ويوم عرفة هو الذي نزل فيه على رسول الله ﷺ قول ربه جلَّ جلاله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]. ولقد روي أن بعض اليهود حينما سمع هذه الآية قال: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليها هذه الآية لنظرت اليوم الذي أنزلت فيه فاتخذته لها عيداً تجتمع فيه. فقال عمر: لله الحمد، لقد علمت اليوم الذي أنزلت فيه: إنه يوم الجمعة في يوم عرفة، وكل منهما بحمد الله لنا عيد؛ ولعل أكبر عبرة نعتبر بها ونتعظ في هذا المقام هو أن ذلك اليوم العظيم المجيد يذكرنا بالهدف الأسمى والغرض الأعلى، وهو تحقيق روح الجماعة والألفة والوحدة بين أبناء الإسلام وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وتلك غاية سعى إليها الدين الحنيف أكرم مسعى، فشرع صلاة الجماعة كل يوم خمس مرات، وطالب الجمع المؤمن بإقامتها، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2] ثم شرع صلاة الجمعة كل أسبوع، وأمر بالسعي إليها وترك العمل من أجلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٨٣.

﴿ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾[1]، ثم شرع صلاة العيدين ليتسع فيهما نطاق اللقاء ومدى الاجتماع، ولذلك سن الدين أداء صلاتيهما في المكان الرحب الفسيح، ليشمل جمع المسلمين في بلدتهم أو محلتهم قدر استطاعتهم، ثم شرع الوقوف بعرفة ليتكون منه المؤتمر الإسلاميّ العام الذي يشهده مئات الألوف من مسلمي العالم حيث يهتدون بهدي خالقهم الذي يقول عن غاية حجهم: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[2]، فإذا أحسنوا الاهتداء بلغوا قمة الألفة والوحدة، فصدق عليهم قول بارئهم: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾[3].

وإني لأتخيل بعين البصيرة رسول الله ﷺ وقد وقف على جبل عرفات في حجة الوداع، وهي حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وأخذ يلقي خطبته، وفيها يقول: أيها الناس، اعقلوا قولي، إني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة رسوله، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه: اعلموا أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، ثم يقول لهم: هل تدرون أي يوم هذا؟ فيقولون: يوم الحج الأكبر. فيقول: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا. اللهمَّ قد بلغت، اللهمَّ فاشهد.

وإذا كنا نجتمع الآن في بيت من بيوت الله عزَّ وجلَّ وكان هناك كثيرون من أمثالنا في مشارق الأرض ومغاربها يتلاقى كل جمع منهم في بيت كهذا البيت، فهناك جمع أكبر وأكبر، لعله أعظم جمع يتحقق انعقاده في مكان واحد وزمن واحد باسم الدين والعقيدة، وهم أشقاؤنا وإخوتنا الواقفون الآن على جبل عرفات في تسبيح وتهليل وتكبير واستغفار، ومتاب ودعاء، بعد أن عاهدوا ربهم أن يكونوا على تقوى في المظهر والمخبر، وفي القول والعمل، وفي الحركة والسكون، لأن ربهم قد قال لهم: ﴿ٱلْحَجُّ

---

(١) سورة الجمعة: آية ٩.
(٢) سورة الحج: آية ٢٨.
(٣) سورة المؤمنون: آية ٥٢.

أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾. وتنطلق أفواه مليون مسلم فوق عرفات بنشيد إسلاميّ موحد، قد ألفوه منذ بداية حجهم، ورددوه في مختلف مجالاتهم ومناسباتهم، بلغة واحدة، هي لغة القرآن، وهي اللسان العربيّ المبين، على الرغم من اختلاف ألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وثقافاتهم ومستوياتهم، ذلك هو نشيد التلبية: «لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». وهم يعلمون في ثقة ويقين أن الله يغفر في هذا اليوم ذنوب التائبين المخلصين جميعاً، وأن هناك ـ كما جاء في الأثر ـ ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة، وأن الشيطان لا يبدو صغيراً حقيراً كما يبدون في يوم عرفة؛ إذ يغيظه الالتقاء والائتلاف والاتحاد، ويغيظه أن يستمع إليهم وقد ملأوا الفضاء، وهزوا الأرض والسماء بأفضل الذكر والدعاء كما علمهم قائدهم الأعلى ورائدهم الأول رسول الله ﷺ وهو: لا إلٰه إلا الله وحده، لا شريك له، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، وهو على كل شيء قدير، اللهمَّ اجعل في بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي قلبي نوراً، اللهمَّ اشرح لي صدري، ويسِّر لي أمري، اللهمَّ إني أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وبوائق الدهر، إنك على كل شيء قدير.

وبهذا الجمع التائب المنيب الراغب فيما عند الله، يباهي الله ملائكته، فيقول لهم: «انظروا يا ملائكتي إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق، يرجون رحمتي، ويخافون عقابي، أشهدكم أني قد غفرت لهم».

ووقوف هذا الجمع الهائل فوق عرفات، وليس من حولهم إلا الأرض الجرداء ونسمات الهواء وصفحة السماء يعطي نموذجاً مصغراً ليوم الحشر، فالناس قد خلفوا الدنيا وراءهم، ونسوا متاعها وأهواءها، وتوحدت ثيابهم وتساوت صفوفهم، وتجردت لله نفوسهم أصلح ما يكونون حينئذ لإخلاص التشاور فيما يفيدهم، وفيما يحقق عزتهم وحريتهم وكرامتهم، ولا غرو فهم

واقفون حيث وقف رسول الله ﷺ، عند الصخرات، وعند جبل الرحمة والنور، وعلى مقربة من مكة البلد الحرام، والكعبة بيت الله الحرام، وقد تعبدوا لله من قبل بالصلاة والصيام والزكاة، وجاءوا ليتمموا قواعد الإسلام، وقد طهرهم الحج في الأيام الماضية بما طهرهم به، فالنفوس إذن صالحة للخير، بعيدة عن الشر، فهي أصلح ما تكون لتحقيق قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام:

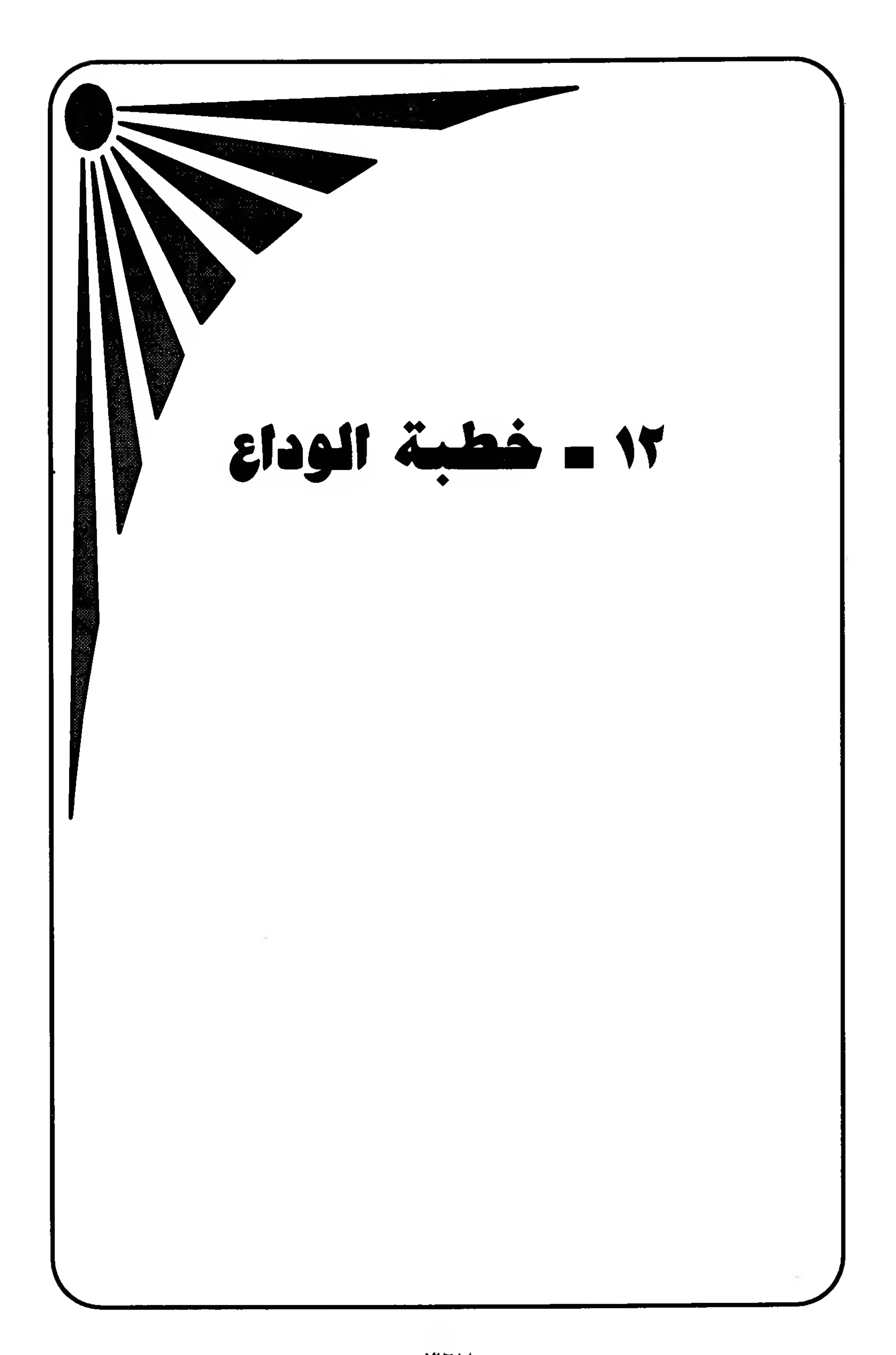
إذا فاتنا الوقوف بعرفة حساً، فلا يفوتنا أن نقف عليه روحاً ونفساً، ولا يفوتنا أن نسير على نهج إخوتنا ممن دعوا ولبوا، ورجوا وأنابوا، فلنعتصم بحبل الله وقوته، ولنجتمع على دينه ودعوته، ولنعتز ببوعده ونصرته، نكن من الفائزين، والله لا يضيع أجر المحسنين، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون[2].



(١) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

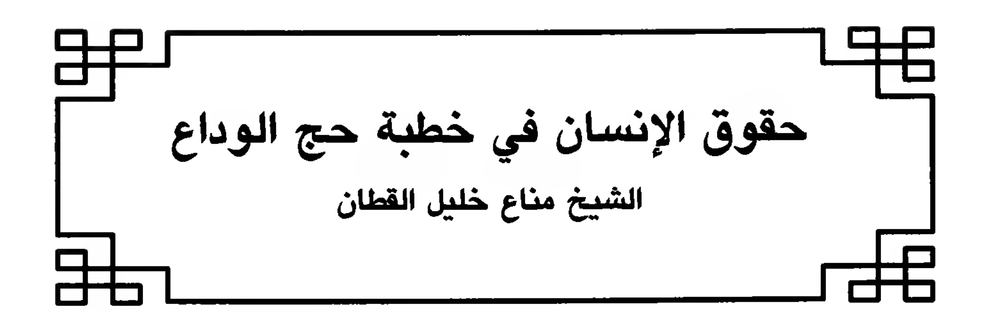
(٢) «الموسوعة الشرباصية»: ٥/٢٩٩ ـ ٣٠٣ بتصرف يسير.





١٢ ـ خطبة الوداع





حقوق الإنسان في خطبة حج الوداع

الشيخ مناع خليل القطان

قاست الإنسانية في عصور التاريخ المتعاقبة ألواناً من التعسف أهدرت فيها كرامة الإنسان، واستبيحت حرماته، واغتصبت حقوقه، وشهد الناس المدنية الغربية الحديثة وما ارتكبته باسم الحضارة من استعباد الشعوب وإذلال الأمم في صور مختلفة تحت شعار الحماية والوصاية تارة بالاحتلال العسكريّ، وأخرى بالنفوذ الاقتصادي، واصطلى العالم بلظى الأحداث الجسيمة التي ارتكبتها الدول الكبرى في التمييز العنصري وامتصاص خيرات الشعوب الكادحة الضعيفة، وحين أرادت هذه الدول الكبرى التي تأخذ بناصية السياسة العالمية أن تمنَّ على الشعوب أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بقرارها ذي الرقم (٢١٧) والتاريخ (١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨م).

وقد قرر الإسلام حقوق الإنسان منذ أربعة عشر قرناً، وفي خطبة رسول الله ﷺ بحجة الوداع جاء الإعلان العالميّ النبويّ ليضع هذه الحقوق في دستورها الرئيسيّ، دستور الإسلام.

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «فأي بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مراراً،

ثم رفع رأسه فقال: «اللهمَّ هل بلغت؟ اللهمَّ هل بلغت؟» ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته ـ «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

إن مصالح الحياة ترتكز على حفظ الدين والنفس والعرض والمال والعقل، وهذه الدعائم الخمس هي الضروريات التي لا بد منها حتى تصلح أحوال الناس وتستقيم حياتهم، ولذا كانت مراعاتها واجبة، وذلك يقتضي وجوب فعل كل ما يقيمها ويثبتها، وترك كل ما يخل بها أو يهدمها، وهي المقاصد الرئيسية المعتبرة في الشرائع لرعاية مصالح العباد في العاجل والآجل، دلَّ على هذا استقراء النصوص الشرعية حتى قالوا: إن هذه الضروريات الخمس مراعاة في كل ملة، وما سواها من أمور الشريعة فهو تبع لها، من الحاجيات التي ترفع الحرج والمشقة، أو التحسينات التي تتصل بمحاسن العادات ومكارم الأخلاق.

حرمة الدماء:

وقد تناولت خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع حرمة الدماء.

فالنفس الإنسانية لها حرمتها في الإسلام، ووجودها وحمايتها أمر ضروري لعمارة الأرض واستقامة الحياة، وأي انتقاص لهذه الحرمة أو تهاون في حقها يهدر قيمة الحياة نفسها أو يذهب بها.

ولذا شرع الإسلام لإيجادها الزواج، وبيَّن الحقوق المتبادلة بين الزوجين التي تلائم فطرة كل منهما حتى يكون التوالد والتناسل، وهيأ السبل القويمة لبقاء النوع الإنسانيّ على أكمل الوجوه:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾[1] ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾[2] ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ

(١) سورة النساء: آية ٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٨.

بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1] ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[2].

وشرع الإسلام لحفظ النفس وكفالة حياتها إيجاب تناول ما يقيمها من ضروري الطعام والشراب واللباس والسكن، وإيجاب القصاص والدية والكفارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة، وإيجاب دفع الضرر عنها:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[3] ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[4] ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾[5] ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[6].

وفي الحديث: «من قتل دون دمه فهو شهيد» رواه أحمد وابن حبان.

وكانت نظم العرب قبل الإسلام تقضي بقتل القاتل، وكانوا يقولون في ذلك: «القتل أنفى للقتل» ولكن العصبية الجاهلية كانت تحملهم على الإسراف في تطبيق ذلك المبدأ، فتقتل القبائل المتعالية غير القاتل بالقاتل، والكثير بالواحد، والرجل بالمرأة وربما قتلوا الإنسان بالبهيمة، وكانوا يفعلون مثل ذلك في الجراحات والديات.

فلما جاء الإسلام قرر المساواة بين الناس جميعاً في الدماء ولم يجعل لدم أحد فضلاً على دم آخر، الشريف والوضيع في ذلك سواء ما توافرت شروط القصاص، قال ابن قدامة الحنبلي في المغني: ويجري القصاص بين الولاة والعمال، وبين رعيتهم، لعموم الآيات والأخبار، ولأن المؤمنين

---

(1) سورة النساء: آية ١٩.
(2) سورة البقرة: آية ٢٣٣.
(3) سورة الأعراف: آية ٣١.
(4) سورة البقرة: آية ١٧٩.
(5) سورة النساء: آية ٩٢.
(6) سورة البقرة: آية ١٩٥.

تتكافأ دماؤهم، ولا نعلم في هذا خلافاً وثبت عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لرجل شكا إليه عاملاً أنه قطع يده ظلماً: لئن كنت صادقاً لأقيدنَّك منه، وثبت أن عمر رضي الله عنه كان يقيد من نفسه.

حرمة الأموال:

وتناولت خطبة رسول الله ﷺ الجامعة في حجة الوداع حرمة الأموال، فقد كفل الإسلام حرية التملك، وللإنسان أن يمتلك بالوسائل المشروعة حسب جهده، وله حرية التصرف في ماله بالوجه الشرعي، وأن يطرق أبواب الكسب ويلج أبواب الاستثمار قدر استطاعته، وليس لأحد أن يعتدي على مال غيره.

وطرائق التملك في الإسلام مشروطة بشروطها التي تحقق العدالة بين الناس فيما يكون من معاوضات، فللإنسان إرادته في تصرفاته، وعليه أن يرعى حقوق الآخرين فلا يضربهم، وإن أخلَّ بشيء من ذلك كان مسؤولاً عن فعله ملزماً بالتعويض، وقاعدة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1].

وشرع الإسلام لتحصيل المال وكسبه السعي للرزق، وأباح المعاملات والمبادلات والتجارة والمضاربة ووسائل استثمار المال بطرق شتى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[2] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[3].

وباب المعاملات في الفقه الإسلامي باب زاخر بالأحكام، والأصل في هذه المعاملات الإباحة ما لم يرد ما يدلل على التحريم ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٨.
(٢) سورة الملك: آية ٢٥.
(٣) سورة الجمعة: آية ١٠.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٧٥.

وشرع الإسلام لحفظ المال وحمايته صيانةً لحرمته حد السارق والسارقة، وتحريم الغش والخيانة وأكل أموال الناس بالباطل، وإتلاف مال الآخرين، وتضمين من يتلف مال غيره، والحجر على السفيه، ودفع الضرر، وتحريم الربا.

ورتب الإسلام على التملك المشروع وحرمة المال في حوافز الكسب أن تتوارث الذرية والأقرباء هذا المال على نحو ما جاء في الشريعة الإسلامية بما يربط قلوب ذوي القربى بعضها ببعض ويحول دون تكدس الأموال في يد واحدة، وتولى الله في كتابه تحديد أنصبة الميراث وتوزيعها: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1] لأن أسباب الإرث لا تختلف باختلاف الزمان والمكان.

وجاء في عقوبة السرقة حماية لحرمة المال قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[2]، كما جاءت آية الحرابة في عقوبة الذين يروعون الآمنين ويعتدون على الأنفس والأموال ويفسدون في الأرض ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[3].

حرمة الأعراض:

وتناولت خطبة الرسول ﷺ الجامعة في حجة الوداع حرمة الأعراض.

فقد وجه الإسلام غريزة الجنس توجيهاً سديداً، يصون الكرامة، ويحفظ العرض ويبقي على النوع الإنساني الطاهر النظيف، فجاءت الشريعة الإسلامية بالزواج، وبينت المبادىء التي تتكفل سلامة بناء الأسرة وترسي دعائم الحياة الزوجية السعيدة، واعتبرت العقد بين الزوجين ميثاقاً غليظاً

---

(١) سورة النساء: آية ١١.

(٢) سورة المائدة: آية ٣٨.

(٣) سورة المائدة: آية ٣٣.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[1].

وشرع الإسلام لصيانة حرمة الأعراض حد الزنا وحد القذف ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾[2]. وفي الحديث الصحيح: «والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

وجاء في حد القذف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾[3].

وتلك الحرمات الثلاث التي جاءت في خطبة الوداع أكدها رسول الله ﷺ بحرمة اليوم وحرمة البلد وحرمة الشهر وبعبارة أخرى: أكد هذه الحرمات بحرمة الزمان والمكان.

أما حرمة الزمان فهي حرمة اليوم وحرمة الشهر، فيوم النحر من أيام الحج من الأشهر الحرم، وفي أشهر الحج يقول تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[4].

وإذا كانت أشهر الحج تبدأ بشوال وهو شهر حلال فإنه يكون تمهيداً وتوطئة للأشهر الحرم التي تغرس في القلوب عوامل الأمن والطمأنينة، وهي ذات قدسية خاصة، نوّه الله بها في كتابه، وجعل المحافظة عليها بالبعد عن القتال وسفك الدماء وسائر المظالم والخيانات: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[5]، وهي: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم ورجب، ثلاثة سرد وواحد فرد، وجعلها الله من الشعائر

---

(١) سورة النساء: آية ٢١.

(٢) سورة النور: آية ٢.

(٣) سورة النور: آية ٤.

(٤) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٥) سورة التوبة: آية ٣٦.

ونهى عن انتهاك حرمتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾(1) ومكة بلد الله الحرام وهي حرمة يتسع نطاقها فيشمل الإنسان والحيوان والشجر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾(2) ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾(3)، وصحَّ أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرام لا يعضد شوكه، ولا يختلى خلاه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف».

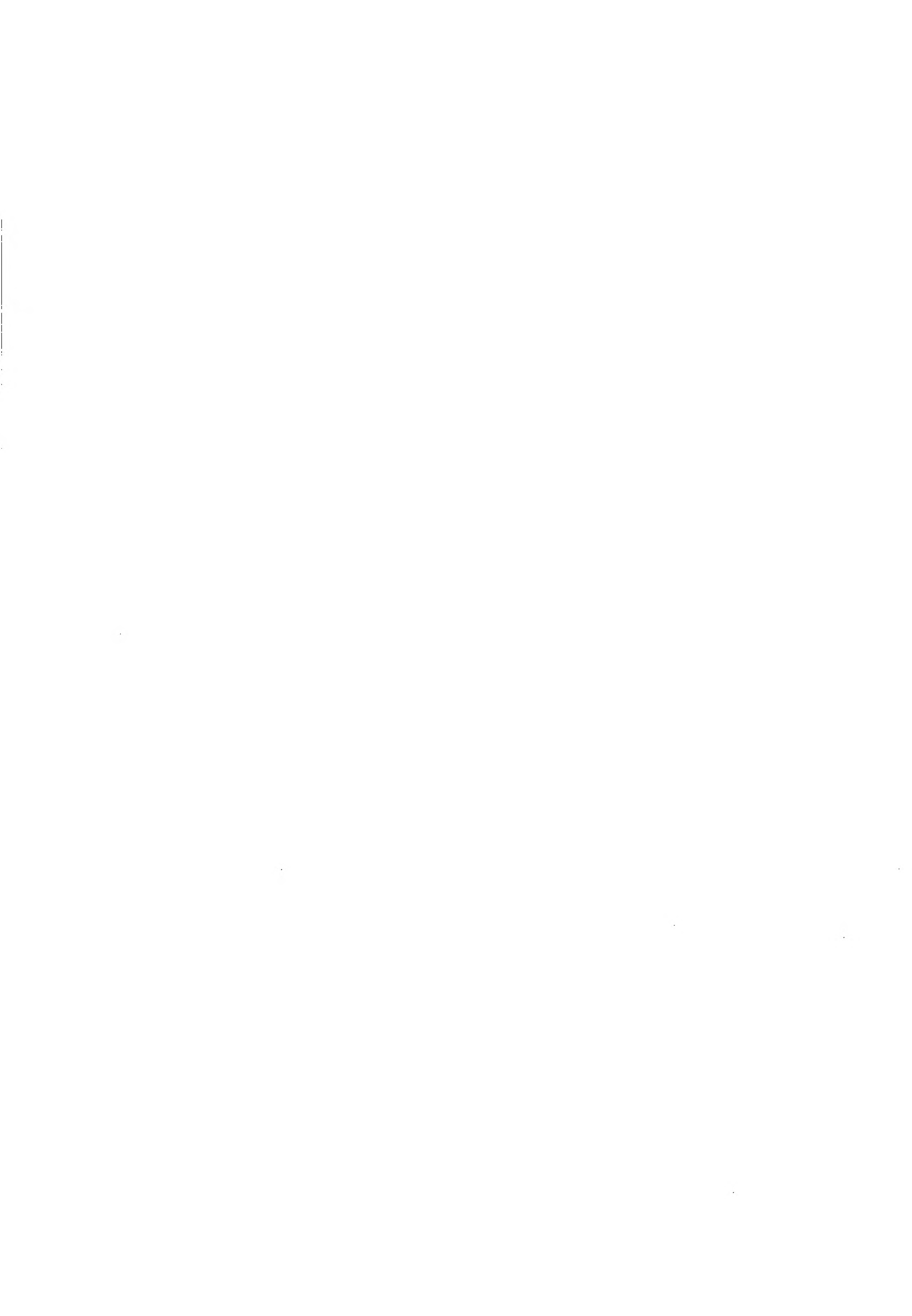
وأعاد رسول الله ﷺ تأكيد هذه الحرمات وأشهد الناس بالبلاغ، وهذا يوجب على كل مسلم أن يستشعر هذه الحرمات، وأن يضعها نصب عينيه في الحج خاصة حتى يحافظ على أمن الحجيج وراحتهم، ويرعى تلك الحرمات فلا يستبيح إشاعة الفوضى، أو الإخلال بالأمن، أو ترويع أحد في بلد الله الآمن.

ونهى رسول الله ﷺ في نهاية خطبته عما كان من شأن الجاهلية من عصبيات وثارات وقتال ومظالم، حتى لا يعود المسلمون بعد أن أكرمهم الله بالإسلام وشرع لهم تلك المبادىء السامية التي حققت لهم الكرامة والعزة وألفت بين قلوبهم وجعلتهم إخوة متحابين: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وبهذا يكون رسول الله ﷺ قد أعلن في حجة الوداع حقوق الإنسان، وصان حرماته في أروع صورة وأبلغ بيان(4).

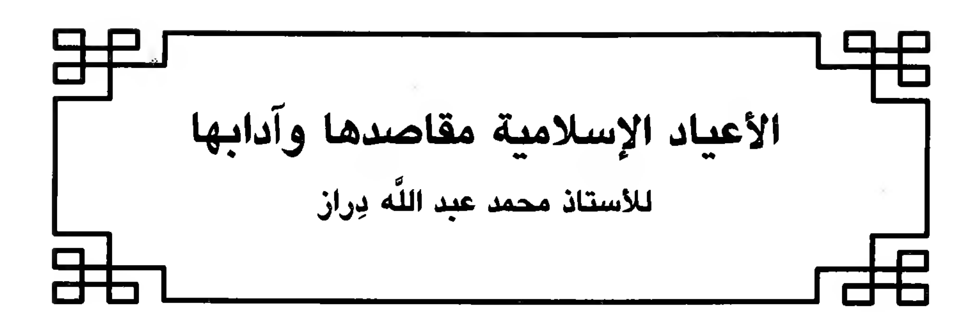


(1) سورة المائدة: آية ٢.
(2) سورة المائدة: آية ٩٥.
(3) سورة المائدة: آية ٩٧.
(4) مجلة «الحرس الوطني»: السنة ١٠، العدد ٨٢، ذو الحجة ١٤٠٩.



١٣ ـ عيد الأضحى





الأعياد الإسلامية مقاصدها وآدابها

للأستاذ محمد عبد اللّه دِراز

كانت الأمم الماضية تعرف الأعياد لهواً ولعباً، وشراباً وطرباً، وجلبة وصخباً، بل إن بعض الأديان القديمة كانت تتخذ أعيادها الدينية من مادة الإباحية المستهترة، والفوضى الخلقية السافرة، ناهيك بأعياد (باكوس) عند قدماء اليونان، ثم عند الرومان، وهي أعياد كانت تكرر أكثر من مرة في كل عام، وكان يفرض فيها على الرجال والنساء أن يخلعوا جلباب العفة والحياء، وأن يتحرروا من كل قيود الغيرة والشرف، وأن يطلقوا العنان لغرائزهم الحيوانية الدنيا لكي تقضي لبانتها علناً جهاراً، إرضاءً لآلهتهم فيما يزعمون، حتى أن مَن تأبّى أو تعفف عن المشاركة في هذه الملاهي الداعرة حكم عليه رؤساء الدين أن يدفن حياً في مغامرات بعيدة وسراديب مجهولة إلى أن يأتيه الموت أو يقضي الله قضاءه فيه.

وفي الطرف الأقصى المقابل لهذه المادية الجامحة ترى الروحية الزاهدة المنطوية المنزوية تكتفي في تجديد ذكرياتها المقدسة، إما بترديدها في داخل النفس، وإما بالتعبير الخافت عنها في زوايا المعابد، ترتيلاً لبعض الدعوات، أو أداءً لبعض المراسم والإشارات.

ويجيء الإسلام بموازينه العادلة ومعاييره الدقيقة الفاصلة، فيلقي على فكرة الأعياد ضوءاً جديداً، يبعد بها عن انحلال المادية وفجورها، وعن تزمُّت الروحية وفتورها، يجمع ما في كلتا النزعتين من خير وسداد، وينفي ما في كلتيهما من خلل وفساد، ثم يضيف إليها عناصر صالحة أخرى،

ويؤلف من جملة ذلك صورة حية قوية جميلة في نطاق من الطهر والكرامة، والصون والعفاف.

تلك هي فكرة الأعياد في الإسلام.

فالصبغة الأولى للأعياد الإسلامية صبغة روحية، لكنه روح غير صامت ولا خافت، إنه روح صادح متوثب، استمع إلى هذا النشيد القويّ الذي يتجاوب صداه في الطرقات، على ألسنة الذاهبين إلى العيد أفراداً وجماعات، وفي المساجد على ألسنة المصلين أو المنتظرين لصلاة العيد، وفي البيوت على ألسنة المصلين عقب صلواتهم المكتوبة في أيام التشريق، وفي منى عند الجمرات على ألسنة الحجاج، استمع إلى هذا النشيد: إنه يفجر الروح وانطلاقها فرحاً وابتهاجاً بإتمام رحلتها الشاقة الموفقة، رحلة الصوم أو رحلة الحج، ثم استبشاراً وتطلعاً إلى المستقبل بعين الثقة والأمل، إنه شعار الانتصار الروحيّ في التجربة الماضية، والتصميم على متابعة هذا الانتصار الروحيّ في التجارب المقبلة: الله أكبر ولله الحمد.

هذا العنصر الروحيّ الحماسيّ يطالبنا الإسلام بأن نبرز جوهره في مظهر من الزينة والجمال، وفي جو من المتعة والرفاهية البدنية، في غير إسراف يشوه كماله، ويقلبه إلى ضده.

نعم، لقد كانت فريضة التقشف والحرمان ضريبة محتومة في زمن الصوم وزمن الحج، فإذا جاء يوم العيد فلا تقل: قد حل ما كان محرماً. ولكن قل: قد وجب ما كان محرماً وحرم ما كان واجباً: نعم، لا صوم اليوم ولا حرمان من الطيبات: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[1]، ثم لا تقشف اليوم ولا حرمان من الطيب والزينة فليأخذ كل منا أحسن زينته، وليظهر أثر نعمة الله عليه، فهذا يوم إظهار النعم، ثم لا تزمت ولا حرمان اليوم من اللعب واللهو البريء المباح: يروي أصحاب السنن عن أنس رضي الله عنه قال:

---

(١) سورة الحاقة: آية ٢٤.

قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومانِ؟» قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال: «قد أبدلَكم الله بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر..».

ويروي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي النبي ﷺ في يوم عيد، وعندي جاريتان تغنيان، فلم يقل شيئاً، ولكنه اضطجع على الفراش وحول وجهه، ثم دخل أبو بكر فانتهرني، وقال: أبمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال ﷺ: «دعهما يا أبا بكر، إنَّ لكل قوم عيداً، وهذا عيدُنا». قالت عائشة: وكان السودان يلعبون بالدِّرَق[1] والحراب فإما سألت النبي ﷺ وإما قال هو لي: «تشتهين تنظرين؟» قلت: نعم. فأقامني وراءه ورأسي على منكبيه وخدي على خده، حتى إذا مللت قال: «حسبك؟» قلت: نعم.

ولا يفوتني أن أقول في صدد هذا اللون من اللعب المشار إليه في حديث عائشة أنه ليس لهواً سائغاً مرخصاً فيه فحسب، بل إنه متى صلحت فيه النية كان عملاً يندب إليه الإسلام، ويحض عليه كما يحض على الرماية والسباحة والعدو وركوب الخيل، وسائر ضروب الرياضة البدنية النافعة، فإنها تكسب صاحبها مضاءً في العزيمة، ومناعة في البدن، وتجعل منه جندياً معداً لحماية الدين والوطن فما أحرانا بأن نحيي هذه السنن الكريمة في أعيادنا.

هكذا تلتقي في الأعياد الإسلامية روحيتها المنطلقة السامية، وماديتها النافعة الجميلة الطاهرة البريئة، على أن الإسلام لم يكتفِ في أعياده بهذين العنصريين حتى عززهما بثالث هو آكد الجميع عنده وأحبها إليه، ذلك هو المعنى الاجتماعي الإنساني الذي جعل به الأمة جسداً واحداً. لا بوحدة شعارها وشعورها فحسب، ولا بمظهر اجتماعها الباهر في شعائر الذكر والصلاة وكفى، ولا بهذا التلاقي الأليف الودود، والباش الباسم الذي ندب

(١) هي التروس من الجلد.

إليه كل مسلم يلاقي أخاه في يوم العيد، ولكن بمعنى أقوى من ذلك كله: بنظام المشاركة المالية الفعلية التي شرعها في ذلك اليوم بين أعضاء الجماعة؛ ترفيهاً عن المُعْوزين منهم وإغناءً لهم عن ذل السؤال يومئذٍ، تلك هي شريعة الزكاة في عيد الفطر، وشريعة الضحية في عيد النحر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[1]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾[2].

أما بعد: فقد ناديت بوجوب تنظيم هذه المبرة الإسلامية التي كثيراً ما يحرم آثارها مستحقوها، وكثيراً ما يتكرر بذلها إلى غَيَر مستحقيها. لقد ناشدت حكومات الإسلام ومؤسساته الاجتماعية أن تتولى بنفسها جمع هذه الملايين المبعثرة، وتوزيع ما ينبغي توزيعه منها على من يستحق، ثم وضع ما يفضل من حصيلتها في صندوق تدعم به المشروعات الاجتماعية الكبرى، ولقد ناشدت أولي الأمر أن يقوموا في أيام الأعياد على الأخص بحملة تطهير تخلى بها الطرقات العامة، وأبواب المساجد، وأبواب البيوت من تلك الأيدي الممدودة للسؤال، تلك الوصمة التي تشوّه جمال العيد وتتحدى النظام المثالي الذي وضعه الإسلام للتفادي من هذه المأساة.

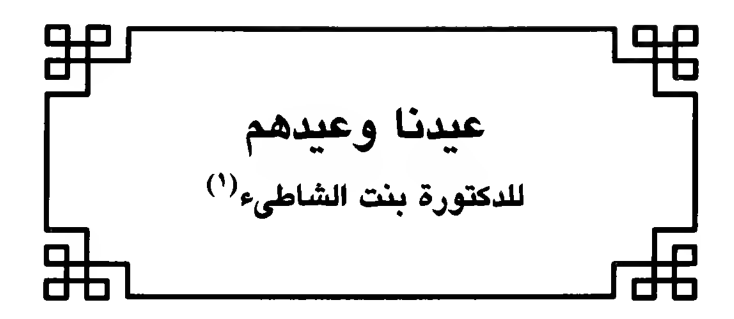
لقد ناشدت من قبل وناديت، واليوم أكرر هذا النداء وأجدد هذه الذكرى، وإن الذكرى تنفع المؤمنين[3].



(١) سورة الكوثر: آية ٢.

(٢) سورة الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥.

(٣) «نخبة الأزهار وروضة الأفكار»: ١٨٦ ـ ١٩١ بتصرف.



عيدنا وعيدهم

للدكتورة بنت الشاطىء(١)

أعني بالعيد هنا: عيد الأمومة، ذلك الذي استوردناه من الغربيين، ونقلنا عنهم يومه المختار للاحتفال به وبعض طقوس هذا الاحتفال، ثم أضفنا إليه من عندنا ضجة إعلانية في الصحف والمجلات، حيث تنتهز المتاجر هذه الفرصة، فتتفنن في الإعلان عن هدايا للأمهات ترويجاً للبضاعة.

وتهلل الصحف لهذه المناسبة، لأنها تتيح لها الكسب الماديّ بالثمن الذي تقبضه من المعلنين، وهو ثمن غال تضيفه المتاجر إلى سعر البضاعة، ثم تزيد عليه مبالغ أخرى نظير ما تتكلفه في تنسيق الهدايا في واجهات المتاجر، وتغليفها تغليفاً أنيقاً، وربطها بشريط من الحرير الزاهي البراق.

وإلى جانب هذه الضجة الإعلانية ضجة أخرى عن أخبار احتفال بالعيد يقام هنا أو هناك، تدق له الطبول والأجراس، وتؤخذ صور منه للنشر، نرى فيها السيدة فلانة أو السيد علان أثناء التفضيل بتقديم أكياس من الحلوى إلى نزلاء الملاجىء ممن فقدوا أمهاتهم، أو للأمهات المسكينات في الأحياء الشعبية المنبوذة.

ولا يخلو الأمر من نشر صورة تلفزيونية للسيد الكريم وهو يتنازل

---

(١) هي عائشة بنت عبدالرحمٰن. أديبة مصرية. لها مصنفات عديدة. توفيت سنة ١٤١٩ رحمها الله تعالى.

فيصافح غلاماً مسكيناً، أو للسيدة صاحبة المقام العالي وهي تتواضع فتربت على كتف أم فقيرة، أمام عدسات التصوير التلفزيونية.

على هذا النحو نحتفل بعيد الأمومة: صور، وإعلان، وانتهاز للفرصة، وترويج للتجارة.

أو هكذا مسخنا عيد الأمومة عندنا، في احتفالنا به على هذا النحو في اليوم الحادي والعشرين من مارس كل عام نقلاً حرفياً من الغرب، وليتنا مع ذلك ندرك مغزى اختيار الغرب لهذا اليوم في مستهل الربيع حيث يتفتح الكون، وتدب الحياة في الكائنات إيذاناً ببعث جديد من الأكفان الثلجية التي تكفنها في الشتاء.

ومن ثَمَّ يذكرون في هذا البعث الأمومة، واهبة الحياة وصانعة البشر!

أجل نقلنا العيد من الغرب بيومه وطقوسه دون أن ندري أن لنا عيدنا الأصيل، يأتي كل عام في موعده الذي لا يتخلف ونحتفل فيه بالأمومة على مدار السنين، منذ ما لا يُحصى من دهور وأحقاب.

الزمان: قديم موغل في أعماق الماضي السحيق.

والمكان: «مكة» عندما كانت قفراً يَباباً[1] في الوادي الأجرد، لا يعمرها إنس، وإنما تلم بها بين حين وآخر جماعات من الرعاة، يحطون رحالهم عند أطلال البيت العتيق، التماساً للراحة والبركة، ثم لا يلبثون أن يشدوا الرحال ويضربوا في تيه الصحراء بحثاً عن مساقط الغيث ومنازل المطر.

في تلك البقعة المهجورة، وفي ذلك الزمن الغابر وراء التاريخ، جاء إبراهيم عليه السلام يسعى من الشمال ومن ورائه هاجر تحمل في حضنها وليدها إسماعيل.

خرج إبراهيم من أرض كَنعان، ضارباً في طريق الجنوب إلى البلد

---

(١) خراباً: «المعجم الوسيط»: ي ب ب.

العتيق ومن ورائه الأم «هاجر» مهزولة في أعقاب نفاسها، منصرفة عن التفكير فيما كان ويكون بهذا الصغير الرضيع الذي يسكن إلى حضنها فينسيها كل الدنيا.

عند أطلال البيت العتيق حط إبراهيم رحله، ثم تهيأ للعودة من حيث جاء، تاركاً هاجر وولدها، مع جراب فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

وأدارت هاجر عينيها في هذا التيه القفر فسألت مرتاعة:

ـ أتتركنا هنا بهذا القفر الموحش؟

قال:

ـ بلى.

فأمسكت هاجر عن الكلام برهة، ثم سألت سيدها إبراهيم:

ـ آلله أمرك بهذا؟

أجاب:

ـ بلى.

قالت:

ـ إذن فالله لن يضيعنا!

ولم تزد.

وسار إبراهيم منصرفاً، حتى إذا بلغ ثنية الوادي رفع رأسه إلى السماء وقال في ضراعة وابتهال:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

ومضى، وظلت هاجر تتبعه عيناها حتى غيَّبه منعطف الوادي، فأقبلت على وليدها تستمد منه الأنس في وحشتها والقوة على احتمال محنتها.

حتى نفد الزاد الضئيل الذي تركه لها سيدها «إبراهيم» ونفد الماء.

وخفَّ ثديها فلم يعد يَبِضُّ بقطرة[1].

إذ ذاك بدا لها أن تبحث هنا وهناك عن شيء يمسك الحياة على طفلها، فراحت تضرب فيما حول الأطلال دون أن تهتدي إلى شيء.

وسعت إلى جبل الصفا فعرجت إلى قمته لتشرف من علٍ على الوادي، لعلها تلمح من بعيد أثراً لحياة، ولا أثر.

وهبطت من الصفا وسعت مهرولة إلى المروة فصعدت وحدقت فيما حولها لعل أحداً غيرها يضرب في التيه، ولا أحد.

وأعادت الكرة.

ظلت تسعى مهرولة بين الصفا والمروة مرتين وثلاثاً وسبعاً، حتى وهنت قواها وهدها اليأس، فارتمت إلى جانب طفلها، لكنها لم تقوَ على احتمال رؤيته وهو يلهث ظمأ، والحياة تتسرب من كيانه اللطيف.

«وغطت وجهها بلفاعها، وقالت: لا أنظر موت الولد»، ثم استسلمت لما يقضي به الله.

وتفتحت السماء لمشهد الأم فيما تكابد من هموم أمومتها، وتجلت رحمة الله، فتفجر نبع زمزم وهرولت الأم إلى النبع، فارتوت وسقت وليدها، وردت الروح إلى الطفل وأمه، وبعثت الحياة في الوادي الأجرد، وقد استجاب الله لدعاء إبراهيم.

أقبل قوم من الرعاة من جُرهم، يضربون في التيه قريباً من موضع هاجر وإسماعيل، فما لمحوا الطير مُحوماً على المكان حتى أيقنوا أنه لا يحوم إلا على ماء.

(١) أي لم يرشح: انظر «المعجم الوسيط»: ب ض ض.

ونزلوا حيث نزلت الأم هاجر واستقروا حول نبع زمزم، فعمر بهم المكان الموحش، وشب إسماعيل فأصهر إلى جرهم من العرب العاربة الأصيلة، وبدأ تاريخ جديد لمكة والعرب منذ تلقى إسماعيل وأبوه إبراهيم العهد الإلهي بإعداد البيت العتيق لعبادة الله:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

من ذلك العهد السحيق، دخلت هاجر تاريخنا الديني، فكان مسعاها مهرولة بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[2].

وهاجر لم تدخل هذا التاريخ بشيء ما سوى هموم أمومتها، فما كانت سوى أمة منبوذة غريبة عن الأهل والوطن.

وتمضي الدهور والأحقاب، والأم هاجر ملء الحياة، فكلما دار عام القمر دورته وأهل عيدنا الأكبر، سعى الألوف من الحجيج بين الصفا والمروة مهرولين سبعة أشواط، كما سعت هاجر من قبل التاريخ!

وهاجر هي أم العرب العدنانية، من بني ولدها إسماعيل، ومنهم بعث محمد بن عبدالله الهاشميّ القرشيّ العدنانيّ المصطفى خاتماً للأنبياء.

(١) سورة البقرة: الآيات ١٢٥ ـ ١٢٨.

(٢) سورة البقرة: آية ١٥٨.

ونحن المسلمين لا يكمل لنا ديننا حتى نحج بيت الله، وهناك يتكرر المشهد الحيّ لذكرى الأم الخالدة.

في مكان بعينه بين الصفا والمروة، وبالحركة نفسها: هرولة بينهما سبعة أشواط.

وفي موعده الذي لا يتخلف، من عام القمر على مدار السنين من قديم بعيد وإلى الأبد.

ذلك هو عيد الأمومة عندنا، شعيرة من شعائر الله..

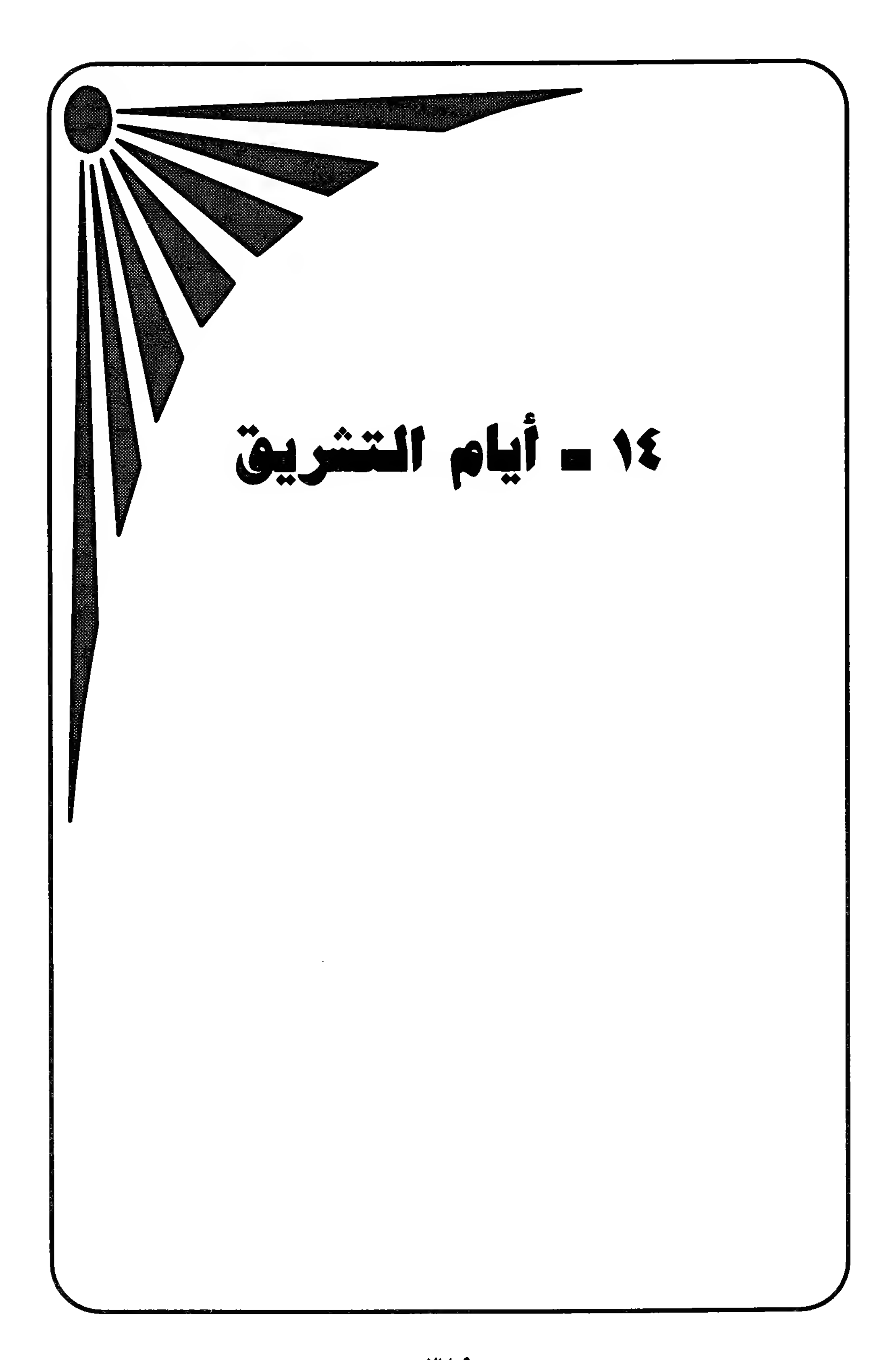
فكيف جاز لنا أن نغفل عنه ونستبدل به هذا العيد الطارىء المجلوب، قد مسخت فيه حقيقة عيدنا فصار إلى ضجة إعلان وبريق صُوَر وسوقاً للبضاعة.

وإنه لفي تاريخنا: دين وشعيرة مقدسة.

ألا هل بلغت، اللهمَّ فاشهد[1].

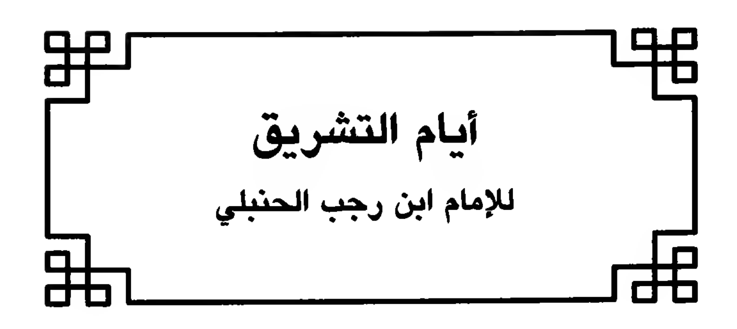


(١) مجلة «الوعي الإسلامي»: السنة الأولى، العدد ١٢، ذو الحجة سنة ١٣٨٥، ص: ١٨ ـ ٢١ بتصرف يسير.



١٤ ـ أيام التشريق





أيام التشريق

للإمام ابن رجب الحنبلي

خرّج مسلم في صحيحه من حديث نُبيشة الهذليّ أن النبي ﷺ قال: «أيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ».

أيام منى هي الأيام المعدودات التي قال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾[1] وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهي أيام التشريق، ثم يوم النفر الأول وهو أوسطها ثم يوم النفر الثاني وهو آخرها، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[2] قال كثير من السلف: يريد أن المتعجل والمتأخر يغفر له ويذهب عنه الإثم الذي كان عليه قبل حجه إذا حج فلم يرفث ولم يفسق ورجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ فتكون التقوى شرطاً لذهاب الإثم على هذا التقدير، وتصير الآية دالة على ما صرح به قول النبي ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وقد أمر الله تعالى بذكره في هذه الأيام المعدودات كما قال النبي ﷺ: «إنها أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ»، وذكر الله عزَّ وجلَّ المأمور به في أيام التشريق أنواع متعددة منها: ذكر الله عزَّ وجلَّ عقب الصلوات المكتوبات بالتكبير في أدبارها، وهو مشروع إلى آخر أيام التشريق عند جمهور العلماء.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٠٣.

ومنها ذكره بالتسمية والتكبير عند ذبح النسك، فإن وقت ذبح الهدايا والأضاحي يمتد إلى آخر أيام التشريق عند جماعة من العلماء. وأكثر الصحابة على أن الذبح يختص بيومين من أيام التشريق مع يوم النحر وهو المشهور عن أحمد وقول مالك وأبي حنيفة والأكثرين.

ومنها ذكر الله عزَّ وجلَّ على الأكل والشرب؛ فإن المشروع في الأكل والشرب أن يسمي الله في أوله ويحمده في آخره، وفي الحديث عن النبي ﷺ أن الله عزَّ وجلَّ يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها.

ومنها ذكره بالتكبير عند رمي الجمار في أيام التشريق، وهذا يختص به أهل الموسم.

ومنها ذكر الله تعالى المطلق فإنه يستحب الإكثار منه في أيام التشريق، وقد كان عمر يكبر بمنى في قبته فيسمعه الناس فيكبرون فترتج منى تكبيراً، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إلى آخر الآية[1]، وقد استحب كثير من السلف كثرة الدعاء بهذا في أيام التشريق، قال عكرمة: كان يستحب أن يقال في أيام التشريق ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2] وعن عطاء قال: ينبغي لكل من نفر أن يقول حين ينفر متوجهاً إلى أهله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ خرَّجهما عبد بن حميد في تفسيره، وهذا الدعاء من أجمع الأدعية للخير، وكان النبي ﷺ يكثر منه. قال الحسن: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة، وقال سفيان: الحسنة في الدنيا العلم والرزق الطيب، وفي الآخرة الجنة.

والدعاء من أفضل أنواع ذكر الله عزَّ وجلَّ وقد روى زياد الجصاص

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٠١.

عن أبي كنانة القرشي أنه سمع أبا موسى الأشعريّ يقول في خطبته يوم النحر: بعد يوم النحر ثلاثة أيام التي ذكر الله، الأيام المعدودات، لا يرد فيهن الدعاء فارفعوا رغبتكم إلى الله عزَّ وجلَّ.

وفي الأمر بالذكر عند انقضاء النسك معنى؛ وهو أن سائر العبادات تنقضي ويفرغ منها وذكر الله باق لا ينقضي ولا يفرغ منه، بل هو مستمر للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وقد أمر الله تعالى بذكره عند انقضاء الصلاة قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[1] وقال في صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾[3]. روي عن ابن مسعود قال: فإذا فرغت من الفرائض فانصب، وعنه في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ قال: في المسألة وأنت جالس، وقال الحسن: أمره إذا فرغ من غزوه أن يجتهد في الدعاء والعبادة، فالأعمال كلها يُفرغ منها والذكر لا فراغ له ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع، المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه، وعليه يبعث.

قال ذو النون: ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا الآخرة إلا بعفوه، ولا الجنة إلا برؤيته:

بذكر الله ترتاح القلوب ... ودنيانا بذكراه تطيب

إذا ذكر المحبوب عند حبيبه ... ترنح نَشْوان وحَنَّ طروب

فأيام التشريق يجتمع فيها للمؤمنين نعيم أبدانهم بالأكل والشرب، ونعيم قلوبهم بالذكر والشكر، وبذلك تتم النعم، وكلما أحدثوا شكراً على النعمة كان شكرهم نعمة أخرى فيحتاج إلى شكر آخر، ولا ينتهي الشكر

---

(١) سورة النساء: آية ١٠٣.

(٢) سورة الجمعة: آية ١٠.

(٣) سورة الشرح: الآيتان ٧، ٨.

أبداً:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر

وفي قول النبي ﷺ إنها أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ إشارة إلى أن الأكل في أيام الأعياد والشرب إنما يستعان به على ذكر الله تعالى وطاعته، وذلك من تمام شكر النعمة أن يستعان بها على الطاعات، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالأكل من الطيبات والشكر له، فمن استعان بنعم الله على معاصيه فقد كفر نعمة الله وبدَّلها كفراً، وهو جدير أن يُسْلبَها، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعَها فإن المعاصي تزيل النِّعم
وداوم عليها بشكر الإلٰه فشكر الإلٰه يزيل النِّقم

وخصوصاً نعمة الأكل من لحوم بهيمة الأنعام كما في أيام التشريق، فإنه هذه البهائم مطيعة لله لا تعصيه، وهي مسبحة له قانتة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] وإنها تسجد له كما أخبر بذلك في سورة النحل وسورة الحج، وربما كانت أكثر ذكراً لله من بعض بني آدم، وفي المسند مرفوعاً: «رب بهيمة خير من راكبها وأكثر لله منه ذكراً» وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن كثيراً من الجن والإنس كالأنعام بل هم أضل، فأباح الله عزَّ وجلَّ ذبح هذه البهائم المطيعة الذاكرة له لعباده المؤمنين حتى تتقوى بها أبدانهم وتكمل لذاتهم في أكلهم اللحوم، فإنها من أجلِّ الأغذية وألذِّها مع أن الأبدان تقوم بغير اللحم من النباتات وغيرها لكن لا تكمل القوة والعقل واللذة إلا باللحم، فأباح للمؤمنين قتل هذه البهائم والأكل من لحومها ليكمل بذلك قوة عباده وعقولهم، فيكون ذلك عوناً لهم على علوم نافعة وأعمال صالحة يمتاز بها بنو آدم على البهائم، وعلى ذكر الله عزَّ وجلَّ وهو أكثر من ذكر البهائم، فلا يليق بالمؤمن مع هذا إلا مقابلة هذه النعم بالشكر

(١) سورة الإسراء: آية ٤٤.

عليها والاستعانة بها على طاعة الله عزَّ وجلَّ وذكره حيث فضل الله ابن آدم على كثير من المخلوقات، وسخر له هذه الحيوانات، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] فأما من قتل هذه البهيمة المطيعة الذاكرة لله عزَّ وجلَّ ثم استعان بأكل لحومها على معاصي الله عزَّ وجلَّ ونسي ذكر الله عزَّ وجلَّ فقد قلب الأمر وكفر النعمة، فلا كان من كانت البهائم خيراً منه وأطوع:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وتتعب فيما سوف تكره غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

وإنما نُهي عن صيام أيام التشريق لأنها أعياد للمسلمين مع يوم النحر فلا تصام بمنى ولا غيرها عند جمهور العلماء، خلافاً لعطاء في قوله إن النهي يختص بأهل منى، وإنما نهي عن التطوع بصيامها سواء وافق عادة أو لم يوافق، فأما صيامها عن قضاء فرض أو نذر، أو صيامها بمنى للمتمتع إذا لم يجد الهدي ففيه اختلاف مشهور بين العلماء، ولا فرق بين يوم منها ويوم عند الأكثرين إلا عند مالك فإنه قال في اليوم الثالث منها يجوز صيامَه عن نذر خاصة، وفي النهي عن صيام هذه الأيام والأمر بالأكل فيها والشرب سر حسن؛ وهو أن الله تعالى لما علم ما يلاقي الوافدون إلى بيته من مشاق السفر وتعب الإحرام وجهاد النفوس على قضاء المناسك شرع لهم الاستراحة عقب ذلك بالإقامة بمنى يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وأمرهم بالأكل فيها من لحوم نسكهم، فهم في ضيافة الله عزَّ وجلَّ فيها لطفاً من الله بهم ورأفة ورحمة، وشاركهم أيضاً أهل الأمصار في ذلك لأن أهل الأمصار شاركوهم في حصول المغفرة والنَّصَب لله والاجتهاد في عشر ذي الحجة بالصوم والذكر والاجتهاد في العبادات، وشاركوهم في حصول المغفرة وفي التقرب إلى الله تعالى بإراقة دماء الأضاحي فشاركوهم في أعيادهم، واشترك الجميع في الراحة في أيام الأعياد بالأكل والشرب كما اشتركوا جميعاً في

(١) سورة الحج: آية ٣٦.

أيام العشر في الاجتهاد في الطاعة والنصب، وصار المسلمون كلهم في ضيافة الله عزَّ وجلَّ في هذه الأيام يأكلون من رزقه ويشكرونه على فضله، ونهوا عن صيامها لأن الكريم لا يليق به أن يجيع أضيافه، فكأنه قيل للمؤمنين في هذه الأيام: قد فرغ عملكم الذي عملتموه فما بقي لكم إلا الراحة، فهذه الراحة بهذا التعب، كما أريح الصائمون لله شهر رمضان بأمرهم بإفطار يوم عيد الفطر، ويؤخذ من هذا إشارة إلى حال المؤمنين في الدنيا فإن الدنيا كلها أيام سفر كأيام الحج، وهو زمان إحرام المؤمن عما حرم الله عليه من الشهوات، فمن صبر في مدة سفره على إحرامه وكفّ عن الهوى فإذا انتهى سفر عمره ووصل إلى منى المنى فقد قضى تَفَثه ووفى نذره فصارت أيامه كلها كأيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله عزَّ وجلَّ وصار في ضيافة الله عزَّ وجلَّ في جواره أبد الأبد، ولهذا يقال لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[1] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾[2] وقد قيل إنها نزلت في الصوام في الدنيا:

وقد صمت عن لذات دهري كلها ... ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

قال بعض السلف: صم عن الدنيا، وليكن فطرك الموت:

فصم يومك الأدنى لعلك في غد ... تفوز بعيد الفطر والناس صوم

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها غداً بعد وفاته، ومن تعجل ما حرم عليه من لذاته عوقب بحرمان نصيبه من الجنة وفواته، شاهد ذلك: من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير لم يلبسه في الآخرة:

أنت في دار شتات ... فتأهّب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم ... صمته عن شهواتك

---

(١) سورة الحاقة: آية ٢٤.

(٢) سورة الطور: آية ١٩.

وليكن فطرك عند اللّـ ـهِ في يـوم وفـاتـك

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[1] الجنة ضيافة الله أعدَّها للمؤمنين نزلاً، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبعث رسولَ الله ﷺ يدعو إليها بالإيمان والإسلام والإحسان، فمن أجابه دخل الجنة وأكل من تلك الضيافة، ومن لم يجبْ حُرم، خرج الترمذي عن جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذناك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بناء وجعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه، فالله تعالى هو الملك، والدار هي الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول الله، مَن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها» وخرجه البخاري بمعناه، ولفظه: «مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، والدار الجنة، والداعي محمد ﷺ».

في بعض الآثار الإسرائيلية يقول الله تعالى: «ابن آدم: ما أنصفتني. أذكرك وتنساني، وأدعوك إليَّ فتفر مني إلى غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت منعكف على الخطايا، ابن آدم: ما يكون اعتذارك غداً إذا جئتني».

طوبى لمن أجاب مولاه ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾[2]:

يا نفس ويحك قد أتاك هواكي — أجيبي فداعي الحق قد ناداكي
كم قد دعيت إلى الرشاد فتعرضي — وتجيبي داعي الغَي حين دعاكي

(١) سورة يونس: آية ٢٥.
(٢) سورة الأحقاف: آية ٣١.

كل ما في الدنيا يذكر بالآخرة، فمواسمها وأعيادها وأفراحها تذكر بمواسم الآخرة وأعيادها وأفراحها؛ صنع عبدالواحد بن زيد طعاماً لإخوانه فقام عتبة الغلام على رؤوس الجماعة يخدمهم وهو صائم، فجعل عبدالواحد ينظر إليه ويسارقه النظر، ودموع عتبة تجري فسأله بعد ذلك عن ذلك حينئذ فقال: ذكرت موائد الجنة والولدان قائمون على رؤوسهم فصعق عبدالواحد.

أبدان العارفين في الدنيا وقلوبهم في الآخرة:

جسمي معي غير أن الروح عندكمُ فالجسم في غربة والروح في وطنِ

أعياد الناس تنقضي، فأما أعياد العارفين فدائمة، قال الحسن: كل يوم لا تعصي الله فيه فهو لك عيد. جاء بعضهم إلى بعض العارفين فسلَّم عليه وقال له: أريد أن أكلمك، فقال: اليوم لنا عيد، فتركه ثم جاء يوماً آخر فقال له مثل ذلك، ثم جاء يوماً فقال له مثل ذلك، فقال له: ما أكثر أعيادك، قال: يا بطال، أما علمت أن كل يوم لا تعصي الله فيه فهو لنا عيد؟

أوقات العارفين كلها فرح وسرور بمناجاة مولاهم وذكره فهي أعياد، وكان الشبلي ينشد:

إذا ما كنت لي عيداً فما أصنع بالعيد

جرى حبك في قلبي كجري الماء في العودِ

وأنشد أيضاً:

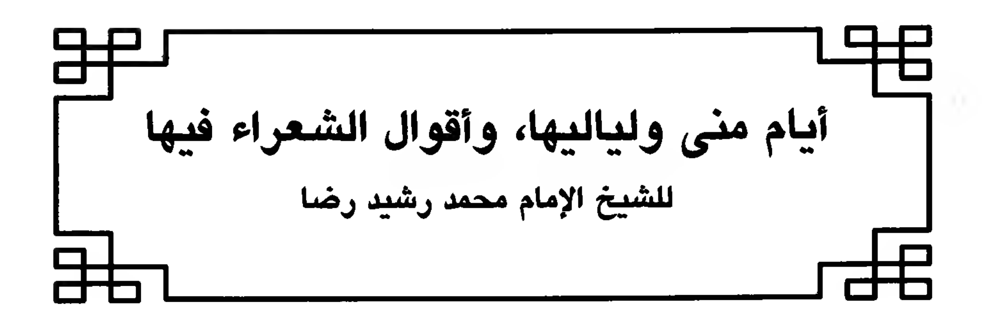
عيدي مقيم وعيد الناس منصرف والقلب مني عن اللذات منحرفُ

ولي قرينان ما لي منهما خلفٌ طول الحنين وعين دمعها يَكِفُ[1][2]

❋ ❋ ❋

(١) يسيل.

(٢) «لطائف المعارف»: ٣٠٠ ـ ٣٠٧ بتصرف.



أيام منى ولياليها، وأقوال الشعراء فيها

للشيخ الإمام محمد رشيد رضا

نصوص الشرع في أيام منى:

قال عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[1] أجمع العلماء على أن الأيام المعدودات في هذه الأية هي أيام منى التي تسمى أيام التشريق، قيل إن سبب تسميتها بذلك أنهم يشرّقون فيها لحوم الأضاحي أي يقددونها ويبرزونها للشمس، وقيل لأن الهدايا والضحايا لم تكن تنحر فيها إلا بعد شروق الشمس، وقيل هو مأخوذ من قول الجاهلية: أشرق ثبير، كما نغير. أي ادخل يا ثبير في الشروق لكي نسرع في الدفع إلى منى للنحر، ذلك بأنهم كانوا لا يفيضون من المزدلفة إلى منى إلا بعد شروق الشمس ووقوعها على جبل ثبير أعظم تلك الجبال، فأمرنا بمخالفتهم بالإفاضة قبل الشروق.

والجمهور على أن هذه الأيام هي الثلاثة التي تلي يوم عيد النحر وأدخله بعضهم فيها، ولكن تخيير المتقي بين التعجل في يومين أو التأخر إنما هو في أيام منى الثلاثة التي بعد يوم العيد.

وشعار هذه الأيام من الذكر التكبير ويستحب رفع الصوت به والاشتراك فيه عقب الصلوات وفي عامة الأوقات والأمكنة، فقد روى

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٣.

سعيد بن منصور وأبو عبيد «أن عمر رضي الله عنه كان يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منه تكبيراً»وذكره البخاري في الصحيح تعليقاً. وأصح ما ورد في صيغته ما أخرجه عبدالرزاق بسند صحيح عن سلمان قال: «كبروا: الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً» وروي عن الصحابة والتابعين التكبير ثلاثاً ومرتين وزيادة التهليل. والظاهر أن النبي ﷺ لم يأمر الناس بصيغة مخصوصة في التكبير والذكر في العيدين وأيام منى، كما أنه لم يأمرهم بأذكار وأدعية معينة في الطواف والسعي والوقوف بعرفة ليأتي كل فرد أو جماعة بما شاؤوا، فلا بأس إذاً بما استحدث الناس من الذكر وصيغ التكبير مما لم يرد عن السلف وإن أشار بعض العلماء إلى استنكاره لذلك كأنه يراه من البدع باستحداث صفة لعباده تعد من الشعائر، وهو ما سماه بعضهم بالبدعة الإضافية. وإنما يتجه هذا إذا التزموه جهراً بغير زيادة ولا نقصان، ويتأكد إنكاره إذا صار بحيث تظن العامة أنه واجب أو مندوب بهذا الوصف، وقد ذكر الإمام الشافعي في «الأم» أن التكبير المشروع في العيدين هو كلمة «الله أكبر» وأن التثليث في بدئه مستحب وأن لكل أحد أن يزيد من الذكر ما شاء.

كلمة تاريخية أدبية في أيام منى:

سمعنا من الشريف في منى كلمة جديرة بالحفظ والتدوين، قال: كانت أيام منى أول الإسلام من أطيب أيام الحياة ـ أي لما تقدم بيانه من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية ـ فلما قربت المواصلات بين الأقطار الإسلامية البعيدة صار ينتقل الوباء إلى الحجاز مع الحجاج الموبوئين فيكون أشد فتكه عند اجتماع الناس في منى، فصارت أيام منى أيام غم وكدر يتعثر الناس فيها بالموتى في كل مكان، وتعد الحكومة لها الألوف من الأكفان، ونحمد الله أنه لم يمت فيها أحد في هذا العام، لا بمرض وبائي ولا بمرض عادي. اهـ بالمعنى.

أقول من الشواهد المؤيدة لهذه الكلمة التاريخية كثرة ذكر منى في أشعار المتقدمين الغزلية والتغزل بالنساء عند رمي الجمار فيها، وندرة مثل

ذلك في غيرها من المشاعر، وعند غير رمي الجمار من الشعائر؛ ذلك بأن ما تقدم لنا شرحه من تأثير الإحرام ولباسه في القلب وتأثير رؤية المشاعر العظام والطواف بها والوقوف فيها ـ أيضاً ـ كل ذلك مما يصرف الحاج عن كل ما عداه، ولا يدع في قلبه فراغاً واسعاً لغير ذكر الله، لا ذكر الحسان، ولا ذكر الأهل والولد والإخوان، فالتجلي الإلٰهي في جميع المشاعر أثناء أداء جميع المناسك تجلي هيبة وجلال، إلا منى فإن التجلي فيها تجلي أنس وجمال، ولا تنس من تحلل الحاج فيها من الإحرام، واستباحته ما كان محرماً من الأعمال، وكونها أيام عيد يستحب فيها التمتع بالطيبات، وزد على ذلك أن لياليها هي الليالي التي يكمل فيها نور القمر، وأن هواءها اللطيف يحبب إليك السمر:

لهف نفسي لليالٍ سلفت ... آه لو ترجع هاتيك الليالي
لا تقل لي بمنى تعطى المنى ... بمنى كان من القوم انفصالي

❋ ❋ ❋

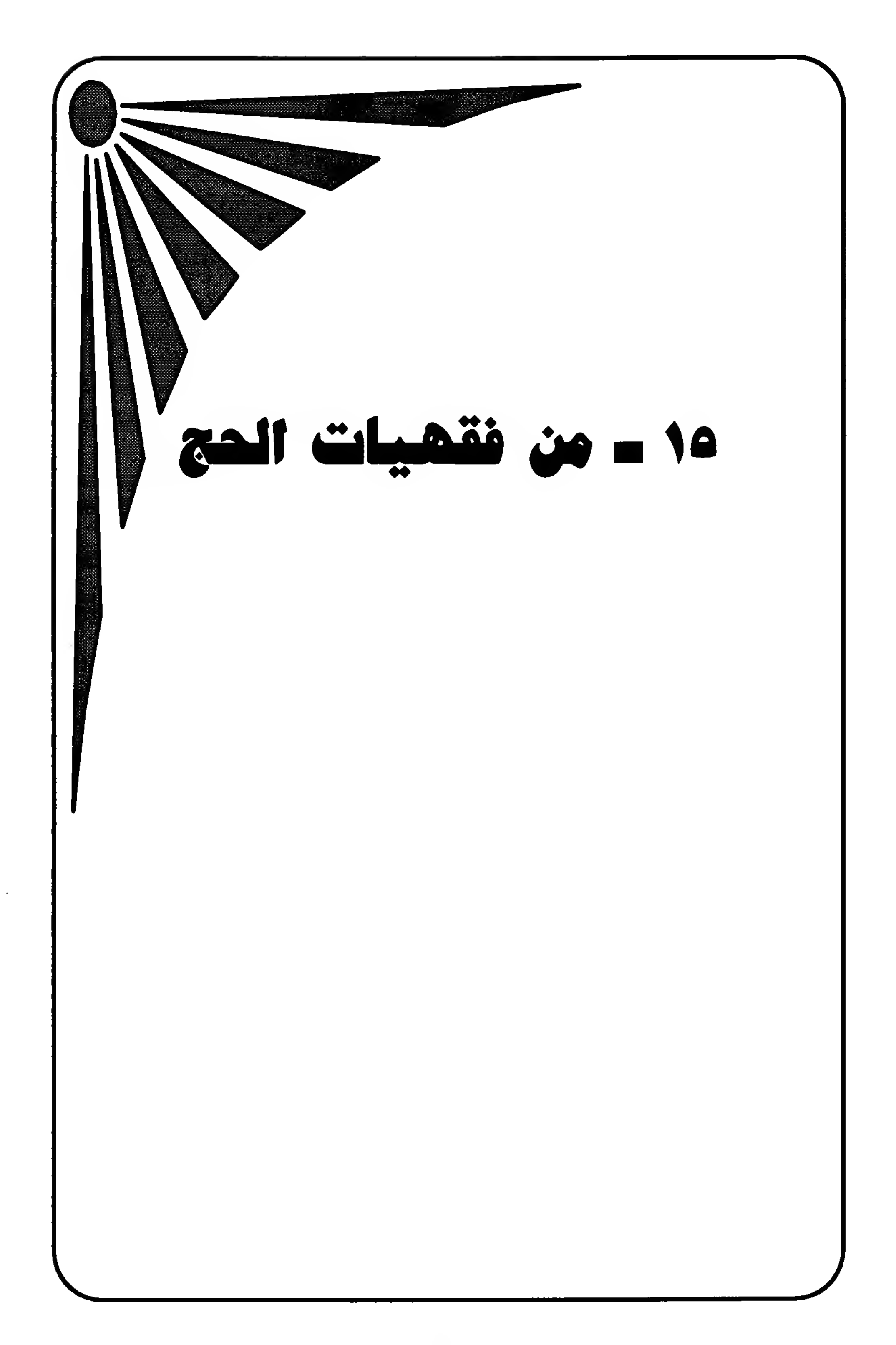
صحبي مضوا فمدامعي ... منهلة في أثر صحبي
ما فوّق الهجران سهـ ... ـماً فانثنى عن قصد قلبي[1]
كلا ولا نادى الجوى ... إلا وكنت أنا الملبِّي[2]
ولقد وقفت على منى ... لولا المنى لقضيت نحبي[3]

❋ ❋ ❋

---

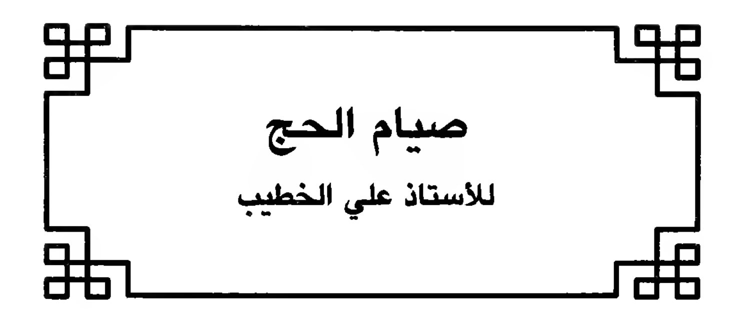
(١) فوّق: أي ما وجّه الهجران سهماً إلا وأصاب قلبه.
(٢) الجوى: الحُرقة وشدة الوَجْد من عشق أو حُزن: وانظر «لسان العرب»: ج و ى.
(٣) مجلة «المنار»: الجزء ٢٠، ص: ٣١٦ ـ ٣٢٨ بتصرف.





١٥ ـ من فقهيات الحج





صيام الحج

للأستاذ علي الخطيب

صيام رمضان فرض عام ينتظم المسلمين جميعاً فلا يخص فرداً دون آخر ولا جماعة دون جماعة؛ بل يشمل كل مسلم مكلف ذكراً كان أو أنثى، فيناط به أداؤه ويجب عليه التزامه فهو ـ إذن ـ طاعة عامة يرجو المؤمن بأدائها ثواب الله ومغفرته، وليس قربة خاصة يواجه بها المسلم أو المسلمة خطأ معيناً لتكفره له وتمحوه عنه، وصيام رمضان ـ من جهة أخرى ـ لا يستعاض عنه، ولا يستبدل به شيء غيره طالما كان المخاطب به مكلَّفاً لم يرتفع عنه التكليف، فهو في مقامه طاعة عامة واجبة ثابتة مدى الدهر.

وفي هذه الكلمة عرض لصيام آخر يختلف عن صيام رمضان في الناحيتين:

فهو من ناحية ليس طاعة عامة شاملة يخاطب بها كل مكلف من المسلمين والمسلمات، بل هو قربة خاصة يلتزم بأدائها فرد أو أفراد وقعوا في أخطاء معينة فكان هذا الصيام شفيعهم في محو هذه الأخطاء التي ارتكبوها في ظروف خاصة.

وهو من ناحية أخرى ليس الكفارة الوحيدة في بابها؛ بل تقف إلى جواره كفارات أخر يجد المسلم فيها تنويعاً يرفع عنه الحرج ويتلاقى مع طاقته فيقبل على ما يستطيع أداءه منها.

وهناك ستة من أنواع الصوم في الشريعة الإسلامية يلازمها هذان الوصفان:

ثلاثة منها تستوعب شؤوناً دينية ـ كلها في الحج، وهي التي نتحدث عنها في هذا المقال ـ، وثلاثة أخر تستوعب شؤوناً اجتماعية لا تعتبر أخطاء في عبادات، وإنما هي أخطاء في علاقات المسلمين بعضهم ببعض، وهذه أصوام الحج:

١ ـ صيام التمتع:

فترة الإحرام التي يؤدي أثناءها المحرم شعيرة الحج أو العمرة يتجنب فيها وجوباً كل شيء يتنعم به أو يزال به عن النفس أذى، ولذلك فهو يكتفي في جانب الثياب بقطعتين منها لشراء أسفله وأعلاه وينتعل من ألوان الأحذية ما كان غير ساتر لقدمه كنعل يكشف عن أجزائها[١]، وفي جانب التنعم ليس له أثناء الإحرام أن يحلق شعره أو يقصره أو يتعطر، كما عليه أن يتجنب النساء.

وفترة الحرمان هذه من الناس من يطيلها اختياراً حيث يقبل عليها طائعاً كل أشهر الحج[٢] ابتداء من شوال إلى الثالث أو الرابع عشر من ذي الحجة، برغم أن الشريعة رخصت في أمرها وسهلت فيه حتى أن الحاج يستطيع أن ينوي الإحرام بحجه ويؤدي أركانه كاملة تاسع ذي الحجة فيطوف ويسعى ويقف بعرفة فيقضي محرماً خمسة أيام على الأكثر.

فأما الإحرام بالعمرة فلا يستغرق وقته أكثر من نصف نهار، ولا تختص العمرة بزمن، فأي أيام السنة صالح لأدائها.

---

(١) قال الأستاذ: «سئل رسول الله ﷺ: ما يلبس المحرم؟ قال: لا يلبس المحرم القميص، ولا العمامة ولا البرنس، ولا السراويل ولا ثوباً مسّه وَرْسٌ، ولا زعفران، ولا الخفين إلا أن يجد نعلين فليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين». اهـ الحديث رواه الجماعة ص٢ ج٥ نيل الأوطار طبعة أولى: المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٧هـ. الورس الوارد في الحديث نبات أصفر طيب الرائحة يصبغ به.

(٢) قال الأستاذ: للحج أشهر معلومات، روى البخاري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: وأشهر الحج التي ذكرها الله تعالى: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة. اهـ بخاري: شرح القسطلاني ج٣ ص١٣٦ ـ ١٣٨.

والناس في الحج ضروب:

فمنهم من يستطيع أن يؤدي ـ في أشهر الحج ـ حجاً فقط لا عمرة معه، ويعرف في مصطلح الفقهاء بالمفرد لأدائه شعيرة واحدة.

ومنهم من يستطيع فيها أو في غيرها من شهور العام أداء عمرة فقط فهو أيضاً «مفرد».

وثالث يستطيع أن يؤدي الحج والعمرة معاً بعمل واحد، لا ينفرد فيه الحج عن العمرة، ولا العمرة عن الحج بعمل، ويسميه الفقهاء «قارناً».

ورابع يستطيع في أشهر الحَج أن يحرم بعمرة، ويؤدي شعائرها في أقل من نهار ثم يتحلل ويظل حلالاً يتمتع بما حرم على غيره من طيب، وزوجة، وزينة، وملبس إلى أن يحل الثامن أو التاسع من ذي الحجة فيحرم بحج، ويعرف في عرف الفقهاء بـ «المتمتع».

وواضح أن الثالث والرابع قد اكتسب فرصة، وأسقط مشقة، وخرج من ضيق إلى سعة.

فالثالث إذ قرن الحج بالعمرة لم يتكلف عبء عملين، واستفاد بنهجه ذاك إسقاط مشقة ما كانت لترفع عنه لو أفرد الحج عن العمرة.

والرابع وجد فرصة تمتع خلالها في أشهر الحج بما لا يتمتع به «الفرد» دون رَهَق أو وصب، وكلٌّ قد أدى الواجب لم ينقصه شيئاً.

والذين أحرموا مع رسول الله ﷺ في حجته الشهيرة في السنة العاشرة من الهجرة حجة الوداع كان فيهم من أفرد حجاً ومن أفرد عمرة، ومن قرن حجاً بعمرة، وقد تيسر لكل ما نوى.

غير أن التيسير يقابله تكليف واجب يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٦.

نصت الآية الكريمة على ما يجب في التمتع، والقِران يشاركه في إسقاط المكلفة وعبء العمل، ففيه أيضاً متع ولذلك قاس الفقهاء القارن على المتمتع، ووجب على الأول ما وجب على الآخر..

والواجب على المتمتع والقارن هنا أحد أمرين، يجب الثاني منهما إذا لم يتيسر الأول:

١ ـ الهدي.

٢ ـ الصيام.

فأما الهدي فأيسره شاة أو ما شاء من النعم: إبل أو بقر أو غنم، يذبحها أو ينحرها بمنى أو مكة، وإن تفضل باختيار الأكثر لحماً، والأسمن شحماً لكان مستجيباً لدعاء الخير لأهل بلد غير ذي زرع.

وأما الصيام فعشرة أيام كاملة تؤدى على فترتين:

الأولى: صيام ثلاثة أيام منها في أشهر الحج، وما من شك في أن توزيعها على بساط أشهر الحج ليس فيه عسر أداء مطلقاً، ولا سيما والتتابع فيها ليس واجباً، فقط لا يصوم أحدها يوم الأضحى أو في اليومين بعده (١٠، ١١، ١٢ من ذي الحجة) وعليه أن يتمها قبل العودة لوطنه.

الثانية: سبعة أيام يصومها إذا استقر بوطنه: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم»[1]، أي بلدانكم، ولا تتابع واجب في هذه أيضاً، فدين الله يسر ومن كلٌ قدر طاقته، ولا مكان لفهم أحد أن الثلاثة إذا لم تتيسر بالحج تكون سبعة في الوطن فقد أرادها الله عشراً كاملة وقال: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ صدق الله العظيم.

---

(١) قال الأستاذ: ص ١٣٦ البخاري شرح القسطلاني ٣.

وللفقهاء حجة قوية في قياس القِران على المتعة وإلزام المتمتع والقارن بأحد الأمرين[1] ويذكرون في ذلك أن رسول الله ﷺ لم يكن في حجة الوداع مفرداً قطعاً، وإنما تمتع أو قرن، وقد ساق عليه الصلاة والسلام هدياً كما ذبح عليه السلام البقر عن نسائه وكن متمتعات[2].

وخرج عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إلى مكة حاجاً حتى إذا كان بالبيداء أهل بالحج والعمرة معاً، وقال: ما شأن الحج والعمرة إلا واحد. ثم اشترى الهدي من قديد، وعبدالله رضي الله عنه من أئمة الأمة القدوة.

٢ ـ صيام الصيد:

ونلم به هنا في إلمامة سريعة فقد أفضنا فيه في مقالنا السابق (الأرض الحرام)[3] وقد قلنا: إن سلام هذه الأرض الحرام استوجب ظواهر تحريمية ثلاثة هي:

١ ـ تحريم القتال فوقها.

٢ ـ تحريم اقتلاع نبات أو اقتلاع شجر مما ينبت بأصله فيها.

٣ ـ تحريم صيد أي حيوان بري متوحش لا يستأنسه الناس ولا يستأنس بطبعه شريطة ألا يكون مؤذياً، كذلك حرم التعرض لبيض ذي البيض منه.

فهذا الحيوان يحرم صيده على أي إنسان داخل الأرض الحرام سواء أكان محرماً أم غير محرم، كما يحرم صيده، أو المساعدة في صيده خارج الأرض الحرام على محرم، فإذا صاد محرم أو غيره صيداً منها داخل الحرم

---

(١) قال الأستاذ: لم يخالف هذا الحكم من العلماء إلا داود الظاهريّ فلم ير على القارن دماً ولا صياماً.

(٢) قال الأستاذ: يريد: ما شأن الحج والعمرة في العمل إلا واحد، راجع ص ٢١٦ ج٣ البخاري: قسطلانيّ.

(٣) قال الأستاذ: انظر عدد ذي القعدة من هذا العام.

أو صاده محرم خارج الحرم فعليه جزاء تقره محكمة من عضوين مسلمين عادلين عالمين بقانون جزاء الصيد الذي يتمثل في أحد الإلزامات الآتية:

١ ـ شراء حيوان مماثل في القدر والصورة، أو في القدر لهذا الحيوان التالف، يذبح في منى أو مكة للمساكين.

٢ ـ أو يقوِّم المقتول ـ يوم تلفه ـ بمكان التلف بطعام يوزع على مساكين المكان فيعطي كل منهم مُداً.

٣ ـ أو يصوم عن كل مد من هذه الأمداد يوماً في أي زمان ومكان يريد، وإذا انتهت الأمداد إلى كسرٍ صام عنه يوماً، والجاني مخير في اختيار ما يراه منها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾[1].

٣ ـ صيام الفدية:

قلنا: إن فترة الإحرام يتجنب فيها المحرم كل شيء يُتنعم به أو يزيل به عن النفس أذى، وذلك أن شعائر الحج تستوجب هذا الزهد كما تستعدي البعد تماماً عن الرفث والفسوق ومماراة الناس، قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ۗ﴾[2]، وإذا سعى المحرم إلى شيء مما حرم عليه أثناء فترة الإحرام ولم يكن مما يفسد حجه[3]، كأن يرتدي قميصاً أو يتعطر، أو يحلق شعره لزمته فدية من صيام أو صدقة أو نسك، يجب على الحاج أيها شاء، ولا تلزمه جميعاً:

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

(٣) قال الأستاذ: للحج مفسدات كالجماع ومقدماته.

فأما الصيام فأيام ثلاثة.

وأما الإطعام فلستة مساكين لكل مسكين مدان من القوت الغالب لأهل البلد الذي يخرج فيه تلك الصدقة فيملأ مجمع يدين متوسطتين لإنسان وسط مرتين[1].

وأما النسك فذبح لشاة أو أعلى.

ولا تختص الفدية بأنواعها الثلاثة بزمان أو مكان، فيجوز للحاج أن يصوم بمكة أو ببلدته، كما يجوز له أن يطعم أو يذبح بالمكان والزمان الذي يريد، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[2].

ونسوق هنا الحادثة الطريفة التي كانت سبباً في التوضيح والتفسير والبيان:

كان ذلك في العام السادس من الهجرة، والرسول ﷺ وصحبه في الطريق إلى مكة لأداء العمرة[3]، وفيهم الصحابيّ الجليل كعب بن عُجرة بن أمية البلوي حليف الأنصار رضوان الله عليهم وقد أحرم بعمرة، وقضى محرماً زمناً أمسك فيه على نفسه وضرب بزينتها، فمرَّ به رسول الله ﷺ وقد بلغه خبره، وقال له: «لقد أصابك بلاء» ثم دعا له بحلاق، وأمره رسول الله ﷺ بالفدية.

وفي هذه الحادثة نزلت الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[2].

---

(١) قال الأستاذ: يمكن استبدال ذلك بإعداد غداء وعشاء مساوٍ للمُدَّيْن لكل منهم عند المالكية.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٦.

(٣) قال الأستاذ: اعتمر عليه الصلاة والسلام أربعاً: عمرته التي صده فيها المشركون عن البيت من الحديبية، وعمرته بعدها بعام على ما صالحوه عليه، وعمرته حين قسم غنائم حنين من الجعرَانة، وعمرته مع حجه.

وتولى الرسول ﷺ شرح الفدية بصيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك بذبح شاة أو غيرها.

قال كعب رضي الله عنه في الآية: نزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة.

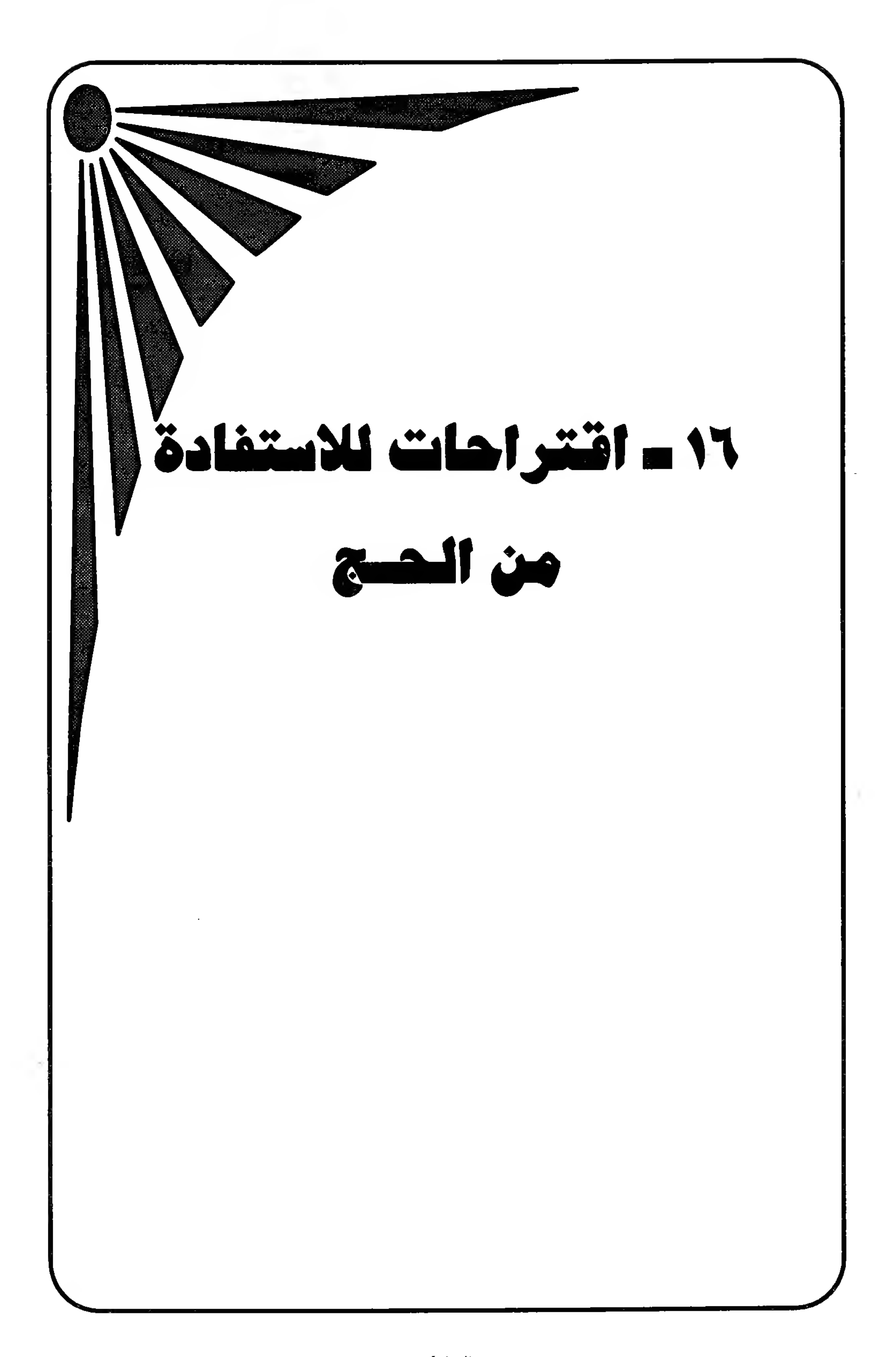
وبيان القرآن الكريم بدأ بالأسهل فالأسهل في جانب الطاقة المادية للمرء.

وحديث الرسول ﷺ لكعب إرشاد بتقديم الأفضل فالأفضل، والأفضل ما عم خيره الناس، لذا قال عليه الصلاة والسلام لكعب: انسك شاة أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام.

وفي كل خير، وقد نسك كعب بشاة[1].

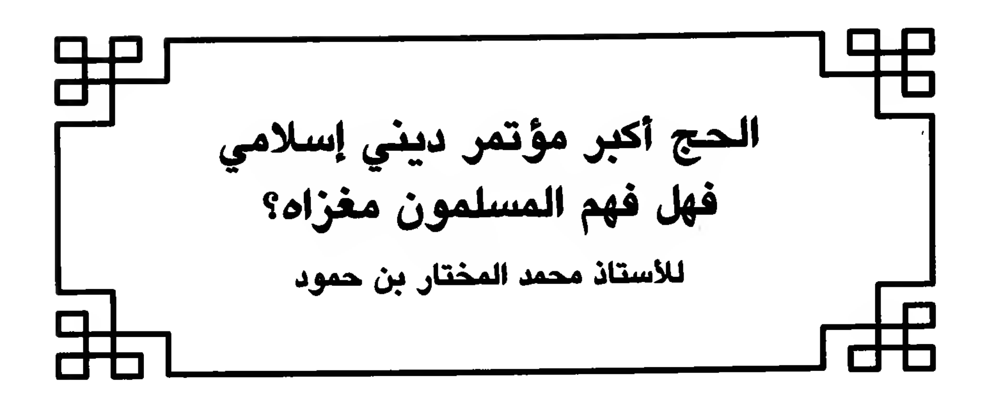


(١) مجلة «الأزهر»: الجزء العاشر، السنة التاسعة والثلاثون، ذو الحجة سنة ١٣٨٧ ص:٨١٨ ـ ٨٢٣ بتصرف يسير.



١٦ ـ اقتراحات للاستفادة من الحج





الحج أكبر مؤتمر ديني إسلامي فهل فهم المسلمون مغزاه؟

للأستاذ محمد المختار بن حمود

ما من شيء جاءت به هذه الشريعة الإسلامية إلا وفيه من الحكم والفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يقف عند حد.

فهي الشريعة التي لا تبلى جِدَّتُها، ولا ينفد مَعِينها، ومهما بعد العهد وتقادم الزمان إلا وتظهر للناس آياتها، وتبهرهم معجزاتها وتنكشف لهم أسرارها، وتشرق أنوارها.

فتأمل أيها الباحث الموفق في أي فرع من فروع الإسلام وفي أي جزئية من جزئياته، واهتدِ بنور الله فيما تقدم عليه من البحث والتأمل فإنك لا محالة ترجع وقد ملىء قلبك إجلالاً وإكباراً لهذا الدين القويم الذي له من كل شيء آية.

وسنحدثك في هذا الفصل عن فريضة من فرائض الإسلام وهي الحج، ونذكر لك ما يشتمل عليه من المصالح الدينية والدنيوية وفقنا الله جميعاً لأدائه، وسهَّل لنا سبيل الوصول إليه فنقول:

الإنسان في حياته مغمور في بحور الماديات، مشغول بها، صارف كل وقته وجهده في التحصيل عليها والمباهاة بها، والماديات تبعد الروح عن التلذذ بأهم ما خلقت له وهو التفكر في الحياة الأخرى والاتصال بالعوالم العلوية، والوصول إلى الحقيقة الكبرى التي هي مطمح أنظار العباد المقربين

إلى الله، تلك الحقيقة التي هي الانقطاع إلى الله، والإخلاص له في العبادة، والتقرب إليه بأنواع الطاعات والانصراف إلى جانب الله، وقصر الرجاء عليه، تلك الحقيقة التي تضمنها الحديث القدسيّ وأفصح عنها أيما إفصاح، وهي قوله كما في صحيح البخاري: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

فحياتنا المادية بجميع ما فيها من المظاهر تبعدنا عن هذه الحقيقة الكبرى، وتحول بيننا وبين الوصول إليها، مع أنها أهم شيء يجب أن نسعى إليه، ونحرص على حصوله.

فكان من عناية الله بعباده أن فرض عليهم أموراً تحول بين النفس وبين الاندفاع في تيار الشهوات المادية وترجعها شيئاً فشيئاً إلى منطقة تلك الحقيقة السامية حتى تكون متهيئة للرجوع إلى الجادة المثلى، والإحراز على ذلك الشرف الأسمى.

فرض الله الصلاة على عباده، وجعل الإنسان في صلاته يناجي ربه، وجعله في سجوده أقرب ما يكون من ربه، فكانت الصلاة بصورتها وبمعناها من أنفع ما يعالج به الإنسان نفسه ويهيئها لقبول الفتوحات الإلٰهية، ويقربها إلى مراتب الكمال.

ثم لما كانت الحياة المادية متغلبة على النفس، وكانت شيئاً محسوساً، وللمحسوسات تغلب وتطاول على المعنويات، فقد فرض الله تعالى على عباده شيئاً آخر لمقاومتها، وجعله من جنسها، حتى يكون من مقاومة المثل بالمثل، وذلك هو الحج إلى بيت الله الحرام.

فإذا كان الإنسان في حياته قد تعوَّد بالترف والبذخ في العيش والتفنن في أنواع الملاذ، والتنويع في الملبس والمأكل والتطيب، والاشتغال بالأمور التي فيها قضاء لشهواته وتنفيذ لأغراضه، وتعود بالراحة وتباعد عن كل ما فيه تعب لنفسه، فقد جاء الحج بمقاومة ذلك كله:

ففيه السفر، وركوب البحار، واقتحام الأخطار، وبذلك تتعود النفس على تحمل الأتعاب، وعدم الإخلاد إلى الراحة.

وفيه ترك المخيط من الثياب والاقتصار على ثوبين للتستر بقدر الحاجة، والرضا بما تيسر من الطعام والشراب، وبذلك تتعود النفس على مفارقة الحضارة التي تميت في النفس حاسية الإقدام والشجاعة، وتألف خشونة العيش وقوة العزيمة.

وفيه البعد عن الوسط الذي يعيش فيه الإنسان بمفارقة أقاربه وأحبابه، وعدم الاشتغال بتلك السفاسف التي كان يشغل بها أوقاته، وبذلك يتعود الإنسان الاستقلال في رأيه والاعتماد على نفسه.

وفيه التباعد عن فتن الحياة ولهوها ومجونها، والانصراف إلى الله في مكان ليس فيه ما يشغل عن الله، ولا ما يلهي عن ذكره، وبذلك تتعود النفس الطاعة والإخلاص في العمل، وصرف الأوقات فيما ينفع.

وفيه ظهور الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم بمظهر واحد، وعلى نمط واحد، وفي صعيد واحد، وبذلك يُمحى الغرور من النفس، وتشفى من داء التعاظم والكبر والرياء.

فكان الحج بما اشتمل عليه من هذه الأعمال والتكاليف أنجع دواء يعالج النفوس المريضة، ويصلح من شأنها، ويقاوم ذلك التيار المادي الذي كانت لا تشتغل إلا به، ويقربها من تلك الحقيقة العظمى.

فهذا معنى ما ذكرته من أن الحج فيه معالجة الداء بمثله، لأنه عبادة ذات أعمال كل واحد منها يقابل ناحية من نواحي الأعمال المادية الشاغلة للنفوس فيقضي عليها أو يهذبها.

ومن أجل ما في الحج من هذه المعاني السامية ـ التي قد أكون وُفِّقت إلى ذكر بعضها ولم أصل إلى كثير منها ـ اعتنى الشارع بأمره ونوه بشأنه، ورتب على فعله جزاء عظيماً، وجعله في صف واحد مع الجهاد في سبيل الله، ففي صحيح البخاريّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «شدوا الرحال في الحج فإنه أحد الجهادين».

وفيه عن أبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[1].

وفيه أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد حج مبرور».

وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2].

هذه فوائد الحج الدينية.

فأما فوائده الدنيوية ومقاصده الاجتماعية فالحج أعظم وسيلة لتعارف

---

(١) قال الأستاذ: معنى قوله حج مبرور أي لم يخالطه إثم، أو لو تقع فيه معصية، أو لا رياء فيه، ووقع تفسير الحج المبرور في حديث جابر المروي في مسند أحمد ونصه: قالوا: يا رسول الله: ما بر الحج؟ قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، لكن هذا الحديث حكموا على إسناده بأن فيه ضعفاً.

(٢) قال الأستاذ: الرفث: ـ بتثليث العين في الماضي والمضارع، وأفصحها أن يكون من باب نصر ـ معناه الفحش في القول، وقيل: معناه إتيان النساء، والفسوق معناه المعصية، وبقي الجدال لم يذكر في الحديث وهو مذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ ومعناه النزاع والتخاصم مع الرفقاء والمكارين، وقوله: «رجع كيوم ولدته أمه» أي رجع مشابهاً لنفسه في أنه يخرج بلا ذنب كما خرج بالولادة، وهو يشمل الكبائر والصغائر والتَّبِعات، قال ابن حجر: وهذا الحديث من أمتن الشواهد لحديث العباس بن مرداس الذي صرح فيه بتلك الأمور. وله شاهد آخر من حديث ابن عمر في تفسير الطبري. اهـ.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين: الأمر الأول أن المراد بالمعاصي التي تغفر بالحج: المعاصي التي بين الله وبين العبد، أما التي تكون ما بين العباد فإنها لا يغفرها إلا إرجاع الحق أو مسامحة المعتدى عليه.

الأمر الثاني أن المراد بالمغفرة الذنوب التي بين العبد وربه العفو عن إثم تأخيرها لا إسقاطها بالمرة، لأنها حقوق لا تسقط إلا بالفعل، فإثم تأخير العبادة المفروضة على العبد يسقط بالحج أما العبادة نفسها فلا تسقط إلا بالفعل؛ حتى أن من كان مطالباً بصلاة مثلاً ثم حج يجب عليه قضاؤها إثر الحج، فإذا أخرها بعده تجدد له إثم آخر، فالحج المبرور يسقط إثم المخالفة لا الحقوق، نبه على ذلك شراح البخاري.

الشعوب الإسلامية واتصالها ببعضها، فالمسلمون على تباعد أقطارهم، وتنائي ديارهم، وتشتتهم في جميع أنحاء الأرض هيأ الله تعالى لهم مؤتمراً دينياً عاماً يجتمعون فيه، فيقع بينهم أولاً التعارف الذي دعا إليه القرآن في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

ثم بعد ذلك التعارف يقع التحدث عن حالة كل شعب من شعوب الإسلام والبحث في تحسينها والنهوض بها إلى أعلى مراتب الكمال، وتبسط آمال كل شعب وآلامه، وتوضع البرامج لتحقيقها، ويكون كل شعب متهيئاً لإعانة بقية الشعوب بما في طوقه وبما يقدر عليه.

هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون في الحج، وهذه هي الفرصة التي هيأها الله لهم، فهل انتفع المسلمون بذلك؟ وهل فهموا هذا المغزى العظيم؟ وهل نظموا هذا المؤتمر الإلهي كما ينبغي أن ينظم حتى يقع استغلاله والانتفاع به؟ نستطيع أن نجيب بالنفي عن جميع ذلك؛ فالمسلمون لم ينتفعوا بهذا المؤتمر الانتفاع المطلوب. ولم يفهم هذا المغزى من الحج إلا القليل النادر منهم، ولم يكن أمر الحج في حالته الحاضرة منظماً بصورة تمكن من استغلاله وتعين على الانتفاع به.

ويرجع ذلك لعدة أسباب:

منها: أن المسلمين إذا ذهبوا للحج يبقى كل فريق منهم بعيداً عن الفريق الآخر، ولا يتمكن من الاجتماع به والتحدث معه بل ولا يقع حتى أصل التعارف.

ومنها أن المسلمين لغاتهم مختلفة؛ فمنهم من يتكلم بالعربية ومنهم من يتكلم بغيرها، والذين يتكلمون بالعربية لهم لهجات مختلفة، وألفاظ دخيلة من لغات متعددة، فهم بذلك لا يمكن لهم التفاهم، ولا نحتاج في إقامة الدليل على ذلك إلى شيء بعيد، فهذه الممالك الأربعة التي تعرف بالشمال الإفريقي، وهي تونس والجزائر وطرابلس الغرب والمغرب الأقصى ـ على

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

تقاربها من بعضها وتلاصق حدودها ـ لكل واحدة منها لهجة خاصة تخالف لهجة البقية، حتى أن التونسي والجزائري يعسر بينهما التفاهم إذا خرجا عن العربية الفصحى، فمن أجل ذلك كان التفاهم بين الحجاج متعذراً أو متعسراً.

ولكن مقاومة ذلك في غاية السهولة إذا صحت العزيمة على الانتفاع بهذا المؤتمر العظيم، وأمر ذلك موكول إلى الحكومة الحجازية التي على رأسها ذلك الملك المتبصر العادل الإمام عبدالعزيز بن السعود، فهي إذا أرادت ذلك أمكن لها تنفيذه من غير تعب ولا عناء.

وبما لكل مسلم من الحق في إبداء رأيه والإصداع بما يراه صواباً في تنظيم شؤون الحج، فإني سأتقدم باقتراح يتضمن برنامجاً عملياً مختصراً يتكفل بتنظيم هذا المؤتمر وتحقيق الأغراض السامية التي يمكن استغلالها منه، ويقع تنفيذه ابتداء من هذا العام حيث لا تزال في الوقت فسحة.

فنقول: ينبغي أن تكلف حكومة الحجاز هيئة تشرف على الحجاج القادمين من جميع الأقطار، وهذه الهيئة تحصي عدد البلدان التي قدمت منها وفود بقصد الحج، وتخاطب أهل كل بلد ليختاروا من بينهم أربعة يمثلون تلك البلاد، ويشترط في هؤلاء الأربعة أن يكونوا قادرين على التكلم بالعربية الفصحى ـ إن أمكن ذلك ـ ثم تعلن بتعيين يوم لانعقاد ذلك المؤتمر ومكانه وساعته، ويرأس هذا المؤتمر ملك الحجاز بنفسه، فإذا انعقد المؤتمر نودي على كل وفد بانفراده فيبسط للحاضرين حالة المسلمين في بلاده من جميع النواحي، ويعرض عليهم نقط الضعف التي عليها مسلمو تلك البلاد من ناحية الدين أو الاجتماع حتى يقع السعي في تداركها، كما يتعرض لحالة بلاده من ناحية الإنتاج، ويلفت نظر بقية الوفود إلى بعض المنتجات التي قد يكون للاطلاع عليها أثر في تحسين الحالة التجارية، وتقوية الارتباط الاقتصاديّ بين مختلف بلدان الإسلام، وليس في ذلك ما يخل بأمر الحج من ناحية كونه عبادة، فقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[1] أن المراد بالمنافع الدينية والدنيوية، واعتبر العلماء هذه الآية

---

(١) سورة الحج: آية ٢٨.

مرخصة للاتجار في الحج وعليه فيكون لهذا المؤتمر نتيجة دينية ودنيوية.

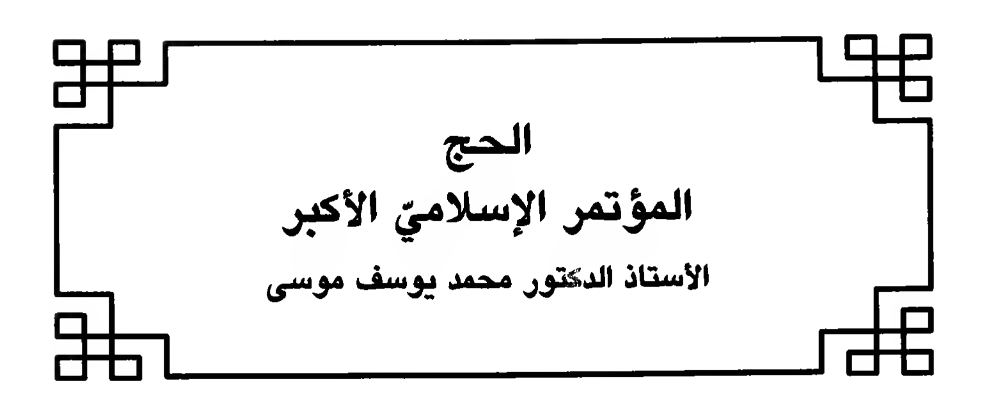
ثم بعد انتهاء المؤتمر يجتمع كل وفد بأهل بلاده ويعلمهم بخلاصة ما دار فيه من الأبحاث.

وبذلك تزداد الشعوب الإسلامية اتصالاً، وتقوى أواصر المودة والتعارف بينها، ولا يبقى الاتصال بينها أمراً صورياً ظاهرياً بدون روح، كما هو عليه الحال الآن.

هذا رأيي في هذا الأمر العظيم عرضته على عموم المسلمين، والذي اعتُقد أنه سينال رضا الجميع، وسيسعى كل واحد منهم في تحقيقه بقدر طاقته؛ لأن الدافع إلى عرضه عليهم هو المصلحة الكبرى التي أعتقد أننا نحصل عليها بتنظيم هذا المؤتمر على هذا الأسلوب ـ إن شاء الله ـ وإن ظهر للبعض منهم مخالفة في بعض إجراءات في البرنامج الذي عرضته سابقاً فليُدْلِ كل واحد برأيه وليكن هدفنا جميعاً خدمة الإسلام وترفيع شأن أهله بما بقي في طوقنا من الأعمال، وعلى الله بلوغ الآمال[1].



(1) «المجلة الزيتونية» الجزء الخامس، المجلد الأول، سنة ١٣٥٥.



الحج
المؤتمر الإسلاميّ الأكبر

الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

هذا الحج بالوضع الحاضر للبلاد الإسلامية، أيصلح حقاً أن يكون مؤتمراً عاماً للمسلمين ينعقد كل عام في البلاد المقدسة؟ وهنا أجدني، بعد أن رأيت هناك ما رأيت وتحققت ما تحققت، مضطراً للقول بأنه لا يمكن أن يكون المؤتمر المطلوب.

إن لكل بلد من بلاد الأمة الإسلامية مشاكله الخاصة التي قد لا يستطيع حلها وحده لو ترك لنفسه، فهو في حاجة ـ لهذا ـ للاستعانة بغيره من البلاد الإسلامية؛ وإن للعالم الإسلامي كله مشاكله العامة التي لا يكفي في حلها ـ كلها أو بعضها ـ الأساليب التي يتبعها الرجال الرسميون في الحكومات أو الجامعة العربية، لهذا وذاك لا بد من مؤتمر عام يعمل لعلاج هذه المشاكل على نحو آخر غير ما عرفنا حتى اليوم، ويشارك فيه ضرب آخر من رجالات الإسلام.

إلا أن ذلك يتطلب منا:

١ ـ أن تنتشر اللغة العربية وتعم جميع العالم الإسلاميّ.

٢ ـ أن ينشأ مكتب دائم لهذا المؤتمر في مكة والمدينة.

٣ ـ أن تتوفر، لدى من يقوم على هذا المكتب، النية الطيبة والإرادة الحازمة لعلاج هذه المشاكل.

١ ـ إنه من الواضح والبديهيّ وجوب تعميم اللغة العربية، حتى تكون اللغة الأولى لكل مسلم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، وبدون هذا لا يمكن التفاهم بين المسلمين والتشاور في كل ما ينوبهم من أمور ومشاكل تستحق النظر والعلاج من المسلمين جميعاً، وقد كان مؤلماً لي أشد الألم أن أرى بجوارحي بالحرم المقدس الأخ المسلم من تركيا أو إيران أو الهند أو الأفغان مثلاً، وأن يحس كلانا العاطفة الطيبة لأخيه والحاجة للتحدث معه، ثم لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً لجهله العربية.

وهناك في أمثال هذه المناسبات، تذكر مع الأسف المؤلم والحزن العميق أن الأستاذ الشيخ محمد حسن الأعظميّ الباكستانيّ لم ينجح فيما حاوله وبذل فيه كثيراً من جهده ونشاطه الكبيرين؛ أعني الاستعانة بمصر لتعليم العربية ونشرها بالباكستان، الدولة التي كان ميلادها أعظم فرح أحسَّ به العالم الإسلاميّ في هذه السنوات، لقد اجتمعت لهذا المهم الجليل لجنة عامة كبيرة بدار المجمع اللغوي بالقاهرة، وكنت أحد الأعضاء الذين دعوا لهذا الاجتماع الذي ضم كثيراً من رجالات مصر المعنيين بالشؤون الإسلامية العامة، وكان في مقدمتهم الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك[1]، وكنت أنتظر الخير الكثير من هذه اللجنة، ولكن ـ وما أمرَّ لكن ـ كان هذا الاجتماع الأول والأخير!

وفي مكة التقيت بأحد رجالات سوريا، هو الوزير المفوض بالباكستان، وهو يكاد يحترق لما يحسه من تخاذل المسلمين العرب وعدم عنايتهم بتعليم العربية ونشرها بالباكستان، لقد ذكر لي أن الباكستانيين يقولون في مؤتمر عقد في كراتشي هذا العام: لقد سئمنا من مد يدنا سنوات طويلة للمسلمين بشأن نشر اللغة العربية عندنا، وآن لنا أن نستجيب للجهة الأخرى التي تحاول بكل ما لها من قوة أن تجعلنا نتجه للاقتصار على الأوردية أو الإنجليزية!

---

(١) سبقت ترجمته.

إذاً على الجامعة العربية، على الحكومات الإسلامية، على العرب المسلمين، على هؤلاء جميعاً واجب مفروض، هو نشر اللغة العربية في البلاد الإسلامية بكل وسيلة، وأن يكون ذلك عاجلاً، وإلا كان من المستحيل أن يتفاهم المسلمون في أمورهم، وأن يكون الحج مؤتمراً عاماً لهم يعالج شؤونهم ومشاكلهم العامة.

٢ ـ ثم يجب أن يحدد كل عام المشاكل المهمة أو العاجلة التي تتطلب الحل، وأن يقوم كل قادر من رجالات الإسلام بنصيبه في علاجها ووضع حلول لها؛ وهذا يستلزم طبعاً أن يكون للمؤتمر مكتب دائم بمكة والمدينة، وبخاصة الأولى، لطول إقامة المسلمين بها، ولأن من المسلمين من يرى أحياناً أن يقتصر على الحج لهذا السبب أو ذاك.

ولعل من أول هذه المشاكل استحقاقاً للبحث والعلاج ـ إن أمكن ـ أن يُقوِّم هذا المؤتمر مشكلة كيف يتم الحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة بأقل ما يمكن من المتاعب والمشاق والتكاليف المالية؛ فقد والله عانينا من كل هذا هناك ما جعل البعض منا يفتون بأن الحج أصبح غير واجب في هذه الأيام وفي هذه الظروف على كثير جداً من المسلمين، هذه المشكلة التي تتطلب البحث العميق والحل السريع، تتناول كل ما يتصل بالحج من جميع النواحي: وسائل السفر؛ ورسم الإذن بدخول الحجاز لأداء هذه الفريضة المقدسة، هذا الرسم الفاحش غير المعقول الذي فرض على الحجاج أداؤه؛ أماكن الإقامة بمكة والمدينة؛ وسائل الانتقال وبخاصة من جدة للمدينة، هذا الطريق الذي يساهم ـ بما فيه من عربات لا تصلح لنقل الأناسي ـ في استشهاد كثير من الحجاج والزوار! ثم المرافق الصحية التي لا تعرف تلك البلاد لها وجوداً، أو على الأقل لا نعرف لها وجوداً على وجه يرضي ـ في أدنى الدرجات ـ الكرامة الإنسانية[١].

(١) لقد تغير الحجاز بعد هذه السنوات الخمسين وأصبح الحج ميسراً مسهلاً ولله الحمد.

٣ ـ وأخيراً، يجب أن تتوفر لدى حكومات الإسلام ورجالات العرب والمسلمين ـ الذين يقوم هذا المكتب والمؤتمر عليهم ـ النية الطيبة في الإصلاح والإرادة الصادقة لنجاح هذا المؤتمر في معالجة مشاكل العالم الإسلامي.

بدون هذا يكون الحج فريضة تسقط عن المسلم بأدائها، ولكن لا نكون قد اتخذناه وسيلة لغايات من أرقى الغايات، وأعظمها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين.

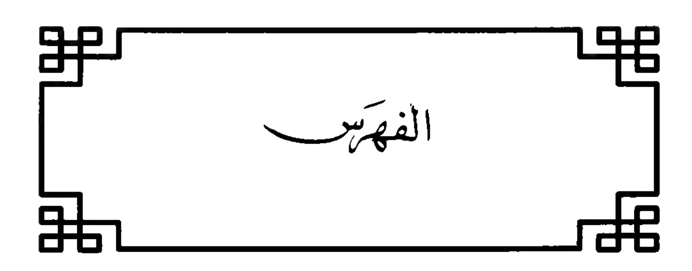
وقد يكون من الخير أن أشير هنا إلى أن الأزهريين أنفسهم الذين يحجون كل عام لا يجدون من القائمين على الأمر هناك ما يجب أن يجدوه من تيسير أداء رسالتهم الدينية التي يجب عليهم أداؤها في هذه البقاع المقدسة وفي تلك المناسبة الجليلة، بل إن وسائل التعارف بينهم وبين أمثالهم ممن يُعنون بالتوجيه الديني في موسم الحج تكاد تكون معدومة، وفي رأيي أنه يساعد في علاج هذه الناحية أن يكون هناك اتفاق سابق قبل موسم الحجج بين هذه البعثات الدينية، وبين الرجال الدينيين المشرفين على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة على نواحي التوجيه، ووسائله.

هذا، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل[١].



(١) مجلة «الأزهر»: المجلد ٢٢، صفر سنة ١٣٧٠، ص: ١٣٢ ـ ١٣٥ بتصرف.





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❃ ❃ ❃